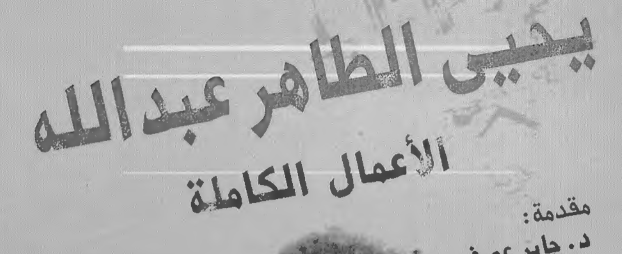
دار العين للنشر



يحيى الطاهر عبدالله

الأعمال الكاملة

مقدمة:
د. جابر عصفور



يحيى الطاهر عبد الله

الأعمال الكاملة

يحيى الطاهر عبد الله
الأعمال الكاملة

تقديم: د. جابر عصفور

الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥

دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل ، روض الفرج ، القاهرة
تليفون: ٤٥٨٠٣٦٠ ، فاكس: ٤٥٨٠٩٥٥
E.mail: elainco2002@yahoo.com

الغلاف: أحمد اللبـاد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٣٠٤٢ / ٢٠٠٥

يحيى الطاهر عبد الله

الأعمال الكاملة

دار العين للنشر

عالم يحيى الطاهر عبد الله

عرفت يحيى الطاهر عبد الله (١٩٣٨ - ١٩٨١) فى السنوات الأولى من السبعينيات . وكانت قصصه قد لفتت الأنظار إليه ، خصوصاً ضمن كتّاب الستينيات التى انتسب وإياهم إلى وعد جديد فى الكتابة المصرية ، وهو الوعد الذى حققه كل منهم على طريقته وأسلوبه النوعى ، فذهب جمال الغيطانى - مثلاً - إلى التاريخ المصرى فى العصرين المملوكى والعثمانى ، وأفاد منه صياغة رائعته « الزينى بركات » التى سبقتها « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » ، واختار صنع الله إبراهيم الكتابة عن عالم ما بعد الاعتقال ، مستعيداً ذكريات القمع وتأثيرها على الوعى فى « تلك الرائحة» ، بينما اختار مجيد طوبيا طريق الفانتازيا التى تتخللها عناصر السخرية ، واستقر محمد روميش فى حدود قرى الوجه البحرى لا يفارقها إلا فيما ندر ، ومضى إبراهيم أصلان فى اتجاه المفارقات الإنسانية لأبطاله المغتربين . أما يحيى الطاهر عبد الله فاختار العالم الذى يعرفه جيداً . وينتسب إليه فى قرية الكرنك فى مدينة الأقصر - أى طيبة القديمة - التى تقع فى أقصى جنوب مصر . وهى قرية منفية منسية كما يصفها ، ظل منطوياً عليها فى أعماقه ، لا يتباعد عنها إلا ليعود إليها بالكتابة ، كما لو كان يصنع منها وبها أسطورتها الخاصة التى هى أسطورته المنطوية على معانى النفى والاغتراب والعنف المكتوم والقمع السارى فى العلاقات التى لا تخلو من القهر الممزوج برغبات مكبوتة من سفاح المحارم .

وقد أكمل يحيى الثلاثى الذى جاء من أقصى الجنوب إلى القاهرة كالعاصفة الربيعية التى تحمل غبار الطلع . أعنى عبد الرحمن الأبنودى وأمل دنقل ويحيى الطاهر عبد الله . وقد ولد عبد الرحمن فى قرية أبنود فى العام نفسه الذى ولد فيه يحيى الطاهر عبد الله فى قرية الكرنك ، سنة ١٩٣٨ ، ولكن فى مدى جغرافى غير بعيد عن قرية قفط التى ولد فيها أمل دنقل سنة ١٩٤٠ ، وكانت مجاورة لقرية الأبنودى (أبنود) الذى ذهب وأمل إلى مدرسة واحدة ، فتزاملا وتصادقا ،

وعاشا معًا سنوات الطفولة والصبا ، وذلك قبل أن ينتقلا إلى مدينة قنا ليعملا فى محكمتها لسنوات خمس ، تخللتها فترات التجنيد ، عبد الرحمن الأبنودى كاتب جلسة ، وأمل دنقل محضر . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذت موهبة كل منهما فى التعبير عن نفسها وإعلان حضورها ، فاختار عبد الرحمن قصيدة العامية التى كان فؤاد حداد ، ومن بعده تلميذه النابه صلاح جاهين ، قد منحاها شرعية الوجود ، وقوة الحضور التى أغرت الأجيال الجديدة التى انتسب إليها الأبنودى بالمضىّ فى دربها وغوايتها الواعدة .

وربما كان اختيار عبد الرحمن للكتابة العامية نوعًا من التمرد على سلطة الأب الشاعر الذى كان ينظم شعراً عمودياً رصيناً ، لا يفارق عمود الشعر العربى القديم ، وله منظومتان مطبوعتان ، الأولى فى النحو كألفية ابن مالك ، والثانية فى مديح النبى ﷺ على غرار ، البردة ، للإمام البوصيرى . وكان الأب – الشيخ محمود الأبنودى – مأذون مدينة قنا ، يعقد قران راغبى الزواج منها ، محافظاً على ميراث الفقه الدينى ، وتقاليد القصيدة القديمة ، وذلك فى منزع نقله عنه وحافظ عليه ابنه الأكبر الشيخ جلال الذى مضى فى طريق الأب ، متفقهاً فى الدين ،شاعراً عمودياً فى الوقت نفسه ، وذلك فى نمط حياتى وسلوكى وثقافى ، وجده الابن الأصغر – عبد الرحمن – قيداً ، خانقاً ، فخرج عليه معلناً تمرده الذى تجسّد على نحو خلاّق فى الانحياز إلى الثقافة الشعبية بتلقائية إبداعها وعفويته ، وإلى قصيدة العامية التى كانت تمرداً إبداعياً موازياً لتمرد قصيدة الشعر الحر ومواكباً له ..

ولم يخل أمل دنقل من بذرة التمرد نفسها على سلطة الأب ، وكان خريج الأزهر ، يعمل مدرساً للغة العربية ، وأورث ابنه حب الفصحى التى بدأ النظم فيها منذ الصغر ، لكنه سرعان ما أعلن عن تمرده السلوكى والثقافى ، خصوصاً فى مدينة قنا التى جمعت ما بينه وعبد الرحمن ، فتزاملا ، من جديد ، فى الحلم الإبداعى والتمرد الفكرى الذى بدأت مسيرته من أقصى الجنوب إلى الإسكندرية فى أقصى الشمال ، حين ارتحل إليها أمل ، ملتحقاً بإحدى كليات جامعتها التى سرعان ما هاجرها ، عائداً إلى القاهرة ، ليلحق بالأبنودى ، ويكون قريبًا من الشعراء الذين تأثر بهم في صباه ، ابتداء من محمود حسن إسماعيل وانتهاء بأحمد عبد المعطي حجازي . وكان ذلك بعد أن لفت إليه الأنظار ، خصوصاً بعد أن فازت إحدى قصائده (العمودية) فى مهرجان الشعر الذى

انعقد بمدينة الإسكندرية سنة ١٩٦٢ ، وذلك بعد رحلة سنوات معدودة من النشر ، بدأت منذ سنة ١٩٥٨ فى مجلة « صوت الشرق » التى كانت تصدر بدعم السفارة الهندية فى قاهرة عبد الناصر .

ويلفت الانتباه – فى سياق التمرد على سلطة الأب – أن والد يحيى الطاهر – الشيخ الطاهر – كان أزهرياً من حفظة القرآن الكريم وحملة معانيه ، ونموذجاً لنمط ثقافى مشابه اقترنت الثورة عليه باكتشاف الذات لهويتها المستقلة ونزوعها الإبداعى المتميز . ولا أظن أن اختيار يحيى الطاهر عبد الله كتابة القصة القصيرة كان من قبيل المصادفة فى هذا السياق ، فقد كان فى البداية ناقداً قاسياً لشعر زميليه ، عبد الرحمن وأمل ، منطوياً على نزعة عقّادية تصله بعمه الحسانى حسن عبد الله الشاعر العمودى الذى ظل أحد دراويش عباس العقاد ، وواحد من أشد أعداء الشعر الحر الذى تمرد شبابه – صلاح عبد الصبور ،فوزى العنتيل وكمال نشأت وأحمد عبد المعطى حجازى – على القصيدة التى كان يكتبها العقاد وحواريّوه .

وظل يحيى الطاهر عبد الله يعنف بصديقيه أمل ،عبد الرحمن فى إبداعهما الذى كانا يعرضانه عليه بوصفه ناقدهما الأول . وظل الأمر على هذا الحال إلى أن ارتحل عبد الرحمن إلى القاهرة سنة ١٩٦٣ ، ولحق به يحيى بعد سنة ، مفاجئاً صديقيه القديمين بأنه اختار كتابة القصة القصيرة لا القصيدة مثلهما . لكنه استبقى من كليهما صفتى الحفظ والإنشاد ، فكان لا يكتب قصصه القصيرة على ورق ، وإنما فى رأسه ، ويحفظها ليقرأها على الآخرين من الذاكرة دون نسيان شىء، ودون أن يتغير فى القصة حرف عبر تكرار الحكى والإعادة . ،كان ظاهرة فريدة فى ذلك ، فلم أر قبله ولا بعده كاتب قصة قصيرة يحفظ أعمال الإبداعية ويحكيها شفاهة للآخرين ، ولا يسجلها على الورق إلا ليدفع بها إلى النشر فى جريدة أو مجلة أو كتاب .

وقد استمع يوسف إدريس إلى إحدى قصصه فى « مقهى ريش » الذى ظل لسنوات ملتقى كتّاب الستينيات ، فقدمه فى مجلة « الكاتب » التى كانت تصدر فى ذلك الوقت ، كما قدمه عبد الفتاح الجمل فى الملحق الأدبى لجريدة « المساء » القاهرية ، وأخذت الطليعة الثقافية تلتفت إلى كتابته ، وتجد فيها أفقاً إبداعياً مغايراً فى تفرده واختلافه ، وظل يحيى يقرأ على أقرانه وعارفيه قصصه فى مقهى « ريش » الذى نقل إليه نجيب محفوظ لقاءه الأسبوعى ، وافتتح فيه حواراً مفتوحاً مع أبناء الجيل الجديد الذين بدأت أعمالهم الإبداعية تلفت الانتباه إليها ، على نحو متصاعد ، منذ مطلع الستينيات ، وهو الحوار الذى لم يتوقف ، ولم يخل من حدة ، بين الأجيال السابقة التى ينتسب

إليها نجيب محفوظ ،يحيى حقى ويوسف الشارونى ويوسف إدريس ومحمد عبد الحليم عبد الله ورشاد رشدى وغيرهم ، على اختلاف أطيافهم ، والجيل المتمرد الذى انطوى على شعور مرهق بكارثة مقبلة ، ونفورٍ حدّى من عوالم الآباء التى كان لابد من التمرد عليها .

ولا أزال أذكر العدد الخاص الذى أصدرته مجلة « المجلة » التى كان يرأس تحريرها – فى ذلك الوقت – يحيى حقى عن « طلائع القصة القصيرة » فى شهر آب (أغسطس) ١٩٦٦ . وقد قرأت فيه للمرة الأولى الأسماء التي سرعان ما لمعت – مع غيرها – من أبناء جيل الستينيات : إبراهيم أصلان بقصته « بحيرة المساء » التى عقّب عليها بالتقييم النقدى شكرى عياد ، وضياء الشرقاوى « الحديقة » التى عقّب عليها محمد عبد الحليم عبد الله ، ويحيى الطاهر « الثلاث ورقات » التى عقّب عليها يوسف الشارونى ، ومحمد حافظ رجب « مخلوقات براد الشاى المغلى » التى عقّب عليها يحيى حقى نفسه . وكان العدد كله تقديماً وتمثيلاً لجيل الستينيات ومحاولة أولية لتقييمه ، خصوصاً من منظور الأجيال السابقة التى ضمت – إلى جانب يحيى حقى والشارونى وشكرى عياد،عبد الحليم عبد الله – زكى نجيب محمود ورشاد رشدى ونجيب محفوظ الذى عقّب على قصة جميل عطية إبراهيم « الحركة ودلالات الزمن » .

وكان واضحاً من التعقيبات الحوار غير المباشر بين رؤى الأجيال التى استقرت بأكثر من معنى وجذرية الجيل الجديد المندفع بتوهجه الإبداعى المتمرد على آباءه ، وذلك إلى درجة رفع شعار « نحن جيل بلا أساتذة » الذى لم يكن يعنى – فى واقع الأمر – سوى الرغبة الأوديبية فى إزاحة الأب – بكل معانيه – ليفرغ المدار المغلق للابن الذى يريد أن يفتحه ويجاوزه إلي آفاق مغوية. وأذكر أن إعجاب يوسف الشارونى بفكرة قصة يحيى الطاهر « الثلاث ورقات » التى رأى فيها ابتكاراً لم يمنعه من انتقاد لغة القصة ومفرداتها العامية وبعض تراكيبها الشفاهية التى تنتسب إلى لهجة يحيى الطاهر نفسه ، وكانت استجابة يوسف الشارونى ، المتذبذبة بين الإعجاب وعدم الإعجاب ، نموذجاً لغيرها من الاستجابات التى كانت تعكس تضاداً وجدانياً فى نظرة الآباء إلى الأبناء ، والأبناء إلى الآباء فى الوقت نفسه ، وأتصور أن هذا التضاد ، مضفوراً مع رغبة الاستقلال، هو المسؤول عن إصدار مجلة « جاليرى ٦٨» التى أرادها الستينيون منبراً مستقلاً عن سلطة الآباء والدولة على السواء .

ولم تجد « جاليرى ٦٨» ما يعوق صدورها فى العام اللاحق للعام الأسود الذى وقعت فيه كارثة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، والذى كان بداية الأعوام التى تراخت فيها قبضة النظام الناصرى القميعة ، فاتسعت هوامش حرية التعبير نسبياً ، وأتيح لكتّاب اليسار الذى انتسب إليه أغلب أبناء جيل الستينيات النشر فى الدار التابعة للدولة ، فصدرت أعمال عبد الحكيم قاسم (أيام الإنسان السبعة) والمجموعة الأولى ليحيى الطاهر عبد الله (ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالاً) سنة ١٩٧٠ ومجيد طوبيا (الأيام التالية ١٩٧٢) وأقرانهم الذين أصبح يطلق عليهم جيل الستينيات . وكان ذلك فى السياق الذى سعت فيه وزارة الإعلام العراقية ، تحت مظلة البعث العراقى ، إلى استقطاب كتّاب هذا الجيل ، فنشر يحيى الطاهر روايته الأولى « الدف والصندوق » سنة ١٩٧٤ وجميل عطية إبراهيم روايته « الحداد يليق بالأصدقاء » سنة ١٩٧٦ .

وقد شهدت السبعينيات تصدر كتاب الستينيات للمشهد الثقافى ، وذلك بعد أن اقترنت تسمية الجيل بسنوات الجمر التى شهدت انطلاق حركة السلام المعادية للحرب الفيتنامية بالولايات المتحدة فى مايو ١٩٦٨ ، وثورة الطلاب والعمال فى فرنسا فى نوفمبر ١٩٦٨ ، والثورة العارمة التى احتدمت في وجدان الشباب العربى الغاضب على الأوضاع التى أدّت إلى هزيمة ١٩٦٧ ، وهى الثورة التى وجدت تجسدها الإبداعى فى كتابة جيل الستينيات فى أكثر من قطر عربى .

وقد انتسب يحيى الطاهر إلى هذا الجيل الغاضب الذى تمرد على أشكال الكتابة القائمة والموروثة ، مستعيناً بالتجريب الذى اقترن بالبحث عن أشكال جديدة وخرائط إبداعية مختلفة ، وذلك بهدف مجاوزة الثنائية التقليدية بين الأصالة والمعاصرة ، وبين الطليعة المهمشة والجماهير العريضة التى حلمت الطليعة بتحريكها . وأتصور أن هذا هو السبب الذى جعل يحيى الطاهر عبد الله يختار الحكى الشفاهى لتوصيل قصصه التى احتفت بها الحياة الثقافية . وكان يبرر محاولته نقل فن الكتابة إلى فن القول بأنها بحث عن قاسم مشترك بينه والمجتمع ، مؤكداً – في حديث صحفي له – أنه إذا قال وأجاد القول سيجد من يسمعه ، ومن يتأثر به ، فهو يتعمد عدم الكتابة لأن أمته لا تقرأ . « وحين أقول يكثر مستمعىّ لأن الناس ليسوا صماً » . ولذلك كان يعلن ، دائمًا ، عن عدم إيمانه بمخاطبة المثقفين ، أو الاقتصار عليهم ، فما معنى أن يكتب برجوازى صغير لحفنة صغيرة من أمثاله . وما دامت الجماهير العريضة التى يكتب عنها الكاتب ويتوجه إليها لا تقرأ ما يكتبه لأنها منفية ومغتربة ومستلبة ، مثل الكاتب المتمرد على شروط الضرورة ، فمن الأجدى للكاتب أن يقول

وأن يحكى شفاهة ، حتى لو اضطر إلى تكرار هذا الفعل آلاف المرات بل « مائة ألف مرة لمائة ألف شخص » فيما قال بالنص .

ولا أزال أذكر مناقشاتى مع يحيى فى هذا الموقف ، وسخريتى منه بقولى : ولكنك تكتب – فى النهاية – ما تقرأ علينا وعلى غيرنا ، ولا سبيل إلى وصولك إلى الناس حقًا إلا عبر الكتابة التى تنشرها الصحيفة أو المجلة أو يجمعها الكتاب . وكنت أتّهمه بالمراهقة الفكرية بقدر ما كان يتّهمنى بالرجعية فى هذا الموقف تحديداً . لكنى أتصور أن النقاش حول مسألة التوصيل هذه قد قاده إلى آفاق جديدة لم تكن تخطر على باله فى بداية حماسته لاستبدال القول بالكتابة . وأظن أن ما انطوى عليه من رغبة فى التجريب ، مقترنة بعدم الاستكانة إلى شكل واحد ، قاده إلى ما رآه حلاً لمشكلة العلاقة بين الكاتب وجمهوره الذى تغلب عليه الأمية . وكان الحل قرين تركيز عدسة الكتابة على الفئات المهمشة المسحوقة فى المجتمع الطبقى الذى لا يعرف عدالة توزيع الثروة أو حقوق الإنسان ، كما كان الحل متصلاً باستلهام الخرافة الشعبية من ناحية ثانية . والإفادة من طرائق القص الشعبى من ناحية ثالثة . وأخيراً ، ابتداع صيغ جديدة من الحكى ، لا تخلو من معنى المعارضة ، ولا تتردد فى التحطيم المتعمد لحدود الزمان والمكان قصداً إلى خلق عوالم من التحولات التى يتبادل فيها الإنسان والحيوان المكانة والموضع . وقد تجلت هذه الحلول متتابعة ، متصاعدة فى أعماله التى تبدأ بمجموعته الأولى « ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالاً » (القاهرة ١٩٧٠) ثم « الدف والصندوق » (بغداد ١٩٧٤) و« أنا وهى وزهور العالم » (١٩٧٧) ، و«حكايات للأمير حتى ينام» (بغداد ١٩٧٨)، و« الطوق والإسورة » (القاهرة ١٩٧٥) ، و« الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة » (القاهرة ١٩٧٧) ، و« تصاوير من التراب والماء والشمس » (القاهر ١٩٨١) ومجموعة « الرقصة المباحة » المنشورة بعد موته ، ضمن أعماله الكاملة التى أصدرها أصدقاؤه عن دار المستقبل بالقاهرة سنة ١٩٨٣ وقد نفدت هذه الأعمال من الأسواق منذ سنوات طويلة . **ولذلك تعيد دار العين إصدارها تأكيداً لمكانة يحيى التى تصاعدت مع الزمن ، والشكر لدار العين على هذه الطبعة الجديدة .**

كانت قصة « جبل الشاى الأخضر » أول ما لفت انتباهى إلى كتابة يحيى الطاهر عبد الله . حفرت حضورها فى ذاكرتى بوصفها مثالاً دالاً على عالم يحيى الذى تجسّد – أول ما تجسد – بقرية كالكرنك وجسّدها بوصفها نموذجاً لأشباهها من القرى الغارقة فى الفقر والخرافة . وتحكى

القصة – كغيرها من قصص القرية – عن ناس أقصى الجنوب ، المهمشين الذين يعيشون فى علاقات عنف ، لا يفارق تجليات القمع الواقع من الأقوياء على الضعفاء ، أو تجليات التمرد الذى يرد به الضعفاء على الأقوياء ، خصوصاً حين يفيض الكيل ، أو يخلق القمع رد فعله الموازى له فى القوة ، والمخالف له فى الاتجاه ، ولا تخلو هذه العلاقات من المعتقدات الشعبية التى يشترك الجميع فى الإيمان بها ، والتى تتخلل المشاهد السردية ، أو تتحكم فى المصائر المعلقة بين استجابات حدِّية ، لا تعرف الهوادة ، أو التوسط أو التسامح . والتراتب الذى تنبنى عليه هذه العلاقات صارم كالسيف ، لا مفر منه كالقدر ، يدور حول سلطة عليا ، هى سلطة الجد الذى يختزل فى حضوره التقاليد المتوارثة ، والعادات المقدسة ، والسلطة الذكورية التى تهيمن على واقع المرأة التى تظل مهمشة فى عالم القمع الذكورى الذى يتوهج بالجمرات التى تهيمن على المشهد السردى الأول من « جبل الشاى الأخضر » .

والقصة تشمل التراتب الأسرى كله : الجد الذى يتصدر المشهد كالعمود الذى تستند إليه الخيمة المنبسطة على من فيها ، وبعده الأب ، ثم الأم التى تحمل رضيعها ، والجد يصب الشاى فى الأكواب من ثلاثة أباريق صغيرة ، تتحلق حول الإبريق الكبير الذى يتوسد الرماد كالجد الذى يتوسط أفراد الأسرة المتجمعة حول جمرات النار التى تتبادل والصغار ملامح الحضور ، ذلك الذى يتجسد فى الأباريق الصغيرة التى تحيطها عيون الجمر الملتهبة ، وتتسلق الإبريق الكبير حتى المنتصف ، وتتوهج على سطحه النحاسى شديد الاحمرار . ويتوتر المشهد بفعل عينى الجد اللتين تمسحان المكان ، وتحاصران الحفيد الذى يرتجف من الخوف ، فيلتهب وجهه مرتعبًا من كلمات الجد الذى يتهمه بأنه يبول على نفسه أثناء النوم رغم أنه لم يعد طفلاً ، وينسب ذلك إلى حبه للنار المشتعلة وولعه بالجمر الأحمر المتوقد . ولا يستطيع الطفل مواجهة كلمات جده القاسية إلا بالبكاء الذى لا يخفف من توالى اللسع الحار ، ومن ثم حضور النار التى تقترن – رمزياً – بتفجير الرغبة والتجدد ، والتمرد المصاحب لتولد الفعل المعرفى لوعى الذات بحضورها ، كما تومئ بجمراتها الصغيرة إلى الرغبات المقموعة التى تغلى فى النفوس كالماء فى براد الشاى ، باحثة عن مخرج ومتنفس . ويسرى فعل العنف الواقع كالعقاب ، ما بين الطفل الذى ينطوى على مبدأ الرغبة فى التمرد كالجمر المتوقد الذى يحبه ، والأخت التى تنطوى على المبدأ نفسه ، لكن فى موازيه الجنسى الذى يجعلها تحتضن عنق الجاموسة بكلتا ذراعيها وتمرجح ساقيها ، كى تحك فخذيها ببطن الجاموسة الأسود السخين ، غارسة أصابعها كخمسة مسامير على كل جانب . وتتحرك المشاهد

السردية فى « جبل الشاى الأخضر » مجسدة دلالات الرغبات التى تفور فى الأجساد ، مصطدمة بالسلطة العليا التى تفرض هيمنتها على الجميع بالعنف الذى يقمع النفوس التى تعرف طعم الدم والدمع والخوف ، ولكنها لا تتوقف عن التوهج بالرغبات الجامحة .

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تأتي – بعد قصة « جبل الشاى الأخضر » فى المجموعة الأولى ليحى الطاهر عبد الله – قصة « الكابوس الأسود » الذى يحصر القارئ فى المدار المغلق للعالم نفسه ، دافعًا إياه إلى أن يشعر ببرد الخوف فى المكان المحاصر بأسنان الرعب وكائن العراء الخرافى، وقد غطاه قوس الأفق الرمادى بعمامة خلت من الأقمار والنجوم ، فلا تشعر الحواس إلا بنشع البول ونطف الغرائز ، وترقد بيوت القرية كتلة فاحمة صماء ، بين ذراعى ضباب هامد من حيث الظاهر ، تحت قشرته الساكنة نساء متوحشات ، وأجساد عارية تلتف حولها الحيات ، وأنهار جارية بدم النفاس والولادة وليالى الطهور والزفاف . ويتفجر الدم فى مشاهد السرد ، ويلتف الرعب حول الأجساد المحاصرة بالكابوس الأسود ، حيث الأفعى العملاقة ، ملكة ملكات الجان التى تنهش بقوة السحر وقسوة العنف ، وننتقل من مشاهد الخوف والعنف ، فى القصص ، إلى ما يجانسها من مشاهد المرض والتشوه لنتوقف عند مشهد قتل ، مثلاً ، أو شروع فى قتل ، أو رغبة انتقام أو انتهاك، وذلك تحت عين شمس مملوءة بالجمر الأحمر ، تشعل الجدران ، وتترك الأرواح مرتعشة كفرخة مذبوحة بسكين حادة . والاغتراب كالخرافة التى لا تعمل معها « طاحونة الشيخ موسى » إلا بدم أطفال أبرياء أو مشايخ مرائين . وتتدافع المشاهد المشحونة بالعنف كعربة القطار التى تحمل الضحايا والجزارين ، غير خالية من عشق محارم ، يلتف على الكائنات كالحبل والسكين .

ولا نفارق هذا العالم إلا لنعود إليه ، كأننا لا نستطيع مفارقة « الجد حسن » الذى لا يخلو من ملامح « الخضر » المباركة التى تقترن بمعانى الخصوبة والنماء والعطاء ، كأنه صورة أخرى من أوزيريس بملامح شعبية إسلامية ، لا تخلو من دلالة الرموز العتيقة ، وذلك فى موازاة مفارقة المصير المحتوم المنتظر فوق « العالية » كالموت الذى يتربص بضحاياه ، غير بعيد عن الماء المسكون بالجن وأرواح الغرقى والقتلى ، فتتبادل الحياة والموت الحضور ، مقرونين بالرغبات المحرمة فى الأجساد التى تشبه جسد « فهيمة » التى لا تعرف طعم اللذة إلا مصحوباً بالألم ، كلما ضربها أخوها ، أو كلما أهاجته كى تشتعل ناره وتحمى فيضرب فى عنف . والموت هو الوجه الآخر من هذه الرغبات ، حيث يتبادل الإيروس والثاناتوس الموضع والفاعلية ، فتحتك الكائنات الزاحفة

مثل الحيات ، وتتلاقى فى الظلام ، كجمرات متقدة فى حضرة الجرم الأسود العارى المكشوف العورة ، غير بعيد عن شجيرات العدس الكثيفة المتشابكة التى ترقد داخلها جثة رجل فصل رأسه عن جسده بضربة واحدة قوية مباغتة . وفى بيت كبير ، فى قصة موازية ، يلسع وهج النار الجلد المكشوف لمريم ، فهيمة أخرى ؟ التى أرخت بصرها ، وهى ترى ظلال اللهب الرمادية تتطوح على فخذيها العاريتين ، متلصصة على حجرة الأم التى تعد ابنها لقتل قاتل أبيه الذى لابد أن يموت قبل أن يطلع النهار ، وقبل أن تندفع رغبة الأخت ، جارفة كالنار التى تلتهم كل حى ، فلا يبقى سوى الموت الذى هو الوجه الآخر من الرغبة التى تتفجر فى الجسد الذى لا يهدأ إلا بعد أن يصبح فريسة للدود النهم المحب للحم ابن آدم الذى لا يكف ، بدوره ، عن التذبذب ما بين نقيضين : الموت الذى يقبل كالعقاب ، والحياة التى تظل كالرغبة المحتجزة .ولا تفارق قصص يحيى الطاهر عبد الله ، فى تنوع مشاهد القرية فى السرد ، المدار المغلق لقرية الكرنك التى هى تمثيل لغيرها ، وموازيات رمزية لهذا المدار الذى ينطوى على الموت الذى يتسرب من بين شقوق السرد ، قرين العنف الذى يتفجر مع الرغبة أو فى مواجهتها ، غير مفارق تراتب العلاقات فى عالم المهمشين فى القرى التى قدمها يحيى الطاهر عبد الله بسحر الفن وأصالة الموهبة الحدّية التى لا تهادن فى انحيازها الطبقى من منظور رؤية العالم ، أو حتى من منظور المروى عليه المضمر فى حركة السرد الذى يتجسد بالمشاهد المتناظرة أكثر من الأحداث المتصاعدة بقانون السببية ، فالمروى عليه المستهدف من السرد يوازى المروى عنه فى العلاقات التى تحتشد بالجنس والموت ، وتتجسد فى لغة متدافعة ، صلدة ، كأنها ، فى قسوة دلالاتها ، المقابل اللغوى لقسوة الجنادل فى النيل الذى يحتضن قرى أقصى الجنوب ، أو المقابل اللغوى لتراتب البشر ، داخل العلاقات التى تظل ثابتة بين الفاعلين والمنفعلين . أقصد إلى العلاقات التى تظل تدور حول مركز لا تفارقه إلا لتعود إليه ، سواء كان يتجلى فى هيئة الجد – الذكر الأكبر ، أو هيئة الشعيرة الطقسية التى يؤديها حراس القرى : نعمتها ونقمتها فى آن . ولذلك يبقى يحيى على انحيازه إلى الفئات المسحوقة المهمّشة ، لا يفارقها فى القرى الغارقة فى الخرافة إلا إلى المدن الغارقة فى العنف ، وذلك عبر مشاهد ولوحات منتقاة بذكاء الموهبة المنحازة إلى موضوعاتها ، وفى تفاعل السياقات التى تصل بين قصص القرية وقصص المدينة التى تخلو من الخرافة ، وتتمايز بالتحولات التى يظل معها الأبطال تحت طائلة العقاب ، أو الشعور بالهوان والنبذ والاستغلال والقمع الذى لا تتوقف أفعال عنفه أو وحشية شخصياته التى تضرب بحقد وكره حتى

الموت ، فلا نفاذ في تجليات الموت التي تحول دون الرغبات وإمكان تحققها في عالم يتميز بحسيته البالغة .

وكما كانت قصص القرية تتميز بإحساساتها البصرية الحادة التي تضعنا في قلب المشاهد التي تشد إليها أعين الخيال ، واصلة بين الإحساسات البصرية وغيرها من الإحساسات بما يناقض التجريد ، ويؤكد الحسية العنيفة التي تتوتر بين النقائض التي نراها ونشمها ، ونكاد نلمسها ، تتميز قصص المدينة بالحسية نفسها ، لكن مع ابتعاد عن عناصر الخرافة الشعبية والمعتقدات البدائية . ولذلك تمتلئ قصص القرية وروايتها الوحيدة – وهي امتداد لإحدى هذه القصص – بشعائر رمزية ، ورقى سحرية ، وتعاويذ ، وكوابيس ، وتخاييل ، وكائنات خرافية ، مقترنة بتشبيهات تؤكد حضورها الذي لا تنفصل أوصافه عن البيئة الطبيعية في القرية وبحيواناتها ونباتاتها وكائناتها المنظورة وغير المنظورة ، حيث الجراح الراقدة كوزغة ملساء ، يحيطها العشب ، ورائحة القسوة العفنة كعشب الخبيزة ، والرغبة تطل برأسها كوعل نفر قرناه بفروعهما الجرداء كشجرتين معاندتين ، والبيوت تنقض على النفوس كما تنقض حوائط القبور على الموتى ، محاصرة بظلمة حالكة ، قد تلمع فيها نجمة مشتطة تحترق قبل أن تبلغ الأرض ، والليل يسقط خيمته السوداء الثقيلة التي ثبت أوتادها في الأرض ، في محاذاة الماء المسكون بأرواح الجن بأرواح القتلى والغرقى ، فلا نسمع صوتاً في المشهد المكتوم سوى صوت طائر يأتي من مكان بعيد ، أشبه بصرخة أم فقدت وليدها الوحيد ، أو صرخة موت من أعلى النخل ، حين تهب الريح القديمة التي عرفها الجدود ، لها حوافر وأعراف من نار ، تندفع كالخيل لما تجمع ، فتهدم البيوت وتحرقها ، وتأخذ أرواح البشر الصاعدين إلى أعلى النخيل . وتتضافر التشبيهات مع البيئة الطبيعية للقرية ، وذلك في السياقات التي تنبني على تكرار العناصر الأساسية نفسها : الرغبات المسجونة ، والعنف الساري في كل مشهد ، والموت الملازم لرغبة الحياة وعرامة عنفها . وهي العناصر التي تتكرر في مشاهد قصص المدينة ، لكن بعد إضافة رموز السلطة القمعية ، وأبرزها الشرطة ، واستبدال تعقد علاقات المدينة ومشاهدها بالخرافة الشعبية التي تحل محلها أليجوريات دالة ، لا يخلو بعضها من حضور المعارضة الساخرة .

وتغلب قصص المدينة على قصص القرية ، في كتابة يحيى الطاهر عبد الله ، ابتداء من مجموعة « أنا وهي وزهور العالم » (١٩٧٧) التي لا يخلو عنوانها من دلالات رمزية ، سرعان ما تؤكدها القصة الأولى – الشجرة – حيث أجهزة الأمن تقطع الطريق على المحبين ، وتحول بينهم

والتواصل الذى يتحول إلى حلم محتجز ، فلا يرى العاشقان شجرة لقائهما المحاطة بالزهور إلا بعد سنوات من الاعتقال . ولا نبتعد عن « الشجرة » إلا لنصطدم بالموت فى القصة التالية – اليوم الأحد – يتجسد فى سيارة « فيات سوداء » تصدم أحد العابرين الذى لا تبقى جثته المغطاة بأوراق الجرائد إلا قليلاً ، فسرعان ما يعود مشهد الميدان المزدحم بالعربات السوداء المسرعة ، كأنها فى اندفاعها القاتل لازمة من لوازم الموت الذى يقترن بدلالة عنوان القصة التالية « أنشودة الطراد والمطر » التى لا نفارق الموت فيها إلا لنواجهه فى القصص اللاحقة ، فتبدو المدينة كائناً أسمنتياً ، وحشياً ، مخيفاً، يؤكد « فانتازيا العنف القبيح » التى يقترن فيها القمع بالشعور المتكرر بأن البشر تحت طائلة العقاب الذى لا يملك المرء إزاءه سوى حِدّة الوعى بأنه مهان .

ولا تخلو « فانتازيا العنف القبيح » فى تجلياتها عبر بقية قصص المجموعة من تفاصيل كافكاوية ، لا تؤكد التأثر الثقافى بالكاتب التشيكى الذى ترك تأثيره ، فى كتابة جيل الستينيات المهوسين بالعنف والقمع ، بقدر ما تؤكد وحدة الملامح الرمزية التى تؤدى إليها الدوافع المتماثلة فى المعنى والدلالة ، فتتركز البؤر السردية على الكائن المتوحد الذي يطارده بشر ينظرون إلى ساعاتهم فور دخوله أى مكان ، ويعامله الكل المعاملة التى لا تليق بكلب . ورغم أن ملامح الكائن المتوحد المطارد لا تخلو من دلالات اغتراب القروى الجنوبى الضائع فى المدينة الكبرى ، بلا رفيق أو، مأوى أو شعور بالأمان ، فإن اغتراب هذا المتوحد الجنوبى يظل مقروناً بالانفعالات التى لا تفارقها وطأة الشعور بالمطاردة التى تجعل اليوم بألف سنة ، فيلتف الفزع على المغترب كالأكفان .

هكذا لا يبقى من عالم « أنا وهى وزهور العالم » إلا علاقة غير مكتملة ، يتحقق بها المدار المغلق على القمع نفسه ، متوتراً ما بين مبدأ الرغبة المقرون بالحلم ومبدأ الواقع المحاصر بزهور الموت السوداء . ولذلك ، فلا فارق ، جذرياً ، بين بكائية « العاشق إيليا » المتوحد – فى مجموعة «الرقصة المباحة» (المنشورة بعد وفاة يحيى) و« الدرس » الذى تعلمه البطل فى القصة التى تحمل العنوان نفسه فى المجموعة السابقة . فالمطاردة باقية ، والموت حاضر محسوس ، مثل ماسورة بندقية تضغط فوهتها على أعلى الظهر ، وانتظار الرصاصة هو الوجه الآخر من انتظار خلاص إيليا « أكثر أبناء الله ألماً على الأرض » الذى يتحول إلى مجلى معاصر للنبى القديم الذى يتجول من جديد فى مدينة قمعية معاصرة ، مصرية الملامح تماماً ، ينتشر فيها العنف كالوباء ، ولا تبقى على أحد ، حتى لو كان عاشقًا مثل إيليا ، فالعاشق المحكوم عليه ، من قبل أن نراه ، يعرف أن الاشتهاء

حرية مأمونة وإن كانت منقوصة ، كما يعرف أن الكل خائف ، ولا يدور حديث بين سكان المدينة القامعة المقموعة إلا عن المتاعب والفقر والسرقات والقتل ، فهم « يسفكون دم الإنسان كأنه ثور ، والحراس في جولاتهم بالليل والنهار يحاكمون ويحكمون ، وينفذون أحكامهم فوراً دون استئذان ، وهم يسيرون بصحبة الجلادين ، وما إن يصدر الأمر حتى يسقط رأس شيطان مسكين » .

هكذا لا يجتث العنف والقمع رغبات الكائن المطارد فحسب ، وإنما يطيح بحضور العاشق والعاشقة وزهور العالم التى تتفتت تحت أقدام العسكر السارى فى طرقات المدينة الموحشة ، فتبدو دلالة السخرية المضمرة فى العنوان لافتة ، كما يتحول العنوان إلى دال فقد مدلوله الذى لم يعد له معنى : لا مع الحراس الذين يغتالون الأبرياء ، ولا مع الأبرياء المقتولين الذين يتحولون إلى قتلة فى المفارقة التراجيدية للعنف الذى يبدو دالاً فى عناوين قصص من مثل « الغول » و« الجوع » و«البكاء» و« الخوف » و« الموت » . وهى عناوين تتحرك فى مضمار رمزى ، تنهبه مهرة سوداء ، صوتها قادم من صحراء لا يمكن النطق باسمها ، فى حضرة الشرطة التى تعابث الأرواح والمصائر ، وتأكل لحم ضحاياها نيئاً ومشوياً .

تستمر السخرية المريرة في كتابة يحيى الطاهر عبد الله عن المدينة ، التى لا تخلو من ملامح كافكاوية فى تفاصيلها الكابوسية ، ولكنها تتحول إلى معارضة ساخرة parody فى حـالة دالة ، لتؤكد خصوصية دوافعها ، وتواصلها مع تراثها السردى ، وانحيازها الطبقى إلى الفئات المقترنة بهوامش المدينة . ويلفت الانتباه عنوان « حكايات للأمير حتى ينام » فى هذا المسار . فهى حكايات لا تؤدى بمن يسمعها إلى النوم ، أو الراحة ، أو الاسترخاء ، فما فيها من دلالات قاسية ، وحقائق جارحة ، تستفز الوعى ، وتضعه فى مواجهة نقائضه التى تهدد أحلامه الفردية والجمعية . ولذلك لا تخفى دلالة الإشارة الماكرة فى العنوان الذى يلفتنا إلى رواية الكاتب الفرنسى أنطوان دى سانت إكسوبرى EXUPÉRY « الأمير الصغير » الشهيرة والمترجمة إلى لغات العالم ، وثلاث مرات إلى اللغة العربية على الأقل ، وذلك بحضور أميرها الذى تتجسد فيه صفات البراءة الطفولية والنقاء الملائكى والمغايرة الكاملة لطبائع البشر المنطوين على رغبات النفع أو الدمار أو الهيمنة ، فلا يشغله سوى الرسم الذى يبقى على علاقاته بمن يحب ، ويصوغ مشاعر دهشته إزاء الكائنات والأشياء التى لا تفصل بينها حدود المنطق أو المنفعة ، فيمضى هذا الأمير – الطفل – فى عالمه مؤمناً بالسر الذى تعلمه من الثعلب ، وهو أنه « بالقلب وحده يمكن أن يبصر المرء ، والعين لا ترى الجوهرى » ، لأن

الظواهر تخدعها ، فلا يبقى موثوقاً به سوى القلب فى الإدراك . ولذلك يرى الأمير الصغير ما تحت الجلد لصفاء قلبه ، ورهافة إدراكه ، ويتحرك منتقلاً من كوكبه الصغير جداً إلى غيره من الكواكب الكبيرة ، متعلقاً بزهرته التى يخاف عليها ، والتى تشع خلال وجوده كله مثل لهب قنديل ، حتى وهو نائم . ولا تنتهى حكايات « الأمير الصغير » إلا بعد أن تحفر فى داخلنا ، كما فعلت معى حين قرأتها منذ سنوات بعيدة لا أذكرها ، صورة ذلك الأمير البرئ على هيئة « رجل صغير ، ضاحك ، ذى شعر ذهبى » .

ويلجأ يحيى الطاهر عبد الله ، متعمداً ، إلى نقض معانى البراءة والبكارة واختلاط الخيال بالحلم البهيج فى حكاياته التى يرويها على الأمير كى يطيّر النوم من عينيه ، وأعيننا ، ويستبدل بالتقنيات السردية التى تعتمد عليها رواية اكسوبرى تقنيات الحكى الشعبى الذى يؤكد حضور الراوى الذى يختفى وراءه المؤلف المضمر والمعلن ، غير مفارق صفات الراوى الشعبى – « القوّال » – الذى يعتمد على الحكى الشفاهى من ناحية ، وعلى السرد الغرائبى والعجائبى من ناحية مقابلة ، وذلك لكى تكتمل أوجه المعارضة التى تستبدل الحكى الشفاهى بالسرد الكتابى ، والموروث الشعبى العربى بالموروث الأدبى الأجنبى ، والغرائبية العجائبية بالواقعية النقدية ، وذلك لتجسيد وقائع العنف والقمع التى تتجسد بها تفاصيل العالم الذى ينتسب إليه الراوى والأمير ، لكن فى علاقة تضاد وتراتب ، تنزل الراوى منزلة الأدنى الذى يريد فتح عينى أميره الأعلى على الحقائق القاسية التى لابد أن يعرفها الأمير ، والتى لا يمكن أن ينام بعدها ، أو يستكين إلى شروط الضرورة التى تحيط بكل رعاياه – وبه هو نفسه . والبداية هى الصيغة التى تلفتنا إلى حضور الراوى الذى يتحول إلى قناع للمؤلف ، والذي يستهل حكيه بالعبارات الدالة : « الحمد لله الذى لم يسلبنى كل نعمه فمنحنى نعمة الخيال .. والصلاة على النبى الذى أجار غزالة البر لما استجارت به من شر صاحبها اللئيم .. والثناء عليك أميرى ... » .

والصيغة الاستهلالية الشعبية دال ينطوى على ثلاثة مدلولات على الأقل . أولها مدلول الخيال الذى يتحول إلى نعمة ، والذى لا يكتمل معنى النعمة فيه إلا بما يتيحه من سفر بعيد عن الواقع الذى يدفع إلى الفرار منه إلى ما هو نقيض له ، وما هو ترياق لسمومه . ولذلك لا يقترن معنى النعمة بالفرار إلى عالم الوهم السلبى فى هذا السياق فحسب ، وإنما يضيف إليه معنى الارتحال الذى هو اقتراب ، على طريقة « أجافيكم لأعرفكم » و« أطلب بُعد الدار لتقرب الدار » . والمغزى هو أن

الخيال يتباعد عن الواقع ، ويمضى فى عجائبية غرائبه ، ليتمكن من أن يرى الواقع على حقيقته بالقلب الذى لا ينخدع والعين التى ترى ما وراء الظواهر البراقة ، فالنعمة هى المعرفة الكاشفة بالواقع الذى لا نعود إليه بعد أن نضعه أمام مرآة الخيال التى تكشف عن أوجه الحقيقة المقترنة بشروط القمع المتسربة فى هذا الواقع الطارد . ومرآة الخيال ، فى غرائبية أدائها ، لا تعرف الحدود المنطقية أو النفعية بين الكائنات ، فهى تؤدى فى علاقتها بالأشياء والكائنات إلى التحولات التى يغدو بها الحيوان إنساناً ، والإنسان حيواناً ، فى عالم الخيال الذى يجعلنا نفهم لماذا استجارت غزالة البر (صورة أخرى من الأمير الصغير) بالنبى ﷺ ليجيرها من شر صاحبها اللئيم الذى هو تمثيل لغيره من اللئام الذين سوف يدور حولهم الحكى ، خصوصًا فى علاقتهم بالمظلومين الذين يتحولون إلى تجليات لا نهائية لغزالة البر . أما الثناء على الأمير فهو قرين المديح الذى يجذب القلوب ، ويغوى العقول بالاستماع والاهتمام ، وذلك فى تقاليد القص الشعبى التى تنتقل من مدح الرسول إلى مدح المحكى عليهم ، قبل أن تدخلهم إلى دنيا الغرائب والعجائب التى تتحول إلى تمثيلات تصدم المتلقى بالأعاجيب التى تكشف جسد الواقع ، فتبدو كالصدق العريان . والبداية هى الفعل (أقول) الذى يلفتنا إلى الراوى ، الكاتب ، المتخيل ، القوال الذى يخايلنا ويخايل الأمير بحكايات اللئام التى تطير النوم من العيون ، وتوقظ العقول والقلوب على ما لم تكن تلحظه ، من قبل، فى واقعها الأليم .

وعنوان الحكاية الأولى – « من الزرقة الداكنة » – إشارة معايثة إلى أصحاب العيون الزرقاء الذين اغتصبوا الأرض واستعمروها ، وظلوا فيها إلى أن جاءت الخاتمة الحسنة بالاستقلال وعودة الأرض إلى أصحابها . ولكن الذين تسلموا الأرض من أصحاب العيون الزرق حاصرتهم المخاوف ، ونمت فى داخلهم المطامع ، فحاكوا اللئام ذوى العيون الزرقاء فى السيرة والأفعال ، فأصبح الشر مطوياً داخل كل نفس « ولا يعلم دواخل النفوس يا أميرى إلا الله » . وننتقل من حكاية إلى حكاية لنرى ماذا حدث للمحرومين الذين ظلوا مظلومين ، والذين انقلبوا إلى ظالمين ، غير مفارقين عوالم البؤس التى تدفع الراوى إلى تعاطى الأفيون الذى يشعل النار فى الرأس ، ويصنع الوهج الخادع لتلوح الطريق البعيدة قريبة ، خلاصاً من هوان الفقراء الذين يخرجون للدنيا فى الشوارع بملابس الحيوان ، يلتقطون الرزق بمناقير الطير : « خطاقون سفهاء جهلة ، يتجنبون النور الفضاح ، قتلة لا يقتلهم إلا العشق ، غايتهم الفوضى وإقلاق المدن الآمنة – لهذا تبغضهم الحكومات وتطاردهم الشرطة » .

ولا يخلو تعاطف الراوى مع هؤلاء الخطافين الذين لا يقتلهم إلا العشق ، خصوصاً من حيث انتسابه المضمر إليهم ، من التعريض بما يرفضه فى زمن الحكى الذى يقترن بعصر السادات ، عصر الانفتاح على طريق العلم والإيمان . وهو العصر الذى زاد الفقراء فقراً ، وأطلق النهابين فى الطرقات كالحيوانات الضارية التى لا تكف عن النهش ، مبقية بقوة القمع على الفوارق بين علاقات التراتب ، حيث الشرط الوحيد لولى الأمر : « كل منا فى مكانه يخدم الآخر : أنت تعمل من أجل الغير ، والغير يعمل من أجل ولى الأمر » ، والنتيجة هى القمع الذى يقع على الراوى مثل غيره ، لا ينجيه منه الحلم أو الخيال ، فالواقع تحول إلى كابوس لا نجاة منه للراوى إلا بالفرار الذى يكون خاتمة الحكايات للأمير ، فالفرار هو الحل الممكن الوحيد ، فى مكان يستحيل العشق على أرضه ، ولا ينقطع العجب من اختلاط أحواله وأهواله .

ولا أتصور أن الأمير الذى خاطبه الراوى الذى يعرف الكثير يمكن أن ينام ، أو ننام معه ، بعد أن استمعنا إلى ما استمعنا إليه من الراوى (المؤلف المضمر والمعلن) الذى يريد أن يصدمنا بقبح ما نحن فيه ، ويتيح لوعينا أن يتأنى فى رؤية عالم أحال البشر إلى حيوانات ضارية ، تساندها أجهزة أمن توزع القمع فى الطرقات بالعدل والقسطاس ، وذلك باستخدام لغة تستفز القارئ والأمير ، لغة لا تتردد فى وصف القبح والتأنى عند تفاصيله المقززة ، ولا تخجل من أن تقول : « حاور أيام الخراء بالنوم والفساء » . وتبلغ هذه اللغة ذروتها الختامية فى « ترنيمة للأمير » التى ليست ترنيمة على الإطلاق ، ولا علاقة لها بالأغانى التى تنيم الأطفال ، وذلك لأنها الدرجة العليا من تصاعد اللحن الموجع الذى ينتهى بنغمة حادة لا تفارق الوعى ، وحكاية أخيرة عن الطير الأليف المغلوب على أمره والطير الجارح الذى يتكاثر بما يجعل العنف لُحمة حياة سُداها القمع .

وأتصور أن نجاح « حكايات للأمير حتى ينام » كشفت أمام يحيى الطاهر الإمكانات اللامحدودة من التراث الشعبى الذى قادته إليه دواعى المعارضة فى « حكايات للأمير » فانطلق فى الإفادة من هذا التراث ، وأصبح أكثر انجذاباً إلى أساليبه الغرائبية العجائبية ، خصوصاً الأساليب التى تصلح للتعريض السياسى والسخرية الاجتماعية ، وتعبر ألغام المحرمات والتابوهات دون مخاطر . وطبيعى أن تتجاوب هذه الأساليب مع « القوّال » داخل يحيى ، وتقترن بصفة الشفاهية التى لا تفارق القوال . ولذلك كتب « الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة » (١٩٧٧) و« حكاية على لسان كلب » التى نشرت بعد وفاته . ولم تفاجئ « الحقائق القديمة » القراء بعودتها إلى التراث ،

فقد أصبحت العودة إلى التراث لازمة من لوازم مسعى جيل الستينيات ، ابتداء من جمال الغيطانى ومجيد طوبيا ، وانتهاء بيحيى الطاهر الذى يقول ساخراً على لسان إحدى شخصياته المقموعة ، وعلى طريقة العكس : « أحياناً ينسى الإنسان منا حاضره الطيب (؟!) فيرتد للماضى الكريه (؟!) . ولكن المجموعة فاجأت القراء بلغتها الشفاهية وخيالها الجامح وبشرها المقموعين فى الهوامش التى لم يتوقف غرام يحيى بها وانحيازه إليها . وكان التمثيل الكنائى فى « الحقائق القديمة » - كما فى «حكاية كلب» - يمزج بين القدرة على السخرية وروح الفكاهة التى تسهم فى تخفيف قتامة المواقف، ولا معقولية سلوك الشخصيات التى لم تخلُ من مبالغات الملامح الكاريكاتورية ، هكذا نرى بعينى الجائع الحافى العارى - فى القصة التى تحمل المجموعة اسمها رجلاً سميناً وصاحبته التى تلبس بالطو من فرو الدب - يأكلان عجلاً مشوياً وديكاً رومياً وطاووس محشياً وحوتاً مقلياً ، بعد أن شربا من جيد الخمر تسع زجاجات .. وأمامهما تورتة الحلوى على شكل شاحنة وبحجم شاحنة .

ويتزايد ظهور « الدركى » ابتداء من الحكاية الأولى ، نراه بعينى المخمور الذى لا ينسى التعريض السياسى بالسادات - فى زمنه ، مشيراً إلى الأزمة الاقتصادية التى طحنت الفقراء ، ابتداء من « انفتاح » السادات الذى اقترن بأنواع عديدة من الفساد ، تكاثرت تحت حماية الأمن الذى يمثله « الدركى » المرتشى ، المستعد للبطش بكل الضحايا ، كى يستتب الأمن والأمان لسادته الذين يضيفون إلى الأزمة الاقتصادية غيرها من الأزمات السياسية التى هى أصل البلاء . ولا علاج لهذه الأزمات ، فى وعى إسكافى المودة وأصدقائه ، إلا المضى فى تغييب الوعى بكل ما يفقد الشعور بالواقع القمعى المرفوض ، الواقع الذى يبدأ الحكى عنه بالدركى ، وينتهى الحكى بالدركى كذلك ، فيقول إسكافى المودة المخمور لنفسه ، فى إحدى الحكايات التى يقصها : « وكالعادة .. يأتى الشرطى ويمسك بقفاى ويجرجرنى إلى المخفر القريب لأنظف مرابط الخيل » . وهى نهاية تدفع إلى تذكر أشكال المقاومة بالحيلة التى يلجأ إليها أشباه الإسكافى الذى ينقل إلينا سر استمراره فى البقاء بقوله : « الدنيا بنت الحيلة ، ومثله إن لم يتحايل على المرور من خرم الإبرة مات ميتة الكلب الجربان » .

وتدور القصة الأولى فى المدار المغلق نفسه الذى تدور فيه بقية القصص التى لا يخلو تجاوبها من صفات الرواية ، مؤكدة الخصائص الثابتة لثنائية المواطن المقموع والدركى القامع . والبداية مطاردة الدركى للمخمور الذى يقلب نفسه إلى « خروف » كى يفر من الدركى ، لكن الدركى يحمله

مخلصاً إلى بيته ، ولكن ما إن تذكر زوجة الدركي اسم الله ، في خلوتها مع الخروف ، حتى يفارق المخمور شيطانه ويهرب ، تاركاً الآدمي في مأزق صعب ، لا يفر منه أمام الدركي إلا ليعود الدركي إلى الإمساك به ، في طراد لا يخلو من حيلة التحولات الغرائبية المأخوذة من القص الشعبي ، وذلك على نحو ما يحكي الدركي الذي رأى في تجواله رجلاً خاف منه ، فولى الفرار ، فجرى الدركي خلفه ، ولكن الرجل كان ينزع أعضاء جسمه عضواً عضواً ، ويرمي بها على قارعة الطريق ، حتى يكف الدركي عن ملاحقته . وفي النهاية لم يجد الرجل مخرجاً غير أن يستقيم على ساقيه ويتحول إلى شجرة .

وتشبه هذه التحولات الغرائبية تحولات المخمور – إسكافي المودة – الذي ينتقل بنا عبر أزقة عالمه المنسي ، الملئ بالكلاب والذئاب وأكوام السباخ والوحل والأطفال العفاريت والنساء الشتامات ، والرجال الذين يسرقون كل شيء وأي شيء ، حتى الكحل من عيون الحريم . وبقدر ما نتعرف – بعيني إسكافي المودة – على الشخصيات الموازية له والمشابهة له في وضعه الاجتماعي ، معانيه مثله من قمع الدركي وعنف شروط الضرورة المحيطة ، نكتشف أنها تعاني ما نعاني منه في الدنيا التي تشبه الكابوس ، والتي يبدو معها الزمن كأنه يصل إلى نهايته السوداء التي تتوزع صفاتها على السرد . ولكن بما لا يقلل من حيوية الحكي الذي لا يكف عن التعريض ، والتنكيت والتبكيت ، فيصل السياسي بالاجتماعي ، والاقتصادي بالثقافي ، خصوصاً حين تأتي الإشارة إلى الغلاء الأزرق الذي يحجل ، والغلاء الأبيض الكاره الذي يمسك المنجل كما لو كان يريد قصف رقاب الفقراء ، وفوق ذلك « القوادين يتاجرون في بنات الناس أمام عيون الكل . وفي الغرف المفروشة أولاد عرب ... سعداء ، يتكلمون الكويتية والليبية والسعودية ، ويلتهمون اللحوم مشوية ومقلية ... » .

ولذلك فلا فارق جوهرياً بين سيرة حياة « إسكافي المودة » وسيرة حياة كلب في « حكاية على لسان كلب » ، فالحيوان يحل محل الإنسان في عالم التحولات التي تفرضها آليات القمع اللاإنساني . هكذا ، يشبه الفقر الذي ولد فيه « إسكافي المودة » الفقر الذي جاء منه الكلب « محظوظ » (ولاحظ دلالة السخرية في الاسم) الذي كان ابن الصدفة العمياء في الريف ، وانتقل منه إلى المدينة التي لا يمكن أن ينتقل فيها مخلوق من مرتبة سفلى إلى مرتبة عليا ، ونرى بؤس الأحياء الشعبية ، بعيني الكلب المغترب كالإنسان المتوحد ، حيث الصبي المتشرد ينزع العظمة من فم الكلب ، والحياة عذاب ما بعده عذاب ، فيفر منها الكلب إلى الأحياء الثرية ، متسللاً ، متسلقاً ، مجرباً أنواع المخادعة

والمخاتلة ، فى سياق من عجائب الغرائب أو غرائب العجائب ، كى يبقى فى العالم الذى يشتهيه ، والذى لا يستطيع أن يناله فى دنيا الرغبات المقموعة التى يحكمها العنف .

ولا أعرف السبب الذى دفع يحيى الطاهر عبد الله إلى عدم نشر « حكاية على لسان كلب » . ربما لأنه وجدها أضعف فنياً من حكايات إسكافى المودة التى تعود فيها الحقائق القديمة إلى إثارة الدهشة بموازياتها الرمزية وتمثيلاتها الكنائية وصيغها الشفاهية التى لم يتخل عنها يحيى « القوال » منذ قصصه الأولى التى ترددت فيها السمات الأسلوبية التى ترسخت مع تواصل الكتابة : التكرار ، الكلمات والتراكيب العامية ، الاحتفاء بالمستمع فى القارئ ، وتنبيهه الدائم بوسائل النداء والتنبيه . وأخيراً ، الإلحاح على ضمير المخاطب بوصفه علامة المستمع الذى يغويه ضمير المتكلم الذى يعرف صاحبه نعمة الخيال وقدراته على مواجهة الواقع الذى يرفضه ويتمرد عليه ، كاشفاً عن طباع الناس ، فى زمن ملعون : « زمن كزمننا ، يأكل فيه الأخ لحم أخيه ، ويبيع لحم بنته التى تحاكى القمر » .

* * *

من يعرف .. يحيى الطاهر عبد الله

« ليت أسماء تعرف أن أباها لم يمت » .. كنت فى السابعة من عمرى عندما كتب الشاعر الكبير أمل دنقل هذه الكلمات فى قصيدته الجنوبى ١٩٨٣ ، ولم أكن أعى كثيراً كلمات الشاعر الكبير . كل الذى كنت أعرفه أن « بابا يحيى » لن يعود . لم أكن أعرف قيمة ما تركه لى من ثروة فنية ، فلم أكن فى السن التى تسمح لى بقراءة قصصه ورواياته .

كنت أعيش مع يحيى الطاهر حياتى فى الأحلام التى تنتابنى من حين لآخر . ولكن ما رسخ فى ذهنى بشكل قوى ، هو ما تبقى من صور الحادثة التى أودت بحياته فى أبريل ١٩٨١ . كنت فى الرابعة والنصف من عمرى ، أذكر انقلاب السيارة التى كانت تقودها سيدة كندية تدعى إليزابيث ، كنت أجلس بجواره على المقعد الأمامى فى السيارة وفجأة أخذ حزام الأمان وأحاطنى به وحدى . وكان فى الكرسى الخلفى (عرفت فيما بعد) الأستاذ عبد الحميد حواس خبير الفنون الشعبية وزوجته الدكتورة ألفت الروبى الأستاذة بكلية الآداب ، وصديقة أمريكية تدعى سوزان ، كنا فى رحلة إلى الواحات البحرية . كان أبى قد وافق على اصطحابى معه رغم نصيحة المرافقين لوعورة الرحلة على طفلة صغيرة ، ولكن بكائى الشديد عندما قال لى إنه سيغيب عنى لبضعة أيام جعله يوافق . أذكر إفاقتى على من يسحبنى من داخل السيارة من ذراعى الشمال ومازلت أذكر الألم الذى أحدثته هذه الشدة فى ذراعى ، أذكر صراخى الشديد « فين بابا » ، وأخذونى له ، كان يرقد بعيداً عن السيارة فى الصحراء لا يبدو عليه إلا إنه نائم ، ولم أفهم نزيف الدماء من فمه وأنفه ، أذكر أيضاً محاولة إفاقته بالمياه ، ومحاولتهم تهدئتى « **حيصحى تانى ويرجع لك** » . أذكر عربة الإسعاف ، وركوبى بجوار السائق . لا أذكر بعد ذلك إلا مشهد مستشفى أم المصريين ، تسللت من بين أرجل الأطباء ودخلت إلى حيث يحتجزونه ، ورأيته وكانت آخر مرة أشاهده فيها . كنت أنتظر أن يستيقظ ويعود لى كما وعدونى ، ولكن لم يحدث . بعد الحادث بأيام قليلة جاءت « أمى » بالاختيار ، السيدة عطيات الأبنودى وأخذتنى ، وكانت أول من قال لى الحقيقة . أذكر إنها قالت

لــى: « باب يحيى مش حيرجع يا أسماء ، ودلوقت ليكى أبهات وأمهات تانيين ، كل أصدقاء يحيى أهلك » .

* * *

عرفت يحيى الطاهر عبد الله الفنان والأديب ، عندما صدرت « الأعمال الكاملة » لأبى – أضعها بين قوسين لأننى أحلم دائماً أن هناك فى مكان ما ومع إنسان ما بعض من كتاباته التى لم تنشر بعد – عن دار المستقبل فى مصر ١٩٨٣ ، عن طريق أمى ، التى جمعت أعماله ونشرتها . وكانت أول من قال لى إن أبى كاتباً وقاصاً متميزاً وهاماً فى تاريخ الأدب العربى ، وظلت توضح وتؤسس فى عقلى لهذه الفكرة ، ودفعتنى إلى قراءة مجموعاته القصصية . كان أول ما قرأت « حكايات للأمير حتى ينام » و« حكاية على لسان كلب » ولعلها توسمت أن تكون هذه القصة مناسبة لسنى الصغير . وبدأت منذ ذلك الوقت محاولة التعرف على يحيى الطاهر الفنان، ولكنى كنت أريد أن أعرف أبى يحيى الطاهر الإنسان ، وكل ما كبرت يزداد الحنين للمعرفة. لم يكن يكفينى حكايات الأصدقاء عنه ، فلم أقابل أحداً وإلا حكى لى عن يحيى (صديقه) . كانت الحكايات تبدأ « لما كنت صغيرة يا أسماء .. كان يحيى ... » . يحكون إننى كنت ألازمه فى كل مكان منذ أن عرفت المشى ، فى المقاهى والبارات ، فى ندوات أتيليه القاهرة ، وحتى فى مشاجراته ومشاغباته مع الأصدقاء ، دائماً كنت معه ، ولذلك فهمت لماذا أخذنى معه يوم الحادث . أتذكر أننى كنت أجلس معه فى المقهى وأشرب ما تبقى من فنجان القهوة الذى كان يشرب منه ، فقد كان يحب أن أشرب مما يشرب وأن آكل مما يأكل ، وأتذكر كذلك أنه كان يحملنى على كتفه ويشترى لى حلوى تذوب سريعاً فى فمى اسمها « فوندام » .

* * *

كنت أحس أن أحداً لم يعرف أبى الفنان الذى كنت أفخر به أمام زملاء الدراسة إلى أن عرض فيلم « الطوق والإسورة » ١٩٨٨ إخراج خيرى بشارة ، فكنت أقدم نفسى على أنى ابنة كاتب قصة الفيلم ، وبعدها بعشر سنوات ظهرت مسرحية عن نفس الرواية ، كنت أنتظر الإعلان عنها فى التليفزيون لكى أسمع المذيع يقول « مسرح الطليعة يقدم عن رائعة يحيى الطاهر عبد الله «الطوق والإسورة» من إخراج ناصر عبد المنعم » . وأحببت دائماً إعادة قراءة قصتيه القصيرتين

«أغنية العاشق إيليا » ، « البكاء » من مجموعته القصصية « الرقصة المباحة » ، وأذكر كمية الدموع التى ذرفتها عند انتهائى من قصة البكاء .

* * *

إن « بابا يحيى الطاهر عبد الله الذى لم أهنأ بالاطمئنان إليه إلا قليلاً » شخص ماثل أمامى دائمًا وأحاول أن أجمع صفاته الإنسانية من حكايات أصدقائه ، العناد ، والحساسية المفرطة ، والكبرياء وعزة النفس ، والجرأة ، والقارئ النهم لكل ما تقع عليه عيناه من كتب ، والمتطرف فى كل ما يعتنقه من أفكار وما يقتنع به ، لدرجة أنه يغلق عقله أمام مناقشيه ، وكان معروفاً عنه حبه الشديد لعباس محمود العقاد ويصعب مناقشته فى هذا الأمر .

* * *

فى عيد ميلادى الحادى والعشرين ، قررت « أمى » أن تدعو الممكن من أصدقاء أبى ، جاء إلى الحفل الكاتب محمد البساطى ، والباحث حسين حمودة ، والناقد السينمائى مصطفى درويش ، وكاتب السيناريو أنور عبد المغيث ، والمهندس علاء سويف ، والشاعر أمين حداد ، والموسيقى الملحن إبراهيم رجب ، ثم جاء الكاتب يوسف أبو ريّة ويصحبته صديق عرّفنا به وقال « الطبيب رشدى يوسف .. من الزقازيق » . كانت أول مرة أتعرف على الدكتور رشدى يوسف ، حيانى بشدة واغرورقت عيناه بالدموع وأهدانى فى هذا اليوم ما لم أكن أحلم به ، شريط كاسيت عليه تسجيل لجلسة تكلم فيها يحيى فى إحدى زياراته للدكتور رشدى ، « ألجمت المفاجأة لسانى » . فهذه أول مرة أسمع صوت أبى . كان يحيى منطلقًا ، وطالبه الحضور أن يحكى لهم إحدى قصصه التى كان يحفظها عن ظهر قلب ويرويها دون أوراق فى يده . وحكى يحيى قصة « هكذا تكلم الفران » من مجموعته القصصية «حكايات للأمير حتى ينام» . وبدأت صورة « بابا » تكتمل قليلاً . فرغم وجود التليفزيون والصورة المتحركة فلم يحظ ولو مرة بتسجيل حديث له بالصورة والصوت طوال حياته ، ولم تهتم به أجهزة الإعلام ولو مرة واحدة . قيل لى إن البرنامج الثانى من الإذاعة المصرية قد سجل معه مرة يتيمة ، ولكن عندما سألت عن هذا الحديث لأحصل على نسخة ، قالوا إنهم « مسحوا » الشريط . كانت هدية الدكتور رشدى يوسف أكثر الهدايا قيمة فى حياتى ، ومازالت .

* * *

والآن وبعد أن درست علم الاجتماع ،تخرجت من الجامعة، وبعد أن درست علم النقد والدراما وعُينت معيدة بالقسم بكلية الآداب جامعة حلوان ، أستطيع أن أقول عن قناعة – بشكل يخصنى ، بأن أبى كاتب مهم وعظيم وعبقرى ، وهو حكم لا ينطلق من مظلة الانتساب الوراثى إليه ولا من بنوّتى ، بل من خلال كتاباته التى استطاع من خلالها أن يصف لنا بدقة صورة كاملة لشخصيات قصصه بحيث أستطيع أن أرى هذه الشخصيات مجسدة على الورق كأنها من لحم ودم ، فهو يصف أدق تفاصيل الشخصية والأحداث المحيطة بها وسماتها الإنسانية ويغوص داخلها ليعبر عن أحاسيسها العميقة ، فى الوقت الذى ظل فيه محافظاً على لغته الشاعرية وعلى الإيقاعات المنغمة فى كتاباته بحيث تستطيع أن ترصد أوزاناً متجاورة دون أن تجد وحْدة نغمية (Mono tone) بل تجد لغة سلسلة وطيعة يمتزج فيها من الشعر والقص أو السرد ما يسعد القارئ ، إضافة إلى خياله الواسع الذى يضفى على القصص آفاقاً أخرى ويكتسى بسمة الأسطورية .

* * *

لقد عبر يحيى الطاهر عبد الله عن عالمه الخاص وعن ظرفه التاريخى وأصوله وبيئته وعن نفسه وعن أفكاره ، فقصصه جميعاً بها شىء من كل هذا ، وأنا عندما أقرأ أعماله الكاملة بين الحين والآخر أحاول أن أتلمس عالمه الخيالى الأسطورى . وأحاول بناء صورة فكرية وإنسانية عنه ، وأحاول أن أفسر كلماته وأدخل إلى رؤيته لنفسه لعلى ألمسه وأقترب منه .

لقد رحل أبى منذ زمن طويل وترك لى – فى مخيلتى – علاقة سريعة وزمناً مختزلاً لم أحس خلاله بالشبع والامتلاء من مودته ووجوده فى حياتى . كان من الممكن أن أتعلم منه (أبى) أشياء كثيرة أتعلمها الآن بكثير من العجلة والارتباك .

* * *

أنا لا أدرى إذا كان أبى قد حصل على حقه الحقيقى من النقد الأدبى فى مصر أم لا ؟ وأغلب ظنى أنه لم يحصل على حقه الكامل . أعرف أنها مشكلة تتعلق بالأدباء عموماً ، فهم لا يحصلون على حقهم بشكل كافٍ ، ولكن أبى كان أقل من نال منهم حقه من النقد أو الاحتفاء – ربما لأنه مات فى الأربعين من عمره – واقتصر الاحتفاء به على بعض الكتابات المشكورة عندما رحل أوفى ذكرى رحيله أو فى ذكرى ميلاده .

* * *

لقد كان صدور الطبعة الأولى ١٩٨٣ والثانية ١٩٩٣ من الأعمال الكاملة من خلال دار المستقبل فى مصر وكذلك فيلم ومسرحية « الطوق والإسورة » ، ورسالة الماچستير التى قدمها الدكتور / حسين حمودة عام ١٩٩٠ لكلية الآداب بجامعة القاهرة عن دور يحيى الطاهر فى القصة المصرية ، نوعاً من هذا الاحتفاء . بالإضافة إلى الدراسة العميقة للدكتور / سامى ستّار الشيكلى (عراقى) عن الأعمال الكاملة والتى تقدم بها إلى جامعة بيرن الألمانية عام ٢٠٠٠ لنيل درجة الدكتوراة ، تعتبر أيضاً نوعاً من الاحتفاء والتقدير . بالإضافة إلى العديد من الترجمات للإنجليزية والألمانية والإيطالية والبولندية ، هذا فى حدود علمى .

* * *

والآن فى عام ٢٠٠٥ وبعد هذه السنوات الطويلة من صدور الطبعة الثانية للأعمال الكاملة ليحيى الطاهر عبد الله ، فاجأتنى السيدة الدكتورة / **فاطمة البودى** مديرة « دار العين للنشر » **برغبتها فى إعادة نشر الأعمال ، وكان حماسها لإعادة تقديم الطبعة الثالثة يفوق الوصف ، لكى تعرف الأجيال الجديدة كاتباً متميزاً من الكتّاب المصريين . وأنا لا يسعنى إلا أن أتقدم بالشكر لها وللأستاذ الدكتور جابر عصفور الذى احتفى بهذه الطبعة من الأعمال الكاملة وكتب لها المقدمة ، ولكل الذين تحمسوا معها لإصدار هذه الأعمال** ، وأخص بالذكر الكاتبة الصحفية السيدة / عبلة الروينى وإلى «أمى بالاختيار» المخرجة السينمائية السيدة / عطيات الأبنودى وإلى الفنان التشكيلى / أحمد اللباد ، الذى أخذ على عاتقه أن تخرج الأعمال الكاملة ليحيى الطاهر عبد الله فى أجمل صوره .

أسماء يحيى الطاهر عبد الله

مايو ٢٠٠٥

ثلاث شجرات كبيرة
تثمر برتقالا

إهـــداء

للمقبل

للربة العذراء مع الخالدين فوق قمم الأوليمب المستونة ،

لأبى الشيخ بالكرنك القديم .

لخليل كلفت بمسرح الجيب بالقاهرة .

يحيى الطاهر عبد الله

(ولكنى حين أستعيد فى ذاكرتى جميع الظروف والملابسات ، أعتقد أننى قد أتبين بصيصاً يفصح عن جانب من المدابع والدوافع التى تسللت إلىّ ماكرة تحت شتى ضروب التنكر والتخفى ، وأغرتنى بالشروع فى أداء ذلك الدور الذي قمت به ، هذا إلى أنها داهمتنى فجرتنى إلى التوهم بأن ما أديته إنما اخترته بمحض إرادتى الحرة السديدة وحكمتى الرشيدة) .

هرمان ميلفيل

فى « موبى ديك »

جبل الشاى الأخضر

كان جدى يصب الشاى فى الأكواب من ثلاثة أباريق صغيرة ، وقد فرغ : تناول أبريقاً كبيراً مملوءاً بالماء الساخن وملأ الأباريق الثلاثة من جديد وأعادها إلى المجمرة ، من جواره أمسك بالأبريق الأكبر من كل الأباريق – والمسمى بالأوزة لطول عنقه – وصب منه الماء البارد فى الأبريق الكبير حتى الحافة .أعاده أيضاً إلى المجمرة .

كنا صامتين فجدى لم يكن قد تكلم بعد ...

كنت أرقب المجمرة : الأباريق الصغيرة الثلاثة كانت ترقد فى الرماد الناعم .. والماء كان يتقلب داخلها تحت قسوة الوهج ويقلقل الغطاء الحارس .. والماء المحترق كان يهرب من تجويف العنق ويصفر .. وكانت أفواه الأباريق الثلاثة تبخر الدفء فى جو الغرفة الشتوى .. وكان الأبريق الكبير يصفر صفيراً عالياً – فهو يرقد فى قلب المجمرة تتحلقه عيون الجمر الملتهبة وتتسلقه حتى المنتصف وتتوهج على سطحه النحاسى اللامع شديدة الإحمرار .

كنت أعى أنه لابد يرقبنى – وقد مسح المكان بعينيه وحاصرنى ولاحق بصرى وأمسك بالشيء الذى سقطت عليه عيناى ليواجهنى به ككل مرة أمام الجميع .. يصعد الدم وتنتفخ به عروقى وتكاد تنفجر .. ويلتهب وجهى ويظل ساخناً يتشقق كما يحدث لإناء الفخار داخل الفرن الحار .. تكون الكلمات فى فمى كخيوط الصوف المغزول : مملوءة بالوبر الجاف وقد تشابكت وصنعت أعداداً هائلة من العقد .. أعرف أنه الخجل، أمام الجميع أحس أننى بغير ملابسى .. يصرخ باعتقاده القاطع بأننى أبول على نفسى أثناء نومى برغم أننى لم أعد طفلاً .. ينسب ذلك لحبى للنار المشتعلة .. وولعى بالجمر الأحمر المتوقد .. عيون الجميع تتحلقنى .. تظل تتسلقنى .. أحسها تكوى مدى الجنبين .. تتوالى الحروق وتأكل جسمى ويتوالى اللسع الحار .. وأنفجر باكياً ..

عيناى أغمضتهما بسرعة .. وفتحتهما نصف .. فتحتهما عليه : جالساً بجوارى وقد أسقط على عينيه الغاضبتين، همم ، لم يكن جدى قد تكلم بعد ، رمقه بغضب .

– كامل .. أخضر ولا أحمر ؟

رد أبى فى عجل وكان متحرجاً .

– أيوة يابا .. أحمر .

كان جدى يوزع علينا صنوف الشاى .. طلبت لى شاياً أخضر .. ولما كانت عواطف أختى والتى تصغرنى بتسعة شهور كاملة قد طلبت لنفسها من جدها شاياً أحمر .. وكنت مدركاً أن الأمر يحتاج من جانبى لقدر من السرعة فى التصرف لينتهى تماماً .. قلت محدثاً جدى فى صوت واطئ وجعلته مرحاً :

– مش انت زمان يا جدى كنت صغير زيّنا .. وكنت تشرب الشى الأحمر لكن كبرت وعرفت ان الشاى الأحمر بيحرق الدم فشربت الشاى الأخضر ..

كان جدى يبتسم .. كنت أنظر له وكنت أخشى أن أقرأ وجه أبى .. قلت مخاطباً جدى :

– طيب ليه عواطف الصغيرة تشرب الشاى الأحمر .. والله العظيم ثلاثة يا جدى دمها كله حيتحرق .. أصل دماغها ناشفة من نوع الحجر وعايزة الكسر ..

كانت عواطف متذمرة .. وكان جدى يبتسم مازال .. أما أبى فقد فاجئنى :

– مفيش غيرك اللى دماغه ناشفة وعايزة الكسر ..

نظرت إلى يده ممسكة بالكوب ممتلئاً حتى منتصفه بالشاى الأحمر .. أدركت أننى تعجلت، خاطبته :

– أصلها مش بتسمع الكلام .

قال أبى فى أمر قاطع :

– روح شوف البهايم فى الحوش .. خلى نوال أختك تجيب اللبن بسرعة . ونظر إلى عمتى «شرقاوية» وقال فى أمر أخف :

– خدى البنت ونضفى شعرها فى الشمس برة .. خليها تغسله بعد كده .

كنت قد جريت حتى السقيفة وتخطيت السقف العارى النائم تحت الشمس الحرة من الغيوم – قبل أن تصل عمتى « شرقاوية » ممسكة أختى عواطف بيدها وكانت أختى عواطف متململة فأخرجت لها لسانى وجريت باتجاه الحوش .. كنت أسمع عواطف تشتمنى .

– إن شاء الله ضربة دم يابو ...

كانت تفهم أننى سأضربها فلم تكمل .. نظرت لها وأبديت الشر .. قلت :

– طيب يا أم قملة ..

كنت أسمعها تبكى مجرورة خلف عمتى وأنا أدفع باب الحوش : كانت نوال أختى والتى تكبرنى بتسعة شهور كاملة – راقدة فوق ظهر جاموستنا .. وكانت نائمة بصدرها وقد حضنت عنق الجاموسة بكلتا ذراعيها .. وكانت تمرجح ساقيها وتحك فخذيها ببطن الجاموسة الأسود السمين .. كنت أرى أصابع قدمها التى تواجهنى كخمسة مسامير دقت أسفل بطن الجاموسة .

صرخت معلناً عن وجودى فقفزت نوال على الأرض مفزوعة ودلقت ماجور اللبن المملوء.. وجريت أنا لأنقل الخبر لأبى وجدى .

مررت بالسقف : كانت الشمس الحرة من الغيوم قد ألهبته بالسخونة .. وكانت عواطف وعمتى « شرقاوية » محتميتين بظل الجدار القصير .. وكانت عواطف راقدة فوق حجر عمتها .. وكان رأسها نائماً بين الفخذين .. وكانت عمتى تقلب شعر عواطف وتدهنه بالجاز الأبيض من كوز صفيح يجاورهما ..

فى الغرفة كان جدى يصب لنفسه كوباً من الشاى الأخضر .. وكانت أمى موجودة ترضع رمضان أخى الصغير جداً .. قلت لأبى إن نوال دلقت اللبن وإننى وجدتها فوق ظهر الجاموسة وإنها كانت تحرك ساقيها .. وقلت إن أصابع قدميها العشرة كانت كعشرة مسامير من الحديد دقت أسفل بطن الجاموسة .. اصفر وجه أمى وسحبت ثديها من فم الولد رمضان فبكى .. وأرقدت هى ثديها تحت ثوبها الأسود « الباتستا » ، أما أبى فقد قام منتصباً كالقصبة المشدودة المسنونة الرأس ، وكان جدى يدوس شفته السفلى تحت أسنانه ، أما أمى فقد خرجت من الغرفة ولاحظت أنها راغبة فى البكاء ..

وفى لحظة كان أبى قد عاد وصرخ بأنها غير موجودة .. وزعق طالباً أمى .. وصرخ فيها طالباً منها أن تحضر نوال من تحت باطن الأرض .. وفى غمضة العين كانت أمى قد أحضرت نوال وهى تجرها ونوال تصرخ بصوتها العالى الباكى لأمها وأبى بأننى كذاب .. صرخت فيها بدورى :

– أنا مش كداب .. انت اللى كدابة .

سقط كف أبى على صدغى بقسوة أوقعتنى وصنعت خيطاً من الدم : كان دافئاً .. كنت ملقى على أرض الغرفة الترابية المرشوشة بالماء .. وكان أبى يسحب نوال من ضفيرتها ويجرجرها على الأرض .. كانت عمتى « شرقاوية » قد جاءت وكانت أختى عواطف منكمشة وملتصقة وممسكة بثوب عمتها .. وكان جدى ممسكاً بسيخ ينتهى بحلقة وخطاف يقلب به الجمر .. كان يأمر أبى فى غيظ :

– اضرب .. اضرب يا كامل .

كنت أشعر بطعم الطين فى فمى وجانب وجهى نائم على السطح الترابى الذى لم يعد جافاً .. وكان الدم يسيل من جانب فمى ولا يتوقف .. وكان ساخناً مازال .. وكانت نوال أختى معلقة من عرقوبيها بحبل مشدود إلى وتد ثبت بجدار الغرفة .. وكان أبى يصعد ويهبط بكل جسمه كثور مذبوح .. كان يرفع يده ويهوى بعصاة لينة رفيعة ويضرب الجسم العارى .. والدم كان يشخب من الجسد العارى ويغطى وجهى ولا يجعلنى أرى ..

كانت أمي تصرخ .. وكان صوتها باكياً .. وكان أخي رمضان على صدرها لا شك يبكي .. وكانت تخاطب أبي :

جوّزها يا كامل .. كفاية يا كامل وتتجوز .

كنت مغمض العينين وكنت أبكي .. وكنت مازلت على الأرض نائمًا ولم أعد متنبهًا للدم يطفر حاراً من جانب فمي .. ولم أع بعد لماذا طلبت أمي من أبي أن يكف عن ضرب نوال وأن يزوجها .. لكني كنت أتمنى لو يتم ذلك .. أن تتزوج وأن يكف أبي عن ضربها وأن تخرج من هذا البيت .

كانت أمي قد لمتني وأرقدتني على الفراش الأرضي وغطتني بالحرام الصوف .. ولكني كنت أرتعش .. كانت تقدم لي الكوب .. وكنت قد طلبت أن أشرب .

زعق أبي :

– إيه ده ؟ ..

قالت أمي :

– ميّه ورماد ..

صرخ أبي :

– ارميه يا بهيمة .. ادّى الولد ميّة بسكر .. واعصري كمان لمونتين ..

قالت أمي :

– مفيش لمون عندنا .

قال أبي :

– أطلع أنا أجيب لمون .. وانت دوبى السكر فى الميّة .

كنت أدرك أنني سأنام وكنت عطشاً .. وكنت أدرك أن أحلاماً كثيرة ستأتي .. وكانت كل الأصوات قد غابت .. وربما كانت نوال تئن بصوت واطئ .. واطئ ولا يمكنني أن أسمعه .. ولا يمكنني أن أسمع خطو قدميه الحافيتين تنغرسان في الرمل الساخن الجاف – وقد هبط من فوق ظهر ناقته « عاتكة » .. وبلغ الجبل وصعده .. يجمع من حوافيه أعشاب الشاي الأخضر .. الخضراء .. ويأتي معه أيضاً بحبات الليمون الخضراء .

الكابوس الأسود

تخطى الشريط الحديدى - متدحرجاً من المسقط الحجرى - إلى بؤبؤ الساحة الخراب : ولجهة برد المكان المنخفض بأسنان مدببة ، واستقام كائن العراء الخرافى : وقد غطاه قوس الأفق الرمادى بعمامة خلت من الأقمار والنجوم .. وتحت قدميه كان يمتد فرش المكان القذر ينشع بالبول ونطف الغرائز الوضيعة . آنئذ : أحس بأنها الكوابيس السوداء رفيقة الرعب - حيث يأخذ عالم الشعور والجسد والروح وزنه الثقيل .

حضرته تلك الجملة (الأحمق والجاهل كلاهما يفتح جفنيه حيث أسقط العماء الضرورة) ، أطبق جفنيه تاركًا جسده الثقيل يزحف موثوقًا بحبال النداء المتقطع : يمده باعة سجق وكبد وكلاوى وفجل وبلح أمهات - هناك أمام وخلف وفوق القنطرة الخشبية - لكل من تخطى الشريط الحديدى مرشدين إلى العزبة .

كان هناك أمام القنطرة الخشبية ، وكانوا هناك باعة سجق وكبد وكلاوى وفجل وبلح أمهات - فوق وأمام وخلف القنطرة الخشبية - بعربات سترها الخيش خشية المطر المتوقع .. عاليها : فتائل غاز تتطوح رؤسها المدببة الصفراء وتزفر الدخان الأسود .. وقد عبر القنطرة متخطياً نداء القاعدة العجوز (أيوة يابيه أنا هه) .. وكلماتها تتكسر مهزومة خلف ظهره - شعر بطعم نصر تحقق لأول مرة (لقد ظفرت بخدمة مجانية) .

بين ذراعى ضباب رمادى هامد كانت ترقد بيوت العزبة : كتلة فاحمة صماء . تخيل طائر الرخ الأسطورى راقداً فوق بيضته ذات الحجم الخرافى كأكبر ما تكون مدن العصر تلك القشرة السميكة الصلبة الملساء الامعة تحت الشمس .. تتكسر عليها حراب عتاة الرماة ، تخفى تحتها طبقة ليفية من وبر الجمال وشعر النساء المتوحشات وصوف الخراف البرية وفراء أرانب الجبل وأمعاء التماسيح والقنافذ ، ثم جوف عميق تسبح فيه أسماك كبيرة وصغيرة وعقارب وأجساد عارية تلتف حولها الحيات .. أنهار جارية بدم النفاس والولادة وليالى الطهور والزفاف : تشق الدروب الغارقة فى العتمة ومواء القطط ونبح الكلاب وعواء الذئاب وهديل الحمام والآه ونقيق الضفدع ونعيق البوم .. خمور مسكوية ولعاب وبصاق وبول وقذ .. وأشجار صبار تتدلى منها غربان ميتة وخنازير

نافقة .. وأجساد لرجال ونساء وأطفال معلقة شعورهم بأفرع شجرة الحشيش النورانية السحب : تنفث من مسامها الأبيض الرمادى الأسود الترابى المغبر على الرحم الكبير الفاغر ينز بالدم والقيح والصديد وترعى داخله الديدان وتحوم حوله الغربان ناهشة ناعقة وتقطر منه مياه الحموم وتضربه الريح الملتاثة والشمس الصفراء .. ريح تصفر وأجراس أديرة وكنائس تدق وتعلو أصوات المؤذنين والديكة فوق أنات الجرحى تحت الأنقاض والمرضى داخل الأنفاق وبطن المناجم وحركة الأرغفة تستوى فى الفرن الساخن .. والجرار تكسرت عن الخمر والعسل والحليب ممزوجًا بدم الأسرى : تتكسر أجسادهم تحت حوافر الجياد .. وفم طفل يمتص ثدى حاضن : يحيط به ذباب البقر والحمير الوحشى اللاسع الطنان .. صفق السلاسل بسيقان الخيول وكرات الحديد .. والسياط فوق ظهور العبيد : تشان .. تشان .. فى مارش الجناز الأبدى تعزفه فرقة الأرض الملكية للخنفس المنتصر والصرصار الحكيم تحت قوس النصر .

اصطدم بحجر – كان يمكن أن يخمن موضعه – وكاد ينكفئ عليه أن يكون حذراً : الطريق يضيق بعد ذلك ويصدع لساناً يمتد داخل الشريط المائى وينتهى بالبيوت ..

ككل مرة : يستدل بأشجار الصفصاف : سوداء ملتوية الأعناق، ودائماً هى رائحة الماء العطن: تنفذ حادة إلى المعدة تهدد نصف زجاجة اليانسون ..

« هو الشتاء اللعين » – قال : « الصيف يسقط – هنا – فى الماء العطن : أقمار ونجوم تستحم مع آلاف الآلاف من الأسماك الصغيرة وترشـدنى إلى بيت زوجتى الصفصافة العجوز » . قال – (أكره أشجار الصفصاف .. أكره أن تقهرنى عوانس الصفصاف المدلاة الشعور) ضحك لأنه أحس أنه يتكلم بجدية ويحزن أكثر مما يجب ، وسمع ضحكاته تتكسر بعيداً فى الرحاب الأربع ، استخف اللعبة ، كان يزعق واضعًا كفيه على فمه (العانس .. الـ .. عـ .. ا ..) ، كان يضحك ثم يبكى وانتظر الصدى المتكسر فى الرحاب الأربع (أجساد نحيلة واطئة .. صدور واطئة .. ثدى واطئ .. الناحلات .. الشاحبة .. فقط شعر .. لا يملكون سوى شعر .. الإناث .. الرجال .. النساء .. الحمقى.. الأنثى ليست شعر .. الحمقاء .. أ .. نا .. ر .. أ .. ا .. جو ... و .. ل .....

* * *

كان مُحاصراً بالسكون والظلمة والتعب – وقد كف عن النداء ، أحس بأن روحه منهكة ، وأنه فعلاً مضطهد ومقهور وأنه حقيقة يتعذب ، شعر بالخوف لأنه مخمور ووحيد ، تذكر حكاية الفتى

المغترب العائد من حرب الحواديت : يطلب موطنه البعيد الخيالى .. وزوجته الجميلة الخرافية .. وفتاه البعيد .. وشيخه الأسطورى ، تفرقت الطرق أمام عينيه .. أغمضها ماداً يده لجنيات الطريق ، هناك فى الكهف الأسود : التّفت حول جسده الأفعى العملاقة ملكة ملكات الجان وظلت تنهشه ، تحت الألم واللذة كان يحلم بهم ينتظرونه فى الموطن البعيد الجميل ، وبالليل يكون البرد .. تغريه بأغطية الصوف .. تضمه لجسدها الميت .. يظل مشدوداً إلى العود اليابس بقوة السحر وأغطية الصوف المحجبة .

حضره كيف جادته عروساً (كان الرجال يحيطونه وكلهم أقاربه ، كانت العروس مع النسوة والأطفال وكلهم أقارب فى الحجرة الأخرى ، قال بينه وبين نفسه : « كيف أتوا بكل هذه الأعداد » أكمل ابن عمه – الشقيق الأكبر للعروس – وكان ألثغ اللسان : « ركبنا الساعة ستة الصبح امبارح ..» ولكنه وقد عرف « زوجه » يتصور الأمر أقرب إلى المعقولية هكذا (النوق تمشى خبباً .. تاركة خلف ظهرها مضارب القبيلة فى الجنوب ، الفتيات داخل الهوادج يحدثن قلوبهن بالبعيد الغريب المخبوء : سرياً وغامضاً ومدهشاً ، يسبق القافلة حصان العروس الأبيض .. يلفها البياض المحلى بالترتر : يشرق ضاحكاً للقمر الضاحك فى الأعالى ، يقود القمر القافلة إلى الشمال – حيث هو العريس ، ومن بنادق الرجال غير المرخصة حكومياً لعلع الرصاص فوق الرءوس الملفعة والوجوه المعصبة والأنوف المثقوبة تتدلى منها الحلقان ، والقمر لعلع والزغاريد لعلعت أيضاً من أجله وأجل عروسه العذراء – وقت ذاك – رقصت بالأناشيد والأيدى بالدفوف وغنت العذارى أهازيج من رجز العجائز المجربات) .

* * *

يمكنه أن يغمض عينيه ويراها تحت لمبة الغاز .. جالسة تنفخ نار « الكانون » .. بوجهها الدخانى وعينيها الدامعتين (سكران يا بن عمى « .. بحزن صخرى وصوت من الكهف البعيد (كلت) .. يجلس على الصندوق الخشبى .. كان جهاز عرسها .. طار غطاؤه المقبى وبات فى الركن تسكنه الفرختان .. ماتزال لفائف الصحف القديمة تغطيه يحفها الإطار الصفيحى المشرشر الصدئ .. وفى الوسط كانت عروس شبيه بعرائس الحلوى فى الموالد تغالب طبقة الدخان وتطل بملامحها التى نقشت بدم الفراخ وعصير الحناء .

* * *

كان الضفدع قد صحا في وعيه وبدأ ينق .. كان يأتي من الشطين ومن جوف الحقول غير المنظورة مقلقاً .. وأيضاً كان يأتي من جوفه ويحدث قلقة يضخمها إحساسه المبهم المرفوض بأن الضفادع ذات الجلود الغريبة والأشكال الحيوانية البشعة تسكن معدته وتجرى فى أمعائه .. كان غير قادر على منع القئ المندفع من فمه وهو يطرد رائحة الضفدع الكريهة .. وشعر ببرودة ملابسه المبتلة .. كانت السماء تسقط المطر على أرض اللسان الممتد الموصل للبيوت وقد سخطت فوق ببرق ملتهب ورعد مجنون .. وكانت أرض اللسان تجرى هارية إلى الوراء بعيداً عن البيوت ، كان المسير والوقوف والتوازن على الأرض الزلقة الجارية للخلف الهارية من قدميه – صعباً بل مستحيلاً ، كان يمنع سقوطه فى الشريط المائى حاضناً شجرة الصفصاف .. ولكن عودها الهش تقصف تحت ثقله ، وجد نفسه فى الماء المتكلس وقد أحاطته الأعشاب واللزوجة والعفن .. وكانت قدماه تغوصان فى السطح الرخو البارد ، وتذكر أن العوم لا يجدى حتى فيما لو كان يحسن العوم ، لم يكن هناك غيره ليصرخ وبناديه .. وكان اللسان يجرى هارباً من البيوت .. كان بمقدوره أن يصرخ .. كان الماء بعيداً عن فمه ..

معطف من الجلد

كان المطر مازال يسقط .. وكان أقل حدة مما كان ، وكان الجو ممتلئاً بالرطوبة تماماً ... وكذلك كان باطن الأرض ، وكانت السحب الدكناء تعد بالمزيد ، كنت قد ابتسمت .. فتسللت قطرات من الماء كانت على وجهى إلى شفتى : أحسست بجسمى كله ، متشبعاً ، بالرطوبة والملح .

كانت أضواء المدينة تبدو من بعيد – فى الظلمة – كنجوم هاوية بين الأرض والسماء المنطبقتين كنت أضرب أسفلت الشارع المبتل بخطوات سريعة .. وكنت أتابعها .. وكانت تعود : بدقات المطر والماء الهارب إلى البالوعات ، كان الشارع خالياً .. فالمطر لم ينقطع منذ الصباح .

كنت قد بلغت سدة الشارع : كان هناك – أمام البوابة المغلقة – ثلاثة أشخاص ، وبدا لى الذراع الأحمر الممتد بعلامة الخطر .. كما لو كان معلقاً ومتدلياً من السماء ، وبدت لى المسافة بين السماء والأرض قريبة جداً – وهكذا كانت تبدو لى دائماً فى الليالى المظلمة حيث المطر .

كان واحد من الأشخاص الثلاثة قد استدار – تاركاً زميليه أمام البوابة المغلقة – وانسل من بين الأعمدة المنتصبة على الخط الحديدى ، وكانت هناك صرخة تحذره – وكنت قد تبعته – فتهشمت الصرخة إلى ضحكة مرة ، كنا قد نفذنا من الجانب الآخر فجلجلت ضحكات الرجلين أمام البوابة ، كان القطار قد مر فتحولت الضحكات إلى مزق – وكنت قد اصطدمت بظهر الرجل – فاعتذرت له : وباعدت بين وجهى وبين التفاتته السريعة ، كنت قد هبطت المنحدر – ومن خلفى كان الرجل ينتظر زميليه – وضربت فى الأرض الخلوية الواسعة : كانت الأرض مجدورة بمئات الحفر : التى تحولت إلى برك صغيرة من الوحل ...

كانت الساعات الباقية من الليل كافية ليصل القطار إلى مدينة « الأقصر » – ومنها إلى « قرية الكرنك » : نصف ساعة « بالحنطور » وثلاثة أرباع الساعة بالقدم ، كنت قد سميتها « إيثاكا » .. وكنت أسمى بيتنا (قصر الشتاء) ، وهناك فى (قصر الشتاء) كان العجوز ينهى صلاة العشاء عجولاً لينام – ربما كان « الآن » يصرخ كالعادة فى إخوتى الستة : ناموا .. لتأخذكم الدواهى .. «أنتم ستة والواحد منكم يفلق بلد» فى خطابه الأخير – قال إننى أخلط : هم ثمانية – ثمانية الولد

رمضان ، والبنت ؟ وكان على – أنا – أن أسميها ، وقال : الملعونة تبكى دائماً ، ربما كانت تبكى – الآن – وربما كانت نائمة (للصغيرة – قطعة اللحم الحمراء – يا جامع السحب .. الحليب .. لا حل عندك .. المعزة وأمى) – هكذا – لكن ربما كان الآن يعرف كل شيء... (إنهم يقلبون عليك الدنيا: اترك هذا المكان وابحث عن مكان آخر – كان صديقى (خليل) وكنا نسكن سوياً ، وكنت أحبه – قال : إنهم هم – لا هو – وإن اليوم الأحد ، ونطق بالأب ، جابون ، و، بالأحد الدامى، .. وقال : اترك هذا المكان فوراً ، قلت لماذا ؟ قال : إنه الجنون – وأن الأرض تدور وإننا فى ١٩٦٦ ، وكنت أعرف ، وقال : نحن الذين نطعم الجواد وتحت الحافر يسقط البشر وقال : نحن نصنع المأساة ، وتحدث عن البورصة والنقابة والسلعة والقنبلة والمعسكرات والعمل – ولعن الساسة وتكلم عن الكرملين والرايخ ، وذكر البيت الأبيض والحمائم البيضاء والحريات والأناشيد التى يهبها ديكارت الفرنسى مجاناً ، وكنت قد صرخت فيه .. لماذا ؟ وقال : إنه لا يدرى ، وقال : إن الحربة لا تسقط مطلقًا فى المنحدر وكنت أرتعش ، وقال : هى فترة بالسجن .. ولن أقتل ، وقلت : لست خائفًا ، وقال: هل تفكر فى .. ونطق بالأوليمبية ؟ – وكان يقصد تلك التى أحبها ، وقلت : لا – وكنت فى حضنه – وقال : إننى خائف فلماذا أنكر ..

كنت قد مسحت الطين العالق بحذائى – والباقى تلك الارتعاشة بأطرافى وبالداخل ، وكنت قد دققت الباب وجاءت حركة من الداخل ثم سكنت – فعاودت الدق ، أدرت ظهرى للباب : أمسك بقليل من الشجاعة – وحتى لا يفاجأ . كان المطر قد كف – الآن – وكان ظلى يرتعش وهو يسبح – هناك – متكسراً فى حفر الوحل الصغيرة وكان مصباح الشارع البعيد يمد له حبلاً واهياً من الضوء .

عندما فتح الباب – لم يصدق إنه – أنا ، كان وجهه مليئاً بالدهشة ، سحبنى للداخل ، كنت ألهث بين ذراعيه العملاقتين وصدره ، الأخيلى ، الهائل ، أطلقنى وهو ينشج : ازيك يا .. وتنبه إلى باب الحجرتين المفتوحتين – فوارب باب إحداهما – سألنى : قلت شوقى ، ضمنى من جديد فى غلظة : مش معقول .. الواحد فى حلم – قالها بفخامة ووجهه يطفر بالبهجة ، كانت لحظة مناسبة لأطلق دموعى بلا خجل ، قال وهو يحيطنى بذراعيه وكأننى ابنه : ولا يهمك شدة وتزول .. اقعد – وأشار إلى كنبة بالصالة .

كنت متشبثاً بالأرض – بقدمى – وقد ضممت فخذى ، كان الباب – الذى واربه – قد اتسعت فتحته قليلاً .. وكان الضوء الأحمر يزحف بظلاله – مع ضوء الصالة – هناك فى الحجرة الأخرى المفتوحة : تعلقت بساق الطفل – النائم – العارية لأهرب من عينيه ، عندما وضع يده على فخذى

تأرجحت الصورة التى بأعلى الباب ، عندما نظرت إليها من جديد كانت ثابتة ، سألته : نابليون ، لم أكن أطلب الجواب – فقط كنت أود لو أمسك بطرف الخيط ، أجاب : لا .. ده بتهوفن لكن ازاى هربت ؟ طبعاً تعرف ما حدث ، لفلان ، و، فلان ، لقد سألوا عنك ؟ وضحك مشيراً : إن للحائط أذناً .. وإن الظرف .. وقلت : أعرف ، وقال : ازاى هربت ؟ قال – وقد صمت : والله راجل ، رددت وقد انتابنى زهو : إنهم يبحثون عنى فى كل مكان .. بالصعيد .. فى العاصمة .. بالمقاهى .. سألوا كل معارفى ، قال وقد انتفض قائماً : أعملك شاى – ورجع بعد أن مشى خطوتين – أنت أكلت ، صمت ، قال : هنا فى البيت مفيش أكل .. ح أخرج أجيب من بره ، قلت : لا ، قال : لكن .. قلت : لا .. هات سيجارة ، كان قد توجه إلى المطبخ ليصنع الشاى – بعد أن أشعل لى السيجارة .

كنت أنظر إلى لسان الضوء الأحمر وهو يلعق ساق الطفل العارية – عندما اختفى فجأة – وسمعت خطو أقدام عائدة وجسم يتكسر على السرير فى الحجرة الأخرى (الشقة من حجرتين : حجرة له ولزوجته وحجرة للأولاد .. يمكننى أن أنام مع الأولاد ، كنت أنام وثلاثة من إخوتى الكبار على سرير واحد .. كانت البقية تنام مع العجوزين على سرير واحد .. ولكن العجوز يصر فى خطابه الأخير على أنهم : ثمانية .. ثمانية) .

جاء صوته الغليظ من المطبخ مصطدماً بالمطبخ وبالسقف وبصمت الليل والأرضية والآثاث واطمئنانى النقى : على فكرة هنا فيه قراقيش ، لم أرد ، لقد قابلنى فى احتفال رغم أن صلتى به ليست بالوثيقة ، لقد قال لى أكثر من مرة إننى يجب أن أزوره فى بيته ، وعدته أكثر من مرة ولم أذهب ، فى كل مرة كان يقابلنى كنت أتذكر موعده ، كان يعاتبنى ويؤكد لى أننى يجب أن أزوره فى بيته ، اليوم : جئت بالعنوان الذى كان قد أعطانيه أكثر من مرة .. وجدته مصادفة وأنا أحرق بقية من أوراق كانت معى ، كان طيباً فى مقابلته ومحتفلاً ، كان كما قال عنه صديقى الذى عرفنى به : محمد شهم .. فلاح بما تحوى الكلمة – كان صديقى يقول هذا وعينه لا تفارق الوشم المنقوش على صدغ محمد – قال صديقى : إن محمد من عائلة ريفية ضاربة فى الأرض .. وإن مظهره قليل من مخبره .. وإنه شهم – هذا ما يهم – قد أبقى عنده لمدة أسبوع حتى أفكر أو أجد مكاناً آخر – ستكون درجة الجنون الذى يطاردنى قد هبطت قليلاً – محمد شهم – حتى – لم يسألنى كيف عرفت البيت بمفردى .

كان قد جاء بالشاى وسألنى : تشرب ميّه ، قلت : شكراً ، قال : يا سلام أين كنت عندما ، قلت: حيث لا مكان ، قهقه فى ضجيج : حيث لا تاريخ .. لا .. قاطعته : ممكن أفضل عندك

أسبوع ، قال وقد ابتسم ابتسامة عريضة : ممكن ، أعطانى سيجارة وأشعلها وأشعل لنفسه واحدة أيضاً، كنا وكأننا فرغنا من الكلام تماماً – أنا وهو – : الصمت ورشفات الشاى ، ونفثات الدخان ، بعد لحظة – قام وتوجه إلى الحجرة المفتوحة : أمسك بالغطاء ولفّه حول الساق العارية ، قال – وكان قد قفل باب الحجـرة وعاد : الولد الكبير يلم الغطاء عليه ويعرى أخوه الصـغير . وده حال كل يوم يا سيدى – وصمت – بس تعرف يا .. شوقى أنى مراقب ، قلت وقد توقفت عن شرب الشاى : لم ؟ وقال : لا أعرف .. ممكن .. إنما الأولاد .. شيء صعب والله ، قلت : سأبحث عن مكان إخر .. كنت أنظر إلى الوشم الأخضر على صدغه وكأننى أتعلق به ، وكان هو – ينظر إلى الصورة المعلقة فوق البـاب – ضـحك – وقال : يا راجل ازاى تخلط بين نابليون وبتـهوفن ، كنت قد فرغت من نصف كوب الشاى، قمت .. قال : أشوفك . قلت : طبعاً كنا أمام الباب – وكان راغباً فى أن أكسر – أنا – هذا الخجل الذى يمنعه أن يحتضنى ، مد يده – كنت قد مددت يدى ، قال – وكان ظهرى له: مع السلامة ، كانت السماء قد شدت قوسها وأطلقت تجاهى سهماً من نار ، تراجعت فاصطدمت بضلفة الباب المقفلة ، تنحى بجسمه الهائل عن الضلفة الأخرى – وقال : ادخل .. قلت وأنا أدارى خوفى بالضحك .. دائماً .. منذ كنت صغيراً وأنا أخاف البرق ، قال : ادخل وانتظر .. كنت قد شددت ياقة ، الجاكيت ، إلى أعلى – قلت : إنه من الجلد وخصيصاً للمطر .

حصار طروادة

كنا صباح الأحد ، وكنت حزيناً ، وكانت الصحف – الثلاث – ترحب بمقدم الربيع ، وكانت الإذاعة المصرية تنشد تقرير مصلحة الأرصاد الجوية : « الجو اليوم رائق .. اليوم السماء صحو . اليوم الشمس مشرقة ، عموماً الطقس جميل » ، ألا أنتى .. لقد فاجأني الخنزير – قلت – وكنت أقصد الحزن لا الربيع ، ورأسى تحت الصنبور كنت أحدثه (الحزن طبعاً) : « عنى إلى الجحيم .. عنى .. سنوات وأنا أجالد (مع الماء المتساقط من رأسي بالوسخ اختلطت دموعي – كنت أبكى) ، وأنا فى الشارع – أوقفت شخصاً كان يمشى بسرعة : سرعة من هذا النوع الذى يجعلك تنحنى كعيدان القمح التى تريد أن تحمى سنابلها من الريح الداهمة المتوجهة (بأمر أرتميس طبعاً) نحو السفن الأثينية المتوجهة بدورها إلى طروادة وهيلين (كان أجاممنون قد ذبح إفجينا بالطبع) ، أوقفت الشخص وأفهمته أن ليس معى كبريت وطلبت سيجارته المشتعلة لأشعل سيجارتى ، وقلت له وقد ابتسم : أمامك أمر مهم ؟ . قال بالطبع .. وأشار إلى دار سينما قريبة من المكان : أمامها طابور هائل من الراغبين فى فيلم « الصقر » ، الصقر : قصة كتبت بالدم والنار على رمال الصحراء .. اختيرت له قلعة منيعة بوسط الصحراء يحيط بها عشرات من مصورى السينما وآلاف من الفرسان) ، وقال إنه لا مانع من أن يصطحبنى ، وقلت له إن حزنى من هذا النوع الذى لا يحتمل التراجيديات ، وأفهمنى بطريقة ساحرة (طريقة يجيدها معلنو الإذاعات التجارية .. (كأن « أسبرو صديقك » .. « الواحدة والنصف ودقيقتين حسب ساعتى ماركة تيتوس ») ، أفهمنى أن الفيلم كوميدى وأنه بطولة « فؤاد المهندس » (ممثل مصرى هزلى شهير : مثل ٣/٤ أفلام القطاع الخاص و ١/٤ أفلام القطاع العام ، والمجموع واحد صحيح وتحتسب هكذا : ٣/٤ + ١/٤ = ١) ، وقلت له : الآن – لا مانع عندى ولكنى أفضل الهرم (كنت أقصد تلك المساحة الصحراوية الهائلة التى تسكنها أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع الثلاثة) ، وضع يده ثم لفنى بذراعه وقال : استريو الهرم .. طبعاً تقصد ؟ ، ولاحظ وجومى فسألنى : ألك صديقة ؟ ، قلت : بالطبع .. ، قال : أنت صديقى ، وتوجه إلى محل قريب وأدار قرص التليفون : كان يتحدث ويضحك ويضحك ويضحك – ثم طلب منى أن أحادث صديقتى ، أدرت قرص التليفون واتصلت بها وقالت : إنه لا مانع عندها وستأتى حالاً ، ودفعت لصاحب المحل العجوز ثمن مكالمتى ومكالمة صديقى ، وقال الرجل العجوز إن صديقى تكلم

مدتين ، ووجدت صديقي يمسك بعنق العجوز ويكاد يزهقه ، أفلتهما فوجدت العجوز يمسك بعنقي : كنت أغوص في تيار من الراحة تحت قبضته ، ولكنه ضايقني وأشعل معدتي برائحة فمه الكريهة، خلصت نفسي منه بمعاونة شاب (من النوع الذي يعلق شنطة رياضية مرسوم عليها مضربين متقاطعين أو صورة للملاكم العالمي « كلاي » أو أي شيء من هذا القبيل) ، دفعت ثمن ثلاث مكالمات وتوجهت إلى محطة الأتوبيس ووجدت صديقي هناك وبصحبته فتاة سمراء عقصت شعرها من الوسط وأخلته سائباً للخلف كذيل الحصان ، كنت غاضباً (غضب من هذا النوع الذى حدثنا عنه هوميروس عندما طلب من ربات الشعر أن يلهمنه التغني بغضبة ابن بيلوس الذى ترك المعركة الطروادية الشهيرة وبصحبته فرسان المورميدون بسبب وقاحة أجاممنون قائد الجيوش) كان يضحك وكنت غاضباً وقال وهو يقدمني لها : صديقى ، قالت بلهجة ساحرة « آن شانتيه » ، (نفس الطريقة التر استخدمتها الممثلة الإيطالية « صوفيا لورين » في فيلم – نسيت اسمه كما نسيت الموقف أيضاً – ولكنى متأكد أن « صوفيا » لم تكن تلوك « اللبان » لا أعتقد أن غضبي كان سينطفئ (خصوصاً وأن صديقى نحيف جداً) لولا اهتمامي الشديد بنظرات من يحيطون بنا (قطعاً سحرتهم الطريقة التى تقف وتلبس وتتحدث بها فتاة صديقى « صوفيا لورين ») ، بعد لحظة جاءت صديقتى وركبنا الأوتوبيس ، تم التعارف بسرعة ، ووجدت غضبي يتلاشى إلا أن حزنى الثقيل ظل ثقيلاً (لأن عمره عشر سنوات) ، ووجدتنى أعاتب صديقى بطريقة لطيفة عما حدث وعن تركه لى وعما.. ولكنه أخذ يضحك ويضحك ويضحك وضحكت الفتاتان (وهذا ما أغاظنى)، ووجدته يقف فجأة ويصرخ في وجهى أننى لقيط وأنه يعرف كل شيء وأننى ابن فلان بالتبنى .. وهكذا ، وهكذا وجدتنى أفضل الانسحاب على البقاء معه (رغم أن اليوم مشرق وجميل وصالح للنزهة بصحبة الأصدقاء) وقلت لفتاتى : سأنزل في المحطة القادمة ، وقالت : إنه لطيف وإنه يشبه فؤاد المهندس وإننى فاقد لل « هيومرسنس » – وكانت تعنى أننى لا أتحلى بخلق كوميدى ، وقلت لها : إننى حزين – حزن من هذا النوع الثقيل .. عمره الآن عشر سنوات ، وقلت : فاجأنى هذا الصباح (الحزن المفاجئ مرض عصرى يعرفه المثقف عندما يصطدم وعيه بشروط التاريخ فيصرخ : « هذا سجن .. هذه محكمة .. إنه حبل المشنقة .. هو الشارع ، أنا مفصول من عملى – يقولون : إننى قاتل .. إننى سارق .. إننى .. هؤلاء غرباء لم أقابلهم قط ، مولاى الشيخ وسيدى القس – لكنها الحياة الوحيدة الممكنة ، انتهى الأمر .. إنهم على حق .. لقد كانت حياتى ، والمسئول هذه الطريقة التى أفكر بها .. يمكننى أن أكون حزيناً) قالت : إنه لم يخطئ وإن الطقس بديع والجو مشرق وجميل وإننا ذاهبون إلى استريو الهرم بصحبة الأصدقاء ، قلت لها إننى أعرف مكاناً أفضل وأناساً أفضل ،

وإننى حلمت بالأمس أننى : (كنت أجلس فوق ذؤابة ، جبل إيدا ، وكنت تجلسين فوق ذؤابة جبل ،بيرجاموس ، وحملت ، أرتميس ، الشهيرة ، وكنت تلبسين ثوب باليه طرزته ، أثينا ، ذات العينين النجلاوين ، وظللنا نرقص على أنغام ، أبولون ، وكان ، بوسيدون ، رب البحر يقذف بالحصى والأحجار من البشر تحت أقدامنا) : بشر من هذا النوع – وأشرت إلى شبيه فؤاد المهندس ، وقالت : إنها تفضل استريو الهرم ، ولم أجد مفراً من أن أعلن غضبى وأقف مخلياً مكانى معلناً أننى سأهبط : المحطة القادمة ، وقالت له وهى تبتسم : إننى أركب رأسى دائمًا .. ودائمًا عنيد ، وقالت إنها سيئة البخت ، ووجدت الشاب يضع يده على كتفها ويلاطفها لتكف عن البكاء ، ونظر إلى وأفهمنى أننى حيوان ، وما هكذا تعامل بنات الناس وأننى لست ، جنتلمان ، وأننى أيضًا جاهل (كان يقصد أن الطقس رائع والشمس صحو واليوم جميل وربما الريح مواتية) ، والحقيقة لقد فاضت نفسى، ولم أعد أحتمل (لو كان الشاب ضئيل الجسم لمزقته) وقررت أن أهبط : المحطة التالية مباشرة ، (كانت قد فاتتنى ثلاث محطات بسبب إقناع صديقتى وسماعى لكلام الشاب الرقيع) ، كان الأتوبيس قد توقف وحاولت أن أخلص نفسى من الوسط ولم أفلح – كنت قد تزحزحت حتى أصبحت قريبًا من الباب ولكن الأتوبيس تابع سيره فقررت أن أهبط المحطة التالية مباشرة ، وعندما توقف الأتوبيس حاولت الهبوط وزاد أملى عندما وجدت شخصًا هائل الجسم يدفعنى إلى الأمام – لكن : ناس كثيرون ركبوا من هذه المحطة مما جعل الشاب الهائل يدفعنى بشدة إلى جانب ويهبط ، وسمعت ضحكة الأربعة من الخلف (مؤكد أن فؤاد المهندس قال نكتة) ، صاروا ستة .. سبعة .. كان كل من فى الأتوبيس يشاركون بالضحك .. ضحك .. ضحك ، (جيوش أثينا تزحَف ، والخالد يرعد من فوق أوليمبيوس ، والبحر ينظف نفسه : أندروماك حزينة .. بنيلوبى تنتظر ، سهم باريس جميل طروادة – فى كعب أخيل ، وسهم أخيل – أثينا – فى صدر هكتور ، طروادة ، وسيف هكتور يحتضن المجيد – درع أثينا – ابن تيلامون ، سقطت عشرة أعوام .. سقطت طروادة – ها هى المشاعل تقول يا تليماخوس الصغير ، وعشر سنوات للعودة يا أوليس : إيثاكا جميلة .. إيثاكا بعيدة .. إيثا ..) ، كنت أضغط نفسى لأبكى ، وجدتنى أغرق – أنا الحزين – فى الضحك .

الوارث

سرقت مطواة جدى : ذات الحدين .. والمصدّفة بناب الفيل ، أخفيتها وسط حبات البامية اليابسة ببطن الجرة المكسورة الرقبة – حتى لا يراها خالى عندما يزورنا فيأخذها .

قالت أمي : لقد أخذ خالك كل شيء تركه جدك .. وميراثنا أكثر من قيراطين يدفع إيجارهما.

كانت تنقل الأرغفة اللينة من الظل إلى بقعة مشمسة على السطح ، قالت : إنني لو كبرت ، صرت شيئاً آخر غير أبي لأخذنا كل ميراثنا من خالي وهو أكثر من المطواة والقيراطين بكثير ، وقالت : إن أبي كان متسامحاً عليه الرحمة .

حين رأتني أطلع النخلة ورأت بحزام قميصي مطوة جدى ، خبطت صدرها خبطتين خائفتين، ليتني لم أحصل على المطواة من خالي – هكذا صرخت من أسفل ، وحضنت أنا عود « البكرية » نخلتنا بصدرى وكلتا ذراعى ، كانت تخاف على من « البكريه » فهى عالية عالية .. وأمي ليس لها فى الدنيا غيرى ..

قطعت جريدتين من « البكريه » بمطواة جدى .. وصنعت شبكتى المثلثة .. جعلت الرافعة على شكل صليب .. وخطت فى تجويف المثلث ثوباً من الدانتلا – كان لأمي ولم تلبسه إلا ليلة العرس .. جعلته مستطيلاً وخطت قطعتين فيه ..

لم يعد قلب أمي – بعد ذلك – ينخطف بعيداً حيث المقابر وأبي فقد كففت تماماً عن طلوع البكريه .. عشق صيد السمك من الترعة التى تحزم البيوت ، أمي هى التى حصلت على «القرعة» .. تطفو فوق سطح الماء وأتعلق بها .. أحضنها بكلتا ذراعى .. هكذا على صدرى .. وتظل تسبح بى ونطوف حول البيوت والماء يتقافز خلفى .. أصنع كل ذلك بتحريك الساقين ..

هناك فوق سطح الماء يطفو الجسم .. يكون خفيفاً كريشة حمامة ، أضرب الإمام بقوة الذراعين .. والخلف بكلتا الساقين .. أسمع صوت الماء يملأ أذنى .. بذلك يصبح بعيداً ولا يصلنى نداء جنيات القاع .. وأكون قد أحسنت العوم .. ولا يطير قلب أمي شارداً بين القبور والأرواح السوداء بحثاً عنى ..

كان الماء يتسرب من ثقوب الثوب ويبقى لى السمك الصغير .. يتقافز دائماً .. وأكون حريصاً من جانبي ألا يطول الماء .. عندما يسقط بكيس الشبكة السفلى – الراقد فى الماء – يكون قد يئس ولكنه يظل يلعب .. وأبتسم أنا : فسأحتفظ به طازجاً حتى نهاية اليوم ..

حين اصطدت تلك السمكة الكبيرة : ظلت تفتح خيشوميها وتغلقهما ، كانت عيناها مطفأتين تائهتين تدوران في المحجر – ولكنهما كانتا مشدودتين إلى نقطة ما في الفراغ الواسع .

غرفت بالكفين من طين الجرف وصنعت لها حوضاً .. ونقلت إليه الماء ، كانت تسبح فيه ورأسها مرفوع دائماً إلي أعلى .

وقد وصلت بيتنا : كانت هي قد كفت عن الحركة تماماً – وإن ظلت العينان مفتوحتين .. كذا الخيشومان ، وكانت العينان تبرقان بلمعة غريبة .

شوت أمي نصفها .. وصنعت من النصف الآخر ، طاجن ، متبل .

بالليل : جاء خالي لزيارتنا ، أكل من النصف المشوى ، ولم يقرب الطاجن .. كانت معدته مريضة من حوالي العامين – قال له هذا طبيب الصحة ، قال خالي : هكذا أنت شقي ، وأعطاني قرشاً . قلت لأمي – بعد أن مشى خالي : : عندما أصبح كبيراً لن يعطيني قرشاً .. حتى ولو اصطدت التمساح الذي أكل لحم ، هنيه ، الأبيض ، ولفتني أمي .

فوق السرير الجريد على السطح كنت أحاور النوم كعادتي : وكان ينزلق بمساعدة شعره الحريري الناعم ولكني كنت ألمس شعر بطنه الخشن ، تشاغلت عنه بالسماء الدوارة وحاولت عد النجوم : كانوا عشرة ،عشرة وعشرة ، ثم توقفت عن العد ، فكرت في هنيه زوجة ، الجمسي ، ، وجدها نائمة مع خولي عزبة ، بدران ، ، كانت هنيه عارية تماماً ، وكان الخولي عارياً تماماً ، قتلها ، الجمسي ، ، وقتله ، لف هنيه في ملابس الخولي ولف الخولي في ملابس هنية ، حمل الجثتين داخل شوال كبير ورماهما للسمك الصغير والكبير وديدان الماء – ولكن التمساح أكلهما . وطالت لحية الجمسي وطالت أظافره وطال شاربه وغطاه الشعر ولم يعد في حاجة إلى ملابس – هناك حيث يعيش شارداً في البلاد البعيدة .

كان الهواء الساخن يرقد جامداً بلا حركة في الجو من حولي .. وكان رأس الجمسي يطل من فوق نخلتنا شديد السواد .. وكانت عين الشمس المملوءة بالجمر الأحمر قد تقلبت كثيراً على سطح بيتنا ذاك النهار .. وأشعلت الجدار الملاصق لجانبي الأيمن ، لكني كنت أرتعش كفرخة مذبوحة بسكين ذات حدين ، كنت أحس جسمي بارداً .. وكان قلبي يتقافز بين ضلوعي .. خفت أن يطير بعيداً عني : حيث القبور وأبي والأرواح السوداء والبوم الناعق والجمسي الشارد .. صرخت وانغرست أكثر في حضن أمي ، قلت : هي غيوم سوداء وكثيفة تتحرك أمام مقلتي العين ولا يعود الإنسان يرى .. أليس كذلك أصبح ميتاً ؟! ، قالت أمي : حتى متى تظل صغيراً ، ضمتني إلى صدرها وظلت تمشط شعري بأصابع يديها المرتجفتين ، قالت : متى تكف عن هذه الأحلام لتحمي نفسك من الكوابيس السوداء .

طاحونة الشيخ موسى

كأى رجل تزوج . تزوج الخواجة (يسّى) .

وكأى امرأة ولود .. أنجبت زوجته ابنهما (نظير) .

وإذا كان الله وحده هو الذى يعطى ويأخذ – فقد عطى الله كثيراً وأخذ الكثير أيضًا ماعدا – نظير – فقد أبقاه الله ، ليأخذ من الدنيا نصيبه .. ومن والده اسمه ولقبه ومتجره الوحيد .

كان نظير يسّى شبيهًا بوالده تمامًا – ومن شابه أباه فما ظلم – تاجر القرية والمتصرف فى تموينها من شاى وزيت وسكر وغلال وما يستجد من أعمال ، تداول الدكان بحرص والده .. لم يطل له سقفاً ولم يطق لافتة ، ولم يعط الأقة أقة ولا الرطل رطلاً .

دورة الأيام وبعدها ، وتعاقب الخلف للسلف هو الذى غير من الخواجة نظير شيئاً ما .. ليجابه به أصحاب العقول المتفلسفة – على حد قوله – اشترى راديو ماركة (صوت العرب) صغيراً ، وعدداً من علب السجاير الفرط وورق البفرة والمعسل ، وبعدها – جاء بصندوق للحلاوة الطحينية . وأمام الشلة التى تكبر يوميًا لسماع القرآن ونشرة الأخبار .. استعمل وابور السبرتو والكنكة لعمل الشاى وتوزيعه لقاء نصف قرش للكوب الواحد .. لا يستثنى من ذلك أحداً سوى (ستّى أبو سيفين) خفير الدرك والذى يقع فى دائرته متجر الخواجة نظير ، وعملاً بمبدأ المرحوم والده – فكر تكسب وفتح عينك تغرق فى بحور الدهب – فكر الخواجة نظير وبنصف عين فقط عثر على ماكينة طحين نصف عمر . وبعدها جاءت المتاعب تباعاً .

ما أن اكتمل البناء وجاءت المكنة ، حتى هاج هياج القرية ..

صحيح أنه ليس بالبلد طاحون واحد للغلال وأن النسوة يذهبن (بخبزة كل يوم) إلى المدينة ، وجنيهات ستدخل جيبه ووداعاً يا قروش – ولكن – ماذا يفعل للشيطان ؟ ما الذى ركب عقل القرية ؟

بسببه سيضيع شهراً استغرقه البناء .. ومبلغًا وقدره فى شراء ماكينة (خليل بيه أبو زيد) وجنيهات مضمونة ستدخل جيبه . بنشكر ربنا وبنحمده ع النعمة صبح ومسا .. والشيطان ما العمل فيه ؟ ما العمل ؟؟

أيحصل فيه كل هذا لمجرد أنه يريد أن يوفر للقرية طول المشوار ، ويريح نفسه من فلسفة مستمعى نشرات الأخبار وثومة وحليم وتلحمة « سنّى » خفير الدرك ، ولكنه هرب من المعصر ليقع فى الطاحون - كما يقول المثل ، اش فلسفة .. واش حواديت تحكى .. وكلام فارغ عن قرن التور اللى شايل الدنيا ، قال كلام كتير .. ومن يسمع ، استشهد بكلام ناس عقلاً .. ولا حد قاله انت فين .

يا خلق يا هوه ، حانقصر المشوار للبندر ، والطاحون أهى فى بلدنا ، وزيتنا فى دقيقنا ، وربنا يكفينا شر الحوجة .

- أولاد إيه اللى تترمى داخل المكنة عشان تدور .. بالشرف الكلام ده مالهوش أساس ، أنا حاأشغل أسطى عنده عشر سنين خبرة .. حيدوّر المكنة بدون عيل يترمى جواها .

وتصطدم كلماته بالحائط الأخرس ويتردد صداها رجفة بقلوب أباء يعبدون الأبناء . وأمهات يفضلن تعب المشوار وشقاء العمر ولا المصيبة فى الولد ..

والعمدة يلطع بكلماته ويقذف فى وجه الخواجة نظير وكأنه نذير الشؤم .

- يا خواجة أنا مسئول هنا عن كل روح فى البلد .. ما يلزمناش مصايب .. كفاية اللى بنشوفه فى البندر من المأمور ووكيله .. احنا ناقصيين لإيه واللاّ إيه .. مش كفاية الخناق على الميّة والزرع وسرقة الدرة ؟؟ يعنى ماهو احنا من عمرنا بنشوف المكن مايدورش إلا إذا أكل عيل صغير .. مش كل المكن بيصرخ (توت .. توت ..) يعنى انت حاتغيره يا خواجة نظير .. والا ماهو احنا بهايم .

ويصرخ الخواجة نظير :

- ياخلق ياهوه .. الطاحون حتدور قدام عينيكم .. شفوها وبعدين اتكلموا .. أنا صرفت عليها دم كبدى .. شهر بنيان ، ومكنة بالشىء الفلانى ، وشقا العمر يضيع .

ويهتز الحائط الإنسانى فى قسوة وتبرطم شفاه ، وتنخلع القلوب على الأكباد ، وتتلاطم الأيدى وكأنها تطلب رأس الخواجة نظير .

ويعلو صوت الخواجة ليكتم الصيحات :

- المكنة قديمة .. قديمة يا ناس .. يعنى لازم أقول .. أدينى قلت .. ارتاحوا .. اشتريتها من خليل بيه أبو زيد بتاع البندر .. ما يلزمهاش عيل .. قديمة .. مكنة قديمة .. ارتاحوا كده .

ويرد واحد في تساؤل مريب :

- إيه اللي خلاه استغنى عنها .. ؟ لازم عطلت وعايزة عيل تاني .. ماحناش هبل يا خواجة -
وينبرى الخواجة نظير ليسكت الصوت الشيطاني ولكن واحد ينسلخ من البناء الآدمي ويزعق :

- مش معقول المكنة تدور من غير عيل .. بلاش منها يا خواجة .. ش [يا شيخ موسى .. الشيخ بيقول احرصوا على أولادكم من طاحون الخواجة .

وتنتاب البحر الإنساني نوبة صوفية ، فيهوم في سماء المجهول والرجفة تأكله ، ويمصمص الخواجة شفتيه ، ويأخذ وجهه وضعاً غير متناسق ، ويفتح عيناً واحدة يزن بها المكسب والخسارة ، وينظر إلى محدثيه خشية أن يخرج من سرّه هذا الكلام فتكون نهايته .

- (يا دنيا .. قال الشيخ موسى .. يا ناس الواحد فيكم تأكل ضهره الشمس لغاية ما يتلايم على اللقمة .. يقوم يشترى باكو معسل لمزاج الشيخ ، يحرم نفسه من فردة حمام ولا فرخة مربيها .. ويطفحها للشيخ ، وجعتم دماغنا بالشيخ .. الشيخ .. الشيخ .. على مين الشيخ بتاعكم دا ؟ .. هو الشيخ موسى وأنا نظير ولد يسى .. الطاحونة حتشتغل .. برضاك وغصب عنك يا شيخ موسى . عايز من ناس البلد إيه ؟ معسل وأكل ؟ يا أخي الله يرزقك ويرزقنا . كله عايد علينا وعليك وعلى الولد من بعدى .. طيب أنا حاخسر النهاردة - لكن بكرة بديني كله مكسب .. كله دهب ، عايز مني إيه ؟ .. لفة معسل وأقة حلاوة .. حاخد همك .. كله يهون في حب الولد والمال .. دى الطاحونة دهب .. دهب يا خلق تعبانة ، وبالشرف من بيتى بعد سنة لأبنيلك عمارة في البندر يا مفيد يابني .. وبس تكبر ما يرضيني بنت (اندراوس باشا) عروسة ليك ..

وأفرج عن ابتسامة مكروبة ، وفتح كلتا عينيه ، ودار بالحشد القانع بالنصيب :

- (رضينا بالشيخ يا جماعة .. أنا وانتو والعمدة نروح له .. يا ناس دا كله بركة .. قدمه تدخل الطاحونة ونعمة ربنا تحل فيها وتشتغل .. المكنة مايلزمهاش ولد لو دخلها الشيخ .. مدد يا قطب يا كبير .. مدد .. كراماتك يا شيخ موسى ، دا له ندر عليا من زمان .. من يوم ربنا ما رزقني بمفيد .. حاخد له لفة معسل وأقة حلاوة طحينية .. وأنا أقطع إيدى لو المكنة ماشتغلتش .. دا كله بركة ..

ويهرول إلى الدكان ويخرج وبيده اللفة ويتبعه كطابور صامت إلى الشيخ موسى ، فعنده الحل والخلاص ، ويستأذن على الشيخ ، وينطقها الشيخ كالقنبلة :

– النبى قبل الهدية .. لكن المكنة لازمها عيل صغير ..

ويرتجف الخواجة نظير ..

– بركاتك يا شيخ موسى .. مددك واسع .. قد الدنيا .. مقامك كبير وتحصل .. بس انت أدخل الطاحونة وكله يتفك لجل خاطرك .

ويمتد تيار كهربى من فم الخواجة نظير يسرى فى الجمع ، وتردد القلوب الخائفة عل الصنا الغالى :

– يا واسع المدد مدد .. كرمك يا حضرة الشيخ .. عشان خاطر قبر النبى حبيبك .. ويبلع الشيخ موسى ريقه مرات والخشية على نفسه ومقامه من الأسطورة التى ستحطمه ، وفى رأسه طفل ممزق الجسد .. دمه يسرى فى تروس المكنة الملعونة .. والصرخات التى أفزعت طفولته الساذجة (.. توت .. توت ..) والصيحات تستعطفه فى إرغام .. وساقاه مدفوعتان إلى المصير فى زحف أسود .. مقيت .. كريه .. ولا فكاك من النهاية ولا سبيل إلى الخلف : الجبل البشرى خلفه ، والبحر الأسطورى أمامه . ومن بعيد قبة ملعونة رأسها فى السماء .. ستصبح فيما بعد أعشاشًا لغربان الخراب التى ستنهش لحمه وتصعد إلى فوق .. فوق . والأسطى قذر ملعون كالشيطان الذى ركب عقل الناس – هذا اليوم – وابتسامة قاهرة .. ويده صلبة هذا الملعون تشد الذراع فى لفات سريعة واثقة ..

– ويا واسع الكرم ، ويا ..

وتصر التروس فى طحن مكتوم من قلة الزيت ، وتشتد القرقعة وتعلو الصرخات (توت . توت.) وتلطع زغروتة .. وتهمهم شفاه بالخلاص .

– مدد يا شيخ موسى .. يا قطب .. يا واسع المدد .. مدد .

ويتشعلق الخواجة نظير على أكتاف الزفة ليعلق لافتة كبيرة بأعلى الحائط :

(.. طاحونة الشيخ موسى ، لصاحبها الخواجة نظير .. وابنه مفيد ..) .

محبوب الشمس

غرس محبوب قبضته الصغيرة فى مجرى الميضة ، وقلب طبقة من الطين بحجم كفه ، ومضى يفتش بأصابعه النحيلة عن الدود .. ألقاه فى كوز من الصفيح .. ومضى صوب ، ترعة الدم ، شرق البلد . حاملاً كوز الصفيح بيد وحاملاً باليد الأخرى عوداً من الغاب ، بطرفه خيط ينتهى بسنارة من نوع الهلب الصغير .

ومحبوب فى الخامسة عشرة من عمره .. قصير جداً .. ونحيل جداً .. أبيض شعر الرأس .. وكذلك كان لون حاجبيه .. ومن هنا كان الشيخ كامل إمام مسجد ، أبو عوض ، يتأمله فى صمت المؤمن .. ويدور فى فلك الحكمة الإلهية التى تنبت الدود فى بطن الحجر ، والتى أثمرت هذا القزعة من والد طول السيمافور وأم فى حجم الدرفيل .. والحاج خليل والد محبوب طويل فى إفراط .. وصاحب شعر فى لون الليل الشتائى .. والحاجة نفيسة زوجته غنية باللحم والشحم . وتملك ثروة من الشعر الأصفر كسنابل القمح المستوية .

كانت القرية برجالها ونسائها وأطفالها تأبى أن تدور فى فلك الحكم الإلهية بصمت ..

رؤية محبوب كانت تبعث فيهم السخرية .. وتدفعهم إلى الضحك ، وعدم قدرته على مواجهة ضوء الشمس .. دفعتهم إلى أن يطلقوا عليه ، محبوب الشمس ، لا ، عدو الشمس ، كالعادة إمعاناً فى لذع التسمية .

وقد أغضب هذا اللقب محبوب من أغلب أهل البلد وجعله يحتمى ببيته فى أكثر الأحيان .. ما أغضب بدوره الحاجة نفيسة ، التى شكت للحاج خليل .. الذى حمل تكشيرته للشيخ كامل إمام مسجد أبو عوض .

– ده عيل يا سيدنا الشيخ .. واللى يكسر بخاطره يكسر ربنا بخاطره .. وخطبة الجمعة ترد عقل المجنون .

ورجع بترضية الشيخ إلى الحاجة نفيسة ..

- يا حاجة الشيخ بيقول : « الرضا بالنصيب زى عمل الطيب تمام .. ويا بخت من يصبر على المقسوم .. » وأضاف من عنده : « الناس حتلاقى إيه تنبسط بيه ، ما العيشة غم فى غم .. خليهم يضحكوا على محبوب يمكن لقوا مصايبهم فيه » .

ولما لم تنفرج أسارير الحاجة ، ضغط الحاج بسمة مكروبة .. أفلتها فى حينها لتملأ تجاويف الدار بقهقهة جوفاء : « بذمتك يا حاجة مش برضه راس محبوب شبه لوزة القطن .. شعره الأبيض مش فال خير .. » .

واكتفت الحاجة يومها بنظرة حنان هدهدت بها محبوبها الصغير ، أعقبتها بحسرة ملتاعة على عوده اليابس الممصوص بفعل فاعل .

واستمرت ضحكات السخرية تطارد محبوب .. فلا خطبة الجمعة ولا غضبة الحاج خليل ولا مقاطعة الحاجة نفيسة لأغلب نساء القرية .. أوقفت مخلوقاً عند حده ولا أعاد لمجنون عقله .. شىء واحد وهو الذى أخرس الألسن وأمات الإبتسامة .. عندما غابت الشمس عن محبوب وعن القرية .. والتف الضباب الأسود بالسماء كالطيق الحشرى بجذوع النبات .

غابت الشمس .. فطلع محبوب .. واختفى الناس كأنما ابتلعتهم الأرض .. كان محبوب سائراً فى طريقه والحقول خالية من الفلاحين .. وأعواد القطن منتصبة جافة من الحياة .. وقد انكمش اللوز بأعلاها كاليتيم ، وتحت الجميزة .. كان مسعود خفير الجمعية التعاونية مستلقياً على ظهره وعيناه معلقتان بالفضاء الأسود الكريه المسقوف بالهباب ، لم يكن منتبهاً لمحبوب الذى دبت قدمه فى الأرض بتشف وإصرار .. وما أن نظر إليه مسعود حتى أخرج له لسانه ، ومضى فى طريقه غير مكترث به وهو يرقص . وجمدت قدماه على كلمات مطاردة وكأنها أوتاد ثبتته بالأرض :

- إحجل .. إحجل يا محبوب الكلب .

وتطلع بوجه خال من الحياة إلى مسعود ، وقذفه بكلمات ساخرة :

- يا حسرة ما ضاعت السلفة على الجمعية .. حارس القطن ولا السلفة يا مسعود الميرى .

ولما لم يرد مسعود ، شبك محبوب يديه فى جذعه .. وتثنى فى سخرية كالحنظل ..

- يا عينى على القطن .. حاله ما يهونش على الكافر .. خسارة السماد والتقاوى .. إلا قوللى يا عم مسعود ، ما تخدوش قطن البلد وترحموا أبويا من السلفة ..

ولما لم يرد مسعود أيضاً ، مضى فى طريقه قفزاً صوب الترعة .

ولا يدرى محبوب لماذا لم يرد مسعود ؟؟ لماذا لم تحركه كلماته رغم ما فيها من قسوة ؟ لقد قال له « محبوب الكلب » وسكت .. ولكنه رد إليه الكيلة أردباً .. أغلبه مسعود « بمحبوب الكلب » هذه ؟؟

وشاط صدره من جديد .. وتصاعدت إلى فمه مرارة الكلمة .. واندلعت فى رأسه سخرية الماضى التى ألزمته البيت ومحبوب الشمس .. بالأمس فقط كان محبوب الشمس .. واليوم محبوب الكلب .. لم تعد هناك شمس حتى يصبح محبوبها .. كلاب تعوى فقط فى اللانهاية ، ودار ببصره فى الفضاء الميت ونهشته الحسرة .. كلاب فقط تعوى فى البعيد .. هو محبوبها .. ذهب الناس . ابتلعتهم الأرض .. اختفت الشمس ولا يدرى أين ؟؟

وسقط كوز الصفيح من يده .. وتناثر الدود .. وتلوث واحد منها نحو الشرق .. من نفس المكان الذى تطلع منه الشمس . وأخرى زحفت نحو الشمس .. نفس المكان الذى زحفت إليه منذ عشرة أيام فائتة ولم تعد ..

وماتت رغباته فى أن يذهب إلى الترعة .. وفرقع صوابعه العشر .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. سبعة .. عشرة .. وهكذا مر عليه اليوم الأول بمثل فرقعة الإصبع .. ومر الثانى .. واشتدت طبول الصبية تستنجد بالرب وتستعطف الشمس (.. يا رب .. يا رحمن .. طلى يا حلاوة طلى .. يا أخت القمرة طلى ..) .

بلع اليأس نتف الرجاء .. وبلعت الدور أهلها .. ماتت الفرحة .. واختفت زيطة المصاطب وسهرات القمرة ..

أصبحت القرية كلها ملكاً له .. بأرضها وفضائها وكلابها .. لا شماتة ولا ناس ولا شيء .. عشرة أيام كاملة وهو يخط طريقه إلى « ترعة الدم » شرق البلد .. ليصطاد أو لا يصطاد .. ولكنه مبسوط والسلام .

دار رأسه كالمرجيحة .. وبدت الدور لعينه كمقابر الموتى .. دارهم قبر يحمل أعز الناس .. (أمه وأبوه) ، (أبوه) ميت حىّ ككل الناس .. فى حاجة إلى رمانة يحملها (الشاطر حسن) من (جزيرة الجان) .. و(الرمانة) كنز كالقطن لو تفتح عنه اللوز .. متى يرجع (الشاطر حسن) من (جزيرة الجان) .. وعلى كتفه (الرمانة) .. (رمانة) تحمل كل لوز الدنيا .. والشرط اللوز بخيره .

وأمه الحاجة نفيسة لم تعد تحكى حكاياتها عن الشاطر حسن .. ولم تعد تخبز عيش القمح ..

رغيف القمح لا يخمر إلا إذا طلعت الشمس ، عليه أن يأكل عيش الذرة ما دامت الشمس لم تطلع .. وستأكل القرية معه عيش الذرة ما دامت الشمس قد احتجبت من أجل خاطره ..

وسأل نفسه السؤال المحير .. والذى يتوه فى فهمه أجدع عقل فى البلد بما فيها (عبد التواب أفندى) المدرس الى يقرأ الجرنال .. ويسمع الراديو .. ويناقشهم فى عيشة (زمان) وعيشة (اليوم) ..

قد يقنع (عبد التواب أفندى) كل البلد بأن اليوم أحسن من امبارح .. وقد يغسل همومهم بوصلة لستّ الطرب .. ولكن أيقدر أن يفسر لماذا لا يستوى رغيف القمح فى القرية ، إلا إذا اكتوى بنار الشمس ؟ .. أهى خيوط الشمس البيضاء التى تدخل فى جوف الرغيف فينتفخ كالديك الرومى.. ؟

والله الذى يرزق الدودة فى بطن الحجر ، كما يقول والده أليس بقادر على أن ينفخ الرغيف كالديك الرومى .. لماذا لا يفعل ؟؟ هل هو معه أيضًا ؟؟ ويريد (الله) .. أن يعلّم القرية الأدب وقصر اللسان وليمشى كل فى حاله ؟

وتطلع إلى السماء وود لو يخترق كثافات الضباب ليرى الله .. (الله) هناك يتربع على عرش من الذهب وتحت قدميه تجرى حقول القمح .. وبيده (رمانة) لو انفرط حبها لشفيت (شهرزاد) من علتها .. ورجعت زيطة المصاطب وسهرات القمرة ، ونفض شكواه فى يأس الهم : (يارب اقصف بأجل مسعود الميرى) .. آه لو وصلت كلمته إلى قلب البلد .. سيشوون لحمه .. ، محبوب الكلب ، ، ولكن ماله والبلد ومسعود وكل شيء معه : الله فى السماء .. والشمس من خلف الضباب .. والحقول المترامية بلا حياة ، وانقبض قلبه وكأنه يشيع جنازة ميّت عزيز .. ميت قتله بيديه ودفنه مع الشمس وكفّنه بالضباب .. ميّت ككل الناس الأحياء الميتين المكفنين بالدور .. فتلهم بفرحته فى مصيبتهم .. لقد فرحوا قبل ذلك بمصيبته .. لكنه لم يفرح أبداً ، لأنهم لم يخرجوا من دورهم ليشاركوه فرحته .. ألأنهم لم يخرجوا ؟ وتنبه وكأن التساؤل خرج فى غفلة منه : يخرج الناس ليختاروا له واحداً من اثنين .. محبوب الشمس أو محبوب الكلب .. أكتب عليه هذا ؟؟

وجلس على الأرض وانتزع عوداً يابسًا من القطن ومضى ينثر الورق الأصفر : الشمس .. الله .. مسعود .. رغيف القمح .. والجنازة .. الله . واختلطت الكلمات والصور ، نظر إلى فوق وتحجرت عيناه تعلى صدر السماء .. وكما نور عينيه ضباب كثيف ، دب قلبه وشاط صدره من الغيظ : ، ملعون أبو الدنيا ومحبوب الكلب ومسعود الميرى .. والترعة .. ودود الميضة ، متى تطلع

الشمس ؟ عشرة أيام .. حداشر .. والقمح فى الصومعة .. والصومعة فى السماء .. إن لم تطلع الشمس .. سيرعى السوس فى السماء وسيأكل القمح .. ولن ينتفخ الرغيف كالديك الرومى » . وتمنى لو يصعد إلى السماء .. لو ينزل ملّك .. ملك يحمله إلى فوق .. لو يقابل (الشاطر حسن) .. فيساعده فى العثور على الرمانة .. ينفض معه الغيم ويفتش عن الشمس .. يفتش عن الرمانة .. وتتدفق شلالات الخير .. ويتناثر حب الرمان .. وتجرى أنهار القمح .. وتستحم الصبايا .. يحتضن (الشمس) .. يحتضن (الرمانة) ويدور معها من الشرق إلى الغرب حيث تغيب ويحملها فى الصباح .. ويدور بها كل دروب القرية .. تزفه طبول الصبية بنداءاتهم الحلوة . (يا أخت القمرة طلى .. طلى يا حلوة طلى) ، هنا : تحصر أمه الغروب .. وتصبغ له شعره بحناء الشفق .. وهنا : يقف فى ثبات ليواجه ضوء الشمس ، مخترقاً صدرها فى عناد ، يرى ما بداخلها من (حواديت) .. ويحكيه للناس ، ويبتسم لابتساماتهم .. وماله .. ما أنا (محبوب الشمس) .. يقولها وفمه يلوك لقمة من رغيف القمح .

ليل الشتاء

– الصباح رباح يا سيد .

شد عليه الغطاء وفح من تحته :

– حاضر ياما .. حاضر .

أزاحت عن قدميها حرام الصوف وأبعدت « نوال » عن ركبتيها . بكت البنت فضربتها ببطن يدها :

– سد .. ولا الدونو يعمل عمايلك .. شوفى البنات اللى فى سنك ..

قامت .. تحاملت وقامت ، واقتربت من سرير ابنها – أزاحت عن رأسه الغطاء وقبلته .

– الصباح رباح يا حبيبى .

زام – فقبلته من جديد .

– الصباح رباح .

لم تفطها طيلة الخمس سنوات الماضية ، كانت تقضى كل حوائجها فى النهار ، وعندما تغرب الشمس تجلس على سريرها ، تلف قدميها بنصف الغطاء ، تحكى « نمة » « حدوتة » .. تقدم ركبتها « لنوال » فتنام عليها .. عندما يأتى أبو سيد فى أخريات الليل كانت تكلمه من تحت الغطاء :

– الأكل عندك فى « النملية » أن كان سافع سخنه .

تعودت وتعودوا . بلا شكوى ولا كلمة سوء .. « الروماتيزم » عذرها وكفاها أوجاعه .

لم يجبرها أحد على القيام لتقبل « سيد » ولتكرر له ما قالته على فراشها – لكنها – أدرى بابنها من كل الدنيا .. من كل الناس . التسعة شهور بين الضلوع ورضاع البز وفطام الحمص المعجون بالزبد وأعوامه الثلاثة عشر كلها لم تغير منه شيئاً ، لم تجعل منه صورة لأمه ، الكل يعلم بأنها : ناقة .. صبور .. حمالة حمول .. سماعة أسية ، سيد شىء وهى شىء آخر ، غاوى نكد وتعب قلب وراسه أنشف م الحجر .

هذا ما أكده زوجها أكثر من مرة :

– يا ستى أنا غريب عن البلد دى .. لا أهل ولا حبايب .. ولدك لازم يعرف كده أنا مش قد حد .. بلاش أصرخ ياولية .. العلة منك .. والطب عندك .

العلة منها والطب عندها – هى أدرى بابنها من كل الدنيا .. دماغه ناشفة .. ولابد من أن تلين، وهى تعرف أن قبلتها لم تحول رأسه إلى « إصبع ملبن » .

كما أن المشوار القصير من سريرها إلى سرير « سيد » سيظل قصيراً إلى الأبد . رغم أنه طويل بسبب « الروماتيزم » وبحكم خمس سنوات من العادة – قصير وقصير جداً فى رأس سيد . رغم علمه بأنها تبذل فى نهارها الكثير من أجل تدفئة قدميها ، تجلس على السطح وتنتقل مع الشمس كاسحة الدوار بمقعدها ، كل هذا تطحنه دماغ « سيد » وتعجنه وتخبز منه كلمة كل يوم (بتعبى الشمس فى قزايز) .

زمان كان صغيراً ، عركت أذنه :

واد .. إياك أسمع منك الكلام دا تانى .

عندما شب أفهمته بأنها أمه :

احترم سن أمك وعياها يا « سيد » .

(اليوم .. فى الصباح) .. كانت الشمس موردة الخد ، غابت ثلاثة أيام وجاءت موردة الخد ، فى الشتاءأ : كثيراً ما تغيب الشمس وتعود . لكنها فى كل مرة على ما رأت « زبيدة » – هذا الصباح – لم تكن بمثل هذه العافية ، كانت الشمس أنثى شابة نضرة كما لم تر « زبيدة » تلك الأنوثة وهذا الشباب وهذه النضرة . مرة واحدة فى عمرها .. مرة فى الأربعين عاماً (منذ عشرين سنة فائتة) انطلقت فى بيتهم زغرودة غمزت أختها الكبرى بعينها .. جرت « زبيدة » . أغلقت باب حجرتها . كانوا يتحدثون فى الخارج : « بيشتغل عسكرى فى البندر » . فتحت الصندوق « أبو عروسة » وقبلت ما ببطنه : مناديل الرأس .. القماش المورد .. زجاجات الريحة .. أطباق الصينى ، وتناولت المرآة : كان وجهها فى حمرة شمس الصباح . كانت فرحة بمجئ العريس – عريس الميرى – مرتب حكومى لحم وخضار وشحم يغطى عودها النحيل .. كان خجل – فهى بنت وأختها غمزت .. كان كل شىء .. هذا وذاك كان على وجهها وعلى المرآة .. كان كل شىء .. هذا وذاك فى قلبها وعلى خد الشمس هذا الصباح) .

رجعت الكثير زمان بحلوه ومره ، عبث الكثير بقلبها وقدميها ، غرفت من الماضي حفنات شباب وسعادة وحرارة أحستها في قدميها وساقها وقلبها .

ضحت بهذا وذاك وكل شيء وقامت ، هي أدرى بابنها من كل الدنيا ، لكي لا يطحن ويعجن ويخبز « سيد » كلام ليس بكلام كل يوم ، ليظل كلام كل يوم هو كلام كل يوم فما عادت تهتم .

لكن – سيظل المشوار بين سريرها وسرير « سيد » قصيراً قصيراً جداً . هذا وذاك وكل شيء سيطحنه ويعجنه ويخبزه « سيد » ليطعمها قلقاً وعدم راحة . « لازم أعرف لازم يامه » ولد لحوح . وهي تعرف ابنها من دون الناس . لابد أن يعرف .. لابد أن تتعب هي – تقلق .. تطلع .. تنزل .. لكي يعرف ، ولكنها لا تعرف .. ولن يرحمها ويعفيها ما لا تعرفه من أن يعرف ، ما يريد أن يعرفه .. لا تعرفه ولا يهمها أن تعرفه .

(منذ عشرين عاماً انطلقت في بيتهم زغروته .. غمزت أختها .. جرت .. توردت خدودها لأنها بنت .. لأن أختها غمزت .. لأنها فرحت به .. بأبيه – عسكري في البندر – مرتب حكومي .. لحم وخضار وسمنة تغطي جسمها النحيل .. لا تعرف أكثر من هذا ولا تريد) حتى عندما أصبح أبوه .. بشريط .. باثنين .. بثلاثة .. ببدلة صول .. لم تعرف ولا تريد حتى بعدما لم يأت الخضار واللحم .. لم تعرف ولا تريد .. لا تريد رغم أنها مازالت نحيلة بلا شحم ولا لحم . ورغم هذا وذاك وكل شيء .. رغم أنها لا تعرف ولا تريد . كان أبوه يصرخ لم يرفع يده عليها طوال المعاشرة ولكنه كان يصرخ « يا ستي أنا غريب عن البلد دي .. لا أهل ولا أحباب .. ولدك لازم يعرف كده .. أنا مش قد حد .. مش قد حد .. بلاش أصرخ يا ولية العلة منك .. والطب عندك » ، لم تعرف مبرراً لصراخ زوجها ، ابنها ولد ككل الأولاد ، يلعب ويخانق ويصاحب وليس في هذا عيب .

و .. و « سيد » يعرف أن أباه قال هذا الكلام لأنه . لأنه مشغول بعمله ولا يقابله .. لأنه يأتي بعد أن ينام « سيد » . و « سيد » يعرف أن كلام أبوه له وليس لأمه ويعرف أن أمه لم تقل له كلام أبيه الذي هو له وليس لها . و « سيد » يعرف أن أباه يحل عقدة العقد لكل من هب ودب – ولكنه – لا يقدر على حل مشاكل ابنه مع أهل البلد ، فهو « غريب عن البلد دي .. مش قد حد .. مش قد حد.. » .

من هنا يريد « سيد » أن يعرف ، ومنها يريد أن يعرف . وهي لا تعرف ولا تريد .. لا تعرف لماذا أبوه « مش قد حد » ، ولا تعرف لماذا يخاف منه الناس في البندر ولا يخافون منه في « البلد دي » إلا أنه « مش من البلد دي ؟؟ » .

(منذ عشرين سنة - يوم جاء - لعلعت فى بيتهم « زغروتة » .. غمزت أختها .. قالوا : بيشتغل عسكرى فى البندر .. الأساس من « إسنا » .. إسنا .. ؟؟ .. لم تسأل أين هى .. لا تعرف ولا تريد، جاء « عريس » .. ما تعرف وما تريد . كانت بنتاً وجاء عريس .. خضار ولحم وشحم يغطى جسمها النحيل) ما تعرف وما تريد ..

كان زوجها يسافر ويأتى فى نفس اليوم ، منذ زواجهما .. سافر مرة .. اثنين .. ثلاثاً على الكثير - لكنه - كان يأتى فى نفس اليوم . المشوار لـ « إسنا » قصير .. زوجها يأتى فى نفس اليوم . كانت تعرف أنه يذهب لبلده « إسنا » لأهله . فلكل الناس أهل . لم تطلب منه مرة أن يأخذها معه وتأتى فى نفس اليوم ، المشوار قصير .. لم تسأله عن بلده وأهله . فهى تعرف أن ما تعرفه لا تسأل فيه .. بلدها « الكرنك » ففيه أهلها . وبلده « إسنا » وفيه أهله والمشوار بين البلدين لا يكلف أكثر من يوم . يزار فيه الأهل والأحباب لكنها لا تريد .

شكا أبو سيد .. صرخ .. زعق :

- أخوكى فاكر نفسه ابن عرب .. دا فلاح حتى ما يسوى .. هو مش عارف انه من (البحاروة) يعنى وساخة الصنفر .. فهميه يا ستى .. فهميه عشان ما يرفعش عينه لحاجبه .. فهميه .

كان زوجها ثائراً . وكذلك كان أخوها . كان نهاراً أغبر وكانت حائرة . فهى تعرف أن هذا زوجها وذاك أخاها ، ولا أهمية عندها فى أن تعرف أسباب الخناق .

تحمس « سيد » لوالده - لولاها - لطال لسان الابن وفرى لحم خاله . شدته من قفاه وضربته على بطن كفه :

- واد .. الواحد بخاله وأبوه .. إخرس قطاع لسانك .

(اليوم) .. كبر « سيد » وقال إن الحق مع خاله وإن كان خالى م « البحاروة » فـ ده مش العيب كله .. العيب كله عنده هوه .. فيه يامّه .

عند أبيه . كبر الولد ويريد أن يعرف .. لا شىء يمنعه .. لا ضرب على بطن يده .. ولا إخرس .. ولا شىء سوى أن يعرف .

معها الليل طويل .. تحضن « الحرام » الصوف وتفكر : ليل الشتاء طويل لكن له صباحاً . صباح له شمس تهب قدميها الدفء . صباح غد ، لا ككل صباح .. صباح بشمس وكلمة لابد أن تقال ليعرف « سيد » يريد أن يعرف ، وهى تريد الدفء .. كلاهما يريد الشمس والصباح . و «سيد» نائم ومنتظر ومتأكد .. ويريد أن يعرف ، مع الشمس لابد أن يعرف - وهو يعرف - ولكنه منها

يريد أن يعرف . وهى لا تريد الغد .. ولا الدفء بالغد .. ولا الشمس بالغد – ولو جاء بكنوز سليمان لرفسته بقدميها . فلا شيء يعدل راحة البال وغمضة العين . راحة البال وغمضة العين فى ليل الشتاء بالدنيا وما فيها ، رغم هذا وهذا .. ليل الشتاء . فليل الشتاء طويل .. طويل – لكن – بعده صبحاً .

فى الصباح تطلع الشمس .. تأذن الديوك .. يأتى الدفء فيتسلل إلى قدميها .. تفركهما فتدب فيهما الحياة – تدب الحياة فى كل بيت فيتسلل الأولاد .. مع الأولاد « سيد » ولد ككل الأولاد .. يلعب .. يخانق .. يصاحب .. وليس فى هذا عيب . العيب يراه الأولاد .. ويراه « سيد » فهو ولد ككل الأولاد .

– العيب مش فى خالى ياما .. (البحاروة) ما ينعابوش .. دول بس أغراب .. غربة مش م البلد إنما أصلاً .. الغربة مش عيب ياما .. العيب فـ .. فى أبويا .. أنا عايز أعرف .. عايز .. صحيح .. صحيح ياما العيب فيه ؟ لو طال الليل ؟ لو طال وأكل الصباح وكل صباح لما عرف سيد .. لما جاء الدفء ليتسلل إلى قدميها وإلى كل البيوت ليتسلل الأولاد وتتسلل المتاعب إلى قلبها ، ما هربت منه طيلة حياتها .. تكوم .. تكوم .. ورسب على قلبها صقيعاً لم تعرضه لحرارة النقاش مع زوجها أو أى واحد آخر ، ست بيت فى بيتها .. تحمى نفسها من كلمة هنا أو كلمة هناك .. ما تعرفه أنهم أولادها وفى العين « سيد ونعمة ونوال » .. وما تريده هو زوجها والبيت والأولاد . لكن عليها أن تعرف فوق ما تعرف وتريد فوق ما تريد لأن ابنها يريد أن يعرف ما هربت منه طيلة عمرها .

(منذ عشرين سنة – لعلعت فى بيتهم زغرودة .. غمزت أختها .. جرت ودخلت حجرتها .. كان وجهها فى حمرة شمس الصباح .. كانت فرحة بعريسها (العسكرى) عريس الميرى الذى سيحمل اللحم والخضار وسيغطى جسدها الضامر بأطنان الشحم .. كانت خجلة فهى بنت وأختها غمزت ، كان كل شيء – هذا وذاك – كان على وجهها وعلى المرآة ، كانوا فى الخارج يتحدثون .. وكانت فى الداخل تسمع – « بيشتغل عسكرى » .

دخلت بيته ولم تسأل .. (كان يذهب لأهله فى بلده ويأتى فى نفس اليوم ، كان يأتى بلا خضار ولا لحم ولكنه كان يأتى .. والأيام أتت بشريط على كتفه وبـ « سيد » البكر – لم تأت بالشحم ليغطى عودها النحيل ، صمتت وصمت نال شريطاً آخر وأنجبت هى « نعمة » .. حتى البنت ولدت صامتة كأمها : « ناقة .. صبور .. حمالة حمول .. سماعة أسية » .. لكن أخاها لم يصمت – كان

ثائراً هائجًا – صرخ فى وجه زوجها : « عملتها يا بتاع إسنا .. شربنا المقلب وخلاص .. أنا لما بمشى بطاطى دماغى .. لا أنا م العرب عشان أقيم رأسى وسط الفلاحين .. ولا أنا م الفلاحين عشان أقيم دماغى وسط أهلى ... » صرخ زوجها – كان ثائراً أيضاً : « يعنى إيه .. أختك معاك .. عايزها خدها .. أنا راجل فاهم نفسى .. أنا مطلعتش السما .. لا اتجوزت عربية ولا خدت فلاحة .. كنت عارف نفسى وعارفكم .. جِمَسًا وبحاروة . إن كنت جمَسى فأنت بحراوى فاكر نفسك إيه ؟

سكت أخوها وسكت زوجها وضربت هى « سيد » على بطن يده : « واد .. الواحد بخاله وأبوه .. إخرس قطع لسانك » .

سكت أخوها وسكت زوجها ولكن الأولاد فى الخارج لم يسكتوا ولسان « سيد » لم يقطع كله فى أبوه . خاله م البحاروة . (والبحاروة أغراب .. والغريب فى الكرنك بلا أهل ولا حسب .. مرور الأيام جمّل البنات (البحراويات) فى عين رجالات العرب وأبناء الفلاحين فكان النسب .. جرى الدم فى الدم لكن بنت العربى حرام ع البحراوى والفلاح .. وبنت الفلاح حرام ع البحراوى حلال للعربى .. وبنت البحراوى حلال للجميع عربياً كان أو فلاحاً) .

لكن أخاها كان ثائراً صرخ فى وجه زوجها : « إنته جمسى .. جمسى .. أنا برئ منك ومن أولادك ليوم الدين .. ياراجل أطاطى راسى وسط أهلى .. دا حرام .. يا شيخ .. روح منك لله » .

صرخ زوجها . صرخ فى وجهها وهدأ : أخوكى لازم يعرف إنه وساخة تحت الضفر .. حمار يحط عليه الفلاح بردعة .. والعربى يركب ويهز رجليه .. مش أنا منظم الكون .. لا كنت عايزة بحراوى .. ولا كنت عايز أكون جمسى أهلى جمسة .. وأنا صول .. كنت عايز أكون صول .. وكنت .. » .

(جاء الإمام .. قرأ « الفاتحة » ووضع يد زوجها فى يد أخيها وهدأت النفوس .. حمل الإمام البطة التى سمنتها لأنها حامل فى « نوال » .. أخذ الإمام البطة وجاءت نوال « ونزفت » كيزان الدم ولم يعوضها مخلوق عن « حلة المرق » لكنها كانت راضية . لقد وضع الإمام اليد فى اليد وهدأت النفوس ..

– « تنكر أهل النبى له .. هاجر للمدينة .. وهاجر « البحاروة » إلى الكرنك . قابلوه بالدفوف فى المدينة .. وقابلت الرجال بنات « البحاروة » بالدفوف .. حياة النبى سيرة .. المهاجرون أهله .. وهم عرب الكرنك وأشراف قريش .. والأنصار أحبابه وهم أنصار المدينة وفلاحو الكرنك .. حياة النبى سيرة .. جاء القوم متأخرين .

- قال النبى : « جم مسا .. كانوا يسقون فى الخلاء وأدركهم المساء .. الجمسات عرب .. عرب .. وفى الدين مبتغى الجاهل ... » .

أخذ الإمام البطة . وخلط السمن بالعسل .. هدأ زوجها .. وكذلك أخوها .

فى الصباح سيهدأ ابنها .. وتقول له :

- أبوك جمسى .. والجمسا يا ضنايا خيار الناس .. يشيلوا الميه م النيل يسقوا الناس .. بس لما اتأخروا ع النبى . قال : « جم مسا » .. مكذبنى يا سيد اسأل الشيخ » .

لو قال الشيخ ما قال يوم أخذ البطة ؟ .. لو لانت دماغ « سيد » الناشفة فتسللت كلمات الشيخ؟.. سترتاح .. سيبقى البيت والأولاد والزواج .. سيبقى كل شىء كما كان .. كما كان وإلى الأبد ..

كل ما تخشاه . أن تخيب شمس الصباح ظنونها – لكن – ليل الشتاء طويل ، تحضن « حرام » الصوف وتفكر : يوم جاء – منذ عشرين سنة – لعلعت فى بيتهم زغروتة .. غمزت أختها الكبرى ، جرت . أغلقت باب حجرتها .. كانوا يتحدثون فى الخارج .

قابيل الساعة الثانية

– لا يهم .. سأكمله .. نقرة على بابه وأدخل ، لتكن نقرتين ربما تضيع الأولى فى دوامة الفكر ، تمام يا كمال نقرتان : ربما الرجل غارق فى الأسى حتى الأذن – الفجيعة .. الجحيم .. تطلعات الزواحف لدنيا السماء (سيد الأندية يتمرغ بوحل الإسماعيلية – الإسماعيلى يسحق الأهلى) دقات الحقد بصدر المجهول ، لطفاً بالغد وزحف القدر .. ما أبشع وجه الصبح .

– لك الله يا سيدى المدير واللهم لا شماتة ولكنى متعب وفى حاجة إلى راحة .. يومين راحة .. يومين يا سيادة المدير لا أكثر ، ماذا ؟ حاجة العمل لا تسمح ، حالتى أيضًا لا تسمح وللعمل حاجة لا تستقيم بمجهد .. مرهق والله العظيم (ستئز نفسك بالألم .. تجلد) .

والعرق لازمة الجهد الوقور : عليه اللعنة ، والمنديل : أف – نصيحة أبو المجد أفندى الباشكاتب :

– يا كمال يابنى انفض تراب الشارع قدام باب المصلحة ، وانت طالع خده فى رجلك .

(نصيحة عمرْ يابنى .. مشاكلك ومعدتك لا يدخلان فى البند الحكومى ، الموظف مثلا حلقة بسلسلة البند .. طرفها فى السما ، اللى ينبح يتربص بيها ، والأخرس يفضل سايب وتترمى له اللقمة) .

(قرش الحكومة يا صغير لزوم القميص المكوى والجزمة اللامعة .. كلام لودنك .. المنديل لزوم الشطارة .. أسيبك بأه لحسنين أفندى ولعشر سنين خبرة) .

– معاك يا حسنين أفندى المنديل باليد ، وحبات العرق على الجبين ، والملفات فوق المكتب بإضافات الفهم العميق للعلاقات الاحترامية بينك وبين رئيس القلم .. معناه شغل .. سبع سنوات دارها أخوك الثور المعمى حول الدرجة التاسعة مع الشغل والدقاذ وبعدها آمنت بحقيقة ... إن السجن تأديب وتعليم ، مسحت الجوخ لثلاث سنوات فلت الثامنة وقفزت السابعة بعلاوة .. افهم يا موظف يا غشيم لاهِرِس ودنك) – ، تمام يا أخ عبد الستار ، أذنى معك مهروسة من حسنين أفندى .. أى نعم وألف نعم .. (نثر حبات العرق على الجبين : فرض ، وسنته وجود منديل ، سقوط نقطة على الورق : يبطل ، الصلاة ، .. ما معناه يا سيدى .. نقطة على الورق تربط حرفاً بآخر ، تلضم جزءاً بكل – وهذا – باطل : بشريعة القانون – وحكمه : إرغام الحق على أن يتمسح بأعتاب المسئولية – لشهر .. لسنة .. لعمر كامل .. والعلم عند زيى .. وما أوتينا إلا قليلا ..) .

– زنهار ومليون سلام للآدمى داخلك يا عبد الستار ، لك العقل يابو المجد أفندى .. وفهمك – عال العال .. المنديل : مشكلة العصر ، العرق : أزمة البقاء ، نقطة عرق : تفسد عمراً وتقيم حياة ؟؟ يا سلام ؟؟ كم نحن مهمون .. أهمية بندول الساعة وعقل الآدمى والحل للأزمة ..

– صباعى فى عينك يابو المجد أفندى ، ورقة من ملف حسنين أفندى تؤدى مهمة المنديل .. دورة السنوات العشر تساوى شيئًا ، (حالة العمل لا تسمح ، تحفظ بالملف ، البند لا يسمح ، تعلى بالأمانات) .

– العرق سيجف تحت الجلد .. ست مراوح والجنة تحت أقدام المدير .. لتسقط الأهمية ومعها المنديل وورق الملفات تحت أقدام لاعبى الأهلى ..

سيجف عرق رجاله بلدنا تحت الجلد . محارة على شط النيل يا بلدنا .. قوقعة يا بيتنا .. على راسى يا بويا .. على عينى يا اخواتى ..

– مجهد وتعبان يا سعادة المدير .. يومين راحة .. لا دخل للعمل .. والدى مريض من سنة .. دم مضغوط ضاغط يلهب صدره ، الكلمة أوقدها ووقرها الضغط ، سابت لها مفاصل أخوتى ، رشاد: سقط بالإعدادية .. عبد المنعم بدبلوم تجارة .. عواطف تزوجت من واحد فى سن أبويا ، غنى يا سعادة المدير .. غنى جداً . رغم كده رفضته .. وممكن عشان كده .. الإهانة من فوق لكن بحدود ، الآدمية لا تباع ، قاموس الحياة البسيطة علم أبى ما علمته السنوات العشر لحسنين أفندى – (يا بنى أنا أدرى بشئون البيت وأحوال الدنيا .. البنت عار .. الشرف رغيف العيش . الستر واجب.. الكرامة دين ربنا وسنة نبينا .. اتنين جنيه من مرتبك توفر على أختك الجواز .. شاطر اعملها) .

– شاطر يابا والبند أشطر .. الغربة مرار ، المرتب مستطيل حياتى وعقلى ، أنفاسى مكتومة وأحس بالاختناق .. فى حاجة إلى راحة .. يومين أجازة .. أشياء لا دخل لها بدخول باب المصلحة (رشاد : سقط بالإعدادى وعبد المنعم : بدبلوم التجارة وعواطف طلقت) .

– لابد من أن تباع مع الأرض يا أبى .. ماذا بعد – السن والفشل والربو والضغط والطلاق .. الكذب على الطبيب لتبلغ الصغيرة سن الحلال صدق طبيب القلب أنها تعيش من يومها خمس ساعات مع كوكب الشرق .. كتب وثيقة الله .. ليحرق البيت والأمان بكذبة ، كذابون ، عواطف: لازالت تحبو على أغنيات عبد الحليم حافظ ..

– يومين أجازة وسأحضر .. ماذا بعد – الربو .. الضغط .. الفشل .. الطلاق ؟؟ .. دموع عواطف!! سأمسحها (لندن ترعى صحة مطربنا الشاب .. دكتور شيلا للكبد ، تانر للمعدة ، هانت للرئتين ، فرجسون للكلى ، وجونز للجهاز الهضمى) .

– هانت يا أبى بشراك .. شبابك لا تغسله سيدة الطرب منيرة المهدية ..

أراهن بقرش كلانا لا يملكه بأن حليم سيغسل دموع عواطف ، الزمن ... هل فهمت !! .

– لم يعد يهم .. لابد من أن يباع مع الأرض .. كلاهما لم يعد يصلح : إخوتى تخاف مثلى يا سيادة المدير .. لا قدرة لهم على إفراز العرق – ست مراوح تغنى عن منديل وتقتل العرق تحت الجلد !! يومين أجازة .. مرهق ولا حاجة بالعمل لى فلماذا لا يسمح ؟؟ السنة المالية على الأبواب؟. لتدخل ؟ لتدخل معها مشكلتى إلى قلب العمل ، لتضع مبالغ بسيطة من حق بسطاء .. لا ذنب لى .. أأنا المسيح ، ليحملوا صليبهم .. لماذا سكتوا كل هذا العمر ليعلقوا المشانق .. لتسقط رأسى ولن أخسر غير تفاهات العمر : اقرأ باسم ربك الذى خلق .. خمسة عشر مليماً .. يا بلاش .. (شهر زاد فى عنق الزجاجة) .. (من علمنى حرفاً صرت له عبداً) .. (أبو زيد الهلالى يقبل يد الزناتى خليفة) (.. شاطر الشطار رؤوف علوان يبلع الأمواس فى مؤتمر صحفى) . (الربيع أقصر فصول السنة) .. الفصل : مائة طالب .. السنبلة : مائة حبة .. والحبة صنعت منها الكلمة قبة – (إعدام ترزى لأنه سهى عن صنع جيوب للبنطلون) . مس الحقيقة بطرف الحقيقة مع التعمد لإفساد الجيل الصاعد (مظلوم والله العظيم ليعدم سقراط وكل حكماء الآخرة) لن ينجح رشاد أبداً ولا عبد المنعم ، يحبان الشيكولاتة أكثر من الدرس ، كل طلبة المدارس هكذا كذابون ، الكتاب بريال والقلم بخمسة قروش ، لن يروا النعمة أبداً .. رضا الأب من رضا الرب والغضب من نفس الغضب ..

– لم يعد يهم .. ليمت الآباء .. ليبيعوا .. ليرهنوا .. ليسرقوا .. وليفسحوا مكاناً تحت الشمس لدلع رجالة بكرة ..

– كلام ينقصه العقل – (خليك معانا يا كمال يابنى تسند ضعفى تراعى إخواتك ، الأرض محتاجة لك ، الخير فى بطنها ودراعك) يا سلام .. دنيا .. ثلاث أفدنة مش شوية .. أبى سيد قريتنا (الفدان يدخل عشرين جنيه فى السنة ..) .

– عقليات قديمة يا سعادة المدير (اترك الوظيفة) قالها ناقص العقل ، سبقه الزمن بدوره .. لفة كاملة ، أنت عقلية قديمة يا سيادة المدير واعذرنى .. ولكن بفهم آخر ..

– ثمانون جنيهاً في الشهر .. غيرك إيراده ألف ومش كفاية .. سبعة آلاف فقط هي الفرق بين دخل أم كلثوم وعبد الحليم .. على أيامك كل شيء برخص التراب .. اليوم يباع الآدمي بالتراب، التطور يا مولاى .. عجلة الزمن طحنت ست الحسن والشاطر حسن وعقله الصباع ، حكاية اليوم مشوار للقمر .. مشوار إجبارى للحصول على الرغيف الأبيض .. ناس كثير حتموت فى السكة .. نص الطابور يمكن .. واللى يوصل يا سعده .. العمل شرف .. نيشان على صدر صاحبه .. البيوت على خد النجوم .. المشاكل تغسل بضوء القمر .. مفيش حراس ع الجنة : اعفنى يا سعادة المدير من عم عبده الساعى .

– يا عم عبده افهمنى أنا داخل للمدير بأجازة .. مرهق وتعبان وفى حاجة ليومين راحة .. أزور البلد .. عطشان لشربة ماء من قلة تركتها أمى فوق السطح .. لفحها الهواء الحر .. باتت فى حضن النجم .. بداخلى حر شديد يا عم .. حريق .. العرق كالسيل يغمرنى وليس معى منديل .

– ست مراوح كفيلة بقتله تحت الجلد ؟ . أنا لم أزعق يا سعادة المدير ... كل ما فى الأمر أنى مجهد وتعبان وعايز يومين أجازة .. يومين راحة .. عم عبده منعنى من الدخول .. لست مسئولاً عن صخب الموظفين بالخارج .. لقد فسدت عقولهم .. جاءوا ليروا ما حدث بينى وبين عم عبده .. مناقشات لا تنتهى (عن الحرية والعدل والديمقراطية) .. أشياء لا دخل لها بالعمل .. أشياء بيننا .

– يومين أجازة لا أكثر .. عرقى أغرق الحجرة !! وأتلف السجادة !! ست مراوح كفيلة بقتله تحت الجلد ، الفصل شتاء ؟؟ لم أكن أعرف وشرف منصبك ، ثلاثة أشبار من العرق فوق السجادة ؟؟ ليس منى ، أخيراً فهمت : سرق عم عبده القُلّة من فوق السطح ، ربما سقطت منه فانكسرت ..

– تمام يا سيدى القاضى .. قلة شغل قنا . لقد أخذ السيل كل شيء ، البيوت والأولاد ، ومدخر العمر من حكم الصالحين ، لكنه خلف طينة سخية ، برئ يا سيدى المستشار ، لست مسئولاً عما حدث .. لا ذنب لى ، لقد أفصحت عما بصدر جهينة .. قلت له : سيدى المدير .. الماء يأتى من تحت .. والمسئول هو دلع الأسطوات ، هذا ليس سيلاً جديداً يا سيدى .. والحقد يأتى من تحت . دلع أسطوات لا أكثر .. الرحمة لقد عودتهم على هذا ، فى بعض المصالح الأخرى يضربون بالشلوت .. ما بعد الدلع ؟ الجحيم وتطلعات الزواحف لدنيا السماء (الأسطوات ممتنعون عن العمل) (العمال يطالبون بأجر عن أيام الجمع) فساد عقول ومناقشات لا تنتهى (عن الحرية

والعدل والديمقراطية) تلف الحنفيات والامتناع عن تصليحها هو المسئول الأول – هكذا أرى ، والمسئول الثانى فى صدرى ، لن أبوح حضرات الأطباء الأفاضل ، التشريح : لن يجدى شيئاً ، لن تقرأوا – ما حفرته الأيام بصدرى – المسئول الثانى لن يحاكم أبداً .. القانون إن كان لى فطى غيرى .. وإن كان مع غيرى فطىّ . لم يعد يهم – كل ما أبغيه يومين راحة . ليبتلع الجحيم كل شىء ولكنى متعب مجهد يا سيدى .. براءة .. شكراً ، ماذا ؟ براءة حتى الثانية بعد الظهر .

– يا سادة .. يا حضرات .. المدير خرج ؟ الساعة الثانية . الورقة بيضاء . لم يكتب الطلب بعد . بعض العزاء ورقة بيضاء كالثلج – شوف يا حسنين أفندى .. تعال يابو المجد أفندى – يا أرشيف يا قلم : أنا بكره مسافر البلد .. مش حعمل حاجة إنما حسافر .. ح أسافر من غير ما أطلب أجازة . الورقة البيضة بتقول كده .. الحق يؤخذ ولا يعطى .. اقرأوها .. صحيح نضيفة – لكن فيها كلام كتير .. لابد أن تقرأوها فى داخلكم أولاً .. اللى عايز حاجة ياخدها .. أيام جمع – أيام أحد.. أنا عايز يومين راحة .. حاخدهم ...

٣٥ البلتاجى
٥٢ عبد الخالق ثروت

من سبع سنوات بالتحديد ، جاء عباس دندراوى ليأخذ مكانه كموظف بالثامنة الكتابية بوزارة الإسكان والمرافق بالدور الرابع من المبنى ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت ، فى بداية الشهر الأول لم يعرف له رأس من قدم : كان يجرى مع حاجة العمل ، سبهلليا ، لا ضابط ولا رابط .. يومًا فى المستخدمين .. وأسبوعًا فى الأرشيف .. وآخر فى الاستعلامات ، وما أن بلغ عم ، زيد ، صراف الخزينة سن المعاش حتى سلموه الخزينة ، وقد يكون لكلام السيد مبارك والسيد سعد مراد دخل .. ودخل كبير فى إعفائه من الخزنة ومسئولية الخزنة فيما بعد وقيامه بعمله الحالى كميقاتى لحضور الموظفين وانصرافهم ومدون لخطابات الصادر والوارد..

الأيام – فقط – علمت عباس دندراوى أن عمله الحالى لا يقل مسئولية عن عمله السابق كصراف للخزنة .. وعلمته أيضاً أن السيدين مبارك وسعد مراد لم يكونا حريصين على مصلحته يوم قالا : « عباس بن حلال وطيب ومستجد خدمة .. اللى يمسك الخزنة يا مفقود يا مولود .. ما ترموش النار من حجركم على حجر غيركم ، قطعاً لم يكن الحرص دافعهما – ففى اليوم التالى لاستلام مبارك الخزنة . وقف فكرى أفندى لحظة بعد أن وقع إمضاء حضوره – قدم يمنى ساقيه وآخر اليسرى وفتح فمه وأغلقه وارتجف جسده جميعه مثقلاً النظارة فوق عينيه .. أسندها بكلتا يديه ومضى مهرولاً نحو مكتبه بإدارة المستخدمين دون أن ينطق بحرف ، وفى موعد الانصراف وقع فكرى أفندى وتمهل قليلاً قبل أن يمضى .. كان أكثر ثباتاً منه فى الصباح .. كلماته فقط التى سقطت من بين أسنانه المتهشمة فتهشمت :

– « هوه عباس أفندى .. قصدى .. يعنى .. حياخد مواصلة .. واللا يعنى ... » .

كانت حجة لفكرى ليكلم عباس . وعباس يعرف أنها دعوى لوليمة كلامية فى بطن السيد فكرى .. والحقيقة أن عباس كان تواقًا لصلة صداقة تربطه بواحد من موظفى المصلحة . والحق

أيضاً أنه ما كان ليرضى بفكرى هذا الواحد .. ولكنه لزم الحرص والحرص كاملاً عندما رد على فكرى :

– ح اركب م العتبة .

مشيا جنباً إلى جنب وبدا فكرى يومها ضئيلاً كنملة .. قصيراً كفرقع لوز بجوار عباس الفارع القامة .. المفرهد الصدر ، ضحك فكرى بلا سبب وعاجل عباس :

– « اسمح لى انته ريفى يا أستاذ عباس .. ريفى خالص ... » .

لم ينتظره ليرد أو يسترد دهشته . هجم هجوم الفجأة وانطلق يصب مدفعيته بلا توقف :

– يا راجل يدّوك الخزنة تسيبها .. اللقمة فى بقك ترميها للكلاب تتعارك عليها .. وآخرتها تقع فى بق مبارك .. يا راجل والله الريفى ما يعمل عملتك .. مبارك ده جزمة قديمة .. سواء هوه أو سعد مراد ..

وكمن لمح شبه احتجاج فاندفع ليكتمه :

– حتقول إيه ؟ .. انته تسكت .. انته تعرف إيه فى المصلحة ؟ .. ولا حاجة طبعاً .. الجاهل بالسكة يسأل أهل الحى .. والسؤال مش حرام والمعرفة مش ببلاش .. المهم .. اللى حصل حصل وأقول لك حاسب .. الأولى برامة والتانية عتّرة حمار والتالتة تابتة ..

كانا قد وصلا محطة العتبة ، وكان أتوبيس «٥» قد فارقها وتبعه «١٥» وهما الوحيدان اللذان يوصلان عباس لبولاق الدكرور ، حيث يسكن المنزل ٣٥ شارع البلتاجى .. كان من الصعب عليه أن ينتظر مع هذا الفكرى ساعة كاملة حتى يأتى أتوبيس آخر من «٥» أو «١٥» .. فما أن لمح «٦» يتحرك حتى عزم فى نفسه أن يركبه ويهبط ميدان الدقى ويواصلها لبولاق مشياً أو يركب .. تحرك عباس خطوتين وقطع الأتوبيس مشواراً بينما يد فكرى تشده .

– مش بقولك انته غشيم .

وضحك ..

بصدأ الدخان والشاى على أسنانه المهشمة ورواسب البرد والعمر على صدره ضحك – كما صرير بوابة خربة ، تمنى عباس لو داسه بقدمه ويغيظه ويغيظ الشمس من فوقهما وبكل ما لم يحبه فى عمره .

– امبارح كنا فى قهوة الأمرا بالسيدة زينب .. أنا وسعد ومبارك وهلال أفندى بتاع الأوقاف .. اللى فى صندوق مبارك كشفه سعد مراد .. قال لمبارك : : بأه اسمع أنا مش عباس .. إضحك على غيرى أنا سعد مراد .. فاهم .. حرص على نفسك والله مارحمك يا مبارك .. اللى له مليم فوق المرتب ياخده . أنا بقولك أهه .. اشترى طوابع بوستة .. دلوقتى المتغطى بان .. فوق مرتب كل موظف مليم اتنين اربعة .. الصراف ما يديش تعريفة ويجيب العجز عنده .. اللى بيحصل كلنا بنسامح .. فى الآخر المليم يبقى قرش .. جنيه .. تلاتة .. مرتب ع المرتب .. فهمت يا ..

وضحك ..

كالظن .. كالشك .. كلعبة الوسواس الخناس .. يرقد فى الداخل ويتقلب ويتمطى .. فيصبح للكلام وجهان وللنية الحسنة طريقان وللوظيفة عمل بأجر لا حساب فيه لمشوار رجوع عباس وانتظاره بمحطة العتبة – وبعدها – حشر .. عرق .. رائحة أفواه تنتظر غسل الخبث بلقمة الغداء ، لا أجر للدور الأرضى بشقة الحاج محمود درويش أجره على عباس ومن مرتبه .. خمسة جنيهاً كاملات من اثنى عشر جنيهاً وستمائة مليم لا غير .. من المرتب الواحد ، فقد رفض عباس الريفى خالص .. الغشيم ألف مرة مرتباً فوق المرتب ، مرتباً ثانياً تركه لمبارك يوم ترك الخزنة .. وترك ما علمته الأيام الآتيات .

قال عباس للحاج درويش :

– لو حد من الشارع رفع رجله يدخل الشقة .. عايز حديد للشبابيك ، رد الحاج :

– اقفل الشباك يا سيدى ..

– الدنيا حر .

– الشتا ع الباب .

– ما هو الصيف برضه جاى ..

– لما ييجى الصيف اشترى لك مروحة على حسابى .

– مش ح ادفع الإيجار ..

– أطردك .

– القانون ويايا .

– نشوف ..

وشاف عباس .. لم يدفع الإيجار ثلاثة شهور فجاء « حجز التحفظ وبعده أمر الطرد » .. وتدخل أبناء الحلال أخيراً ففض الخلاف وأخذ درويش الإيجار ومصاريف المحامى ورسوم المحكمة وأتعاب المحضر .

أخذ الحاج درويش صاحب البيت إيجاره – بعد أن أخذ عباس طريقه « للسيد مبارك » صراف الخزانة ماراً بالسيد « فكرى » واسطة الخير بينهما .

تكلم فكرى فى البداية متلجلجاً .. شرح الأزمة وأكد للسيد مبارك أنه لا أمل إلا عنده ، سكت مبارك ولكنه كان عملياً ، قال دون أن ينظر لفكرى :

– يلزمك كام .. ؟

– ستة وعشرين جنيه ..

كالنائم أو المفكر قال مبارك : « احنا فى شهر تسعة يبقى باقى كام على شهر سبعة ، هيه .. تسع شهور .. لا عشرة ونبتدى السنة المالية الجديدة .. انته ويايا يا عباس افندى ؟ عشر شهور فى ثلاثة جنيه .. ستة وعشرين جنيه تاخدهم يا عباس افندى النهاردة تردهم بعد عشر شهور بواقع تلاتة جنيه كل شهر – دول م السلفة يا عباس افندى يعنى الواحد لو انكشف يارب استر .. استبينا ..

ورد عباس :

– استبينا .. استبينا .. استبينا ..

قالها لنفسه ألف مرة كالورْد بعد الصلاة . كأنها الهزيمة أبداً – كأنها صلاة الدوام .. كأنه لا حل إلا أن يقتل نفسه أو يقتل الآخر أو يعالجه الموت فيموت وتموت « استبينا » معه .. ولكن عباس يريده حل دنيا .. يريده حلاً سريعاً لأنه قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات ، عندما ترك الخزنة لمبارك غير عالم بأن الخزنة مرتب فوق المرتب لأنه غشيم وريفى خالص ، وأخيراً « استبينا » ، قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات عندما رضى بهذا الجحر الأرضى بالمبنى «٣٥» شارع البلتاجى ملك الحاج محمود درويش الذى لا يثيره التلويح بالثوب الأحمر .

– والقانون ويايا .

– نشوف .

عباس قاتل ومقتول وميت من سبع سنوات يوم جاء ليأخذ مكانه كثامنة كتابية بالمبنى «٥٢» شارع عبد الخالق ثروت بوزارة الإسكان والمرافق ، يوم مشى مع فكرى حتى محطة العتبة ، يوم ضحك فكرى كالظن كالشك كالوسواس الخناس .. وسكن داخله متمدداً على راحته ، يتمطى ويتثاءب ويتقلب على البراح عالماً بكل سر حالاً لكل إشكال .

– مالك ؟

– صاحب البيت .

– ماله ؟

– الإيجار يا عباس افندى .

– والتخفيض يا حاج درويش .

– ارتضينا بيه يابنى دا القانون .

– يعنى عايز أربعة جنيه وعشرة صاغ .

– والميه يا عباس افندى .. نسيت .

– عليك يا حاج .

– فى الوسع بس يابنى .. فى العقد مافيش حاجة من دى .

– مش ح ادفع .

– والقانون .

– ويايا .

– نشوف .

ويشوف عباس فكرى .. ويرد فكرى :

– تسكن جديد تدفع خلو وياريت تلاقى .. قولها يا عباس .. قول : استبينا .

ويقولها عباس :

– استبينا .

ولكن عباس يريده حلاً سريعاً .. حل دنيا – سيقول لفكرى :

– انت تسكن داخلي ولم تدفع خلواً ولا تدفع إيجاراً وأنا أطردك والقانون معى ، لن أحتاج لك فى مرورى للخزنة حيث مبارك . مبارك عملى يعرف أنه لا وسيط ، قالها دون أن ينظر إليك : «عايز كام؟» . الإيجار سيدفع شهرياً للحاج درويش دون تأخير حتى لا يكون هناك مبارك «واستبينا» .. والحاج درويش صاحب بيت ومعه القانون ، ولكنه يؤجر بمقتضى مبلغ معين مقدماً رضى به الطرفان الشقة الأرضية بالمبنى ٣٥ لعباس دندراوى الموظف بالإسكان والمرافق.

لهذا يحق لعباس دندراوى بعد سبع سنوات أن يقذف بالحل سريعاً فى وجه العالم .

– يا شارع البلتاجى بسكانك جميعًا .. انت حر فى أن تقذف بماء الاستحمام فى الخامسة تماماً من صباح كل جمعة وكل اثنين – ولكن يوم الجمعة أجازتى الأسبوعية ومن حقى أن أنام لأى وقت أشاء .. والقانون معى – ويوم الاثنين يوم عمل ، وعملى فى الثامنة تماماً ولكن قبل أى موظف كميقاتى لحضــور الموظفين – ولكن ليس فى الخامســة صباحًا يا سكان شــارع البلتــاجى – أنا لا أدين أحداً منكم فالقانون معكم وبمأذونه تم زواجكم شرعيًا – أريدكم شهودى يا سكان شارع البلتاجى على هذا المدعى محمود درويش صاحب البيت ٣٥ .. يصحو فى الخامسة مدعيًا أنه نداء الفجر من مسجد الحى .. ولكن ما ذنبى أنا فى أن يهبط درويش السلالم فيدق بحذائه الدرجات .. لا ذنب لى وليتآكل النعل .. أن يدفع درويش بالمفتاح فى القفل فى حركة سريعة فجائية محدثاً فرقعة شبه مكتومة وإن كانت قوتها عشر زجاجات كوكا كولا تفتح مرة واحدة وفى نفس اللحظة .. مــا ذنبى والأمــر لا يكلف درويش ســوى قطرات من الزيت على القــفل والمفتاح .. ما ذنبى فى أن درويش أعمى البصر والبصيرة يخطو العتبة ويرفع قدمه ويدوس يوميًا على كلبه النائم أمام بيته فيعوى الكلب ويصرخ هو : اخرس نقضت وضوئى يا نجس .. داهية تاخدك ... مــا ذنبى فى أن لا يخرس الكلب ولا يدوس درويش .. أنتم شــهودى يا سكان شارع البلتاجى فهذا « قلق » براحة السكان والقانون معى وسيركع أمامى درويش ويصلى فى محرابى ويقولها كما قلت له طوال سبع سنوات : « استبينا » .

– وأنت يا مــبنى الإســكان والمرافق الكائن بالدور الرابع من المــبنى ٥٢ عــبــد الخــالق ثروت .. أمن حقك على عباس دندراوى ثامنة كتابية غير ساعات تبدأ من الثامنة صباحًا حتى الثانية ظهراً .!!

لكن عبــاس دندراوى يصحو فى الخامسة ، اسمعوا لستم أذكياء .. ادفعوا له إيجار المسكن وسيسكن فى أهدأ حى ألا وهو حى « الزمالك » مطلقاً شارع البلتاجى .. كما أن العمل يا ٥٢ عبد الخالق ثروت ينتهى فى الثانية والثلث وهذا من صميم عمله كميقاتى انصراف الموظفين .. غير أنه يقطع المسافة من مكــان العمل إلى محطة العتبة حيث يركب «٥» أو «١٥» فى عشــر دقائق عندما لا يكون هناك فكرى .. يضاف إليها ساعة كاملة عندما يكون هناك فلوس وفى حالة الانتظار أيضاً – عند العجز عن حشر النفس مع العرق ورائحة الأفواه والخبث الذى لم تغسله لقمة الغداء .. بهذا يأخذ عباس دندراوى حقه حيث لا حاجة لمبارك مروراً بفكرى وبالخزنة وبمرتبها الذى فوق المرتب .

وكما يسير النائم أو المفكر .. سار مسيرته الكبرى صبيحة يوم الجمعة الموافق ٤ ديسمبر ووجهته قسم ثان جيزة .. وقلبه يرجف بهواجس السعد والنحس في يوم الجمعة . ودخل على الضابط النوبتجي وقال له :

– أنا القاتل .

نظر الضابط لعسكري بشريطين وقال له :

اكتب ، وقال :

– وياك أمانات .. ؟

ووضع على مكتب الضابط خمسة عشر قرشاً ونصف ، وكتب الشرطي من واقع البطاقة الشخصية :

الاسم : عباس دندراوي .. الحالة الاجتماعية : أعزب .. السن : ٣١ سنة .. العمل : موظف كتابي بالإسكان والمرافق ٥٢ عبد الخالق ثروت .. السكن : ٣٥ شارع البلتاجي ..

وكتب الشرطي من (س) الضابط و(ج) عباس :

– لم قتلته ؟

– كان مشاكساً .. كان طوال سبع سنوات يلوح براية العصيان ويقول « القانون معي » .. وعندما ينهزم – يركع ويصلي ويتمتم بالورْد « استبينا » .. ولأني لا أطيق الكلمة قتلتها فقتلته .

– الشهود ؟

– سكان شارع البلتاجي وعبد الخالق ثروت .

– أسماء ؟

– الحاج محمود درويش .. السيد فكري .. السيد مبارك .. وربما السيد سعد مراد .

– اسم القتيل ؟

– عباس دندراوي .

الثلاث ورقات

١ - الولـد

- كانت تظن أن ملابسها ..

أغلق الترانزستور وتشاغل بقضم أظافره ، خالس الرجل ونظر إليها : ضغط الإصبع فهب صوت المذيع :

- رياح شمالية شرقية تصحبها موجة باردة تستمر .

لم معطفه فى عجل وتابع السماع .

- اسبرو صديقك .. اسبرو رفيقك ، دس يده فى جيب معطفه وتحسس .. ومع كلمات المعلق انفرجت أساريره .

- الرشح .. الزكام .. نزلات البرد .. احذر عدوك .. باستعمال اسب ....

لم تكن بالعربة نافذة مفتوحة - أغلقها حال ركوبه بالشيش والقزاز ، ما بينهما - ما بين الشيش والقزاز - تسلل الخارج : رجال تروح .. رجال تجئ .. يخلفون البصمات .. الأبد لاصق بأرضية العربة والكراسى . وأعمدة نور قائمة كالرجال على طول الطريق : تلوح بالأذرع فينفر فى العروق الدم ، الأحمر يلهب النور ، والريح يلهبه الدم النافر فى عروق الرجال .

وما بين الشيش والقزاز تمتد أذرعتهم .. تطاردها ريح الشر فتنفر العروق ويطفر الدم .. ويهوى المضرب فتنتفش أكوام القطن - ليصبح كل شيء واضحاً - عيون للقطن .. وذرات للهواء .. وبصمات بيضاء ميتة على الكراسى وأرضية العربة - ليبدو الكل واضحاً - الزيت للطبخ والعلف لثيران الرجال .

فى محطة قنا توقف القطار وركب الرجل - قبله بما تحت اللحظة - ركبت المرأة وركب معها آخر ، لم ينتظر القطار كثيراً - سلم عليها مرافقها وفتح النافذة بعجل وسقط فى الخارج .

- يمكن تكون معاه عيشة .. قولى لعبد النبى مشتاقين .. اوعى .

غاب صوته وأغلقت هي الشباك بالشيش والقزاز ، وجلست ، مصرية ، قبالته ، ما أذهل «رجاء عمر هاشم» وجود الآخر ، متى .. كيف ؟ .. ما لا يدريه ، ما يعرفه أنه ركب قطار الشلال من محطة الأقصر ، ركب القطار واختار مكانه ولم يكن بالعربة غيره ، في محطة قنا توقف القطار .. وركبت امرأة ، كان معها آخر وذهب .. ذهب تاركاً شوقه لعيشة وعبد النبي - معرفاً رجاء عمر هاشم لمصرية .. ذهب تاركاً مصرية لرجاء ، لم يكن بالعربة سواه ، ما يدرى ، وما كان حقيقة ، ما كان بالحالم .. هذا الرجل السمين القصير لم يكن موجوداً ، ووجود هذا الرجل السمين القصير قلب كل شيء ، ورغم أنه لا شيء هناك - إلا أن وجود هذا السمين القصير ليس بالمريح ، عيون مطفأة فيها شيء - أي شيء - ربما تاجر غلال . ساعة جيب مدلاة على حائط صدره ، عباءة إمبريال أصلي - هكذا يسمونها في ريف الصعيد - وبهذا يعرفون مرتاح الحال ، وكما يقولون : جاك الشوم . كالغيمة . كالمصيبة ، كالغائمة كان الرجل ، لم ينطق بكلمة .. بحرف والجائز والممكن .. إنه لم ينطق في حياته كلمة واحدة - كما لم يناغ طفلاً وإن داعب شاربه - وتلك قد تكون مهمته الأبدية ، رجل غامض كالسر ، خالص مؤلفه البوليسي وربما قتله - بضربة ساحقة من قدمه تطايرت صفحتا الكتاب ثم تباعدتا في صرير مخيف .. وانفتح باب القلعة .. واندفعت ريح نتنة خبيثة عملاقة قذفت بالرجل إلى هنا : واحد من رجال شيكاغو لولا ملامح مصرية وعباءة نفضها والتف بها متمدداً بطول المقعد مستنداً إلى فخذيه كالكاتب المصري القديم . قد يكون متخفياً ، كما قد لا تقوم لظنون «رجاء عمر هاشم» قائمة . عندما يسقط القناع يظهر الرجل ، قد لا تكون له بالمرأة صلة - عند هذه اللحظة يراها ويغرس عيونه في تقاطيع مصرية ويفتش عن شي - أي شيء يمتص هذا الفراغ : صدأ النحاس وصداه يولولان بالفراغ في الفراغ وتتلوى روحه ويمتلئ المنخر . ينحني ويطبق على ما بين الكتف والعنق ويفرغ أنفاسه ويلقي بما في منخريه .. وينشق ريح المرأة ، ريحاً مندأة مخلوطة بالعرق ، للأنثى .. لكلهن ريح مندأة مخلوطة بالعرق ، طعمه لغز لم يحل بعد .. طعم لم يذقه .. غير الذي ذاق في الكتب ، بلا زعاق معلن ولا مساومة بائع ولا دورات عشر حول سور الأزبكية - الجنس بلا أستاذ يفنده - من غير دفع ولا تقدم - سيتقدم - ينحني ويغرس شفتيه ما بين الكتف والعنق .. ويتدفق الدم حاراً .. وتولول المرأة .. ويصحو الرجل ، يهب الشيطان : دراكيولا أيها الملعون ، يمد ذراعه ويجمع حقل ثوم في حزمة - يسحق ما بين كفين كحجر الطاحون .. حقل ثوم ، ويدفسهما ما بين فتحتي المنخر .. وينتفض جسد رجاء وتفارقه الروح .. و .. سحل الرجل . فانتفض رجاء .. ردت إليه روحه . لم ينظر إلى الرجل السمين القصير وما كان يجرؤ - كفاه أن روحه لم تفارق جسده ، يكفيه أن يسترد أنفاسه . تمنى لو أدار الراديو . وانطلق محلقاً في

سموات الست ، ثومة ، سابحاً في البعيد .. بعيداً عن الوجود .. عن الأرض والناس وكل ما هو حي (طويل أو قصير) .. يبكي وينهنه على صدر الحنان .. على ألا يفرط في عينيه – فبهما – يرى تيتي .. ولتيتي يعيش . كفاه ستة شهور عاشها بعيداً عنها . اقتلع من القاهرة قلب الحياة لينزرع في الصعيد كملاحظ عمل .. ستة شهور كان فيها كالنبات الشوكي .. جذر قصير ولا ثمر . ملاحظ عمل بمصلحة الآثار . بلغة المصلحة ، سواق أنفار ، . رجال بعدد الحصى .. يرفعون الهراوات ويضربون الأرض .. يحملون حفنات تراب من مكان لآخر .. فقط حفنات تراب وهذي مهمتهم .. يلقيها الرجل منهم وهو يلهث . بعد مشوار وآخر يغافله ويستلقي تحت ظل – ينشطر صدره إلى نصفين ويلهث .. ينهره رجاء فينوح كامرأة .. ويشكو حيث لا مبرر للشكوى .

– أصلي تعبان يابيه .. والله تعبان .. بلاش تخصم من اليومية .. أبوس رجلك .. دول ثلاثة وأمهم .. حبل في رقبتي .

رجال حالهم هكذا لا يساقون ، ليسوا في حاجة لمن يسوقهم ، ليسوا شيئاً يفرض على رجاء كعمل ، يؤتى به من القاهرة للصعيد ليسوق هؤلاء ، عمل رجاء ليس بعمل ، لا قيمة فيه ستة شهور، يا للقسوة يا للسفلة ، لم يفعل شراً في مخلوق .. حتى هؤلاء .. لم يفعل شراً ليفرشوا له ثماني ساعات بينه وبين القاهرة .. ثماني ساعات كاملة عليه أن يقضيها في قطار الشلال مع هذا الرجل السر وهذه المرأة ليصل إلى تيتي – كما قضى ستة شهور في لا عمل .. يصحو في السادسة صباحاً ..

يتناول إفطاره في استراحة المصلحة مع المهندس ومفتش الآثار ، بعدها – يتمم على الأنفار.. أيام ويركب المهندس والمفتش العربة ويهبطان البر الغربي ، يبقيان لما بعد الظهر ، حسب طول الفترة التي يغيبانها أو قصرها .. يرجع هو ويأخذ حقه من النوم ، ومع الأنفار يترك ، أحمد أبو مجاهد ، هذا الأحمد أبو مجاهد كان يظنه غبياً ، ما أن يدير له ظهره حتى يجمع العمال حوله ويغني بصوت قبيح وبالكره يسمعون .

(بقى انته يا زناتي عملت ع القوم فارس . حولت بر تونس خرايب . خلاص رجعت لك انا أبو زيد) لم يتركه مرة مع الأنفار إلا وبدأ من هنا وانتهى هنا . كانوا يسمعون غصباً فهو الذي يملك وحده قسرهم على العمل من بعده . ضربه مرة بالقلم فأحنى رأسه في خزي .. وطعم هذا الخزي كان يحسه رجاء عندما يذهب المفتش والمهندس بالعربة إلى الأقصر – يقضيان الليل في ، ونتر بالاس ، ويأتيان آخر الليل . المفتش الشيخ يستند على ذراع زوجته الشابة وزوجته الشابة تستند على ذراع المهندس الشاب . والليل ستائر وحرمة ، الله أعلم بما تحجب الجدران ، كانت زوجة المفتش

بطة برية .. تطير هنا وهناك وتطير العقل . حتى عقل رجاء طار وتمنى لو تسبح فى بركته . نسى تيتى وأهمل نساء كتبه تمنى لو مثلا معاً هو وهى فيلم « الوسادة الخالية » .. أو (خذنى بعارى) – لكنها كانت شيئاً آخر – حتى غير تيتى – غير تيتى بكثير . جهود الكوافير وحدها تستحق مرتب والد تيتى فى مصلحة البريد . كان وحده مع الأنفار . تيتى بالقاهرة وهى فى الجنينة على كرسى منامه – بنظارة وفستان بلا أكمام ومجلة فرنسية – على جبينها فراشات . وهو وحده مع رجال كأعواد الكبريت . يستندون تحت ظل ويلهثون تنشطر صدورهم إلى نصفين ويلهثون .. عندما ينهر رجاء واحداً منهم يبكى كامرأة . ينوح ويشكو حيث لا مبرر للشكوى . رجال كهؤلاء لا يساقون .. رجال كهؤلاء لا نساء معهم . حتماً فالنساء يعبدن الرجال والعافية .. من هنا لن ينظر رجاء لامرأة من حريم هؤلاء .. ومن الجائز أنه لو طلب منهم – من الجائز فهو قادر – لكن رجال كهؤلاء لا نساء معهم . إما أن تكون معه امرأة وبينه وبين القاهرة ساعات يحركها قطار الشلال .. أن تكون معه امرأة وعربة بلا ركاب – إلا – هذا – ثالثهم – الغامض كالزوج – كالمجهول الخالد .

سبح بعينيه فى العربة متجنباً نظرات الرجل – جاهداً ألا يظن به نيات حسنة أو خبيثة فى العثور على المرأة . فوقه : لمبات خابية تهتز مع القطار .. ضوء أفرغ فيه الطبيب محقن الدم ، على الكراسى والأرضية : أصابع بيضاء ميتة بصمها الخارج متسللاً من الشيش والقزاز ، حاول فتح شفتيه فأغلقهما الجفاف .. أطبقهما فتعثرتا فى الجفاف ، الداخل قرضته أسراب الجراد ، لا أخضر ولا يابس ، الراديو : لا أمل .. (كانت تظن .. ملابسها كانت بيضاء تظن .. أومو .. تايد .. ساعة تيتوس .. اسبروا يقتل الصداع) .. (هاء .. هاء .. هاء .. ويضحك الولد .. يستلقى على ظهره ، يلوك الأب كلماته .. يهرسها جيداً ويخرجها ممطوطة .. هع .. هع .. هع .. مالك يله ، يرد الولد : البدلة الجديدة يابا البدلة الشعبية ، يضحك الأب ويهرش بطنه .. رأسه : ألا فين هيه ياله ؟) ويقوم المتفرجون جميعهم ليذهبوا لشركة بيع المصنوعات ، ويقفل صاحب المقهى التلفزيون – هو حر .. ملكه – كل حر فيما يملك ، رجاء حر فى أن يقفل الراديو – ولكن الراديو يتكلم والمذيع لا يسكت والشاشة لا تنطفئ والتليفزيون يشع – والمسئول هذا الجالس قبالته – الرجل الغامض كالسر : غرس داخله بالمزراق وسال كل شيء واختلط .. تركه تائهاً حائراً فى داخله .. لداخله ، بعد لحظة سيجن : يصرخ .. يزعق بطو الحس .. ليس معقولاً أن يجالس شانون ويأكل مع (الهارب من الأيام) ويتناول شريحة لحم من عظم دجاجة خلفها (عويس أبو ضب) – ليس معقولاً – ألا يلين هذا الرجل قسماته ، سيصرخ فيه رجاء .. يصرخ فى الفراغ .. ينحنى للرجل .. يقبل قدميه .. يركع تحتهما (أرجوك .. من فضلك .. تكلم .. ابصق .. انطق .. كالمذيع تماماً .. ليس مثله .. لم أقصد.. أعنى .. إياك إياه .. أنت هو .. هو أنت) .

٢ - (الشايب)

وقفوا بينه وبين ابنه (كالسد) الذى يسمونه (مركز قنا) وأقسموا جميعًا على (المصحف) إنه ضرورى وضرورى جداً وجود (مركز) بين (البندر) و(العاصمة) - لكنهم لا يفهمون .. يعرفون فقط - لهذا وقفوا فى وجه (القطار) الذاهب إلى (العاصمة) حيث ابنه (محمود) .

- ابعت له جواب يا أخى .

- بلدياته وياه فى السكن .

- يعنى لو كان هناك مشغولية .. بقليله واحد منهم يبعت جواب .

- نعم (عبد الصابر) و(الهادى النوالى) و(محمود الساكت) و(عبد الحكيم الرقاص) لا يفهمون .. فقط يعرفون .. كلامهم يقول ذلك .. والرجل كلمة ، هو لا ينكر أنهم يعرفون البيضة كما يعرفون الحجر ، كما يعرفون أيضاً اللعب بالبيضة والحجر - لكنهم لا يفهمون أن الابن أيضاً بيضة وحجر - كما هو لعبة أبيه ، الابن بيضة ، كاكا ، لها الرحم .. قال الرحم ، كاك ، فمشت الحرارة كالدم الذى هو ماء فى جوف العيدان .. اشتعلت النار وغلا الماء واستوت البيضة - لمها الأب بين جوانحه وأعطاها دفء حياته ففقست الكتكوت .

والحق لقد كان ابنه ، محمود ، فى صغره كتكوتاً .. يمشى بقدمين ، ويضرب بجناحين ويصوصو فى ، الآه ، و، الهيه ، ..

- ماليش دعوة عايز بنطلون .. مفيش فلوس لكن عايز بنطلون .

- بابا جاب بنطلون هيه .. هيه .. هيه .

كلهم يعرفون - القرية كلها تعرف أن ، مجاهد أبو دراع ، علم ابنه فى مدارس ، البندر ، - أعطى ابنه الأرض - مع بداية كل عام يعطى ابنه فداناً - لم يبع أرضه ولكنه أعطاها لابنه - أعطاه العمر ليتعلم ، كانت السنة تمر على الأرض لتعطى المحصول - وكان ، مجاهد أبو دراع ، ينتظر المحصول ليعطى ابنه سنة جديدة ، وبجهود ، مجاهد أبو دراع ، يعيش ابنه ، محمود ، الآن فى العاصمة ليأخذ ، الشهادة الكبيرة ، . بعد الشهادة الكبيرة فقط يواصل ابنه الحياة .. وقد تتوقف ، ومؤكد ستتوقف حياة ، مجاهد أبو دراع ، - ويبقى محمود ابنه ليبحث عن البيضة .. ويخرج الكتكوت : بقدمين بجناحين بلون النجمة بلون الأرض بلون الغيمة - كما يفهم (محمود) سيكون

«ابن محمود» .. تماماً كما يفهم «محمود» لكن «محمود» ابن «مجاهد أبو دراع» مازال يسير فى طريق الفهم– وللفهم دروب – وقد اختار «مجاهد» لابنه درب «الشهادة الكبيرة» وأمام «محمود» عامان كاملان ليصل إلى نهاية الدرب ويفتح الباب ويدخل الدار فيكاكى الأولاد .

– بابا جه .. بابا جاب .. بابا عاد .

عامان كاملان – لا أحد فى القرية يعرف أنهما عامان كاملان – لا أحد غيره يفهم أنه سيعطى فدانين .. لكل عام فدان .. لا أحد يفهم أنه يجاهد ليعطى ابنه عامين .. فدانين .. فالفدان عام والعام فدان . لو قال هذا لقالوا «مجنون» لو عرفوا أنها نهايته وأنه يجاهد ليموت ويعيش ابنه .. لتفقس البيضة ويكاكى الكتكوت .. لكسروا البيضة ورموه بالحجر وصرخوا بالطول والعرض : مجنون .. مورستان .. خانكة .

– ابعت جواب له يا أخى .

– بلدياته وياه فى السكن .

– لو كان فيه مشغولية كان واحد منهم بعت جواب .

لقد أعطوا لمجاهد «الحجر فى يده – لكنهم لا يفهمون – كسر كل منهم بيضته – لكنهم لا يفهمون» سيضربهم بالحجر الذى أعطوه ويصرخ بالطول والعرض (.. مجانين .. مورستان .. خانكة) .

– ولدى «محمود» ماء ودم .. خمسة وعشرون سنة .. ماء ودم .. كتكوت فى بطن البيضة فى رحم الفرخة .. فقس بين ضلوعى منذ خمس وعشرين سنة .. كان بقدمين بجناحين وأصبح بجهودى رجلاً بعد عامين سيقول الكلمة – الكلمة رجل . الآن فقط نبت له ما ينبت للرجال وما ينبت فى قدم السائر من نشع الأرض وشوك «الهلوك» .. فى الجفاف طفولة طفولة الرجل – صباحه الذى طلعت شمسه منذ لحظة – تتبعها لحظات .. دقائق .. ساعات .. يوم .. سنة .. خطوة فى الطريق إلى باب الدار ويكاكى الأولاد (بابا جاب بطيخة .. البطيخة طلعت حمرة .. بابا اداني شريحة .. الشريحة طلعت حلوة .. هيه هيه ..) .

خمسة وعشرون عاماً . قضى فى البندر عشرة أعوام وفى العاصمة ثلاثة – والباقى اثنان .. تلتاشر سنة بتلتاشر فدان . ولكى يقابل ابنه لابد من أن يسير «مجاهد» تلتاشر سنة .. تلتاشر فدان – وتكون المقابلة – بعد أن يفور الدم والماء تحت النار فتتشقق القدم .. ومن الشق يبرز «الهلوك» صلب الأشواك . من صدر «محمود» يبرز شعر الرجل وينغرز فى صدر «مجاهد أبو دراع» ومن

ذقن ابنه من عرضها وطولها الذى هو خمس وعشرون سنة يبرز (الرجل) وتسرى الحرارة فى الأعواد وتلتهم النار المحصول – ويفور الماء ويفور الدم ، هنا فقط سيطمئن ، مجاهد ، على ابنه محمود – عندما يتنفس ابنه (الحرارة والماء والدم) – سيفهم أن ابنه (حى) لم يمت ، سيتأكد أنه لم يبع (تلتاشر فدان) .

وليتهم يفهمون – ولكنهم يعرفون فقط – أبداً لن يفهموا أن السنة فدان وأن الفدان سنة والبيضة كتكوت والولد كتكوت .

ويقسم ، مجاهد أبو دراع ، أن أهالى ، بندر قنا .. مركز قنا .. محافظة قنا ، يعرفون فقط ولا يفهمون – لذلك فهم (مجانين .. مورستانات .. خانكة) يعرفون البيضة والحجر ويلعبون أيضاً بالبيضة والحجر .

٣ – (البنت)

– فى بنى سويف تلاقيه منتظرك .

عبد النبى مستنظر .. فى الإيد حبل وفى العبّ سكين ، اليوم .. يجى والساعة تجرى ، والقمرة تطل وتغيب ، والعجلات تدور وتنشال وتنحط .. وتنشال بلاد وتنحط ، والقطر يا مصرية يشيلك من قنا ويرميكى فى بنى سويف .. يرميكى للظن (لعبد النبى) ، أخوكى ، ابن أمك وأبوكى منتظرك : زى الوعد .. كلمة البلد جواه ، اللى ما يساوى كلمته فى عب عبد النبى .،. وعين عبد النبى فى التراب وفى التراب حكايتك وعلى التراب خطاوى الناس .

– والحرام حد قده .

– الستر يارب .

والقطر شايل تراب قنا فى عجله .. والتراب على كتفك وريحته جواكى .

– يمكن تكون معاه عيشة .

، يمكن ويمكن ،، يارب .. يا عبد .. قلبك يا عبد ع العبد هين .. وأنا مصرية بنت أم مصرية عبدتك يا عيشة .. الستر يا عيشة .. أخ يا عيشة لو طمس المسطور قلبك .. وعملتى ودن من طين ودن من عجين .. لو قفلتى قلبك بمليون ضبة وألف مفتاح ، .

– قولى لعبد النبى مشتاقين .

« وأنا مشتاقة لعبد النبى .. أخويا مشتاقة له .. ومشتاقة لعيشة .. مشتاقة لكم تنهشونى وترموا العيب من جواى.. ارتاح .. ترتاحوا .. مش ابنى .. دا كلمة الناس فى عبى .. كلمة بتجرى جوايا » (مالت الشفايف على الودان وهمست .. وشوش الزرع بعضه .. ونزل الليل .. البلد كلها طرحة سودة وكلمة سودة .. البنات سبلوا رموشهم .. والرجال صبغوا عمايمهم) .

– والحرام حد كده .

– الستر ع الولايا يارب .

– واحنا مالنا .. كل غراب ينعق على خراب عشه ..

« .. ح احميك . اقفل ودنى ولا أسمع .. تن عينى انت .. ضنايا حبيبى .. أصونك فى بطنى وتكبر مع كلمتهم .. وتشق بطنى وتطلع .. يقابلك الليل الأسود والكلمة السودة (الإنس نايم والجن صاحى – قدام باب الدار عوى الكلب .. اتكوم ع الفرش . جنبى .. عوى .. قلت : لا .. لا .. لا .. قفل ودنه وخرس لسانى .. زام .. وزام الكلب بره الدار .. زام وهمد .. وهمدت أنا .. عينى فى الأرض ، وعلى الأرض دمعتين .. وعلى الخد دمعتين .. شهر .. التانى .. التالت .. واسودت الكلمة .. رميت اللقمة .. (حتة بسبوسة) .. غصب على اديت البراح .. عايزاك يا ضنايا .. لو عشت تعيش .. لكن للحيطان ودان .. والنجم « فتان » .. والكلمة يأخدها البق ويسلمها « لبق » والنجم سيار يجرى مع القطر ويقول لعبد النبى :

– من قنا جاتك مصرية .. وفى بنى سويف انتظرها .. انتظرها يا عبد النبى بالحبل والسكين، وتعالى يا بنى سويف .. مشتاقة لأخويا .. مشتاقة .

ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالاً

- ماما .

خرجت الأم ، أمام الخيمة وقفت :

- عين ماما .

كررت عزة فى ضيق ودلع وكأن لم تسمع :

- ما .. ما .

وشيء ما أيضاً فى صوتها حزين .

(قالت الأم لنفسها)

هى مسافة قصيرة - تفصل بين الابنة والأم - مشتها الأم وصارت فوق رأس ابنتها ، كانت الطفلة قد عرت ساقيها بأن رفعتهما إلى أعلى وقد نامت على بطنها ملتصقة بالرمل الدافئ مستندة بكوعها على الرمل الدافئ ، وقد أراحت ذقنها على كفيها . حبات رمل حملتها الريح وانتثرت فوق شعر الطفلة ، حبات الرمل بدت لامعة تحت الشمس وكذلك شعر الطفلة بدا لامعاً .

- صغيرتى حلوة .. هى رائعة ابنتى .. عروسة تصير .. تلبس الأبيض .. ناعم وخفيف .. عريس لعزة سيكون (قالت الأم لنفسها) - وقالت :

- وبيت لها سيكون .

ونظرت إلى ما وراء الأسلاك وقالت :

وكرمة لها ستكون .

- ماما : الآن قولى له أن يحضر .

- ماما : أريد برتقالاً .

- أريد برتقالاً وأريد بابا جاسم يا ماما .

(كانت عزة تنادى جاسم أخاها : ببابا ، مات حمد والد الطفلة منذ ست سنوات .. كان عمر عزة وقت ذاك : شهر ونصف شهر ويوم بليلة ونهار ، مات حمد ، فى هذه الخيمة التى تسكنها الأم والابنة .. كان جسده بارداً وشمعياً ومتصلباً .. كان قد مات . كان داخل الخيمة ممدداً على الحصير .. ميتاً (قالت الأم للرجال وهم يحفرون الرمل : كذب .. كذب .. لقد مات من الجوع .. لو وجد الطبيب لما مات (رجل أفرنجى كان موجوداً وعلى كتفه شارة غوث اللاجئين ، كان يبدو أنه حزين وخجل (صرخت : لماذا لا يموت الآدمى من الجوع !! الآدمى يموت من الجوع) هناك فى يافا كان قوياً .. قوياً كان ، كان يثور وكانوا يسمونه هناك فى يافا : البحر .. وهناك أيضاً كانوا يسمونه : الليل .. كان يضحك للنكتة .. ودائماً كان يبتسم لها فى يافا .. وكان سعيداً .. الغرباء من كل بلد جاءوا .. ومازالوا هناك الغرباء .. وهو جاء إلى هنا ومات .. غريباً مات ، الأنف والحاجب والحول الخفيف كل ما بقى من حمد فى جاسم ابنها وابن حمد) .

زعقت الطفلة وقذفت فى الهواء الساخن كفاً مملوءة بالرمل الساخن :

– أين هو يا ماما .. لقد تأخر .. لقد غاب كثيراً يا ماما ؟

قالت الأم :

– هناك .

وأشارت بيدها وراء الأسلاك .

– هناك .

(هذه المرة كانت تكرر لنفسها وتؤكد) .

قالت الطفلة :

– لماذا هو هناك ؟

لأن الغرباء هناك .. لأنهم من هناك يجب أن يخرجوا ليحضر هو إلى هنا ويأخذنا إلى هناك.

(قالت الأم) :

وثبت الطفلة واقفة ، عادت وركعت على ركبتيها .. ألقت برأسها إلى الخلف وأعادته بحركة جديدة وظلت تنظر إلى هناك .. إلى ما وراء الأسلاك ، ورددت فى همس :

– من هناك يجب أن يعود ليأخذنا من هنا .

– ماما .. يجب أن يعود من هناك ويأخذنا إلى هناك .

قالت الأم :

– يجب أن يخرجوا من هناك ليحضر هو إلى هنا ويأخذنا إلى هناك وقالت :

– أحدنا هناك يجب أن يكون .. أن نكون نحن هم لا يكونون .

ارتمت الطفلة فى حجر أمها التى جلست .. ضمتها إلى صدرها وظلت تضغط ، تملمت الطفلة ولذ للأم أن تثير عنادها فظلت تضغط ، كانت الطفلة تحاول التخلص دون جدوى .. وفازت به بعد أن أوهمتها الأم بأنها قد غلبت على أمرها ، ظلت الطفلة تضرب فخذ أمها بكلتا يديها :

– من هناك يخرجون .. هناك بابا جاسم .. من هناك إلى هنا يعود بابا جاسم .. ويأخذنا إلى هناك..

وقالت :

– ماما .. أنا أحب بابا جاسم .. بابا جاسم سيأخذنا من هنا إلى هناك .

قالت الأم :

– بعد أن يخرجوا .. بابا جاسم يأتى ويأخذنا معه .. أنا وأنت .

قالت الطفلة متسائلة :

– برتقالاً يحضر معه .. أنا أحب البرتقال يا ماما .. برتقالاً لأجلى يجب أن يحضر .

أجابت الأم :

– هناك لنا ثلاث شجرات تثمر برتقالاً .

تساءلت الطفلة :

– كبيرة هى الثلاث شجرات يا ماما ؟؟

أجابت الأم :

– نعم كبيرة .. كبيرة .

ورسمت بذراعيها فى الفضاء حجم الشجرات وقالت :

– هكذا كبيرة .

قالت الطفلة :

– وتحت شجرات البرتقال أنام يا ماما ؟؟

– نعم تنامين تحت ثلاث شجرات من البرتقال كبيرة .

– وآكل برتقالاً كثيراً !!

– وبرتقالاً كثيراً يا غاليتي تأكلين .

– أنا أقدر أن أطلع شجرة برتقال كبيرة .

– لا .. شجر البرتقال لن تطلعي .

– لا .. ولكنني سأطلع شجرات البرتقال .. ثلاث شجرات كبيرة أطلع .

– صغيرة أنت .. ولا يجب أن تطلعي شجرة البرتقال لأنها كبيرة تكون .

– لن أكون صغيرة .

– نعم صغيرة لن تكوني .

* * *

من جديد لمت الأم ابنتها وغطتها بذراعيها ، قالت :

– كبيرة تصيرين .. وكبيرة تذهبين إلى السوق .. تحملين الخضار لبيتنا .. هناك لنا سوق .. لفلسطين أسواق كثيرة .. ببلدتنا سوق كبيرة .. أنا صرت عجوزاً .. أنت تقومين بكل أعمال البيت .. تنامين على سرير بمفردك .. لن تنامي معي .. ستكونين كبيرة .. لي سرير ولك سرير .. سيكون لسريرك ملاءة بيضاء وكذلك لسريري ملاءة بيضاء ...

قالت الطفلة معترضة :

– ملاءة خضراء يا ماما .

وافقت الأم :

– بسوق بلدتنا ملاءات خضراء .

قالت الطفلة في فرح :

– وثياب خضراء يا ماما !!

قالت الأم منساقة ومشجعة لفرحة ابنتها :

– في بلدتنا سوق به ثياب خضراء .. وحمراء وصفراء .

قالت الطفلة :

– خضراء وحمراء يا ماما !!

غنت الأم وهى تصفق الواحدة :

خضراء خضراء

وصفراء أيضاً وحمراء

خضراء وحمراء

صفراء وخضراء

ورددت الطفلة مع أمها .. وغنتا معاً :

صفراء وخضراء

ثياب صفراء

ثياب خضراء

خضراء وحمراء

قالت الأم :

– لعرسك أصنع كعكة كبيرة .

ردت الصغيرة :

– حمراء تكون .. الكعكة الكبيرة حمراء تكون .

قالت الأم :

– وعلى الكعكة أنثر حبات اللوز .

قالت الصغيرة :

– صفراء وحمراء .

– والفسدق حبات حبات .

قالت الطفلة :

– صفراء وخضراء .. حمراء وصفراء .

قالت الأم :

– والبندق .

قالت الصغيرة :

– أخضر سيكون .. أحمر سيكون .. أصفر سيكون .

– قالت الأم تصحح وضعاً خاطئاً :

– أحمر يكون .. وأصفر سيكون .

ردت الطفلة فى سرعة وهى تستدرك الخطأ :

– أحمر سيكون .. أصفر سيكون .

قالت الأم :

– عويدات الجمل على الفطيرة ستنام .. حبات كبيرة .. وكثيرة ستكون .

صفقت الصغيرة :

– خضراء وحمراء يا ماما .

قالت الأم تسأل :

– أم طيبة أنا ؟

قالت الطفلة :

– طيبة أنت يا ماما .

قالت الأم :

– عجوز وطيبة أنا .

أجابت الطفلة :

– عجوز أنت وطيبة أنت يا ماما .

قالت الأم :

– ولى بنت طيبة وصغيرة .. حلوة وصغيرة .

قالت الصغيرة :

– طيبة أنا .. طيبة وصغيرة .

قاطعتها الأم :

– أنت حلوة وطيبة .. صغيرة لن تكونى .

قالت الطفلة :

– كبيرة أكون .. كبيرة وحلوة .

قالت الأم :

– ستنسلين كل الملابس .

قالت الصغيرة :

– كل الملابس .

قالت الأم :

– الخضراء والحمراء وكذا الصفراء .

قالت الصغيرة :

– الخضراء والحمراء .. وكذا الصفراء .. والحمراء والصفراء .

* * *

كانت الطفلة قد نامت ، كانت تبتسم فى الحلم ، وفى الحلم كانت الشمس الحمراء تقذف الرمال الصفراء بالظلال الحمراء .. كانت الرمال حمراء وكذا التلال ، وكانت هناك مياه حمراء وثياب حمراء وطيور حمراء كثيرة لها أجنحة حمراء ترف فى الفضاء الأحمر ثم تهبط لتلتقط بمناقيرها الحمراء أشياء حمراء .. كانت هناك أشياء كثيرة حمراء تهبط من أجلها الطيور وترف بأجنحة حمراء فى الفضاء الأحمر الأحمر ..

* * *

كان الليل قد جاء ودخل الخيمة ، وكانت الريح بالخارج تضرب الخيمة بالرمل ، ورائحة ليل يافا المحمل بالعطر تفتحت عنه أزهار البرتقال وملأت به الجو .

ومن مكان ما بالخيمة – لا يمكن للأم أن تراه : رغم الضوء الذى اقتحم به القمر الخيمة أيضاً – كانت هناك أنفاس شخص ثالث ..

همست :

– حمد ..

وحدثت نفسها :

– هو حمد .. أتى كالعادة فى الأوان ، وقت يغطى الزهر الأبيض أشجار البرتقال هناك فى يافا ويفوح العطر هناك فى يافا ويأتى الليل والريح من هناك من يافا يأتى حمد قوياً كما كان فى يافا .. أنفاسه القوية أحس .. هى أنفاسه قوية كما كان .. ودائماً فى هذا الأوان معى ومع عزة داخل الخيمة يكونان .. حمد وجاسم ..

وزعقت :

– حمد ..

ولم تسمعه يرد (هناك يسمونه البحر وأحياناً بالليل كانوا يسمونه هناك .. وهنا مات .. فى هذه الخيمة .. غريباً دفن .. من يافا يأتى ليلاً ومعه رائحة أزهار البرتقال وأنفاسه قوية يطلقها) .

زعقت :

– البحر .

فقط أنفاسه كانت تسمع وأنفاس عزة ابنتيهما ، كلمت نفسها :

– فى هذا الأوان حيث العطر به زهر البرتقال قد تفتح وجاء به الليل والريح من يافا إلى هنا حيث هذه الخيمة .. دائمًا فى هذا الأوان يجئ حمد كما تعود .. ويجئ جاسم من مصر كما تعود .. وهنا يكون ، جاسم ولدى : منذ زمان تعلمت القراءة .. ومع كل عام يتفتح فيه زهر البرتقال كانت تأتى إلى هنا من مصر ومنك كانت تصل المكاتيب !

جاسم ولدى : من هناك من مصر تعال وإلى يافا اذهب حيث بيتنا والعدو يكون تواجهه بالسلاح وتضرب ومن مصر تأخذ سلاحً وتضرب وتضرب وتضرب وتضرب وهناك فى يافا لا يصيرون ... ومن هناك تأتى وتأخذنا إلى يافا حيث بيتنا يكون والغريب لا يكون وثلاث شجرات من البرتقال لنا تكون .

* * *

قالت الأم : تفتح الزهر ورائحته أشم.. جاء الليل.. أيام كثيرة.. ولم يجئ جاسم وهذا موعده ؟! نسوة الخيام رددن : لماذا جاسم ؟ إن أحداً لم يحضر ! زهر البرتقال بالعطر قد تفتح والطيب يأتى به الليل من يافا نشمه .. والغائبون عنا - عيوننا التى بها ننظر - بالسلاح هناك يضربون والغرباء يفزعهم السلاح وصراخاً نسمع .. بالغداة فى بيوتنا سنبتهج ، قالت الأم تكلم نفسها : سالماً يعود . وبيتنا هناك فى يافا يدخل .. يجد الغرباء فى بيت حمد الذى كان رجلاً بألف (كان البحر .. وكان الليل هنا فى يافا .. شارب كثيف كان له .. وحواجب كثيفة كانت له .. وعلى الصدر كان شعر غزير ، بإحدى عينيه كان حول خفيف .. كان جفنه ينغلق عندما يغضب - ويظهر الحول واضحاً .. وواضحاً كانت تراه وقت أن يغضب .. عندما يغلق جفنه يظهر حول خفيف .. كانت تراه وقت أن يغضب) .

قالت الأم : وقت أن يغضب جاسم يشبع عدوه رصاصاً وخوفاً وموتاً يشبعه .

وقالت تحدث جاسم : استمع لصوت دعائى يا ملكى .. اصغ لى يا جاسم .. تأمل صراخى .. إليك أصلى .. جاسم أوجه صلاتى نحوك وأنتظر .. يا جاسم بالغداة تسمع صوتى .. بالغداة أبتهج ببيتى وشجراتى وبك يا ملكى .

وكانت تحدث عزة النائمة وهى تهمس :

من هناك إلى هنا يعود وإلى هناك يأخذنا أنا وأنت .. وإلى بيتنا فى يافا حيث يبتهج القلب نغنى - أنا وأنت : للغنم .. والبقر جميعاً وبهائم البر أيضاً .. وطيور السماء .. وسمك البحر السابح فى كل المياه ..

وخلعت غطاء رأسها وفكت ضفائرها - قالت : لماذا تختفى فى أزمنة الضيق ؟ لماذا تقف بعيداً!! قم يارب .. يا الله ارفع يدك .. ارفع أحبابنا من أبواب الموت يحترق الشرير بكبريائه .. يؤخذ بالمؤامرة التى فكر بها - لأن الشرير يفتخر بشهوات نفسه .. والخاطف يجدف .. أليست أحكامك عالية فوقه !! عدوى موتاً يشبع وتشريداً وقتلاً .. قتله هم يا إلهى .. فى أرضنا فى أرض زوجاتهم لا يحرثون .. ذرية لا يحصدون .. بقدر ما حرثنا والذى زرعنا نحصد .. ذرية وزيتوناً وبرتقالاً نحصد ومن كل طيب نحصد .. وأعراساً نحصد يا إلهى نحن .. نحن نسلك بالكمال ونعمل بالحق ونتكلم بالصدق فى قلوبنا ولا نشى باللسان ولا نصنع شراً بصاحبنا .. وفضتنا لا نعطيها بالربا والرشوة لا نأخذها على البرئ ..

وقالت : قم يارب بغضبك – ارتفع على سخط مضايقى وانتبه لى : تقدمه .. اصرعه .. نج نفسى من الشرير – من ينزل فى مسكنك .. من يسكن فى جبل قدسك .. واقض لى كحقى يبتهج قلبى وأغنى – وهمست : لفجر كهذا الفجر الذى أراه : يدخل بالضوء الفضى .. طاهراً ونقيًا كحقى .. كيافا .. الحق طاهر والفجر نقى كحقى كيافا .. وكذا القلب منا طاهر والحق والعدل نحن .. ألسنا كذلك يا إلهى ؟ .. ألسنا كذلك حيث جلالك فوق السموات أيها الرب سيدنا .. يا إلهى ألم يكن البحر !! ألم يكن الليل !! وكان قوياً وكان شعر كثيف وكان .. كان يبتسم .. كان سعيداً .. فى يافا .. فى يافا ..

– ماما .

زعقت عزة .. كانت قد صحت وكانت فزعة .. سكتت الأم واحتضنت طفلتها .

قالت الطفلة : ساخنة أنت يا ماما .

قالت الأم : نعم .

قالت عزة : أنت لم تنامى .

قالت الأم : نعم .

قالت عزة : أنا أعرف لماذا .

قالت الأم : نعم أنت تعرفين .

قالت عزة : كنت تكلمينه أنا أعرف .

قالت الأم : نعم كنت أكلمه .

قالت الطفلة : كنت تطلبين منه أن يحضر إلى هنا .. أنا أعرف .

قالت الأم : لقد طلبت منه أن يحضر .

قالت الطفلة : ماما .. برتقالاً معه لأجلى سيحضر .

قالت الأم ساهمة شارقة إلى الضوء يملأ صحراء الخارج :

هناك لنا ثلاث شجرات كبيرة تثمر ...

الدفّ والصندوق

لا تمض أبداً ، أيها الصديق من هذه الجهة للمدن حيث الشيوخ ينسجون لك ذات يوم قش الأكاليل ، لا المجد ولا القوة يترنحان إلا فى ذروة القلب البشرى.

« ضيقة هى المراكب - سان جون بيرس »

المهـــر

تحت النخلات الثلاث - كعفاريت الجن ، كان يرقب الطريق ، تفصله - ترعة الدم ، خلفه زراعة حوض الطينة ، هناك فى المنحنى حيث تدور الترعة ويدور معها الطريق طريق القادم من قرى « العشى » والصعايدة والزينية قبلى وبحرى : كثرة من الرجال والنساء والدواب إن كان سوق الثلاثاء ، قلة راجلة أو راكبة عدا ذلك من أيام الأسبوع هى الصفوة على أى حال .. وهبها ملك الملوك الجاه والصيت والجمال أيضاً .. رجال وشبان قصدهم الأقصر مركز القرى وبندر البنادر وبلد السياح حيث المتعة خالصة نظيفة كالأقصر فى الشتاء .

بمكمنه يكون قد جاوز حدود قريته - الكرنك القديم - بشكل ما .. وصار داخل حدود الزينية قبلى : بخطوة أو بخطوتين وربما بعشر خطوات - إذ ليس هناك حدود قاطعة فى فهم القرويين الفضفاض ، كما أن ما بين القريتين من مشاكل كان يهون أمام طبيعة الفلاحين الخالدة ، تسامح غالباً وتعقد أحياناً ، ولكن رغبة كبار القوم ممن لا يرضيهم خراب البيوت العامرة حفظت سلام القبيلة الواحدة - أهل القريتين تناسلا من عمر وقد جاء مع الفتح الإسلامى لمصر ، وبحقه المشروع كمسلم تزوج من أربع - هن أسماء وفاطمة وهند والزهراء - إحداهن كانت نكدة ولكن الرجل الكبير كان عربياً يعرف يسوس الأنثى - ويقال إنها كانت « هند » - يكفى أن تقول للرجل المشاغب « يا بن الأنثى » أو - يا بن نفيدة - حتى تعاوده طبيعته الخالدة ، أما لماذا نفيدة وليست هند !! فهذا ما يجعله الآن يكمن بين النخلات كعفريت الجن ، ينتظر شبيب الساهر بعرس حجازى .

« كان منطقياً أن لا يكون هناك خط قاطع بين القريتين يحميه جند ، نطلق عليهم حراس الحدود ، حتى فيما لو حدثت تلك الأمور المسماة بالكبيرة والتى يقول عنها الفلاح : أمور تهتز لها السموات ، ونحن لا نجرى أمام الزمن ، فالقريتان كسائر قرى مصر ، والقوم يعيشون عام ١٩٦٨ : عام الأحداث الجارية الذكر » .

ليلة تحسب من ليالى الشتاء الطويلة السوداء الباردة ، وقد طال به الانتظار ، هو هنا منذ ولدته أمه ، والنخلات الثلاث منتصبات كعفاريت الجن ، يتخيل أن البرد داخله هو .

صوت المزمار والطبلة وصاجات الغوازى والفئران الهاربة ونقيق الضفدع المتصل وطلقات الرصاص المتقطع المفاجئ البعيد ، وذلك الهم الغامض الحاد كسيف السلطان ، أن يكون قادراً على

الفصل والتمييز بين كل صوت وآخر ، أن يبذل ملزماً ذلك الجهد الخارق فى التصنت ، الظلمة شديدة التماسك ، والسماء تبدو جوفاء ولها وجه مجذوم وقد خلت من قمر كما توارت نجومها المعتادة خلف السحب الخفيفة الداكنة .

حُمار ببياض الحليب : قامته عالية ، ثم إن البارود تفسده الرطوبة : كان يجب أن يلف ساق البندقية بجلباب من القماش ، تاك ، وينتهى كل شيء .. يموت شبيب .. تاك .. لحظة .. يسقط الحمار الأبيض .. تاك ، ينتهى السؤال والجواب والقيل والقال والقادم والفائت والمتعة والفرح والألم والعذاب والأم والأب والشعور والانتظار .

البرد والظلمة والاضطراب المبهم – ربما يتحدد كل ذلك بالخوف .. ربما ، صوت المزمار والطبلة وصاجات الغوازى والفئران الهاربة – خائفة من ماذا ؟ – ونقيق الضفدع المتصل وانفجار الرصاص المفاجئ المتقطع البعيد والتصنت وساق البندقية البارد الصلب المظلم ، عرس حجازى ربما امتد حتى الصباح فهو ابن الحاج عبد الكريم : غنى .. محبوب ومجاملوه بالآلاف ..

شبيب يشرب .. يشرب .. سكران .. تاك وينتهى كل شيء .. والحمار الأبيض فى الظلمة شديد الوضوح .. وبياض النهار قادم .. مع نبح الكلاب المبحوح يأتى . مع صوت الديكة وانفجار الشمس .. وهو هنا .. منذ ولدته أمه .. فوقه تنتصب عفاريت الجن .. حوله تماسك شديد قط وفئران خائفة .

صوتها كان مهاناً ، حافية ، بملابسها السوداء وجرح بعنقها أو على خدها الأيمن وربما الأيسر وقد يكون فوق حاجب العين : الأيمن أو الأيسر ، فوق الجبهة يرقد كوزغة .. كسحلية ، تحت ترهل الثديين يعلو تل البطن ، فى الموقد كان القدر يغلى : بكك .. بكك ، ارتعشت الظلال وهربت ونامت تحت حوائط الفسحة الوسطى – حال أضاءت مصباح الجاز ، كانت هناك قطة تموء من مكان ما : كانت تنادى قطاً ذكراً ، خمن هذا ، ودوى الآذان من جامع عبد الله وهى تقول فحت : يموت .. والليلة يموت .. هوه اللى قتله .. قاتل أبوك عدوك ليوم الدين .. شبيب اقتله . الليلة يا ولدى اقتله ، توأمان هما الحزن والأفعى .

الجواب معلق ، فارغ هناك مازال ، وهى تنتظره ، العجوز تبتسم ، يلم تفاصيل وجهها البعيد – من مكانه ذاك تحت النخلات الضاريات بطولهن فى السماء العميقة والسوداء !! .. ذهنه أحمر متوقد كجمرة .

الرطوبة والعتمة والخفاش والراهب والوحش والنبى والروح يسكنون الكهف ، الإنسان : سر الرب .. خنفسة ، أحياناً يشعر المخلوق أنه كهف مسكون ، للأصوات رنين .. صدى .. صراخ ثكلى

.. هناك فى الجبانة ترقد القبور تحت شمس الصيف .. تلال من التراب لها سطوة الوهج .. وتنتصب شجيرات التمر حنة ترمى بالظلال الخفيفة وريح تسقط الزهر . الأرملة الأولى فى المقدمة .. تتبعها الشقيقتان ، ثلاث أرامل يلبسن الأسود وتحتهن الظل وتدّ مدقوق فى عظام الموتى ، يجمعن القطط والكلاب الضالة ، تحت شجرة التمر حنة تمسك كبراهن بيد الرحى ، وتبدأ المرثية ، وتحت كفى الرحى تولول اللحوم والعظام المتكسرة .

فى البيت يطفأ المصباح ، وتظل تصرخ فى العتمة ، تكون عارية ، وفى الصمت يدور الهمس: شبيب هناك ، وفى النهار عيونهم متوهجة كالشمس .. كذيل فرس شبيب الذهبية ، وهو يدرك مقالة كل عين : اقتل شبيب .. قتل أباك .. نام مع أمك ثم تزوج غيرها .. كانت أمك حلوة من أجلها قتل شبيب أباك .. ثم تزوج من شابة حلوة ، أمك أيضًا تقول – اقتله ، وفى العرس : خمر ولحم ،غوازٍ ورصاص متقطع مفاجئ وطبل وزمر وشبيب سكران .. يضع الجنيه الذهب فوق الصرة تماماً .. تحت تكور البطن .. هناك .. وفى العرس .

والنهار يأتى بالضوء وشمس حمراء تنفجر وتقف للأبد فوق سن الجبل تشعل النار فى الحجر . وحول البركة حشائش وماعز وماء ثقيل والباطن عفن ، ترمى الحجر ، يصنع دائرة وتهب العفونة – فجأة ، تكبر الدائرة وتتسع وتخف العفونة بالتدريج ، وترى السطح لامعًا تحت الشمس وتنكسر عيونك تحت قسوة الوهج ..

لم يكن يسمع شيئًا ولم يكن يرى سوى سطح أسود فقط ، شد بندقيته على كتفه ، داس على الزناد بقسوة وانطلقت أربع رصاصات ، خيل له أنه الآن يسمع الصدى ، وبكى بقوة ، فقط – لا يجب أن لا يعود إلى هذا الصمت .. !!

حج مبرور وذنب مغفور

الرجل القصير وصل ضحى اليوم ، كان قادماً من المركز البعيد وقد اعتلى دراجة ماركة «فيليبس» لها جرس ، أعلى حاجبه الأيسر كان الجرح القديم مازال يرقد قريب الشبه بالبرص وبحجمه تقريباً ، كان يلبس نفس الجاكتة الواسعة وكانت من الكاكى الأصفر – كذا نفس البنطلون الذى كان واسعاً أيضاً ومن نفس قماش الجاكتة وإن بدا لونه الأصفر أقل اصفراراً ، هذا بينما كان وجهه المستدير الجامد – ذو العينين المصوبتين إلى بعيد – يفضح ابتهاجه الشديد فها قد وصل القرية ككل مرة فى موعده المحدد رغم عوائق الطريق : منحدر وعر .. جبّانة النصارى .. منحنى مفاجئ .. قنطرة خشبية ضيقة قديمة أسفلها يجرى المصرف المائى .. أسراب البعوض المستفزة .. التراب المتحرك الناعم المخادع يفصل بين القرية والقرى الأخرى الكثيرة .. دورة كاملة حول القرى .. قرية .. قرية ثم الطريق الطويل المرصوف المريح الذى على جانبيه شجر الجازورينا الكبير العجوز الكثير الظل .

توقف أمام دار الحاج عبد الكريم محمد ، كان الرجل القصير يعرف ما يريد بالضبط ، ترجل ممسكاً الدراجة بيده اليسرى ، بينما قبض بيده اليمنى على الكتف الحديدية التى تتدلى من الحلقة الحديدية المثبتة هناك وسط البوابة الخشبية ، خبط الثلاث خبطات التقليدية المتقطعة وأطلق من دراجته جرساً طويلاً .

« خرجت الحاجة أسماء زوجة الحاج عبد الكريم محمد ، طرحتها البيضاء غطت على شعر رأسها الأبيض الطويل والتفت حول العنق الغليظ وسترت عرى اللحم الأبيض وخبأت تفاحة آدم . قال الرجل القصير : تلغراف من الحاج يا حاجة .. مبروك ، تناولت الحاجة التلغراف بيدها اليمنى الملفوفة بالطرحة البيضاء فقد كانت تخاف على ابن آدم من الحية . وأطلقت أمينة زوجة محمود سليم زغرودة فالجيرة الطيبة حق .. والحاج الغائب ذاك الذى أعطى زوجها محمود أربعة أفدنة من أجود أملاكه – يزرعها محمود ويقتسم المحصول بنهاية كل عام مع الحاجة وريثة الحاج الشرعية فى غيابه الطويل المتقطع ، كانت الحاجة أسماء قد أعطت البشير نصف جنيه كامل . ونهرت أمينة

مجموعة الأولاد الفضوليين وأفسحت الطريق أمام الرجل القصير ، الذى امتطى دراجته وأطلق أجراساً فرحة وقصد الشرق البعيد كحمامة طارت صغيرة بحجم البيضة ظلت تتدحرج هناك فى المنحدر ثم غاب الخط الأسود . قال الولد للأولاد من حوله : يدخل المركز مع غروب الشمس .. له بيت من طابقين يلتصق بمبنى السينما . وطلب الأولاد من الولد أن يحكى لهم فيلم « رابحة » . وقالت الحاجة لنفسها : الحاج عبد الكريم موعود بالجنة وسيظل خالداً فيها أبداً .. لقد زار قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام مرات ومرات ، وقالت الحاجة متحسرة : الرسول الكريم يحب الحاج أكثر مما يحبها .. دعا الحاج مراراً لزيارة قبره الطاهر ومدينته المنورة بوجهه المضئ كمثل ألف قمر مكتمل.. ودعاها مرتين فقط .. يعود الحاج بعد ثلاثة أيام بالتحديد ويقف ويزيح الطرحة عن حلاله، وأرسلت الحاجة من فورها رسولاً يأتيها بحنفى الخطاط الرسام المبيض النقاش».

أتى حنفى من فوره ببرميل كبير وفرشاة كبيرة وفرشاة صغيرة وعصا طويلة من خشب الزان وقراطيس ملفوفة اختفت داخلها كل الألوان الصفراء كانت أو الحمراء ، وأتى حنفى أيضاً بجردل صغير ، وأقام البرميل داخل صحن الدار حيث توجد الطلمبة القادرة على ضخ الماء من جوف الأرض البعيد المنال . ملأ حنفى الجردل الصغير خمس مرات ليصب الماء بالبرميل الكبير ، ثم ألقى بكمية من الجير الحى داخل البرميل ظلت تفور وتبخر كالآدمى حين تصيبه الحمى التى تحشو جوفه باللهب والرمل الحامى والجمر المتقد . أقام حنفى السلم مسنداً إياه على حائط الواجهة ، وصعده حاملاً الجردل المملوء بماء الجير ، ونظر للرسوم القديمة ، وبسرعة وبالفرشاة الكبيرة دهن الحائط وانتظر حتى تجف ، ظل يتأمل القطار ذا الثلاث عربات والماسورة القصيرة التى مازالت تنفخ الدخان الأسود ، كانت كل الرسوم واضحة مازالت تحت طبقة الجير التى لم يجف ، ضحك حنفى لأن حرف « الراء » كان بادئ العيب فى « يا داخل هذا الدار صلى على النبى المختار » المكتوبة بخط كوفى جميل ، بهمة ملأ حنفى الجردل وصعد السلم وبالفرشاة الكبيرة غطى الحائط بطبقة أخرى من الجير ، كانت الحاجة تطالبه من أسفل بأن يعيد دهن الحائط للمرة الثالثة ، أطل حنفى من فوق وقال للحاجة : حاضر .. من عينى .. لأجل خاطر الحاج ، وتمنى حنفى للحاج سلامة العودة ، ونفذ ما أمرته به الحاجة فوراً واختفت الرسوم والخطوط القديمة نهائياً ، وصار الحائط شديد البياض يضوى وقد انعكس عليه شعاع شمس الأصيل مما أجبر حنفى أن يغلق جفنيه ويفتحهما بشكل مستمر وبحركة سريعة ، كتب حنفى فوق بوابة المدخل بخط كوفى جميل « يا داخل

هذا الدار صلى على النبى المختار » ، أطل لعينه الفنانة الخبيرة حرف الراء جميلاً كبقية الحروف الجميلة . ورسم حنفى جملاً ووضع فوقه هودجاً غطاه بثياب متعددة زاهية الألوان ، وتذكر ما يقال عن الجمل الصبور ذلك الذى لا ينسى الإساءة ويغدر حتى بصاحبه من يقدم له الطعام والماء ، بسرعة رسم حنفى خزاماً وكمم فم الجمل ، ورسم حبلاً تدلى من الخزام ، وقال لنفسه : هذا الجمل هو عين الجمل الذى رسمته فى العام الفائت ، ولكنه استمر يرسم الرجل الذى مد يده ومسك بالحبل والذى يقود الجمل قصيراً متناهى الضآلة ، وظل حنفى حائراً يفكر : « أيرسم الرجل بحجم الجمل ثلاث مرات أم يضع فى يده بدل العصا سيفاً قاطعاً !! » .

الجدّ حسن

تلك عادة الجد حسن ، متى حلّ شهر الصوم الكريم ، وحتى تنفرط ثلاثون يوماً مجيدة ، يكون قد صلى العصر مع الجماعة بمسجد جده المرحوم عبد الله ، وعاد ، وقعد على المصطبة المشيدة من الأحجار الأثرية القديمة والتى تقع على يسار بوابة المدخل .

منذ ما يربو على الثمانين عاماً بنيت تلك المصطبة وقعد عليها الجد حسن وذهب الرجال وعادوا بالأحجار المتساقطة من سور المعبد القديم ، هكذا شيدت الدار فى أقل من أسبوع : صورة مصغرة من بيت العائلة الكبير وإن كانت بغير سور وديوان ومنظرة وجامع إلا أن بها اسطبلاً للخيول وطاحونة ومعصرة خاصتين بأسرة الجد حسن كما هما هناك خاصتين بعائلة الجد عبد الله وكذا يجر حجر كل منهما ثوران شديدان ، وتزوج الجد حسن بنشوى ابنة الحاج سيد وأنجب منها ثلاثة من البنين وأربعاً من البنات . وماتت وتزوج الجد حسن من حفصة ابنة يوسف عبد الكريم ولم تحمل بطنها غير البنات فتزوج من زنوبة أختها الصغرى وكانت أماً لأولاده عبد المجيد وعبد الباسط وعبد الماجد والبنتين أمينة وفاطمة .

* * *

عن يمين الجد حسن بوابة الدار مغلقة ، عق : يابنت ، صرّت البوابة المصنوعة من خشب الجميز بصوت خافت ثقيل وتدحرج الحجر الكبير على التراب وأصدر صوتاً مكتوماً . واحدة من بنات أولاد الجد حسن الصبية الستة هى التى فعلت ذلك وها هى البوابة الآن نصف مفتوحة محجوزة بالحجر الكبير والبنت اليوم من تكون ؟ – يسائل الجد حسن ويزعق : يابنت . أنت نوال ابنة الأوسط عبد الحميد لاهثة رأسها الصغير مائل ورقبتها النحيلة محنية تحت مقطف صغير مملوء بثمار البلح ، أنزلت المقطف من على رأسها إلى كتفها وأسندته على ركبتها وأنزلته على المصطبة ودحرجته ليبقى بجوار الجد فى متناول يمناه . ومضت جارية وعادت نوال بمقطف آخر به خبز ووضعته بجوار مقطف التمر ، وظلت واقفة لا تنبس ، لم يكلمها الجد ، فقط ابتسم فهو يعلم أنها سعيدة بما فعلت وتذكر أنه لم يسألها عمن فتح الباب هذه المرة فسألها ، جرت نوال لداخل الدار

وعادت وقالت : أنصاف يا جدى ، وسأل الجد جاداً ومتجهماً ، وأين بقية البنات ؟ ردت نوال : بالداخل يا جدى . وسأل الجد : والصبيان ؟ ، قالت نوال : كلهم بالدار يا جدى .. كلهم بالداخل يا جدى .

* * *

يرى الجد حسن الدور بامتداد الدرب على الجانبين .. ينحنى الدرب هناك بعد بيت أحمد الراوى ، تبقى ساكنة تلك الجثة السوداء الكبيرة الملقاة عند المنحنى حيث ينتهى الدرب : أشبه بجمل أسود كبير وقد برك .

يمر شيوخ الرجال ، يترجلون إن كانوا راكبين ، قصدوه بالسلام ، رد سلام الله عليهم وأضاف بابتهاج : رمضان كريم وسمع ردهم : كريم يابن الكرام . وجوه الرجال تتغير وسحناتهم تتبدل وردهم واحد لا يتغير : كريم يابن الكرام ، يزيد ابتهاج الجد حسن فيداعب الشبان الذين يأتون ، يقبلون يده فينتفض جسده ويستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم ، ويعود لمداعبتهم منادياً كلاً منهم باسم أمه ، قال لصالح السنوسى : فاطر ولا صايم يابن حسنية ؟ رد صالح : الحمد لله يا جدى، وكان الجد يعلم أنه صادق ، أما شحات الفكرى فقد سحب الجد حسن يده من بين يديه ومن تحت فمه مستغفراً وصرخ : انت فاطر وخاسر دينك ، ورد شحات وشرف محمد صايم صايم يا جدى.. وصرخ الجد مستنكراً : يا ابن الكلب لا تحلف بشرف النبى .. انت لا تعرف مقداره : أحلف بشرف وديدة بنت الساكت أمك .. غور .. الكفر على وشك ، والله يا جدى صايم هذا العام : قال شحات وهو يبتسم فهو يعرف أن الجد حسن لن يكف عن مداعبته ومخمناً ما سيقوله الجد بعد ذلك : ستقول لا تحلف بالله .. ولكن بالله العظيم صايم ، يسأل الجد بلهجة مرحة : أمال ليه وشك أسود ؟ قال شحات: من الغيط والشمس يا جدى.. لكن والله العظيم صايم، بنصف اقتناع وبيأس قال الجد حسن : طيب.. روح .. انت حلفت بالله .. ربنا يقدر يرميك بمصيبة فيما لو كنت تكذب .. من خلق الكون الكبير بما فيه من جان وإنس وكل ما تشوفه العين من جبال وشجر قادر على ضرك فيما لو كذبت.. اسم الله لا يذكر إلا بالصدق يا شحات .. قال الشحات : ونعم بالله يا جدى – ومضى ، وحين مر منصــور ابن الصادق ســأله الجد إن كان صائماً فرد بالإيجاب وســأله إن كان يصــلى فقــال : لا ، ونصحه الجد حسن بالصلاة وشتمه وقذف بكلماته الغاضبة خلف منصور : يا ابن الحمارة .. يكون معلوماً لديك أن حسابه عسير لا يحتمله بغل مثلك ولا عشرة من الثيران مثلك يحتملونه .

ومتى تمر النسوة فعليهم أن يحكمن الأردية حول أجسادهن الهالكة وأن يرتبكن ويلمح الجد حسن ارتباك الخطو وتعثر خطو الأقدام على التراب المتطاير . أما ذلك الكلب الضال المجهول الصاحب ففى هذا الوقت من كل يوم يمر على الجد حسن ويرفع ساقه الخلفية ويسندها على حائط البيت المواجه ويسلح ثم يمضى بعد أن يصرخ فيه الجد : حسّ امش .. يا نحس .. يا ملعون ..

* * *

على الحصيرتين المفروشتين أمام المصطبة فوق التراب المرشوش مكان لضيوف الله فى الأرض ، السائل منهم والمحروم ، من مقطف الخبز يعطى الجد حسن بيمناه ، ومن مقطف البلح يغرف بيده المرتعشة أكثر مما تسع الكف ، يقول الجد حسن : من خير هو من الله ومن أجل رضاه .. بهذا حفظ الجدود من رحلوا لدار الحق المال والجاه الذى ورثت ففازوا بنعيم الدنيا وجنة الآخرة .. أنا بدورى يجب أن أحسّن إرث الأباء بالعطاء لوجه الله وعلى أبنائى أن يعلموا أن الفرع لا يدنو بالطيب إلا بإذن الله وللمختارين القلائل من عباده أولئك ، عامرى القلوب .

الوقت قد فات وقد دنا الغروب ، الجمل الأسود قام بجثته الكبيرة ومشى بطيئاً باتجاه الجد حسن ، اختفت البيوت بالتدريج ، البيوت البعيدة أولاً ، ثم تلك القريبة بدأت تختفى ، وصار الجمل بمواجهة الجد كبيراً وأسود ، أغمض الجد عينيه (الكون فسيح لا حدود له ، قاتم الزرقة ، والصحراوات واسعة لا تحد ، والرمال صفراء متوهجة ، انفجر من جوفها تل وتل وتل ، وسلسلة التلال لونها قان بلون الشفق ، كل شيء الآن ببكارة الخلق الأولى ، وتلمح عين المؤمن النقطة السوداء ، تبين صغيرة تكبر كلما اقتربت للرائى) . وجف قلب الجد حسن ورجف جسده الفانى وحدث نفسه : كم هو قليل ذلك الإنسان فى ملكوت الله ، وسأل نفسه من يكون الضيف ؟ ذلك الضارب فى الأرض من يكون ؟ رسول الله الذى يبدو فى البعيد نقطة سوداء من يكون ؟ أهو الخضر عليه السلام معلم موسى ؟ أو هو المغربى !! أيكون ذلك للجشع اللئيم ؟

* * *

أصوات الأولاد تأتى بضجيج واهن ، هم هناك عند دكان محمد بن مكّية ، وهناك شجرة توت مات أحمد المحروق زارعها من عشر سنوات وهى لازالت حية ، وهرج الأولاد يعنى أن مدفع الإفطار قد انطلق من راديو الحاج محمد أكبر إخوة الجد حسن حسب توقيت القاهرة ، حل الإفطار لمن يسكنون فى حِمى السيدة والحسين ، ومتى يؤذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله يحل الإفطار لأهل الكرنك القديم والجديد على السواء ، يحضر رشاد ابن الجد كامل شقيق الجد حسن ،

يأتي الولد طائراً كحمامة : المغرب أذن يا جدى ، ويمد الجد حسن يده فيمسكها الصغير بيده الصغير ويدخلان الدار .

* * *

باحة الدار الواسعة فرشت بالحصر ، طبالي الخشب قائمة على سيقانها الأربع وليس بينها فواصل كبيرة ، والصواني النحاسية فوق الطبالي تحمل أطباق الخضار واللحم والكنافة وسائر حلوى رمضان ، الكلوب معلق فوق فتحة الباب من الداخل يسقط مخروطاً من الضوء على جماعة الجالسين ويرمي بالظلال كل جوانب المكان ويجعل وقت الغروب أقرب لوقت الظهيرة .

ها أنت يا جد حسن وسط الأبناء وزوجات الأبناء وأبناء الأبناء عزيزاً مبجلاً فلتحمد الله عدد حبات مسبحتك اليسر المطعمة بالفضة ، الكل ينتظر يدك التى ستمتد مشمرة عن كمك وتتناول كوبك وتقول بسم الله الرحمن الرحيم ، وتشرب ماء البلح المنقوع ، ثم تمد يدك للطعام وتمتد بعدك الأيدى ، وتسمع لمضغ الطعام وبلعه أصواتاً عديدة ، فجأة يسقط الظل على الأطباق ، ويخفى الظل كل لذائذ النفس الفارغة ، لن تفكر كثيراً يا جد حسن فأنت تحفظ عن ظهر قلب ما ستقول وأنت تعرف أيضاً من يكون القادم .

(: تفضل يا سيدنا الخضر .. هذا بيتك وهذا خير الله .. أنا عبد الله الجد حسن .. يا مولاى الخضر تفضل واجلس) الوساوس تأتى ويقشعر البدن يا جد حسن : ربما كان ضيفك هو المغربى يا جد حسن ؟ ربما كان هو ذلك الماكر أتى وعليك أن تساوم) ..

* * *

وقد فرغ الجد حسن من تناول الإفطار ، يذهب ليقضى حاجته بالمرحاض الواقع تحت فجوة السلم الموصل للطابق الثانى من الدار ، تكون بنت من بنات أولاده قد سبقته وملأت الإبريق النحاس الأبيض وتركته أمام باب المرحاض ليتناوله ويدخل ويخرج متخلصاً من البول والغائط ، وتلقاه واحدة من البنات وبيدها إبريق النحاس الأحمر وعلى الأرض طست من نحاس أبيض ، يتوضأ الجد حسن وعندما يصل لغسل قدميه يتناول الإبريق ويصب الماء على القدمين ويصرف البنت بهمهمة وتتولى أى بنت فرش سجادة من سجاجيد الصلاة الكثيرة بالبيت والكل مهدى للجد حسن ممن زاروا الحجاز الشريفة ، جهة الشرق باتجاه بوابة المدخل المفتوحة يصلي الجد حسن طارداً كل وسواس طيب أو خبيث ، وحين يفرغ من صلاته يقرأ الورد ويظل بعد ذلك جالساً على السجادة

القطيفة اللينة ، حتى تأتى إحدى البنات بكوب الشاى فيشربه وهنا يترك نفسه لفكرة ثابتة منها ينطلق من خياله .

(كلاهما يأتى فى ثوب خرق .. متنكراً فى شخص متسول ،.. بيده عصا وعلى كتفه خرج.. ولا يفرق الرائى بينهما لو اجتمعا ، الخضر جوالب آفاق ولا تراه سوى عين المؤمن .. حين يأتيك فى شكل متسول وتصده تبيد نعمة الله التى أنعمها عليك ، وأن أكرمته أكرمك الله وذلك الخضر معلم موس على خبايا الأرض بنت الله البكر فتعيش فى النعيم أبداً ، وكذلك المغربى الماكر يعرف صورة الخضر فيتشبه به ، ثم يغافلك ويجنح للدار ، وهو الوحيد الذى يعرف مكان الكنز الذى ربما دفنه الأجداد أصحاب الحيل الكثيرة . يغافلك الأفاق ويقتل حارس الكنز الذى هو من جان ويختفى المغربى فلا تعثر له على أثر .. إذن يا جد حسن عليك أن تكون حذراً من ضيفك .. أكرمه حقاً .. ولكن لترصد حركته رصداً جيداً .. سيأتى وتقول أهلاً وتقدم ما عندك ، سيقوم الضيف وبيده قصبة كبيرة .. يطوف بها أركان الدار وأنت تلازمه كظله ، يرفع القصبة ويخفضها ويعد .. واحد .. خمسة .. سبعة .. ثم يضرب القصبة فى الأرض فتنشق الأرض بإذن ربها ويطل الذهب وعقود المرجان والفيروز وكل خبايا الأرض ذات السر .. امسك بتلابيب ضيفك وانظر فى عينيه .. عينا الخضر تلمعان حقاً كجوهرتين فهو رسول .. أما عينا المغربى فهما ماكرتان حالماً تشوفان المال .. إن كان الخضر يا جد حسن قل له : معذرة يا مولاى ، وقبل كفيه وأمطرهما بدموع الندم ، وإن كان المغربى فساومه .. إن قال النصف قل الربع ، وإن قال الربع قل الثمن .. وهكذا يا جد حسن فأنت رجل عرك الدنيا ويجب ألا يفوز أحد منك بغير القليل .

* * *

ها قد حان الوقت لصلاة العشاء ، على الجد حسن أن يتوضأ من جديد : لعن الله المعدة فما تحمل غير الخبيث . الجد قال : يا بنت – بصوت آمر خافت وقور ، وقال بنفس الإيقاع : الإبريق يابنت – رغم أنه كان يرى ابنة ابنه تصب الماء فى الإبريق .

انقضت صلاة العشاء ومتعة صلاة التراويح ، الشيخ كامل أمام مسجد الجد عبد الله جاوز الثمانين ولكنه شاب فى قيامه وقعوده : ما أثقل فى صلاته قط ، كحلم قصير فارقك يا جد حسن وها أنت تطلب النعاس وككل ليلة تطاردك رؤيا الظهيرة (ثلاث أرامل ثلاث شقيقات من بنات الجن ، أرديتهن السوداء غطت منهن الرأس والقدم .. قاعدات هناك تحت أشجار التمر حنة وسط تلال المقابر .. الرحى الكبير تعمل ولا تتوقف قط ، الكلاب الضالة تعوى والقطط الضالة تموء والدم

يختلط باللحم ، وشجر التمر حنة يسقط الزهر تحت ضربات الريح الخفيفة ، وعيون الجنيات تلمع مثل الجمر المتقد) .

ماكينة الطحين تدق (تك .. تك) ولا تتوقف ، هب الجد حسن : الموت يأتي متنكراً في ثوب النوم الطويل .. يخالس الفرد ويرميه بثقل لا يطاق .. لا العين ترى ولا الأذن تسمع ولا اللسان يذوق .. ولا شيء سوى ظلام شديد ، ظلام بلا حدود .

العـــالية

كان الجد حسن قد فرغ من تناول طعام الغذاء – وهو وضيفه العالى المقام ، وكان الغداء دسماً : لحم ضأن .. وفتة المرق بالخبز والأرز .

الضيف شرد بفكره عن المكان ، والجد حسن توقف عن كلمات الترحيب ، وتلك لحظة الكل يعرفها .. وهى دائماً تعقب كل أكلة دسمة .. يحسن فيها السكوت .. وتصبح القهوة مرغوبة بإلحاح وكذا النوم .

شخط الجد حسن يستحث جاد المولى الأعرج – القاعد غير بعيد منهما أمام كوم من الرماد مدفوس فيه كنكتان من النحاس الأحمر . تفل جاد المولى الأعرج كرة من دخان المضغ وزعق ..

– « يا ولد يا أقرع يا لكع .. هات الصينية وفنجانين » .

من حجرة لا باب لها – ملحقة بأسطبل الخيول لكنها منفصلة عنه ، جاء الولد بسطاوى القصير القامة يخب فى جلبابه الطويل الذى يسف التراب وقد أخفى قرعته بطاقية على شكل قمع – حاملاً صينية من النحاس الأبيض عليها فنجانان بكل فنجان نقش لثلاثة عناقيد من العنب الأسود الناضج .. من كل عنقود تتدلى ثلاث حبات .

* * *

قال الجد حسن لضيفه بعد أن شرب فنجان قهوته الثانى :

– « قم ونم » .

قال بحياء ضيف عالى المقام :

– « يا رجل لم أشبع منك بعد .. دعنا معاً بعض الوقت » .

قال الجد حسن العالم بمقام ضيفه والمقدر لحياء الرجل والعارف بالأصول :

– « لا تنم .. قم واسترح يا رجل .. الوقت بيننا .. وعلاقتنا علاقة جد قديم بجد قديم .. نتمنى من الله أن تدوم بين الأبناء » .

لم الضيف منديله الذى يتمخط فيه وحق النشوق ودسهما فى جيب قفطانه الناصع البياض الذى يلمع بشدة عند الثنيات ، وقام بتثاقل وكأنه لا يود أن يقوم . زعق الجد حسن . وجاء الأعرج يطلع . وأدركت العطسة الضيف فعطس . وقال الجد حسن يخاطب الأعرج :

- « دل الضيف .. خذه لمكانه حتى يستريح .. وأرسل رسولاً لمحمدانى ليطلع النخلة العالية ويجنى لنا تمراً » .

تبسم الضيف وقال :

- « أنت يابن الأكابر لا تعرف النسيان أبداً .. من تمر تلك النخلة المسماة بالعالية أكل جدودنا وجدودك ووالدك وأبى عليهم رحمة الله .. ومنها بإذن الله نأكل اليوم أنا وأنت .. إنه العهد قائم بين الرجال » .

تبسم الجد حسن بسمة أوسع من بسمة ضيفه - ورد :

- « نتمنى من الله أن تدوم النعمة وأن يدوم بيننا الفعل الطيب ويتصل الود » .

أشار الأعرج لعصاه المعوجة وقال بلهجة التهديد :

- « ما هذه يا ولد يا أقرع ؟ » .

انكمش الأقرع وتهته :

- « تلك عصا .. تلك عصاك » .

- « وما هذه ؟ » .

وأشار الأعرج لعلبة السكر .

تبسم الأقرع فى بلاهة - وتهته :

- « حق . حق سكر » .

وقال الأعرج فى لهجة الأمر :

- « اسمع يا ولد يا أقرع .. اذهب كالريح .. وقل لمحمدانى المجذوم يحضر تواً ليطلع النخلة العالية .. سأتفل على الأرض تفلة .. لو جفت تفلتى قبل أن تكون هنا وأمامى أنت ومحمدانى المجذوم .. سأجعل المعوجة تريك نجوم الظهر .. أسحبه من يده يا ولد يا أقرع » .

* * *

كالجن أختفى الأقرع . وتبسم الأعرج :

- « هكذا كان النبى الملك سليمان » .

وغز عصاه المعوجة بكوم الرماد ..

قال الأقرع مكلماً نفسه :

- « شمس الصيف كبيرة .. والتراب الحامى فوق الأرض يلسع القدم الحافية .. والسماء بعيدة .. سأسحب المجذوم من يده .. أنا رسول الأعرج .. أنا رسول الجد حسن .. والأعرج والمجزوم وأنا وكلنا خدم الجد حسن .. السكر فى الفم يجرى بلعاب حلو .. والعصا على الظهر موجعة » .

* * *

دفع الولد بسطاوى الباب الخشبى الموارب بيديه يبغى فتحة ينفذ منها ، ولو لم يكن هناك حجر كبير وراء الباب لما سمع العمياء تجعر :

- « من .. من يدفع الباب ؟ » .

أجاب البسطاوى :

- « أنا » .

جعرت العمياء :

- « لا يقول أنا إلا الشيطان » .

قال البسطاوى مرتبكاً :

- « أنا البسطاوى .. أنا البسطاوى .. أريد محمدانى ليطلع النخلة العالية » ..

جعرت العمياء :

- « محمدانى غير موجود » .

سألها محمدانى الذى صحا على جعيرها وكان نائماً فوق حصيرة على التراب :

- « تكلمين من يا امرأة ؟ » .

واصلت العمياء جعيرها :

- « يقول إنه البسطاوى » .

صرخ محمدانى :

- « البسطاوى خادم الجد حسن يا امرأة .. البسطاوى الأقرع » .

قالت العمياء تبغى الخلاص :

– قال إنه البسطاوى .. لم يقل إنه الأقرع .. لم يقل يا رجل » .

هب محمدانى وزحزح الحجر عن الباب ، وهرول خارجاً ، ونادى البسطاوى الذى كاد يختفى هناك عند انعراجه الدرب :

– « يا بسطاوى .. يا بسطاوى .. كنت نائماً .. كنت نائماً .. كنت نائماً يا ولدى.. انتظر يا ولدى» .

* * *

قال المجذوم للأقرع وهو يربت على كتفه :

– « ما كانت لتعرفك وهى ضريرة » .

ودخل البيت وأخذ الحبل الطويل المتين الذى يحزم به وسط النخلة ووسطه .

قالت الضريرة :

– « يا محمدانى لا تطلع العالية .. اليوم يوم الريح القديمة التى عرفها الجدود .. ستكون هذه المرة كالخيل لما تجمح .. ستكون لها حوافر وأعراف من نار .. يتهدم بيتين وتحرق بيتين وتأخذ رجلاً.. و ... » .

قاطعها محمدانى :

– « يا امرأة لا يقدر على طلوع العالية غيرى .. وابن الأكابر حسن لا يرسل رسوله لى كى أطلع العالية إلا إذا زاره ضيف عالى المقام » .

جعرت العمياء :

– « أقول .. العالية هذه المرة لن تعرفك .. هذه المرة لن تعرفك العالية يا محمدانى » .

تقرفص الأقرع تحت العالية الشامخة القامة ، يمص قالب السكر ويبتسم فى وجه محمدانى ببلاهة . بينما وقف محمدانى ينظر من أسفل العالية المنتصبة كبنات الجن :

« تلك هى المرة الأولى التى يرى فيها العالية شديدة العلو ملساء الساق » .

شعر بنفضة عرق الخوف عند الرجال – الكامن تحت الصدغ . قال :

– « لن أخاف العالية .. تلك المرأة هى التى زرعت فى نفسى الخوف من العالية .. لن تخيفنى امرأة .. لقد خلقت المنجمة الخوف ليعرف القلب الرجفة .. وها أنا أرى الريح أخف من يد

العاشق تعيث بجريد العالية فى حنو .. ما رجمت العمياء بالغيب مرة إلا وصدقت لكن يكذب المنجمون » .

وشد محمدانى الحبل على جذعه وشده على جذع العالية ، وثناه وثلثه ، وحدث نفسه :

– « لن تجعلنى الضريرة التى أعرفها وتعرفنى » .

* * *

« إنها الريح الهوجاء فكت قيودها – قادمة من محبسها البعيد ، يا ساق .. يا ساقى .. كونى كابن البشر » .

– هكذا صرخت المعمرة التى خبرت ريح الأزمنة ، ومالت ، ولمت جريدها المجدول تحمى تمرها الطيب :

« لن أواجه مواجهة الثور .. ولن أستسلم كبقرة .. مكر الثعالب يغلب القوى الباطش » .

وصرخت :

« ويا جذورى .. أنت يا جذورى .. كونى فى الأرض أوتاداً .. كونى فى الأرض أوتاداً .. وتثبتى للريح .. تثبتى للريح » ..

إيقاعات بطيئة ومنتظمة أيضاً

كور الطفل جسمه القليل ونفذ من فتحة بحائط الفسحة الوسطى ، وصل للفضاء المسور المتصل بالدار من جانبه الشرقي .

(من وقت : هبت ريح الشمال المجنونة ، حملت عيدان السمسم والقطن من فوق أسطح البيوت ، ولمت الأوراق الجافة من فروع أشجار التوت والأثل واللبخ ، والآن – تحت الحوائط – رقدت الأوراق والعيدان الجافة .. وحمار ترابي اللون ومعزتان سوداوان ، وهناك في الطرف البعيد كانت صومعة صغيرة هي بيت الدجاج) .

* * *

كان الطفل مطمئناً فليس ثمة من يرقبه ، قعد على أربع ، أدخل يده الصغيرة من الكوة الضيقة .

(داخل الصومعة كانت اليد الصغيرة العمياء تتخبط في العتمة ، وكان جسم ضئيل يراوغ اليد ، وكانت الصيحات متتالية مخنوقة ، ثم تتالى ضرب يائس من جناحين في جسم حي) .

فجأة انطلقت من الكوة دجاجة بيضاء ، انفلتت من يد الطفل بقفزة ، عبرت مسرعة أرض الفضاء المسور ، وجنحت للجانب الشرقي ، نطت لفوق بثلاث ضربات من جناحيها الأبيضين لجانبي جسمها القليل ، وقفزت من فتحة الحائط للفسحة الوسطى الواسعة .

(هناك حيث ترقد جرار الماء المطروحة على السطح الترابي ، ويقف زير على حامل خشبي له ثلاث أرجل : كان سطح الزير الخارجي أخضر .. بلون العشب النامي على حوافي الترع) .

كانت الدجاجة البيضاء قد فردت جناحيها الأبيضين ، كانت تنقل قدميها بسرعة وارتباك من الأرض للفضاء .. من الأرض للفضاء .. وتكشح خلفها التراب ، وفجأة اختفت .

(نموذج لطائرة بيضاء تجرى على أرض المطار الصغير ، وخلفها شريط أبيض من الدخان ، فجأة – طارت الطائرة لأرض مجهولة) .

* * *

فى الساحة الوسيعة كانت أقراص العجين على ألواح الخشب تنتظر الشمس المحتجبة خلف ضباب اليوم الشتوى ، وكانت الأم تنظر لابنتيها ولأقراص العجين .

(منذ لحظة كان التراب نائماً على سطح الفسحة الوسطى بفعل الماء الذى رشته صغرى البنات ، والآن : ترقد خمس حفنات من التراب على أقراص العجين : حفنها كف طفل من كمية التراب الراقدة على سطح الفسحة الوسطى) .

أمسكت الأم بالولد الصغير ، والت الضرب ببطن يدها على عجيزته ، كانت غاضبة .

(مازالت القطة – التى قوست ظهرها فوق صندوق خشبى بلا غطاء حين جرت الدجاجة البيضاء . مقوسة الظهر .. نافرة .. متحفزة لعدو قادم .. عيناها تبرقان ولونها شديد السواد شديد اللمعان ، مازالت القطة تقف على حافة الصندوق) .

كان الطفل مستمراً فى البكاء ، كور وجهه ونفخ أنفه فتدلى خيط من المخاط ، قالت الأم : وسخ ، رد الطفل مكشراً وهو يبكى لازال : سأذبحها ، قالت الأم بلهجة يقينية لم تخف الطفل : سأذبحك أنت ، قبض الولد على كم قميصه بيده ولمه بين راحته الصغيرة ومسح المخاط عن أنفه .

(على الحبل المعقود والمدقوق بمسمارين على الحائط الشرقى والحائط الغرب تدلى قميص خلعه الطفل فى الصباح ، على الكمين وضحت آثار المخاط الجاف بلون الطين) .

نظرت الأم لعيونه السوداء اللامعة (البئر سوداء وجوفاء وعميقة ومملؤة بالأسرار والرعب) والولد يتحرك تاركاً الساحة وقد عاد للبكاء من جديد – قال : يارب أستريح منك ، قالت الأم : لا تذهب لهناك (نطت القطة من فوق الصندوق على أرض الفسحة الوسطى ، فأرقها الوهم وخجلت من إحساسها بالخطر ، ومن فتحة فى الصندوق الخشبى أدخلت رأسها : كان ينتظرها القطان الأسودان الصغيران وحفيدتها القطة الرمادية ، نامت بجسمها الطرى وتقلبت على جنبها الأيمن .. هزت أثداءها وقدمتها لصغارها كى يمتصوها) .

أمام الدار كان يرقد كلب أسود ، التقط الطفل حجراً كبيراً وهو مازال يبكى وضرب الكلب ، هب الكلب ونبح ، كف الطفل عن البكاء ، نظر للفضاء الفسيح أمام الدار (فروع شجرة النبق القريبة بدت كضبابة معلقة بالجزع : هكذا بدت مع ضوء النهار القليل ، والدجاجة البيضاء تحت الجذع بدت صغيرة جداً : تروح وتجئ فى حيرة وهى تبحث لازالت عن مكان تجد فيه الأمان وتبيض ، ويحصل هو على البيضة ، يسلقها ويأكلها بمفرده ، وقد يذهب للطاحون ويقايض على البيضة بثلاث قطع من القصب .

* * *

قامت صغرى البنات برش الساحة بالماء ليرقد التراب من جديد ، كانت تلبس ثوباً من الكستور به زهور كبيرة حمراء وصفراء ، وأشعلت البنت الكبرى لمبة الجاز وعلقتها فى كوة بالجدار الشرقى .

* * *

اشتدت كثافة الظلام حيث توارت النجوم خلف الضباب الأسود شديد التماسك ، وعم سكون شرس (احتفظت الضفادع بحقها فى التمرد فظلت تنق نقيقاً متصلاً ، والكلاب كانت تنبح نباحاً متقطعاً ، أما القطط الأناث فظلت تنادى ذكورها بحق التناسل) .

البيوت والدروب والنخيل والشجر تماسك في شكل كتلة سوداء متفحمة .

بالغرفة البحرية ظل ذراع الأم على صدر الصغير وكفها على موضع قلبه تماماً ، وبجوارهما رقدت البنتان ، والصدور ترتفع وتنخفض فى حركة منتظمة غير متقابلة ، ضوء الفانوس يغمز مع تيار الهواء الرطب الذى ينفذ من كوة وحيدة مسدودة بحائط الغرفة ، على السرير المقابل كح المسن رب الدار وبصق وتناول من تحته قربة من جلد الأرانب مملوءة بالماء الدافئ وشرب جرعتين ثم لمَّ على جسمه حزام صوفى من وبر الخراف ونام وظل يشخر .

كان الموقد قد خبت ناره ، وكان الدخان كثيفاً هناك على السقف المدعم بجذوع النخيل ، والهواء الذى ينفذ من كوة الحائط اشتدت رطوبته ، والكوة كانت مسدودة بغلاف نتيجة حائط ، على النتيجة كتابة وصور لأشخاص فى زى عسكرى ، وتهنئة مقدمة من مهدى النتيجة صاحب مصانع الحلوى للأمة المصرية بهبة الجيش المباركة .

(كان الجو يميل إلى برودة الصباح باطّراد ، فوق مئذنة الجامع الكبير ظل شخص يرقب الشبورة التى صنعت نصف قوس وغطت البيوت والتقت مع استواء الأفق المغطى بالغيوم ، كان ينفخ جوفه ويفتح فمه ليخرج البخار الأبيض فى حلقات وقد تهيأ لآذان الفجر) .

الوشـــم

كان جابر يعشق بنت عمه فاطمة ، ولم يكن يملك جملا يقدمه مهراً لعمه عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .

كانت فاطمة جميلة ، خالية القلب ، لا نحيفة ولا سمينة ، لا طويلة ولا قصيرة ، علاوة على أنها تدهن شعرها الطويل بزيت القرنفل الطيب الرائحة .

وكان جابر قد سمع أن فاطمة قالت عنه :

« اليتيم صلب عوده كالنخلة بخبز الذرة ولبن الماعز » .

فرد جابر بزهو وقال :

« تلك بشارة خير والمثل يقول بين القلب والقلب رسول » .

كانت البنت فاطمة صاحبة تفانين فى تزويق نفسها ، فالكحل فى عيون حريم وبنات العشيرة أسود والكحل فى عينى فاطمة أخضر . والبنت فاطمة تلعب بشعرها لعب الحواة المهرة ، فمرة ترميه ضفيرتين طويلتين سوداوين خلف ظهرها ، ومرة تتركه يتدلى قُصّة سوداء فوق الجبهة تشبك فيها خرزة زرقاء ، وأحيانًا تطلقه بحراً هائجاً أسود ، وأحياناً تضفره ضفائر كثيرة لتتشبه بالملائكة .

يا لها من ماهرة ، بالخيط والإبرة تفصل أثوابها المرسومة لترقد فوق كل ثدى وردة كبيرة أو يعشش طائر مغرد ، والثوب لا يضيق ولا يتسع .

لما رأى جابر البنت فاطمة تسعى للماء عند البئر مع البنات ، قال :

« سأعاونها فى رفع الجرة » .

ومنعه الخجل فالكل يعرف أنه يحب فاطمة – ولكنه لا يملك جملاً يقدمه مهراً لعمه عبد الرسول ليتزوج من فاطمة . اكتفى جابر بالنظر للبنت فاطمة وهى تخطر : كانت حافية القدمين ولكن بعنق حمامة .

فقد جابر صبره ، هو الذى مات والده وهو صغير ، فتزوجت أمه برجل من عشيرة أخرى فأنكرتها عشيرة والده ، ليعرف جابر العمل المهلك القليل القيمة مع أعمامه فى العشيرة منذ طفولته – إن كان ثمة طفولة فى حياته .

فقد جابر صبره ، وقرر أن لا يعمل مع أى فرد من أفراد العشيرة ما دام لن يحصل على جمل يقدمه مهراً لفاطمة .

وقد حاول أحد العقلاء إقناعه بالتخلى عن قراره فالصبر جميل وذات يوم سيحصل على جمل يقدمه مهراً لعمه عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .

فسأله جابر وبلع ريقه المر :

- « بعد عام .. أم سبعة أعوام .. أم حتى ينقضى العمر » .

أجاب العاقل :

- لا تتعجل فالعجلة من الشيطان والشيطان عدو لابن آدم .. ربما بعد خمسة أعوام أو سبعة ، وفاطمة ماتزال صغيرة .. وأنت ماتزال شاباً قوياً » .

فسأله جابر :

- « هل تعدنى بأن لا تتزوج فاطمة حتى أحصل على جمل » .

وفكر جابر فى الخفراء الذين يمسكون اللصوص وقال إنهم عميان ، لو عرفوا فاطمة لصار لهم بصر وصارت لهم قلوب غير مظلمة ولما ساقوه لدوار العمدة ليضرب هناك بالأقلام وبكعوب البنادق، أما العمدة فهو عجوز محب للمال ولحم الطير والحيوان والبشر - كيف لا ترى عيونه جمال فاطمة فيتزوجها ، قال جابر : لو كنت بمكان العمدة لتزوجت من فاطمة بنت عبد الرسول وأنا المالك لمائة جمل بمفردى ، ولقلت للولد جابر السارق اذهب يا ولد ولا تفعلها مرة ثانية بدلاً من أن أوثقه بالحبال وأجعل الخفراء يسوقونه لمبنى المركز حيث ينظف جابر المسكين مرابط الخيول ويرمى فى أحواض الماء النتنة ولا ينطق بحرف أمام القاضى الذى يهابه العمدة نفسه ، ثم يقضى جابر المسكين السنوات بالسجن المظلم الرطب الذى يحرسه عسكر غلاظ شداد قلوبهم أيضاً غليظة ومن حجر أسود كأحذيتهم السوداء الغليظة ، ويظل جابر المسكين يعد الأيام والليالى قانعاً بشيء بسيط ، لا الزواج من فاطمة ولكن مجرد رؤيتها بالعين : خارجة من بيت زوجها لتجلب الماء ليشرب الزوج ماء حلالاً زلالاً جلبته فاطمة .

وأفاق جابر من هلوساته على ما يملأ زنبيلين من الحقائق : الثدى تل لا ينفذ فى تربته سهم.. والورد منقوش على الثديين .. والبيت من طابق واحد وحجرتين .. والسجن رطب ومعتم والعسكر والخفراء والعمدة مسلحون .. وحركة الدجاج بالليل تجفل الجسم مشتاق للالتصاق بجسم .. والسرير

يكون من الحديد ولا يكون من الخشب وإلا قرضته القرضة .. وشيخ العشيرة على حق فمن أين يحصل جابر على خبز الذرة ولبن الماعز إن لم يعمل .. والعم عبد الرسول فى حاجة إلى جمل يجلب به السباخ المسروق من المعبد .. والبنت فاطمة أجمل بنت فى دنيا الناس .. والمثل يقول العين بصيرة واليد قصيرة .. وما من ثمة أمل فى الحصول على سمك الضبع .. كما أن العودة لبيوت العشيرة مستحيلة فالذئاب الجائعة تترصد هناك عند المسالك .. وحتى تطل عيون النهار سيهتدى جابر إلى حل .. أما النوم – هنا – حيث يطول لسان الماء ويقصر فمستحيل مستحيل مستحيل .. وحتى يطل النهار المبصر بألف عين (سيجعل مضارب الفجر غايته ، ويسلم زنده للغجرية العجوز القاعدة أمام الخيمة – تحت النخلتين – لتنقش بيدين مدربتين على الجلد بالإبرة قلباً بداخله جمل واقف له وجه إنسىٍّ) .

فكر الناصح لوقت ، ولم فى خياله البنت فاطمة لابسة الخلخال ، وأجاب :

– « الحق لا أعدك .. البنت حلوة .. جلدها بلون حبة القمح وناعم نعومة قماش القطيفة .. ولأبناء العشيرة عيون تشوف وتعشق .. والعشيرة تملك مائة جمل ومائة ناقة .. الحق لا أعدك » .

وهكذا فقد جابر عقله وقرر أن لا يعمل . وضحك شيخ العشيرة وسعل وبصق وقال :

– « سترى من أين يحصل جابر على القوت .. الجسد يا رجل يحتاج للطعام بمثل احتياج النخيل للجذر الطويل الذى يمتص الماء من بطن الأرض » .

* * *

غابت شمس الصيف الكبيرة خلف تلال الغرب ، ومازال الأفق الغربى يحترق ، وكان لأشجار الأثل ذات الزهر الأصفر النامية على حافتى الترعة ظلال سوداء تتماوج فوق صفحة الماء العكر . وفجأة أسقط الليل خيمته السوداء الثقيلة ، وثبت أوتادها فى الأرض وظهر فى السماء هلال صغير ونجوم قليلة متباعدة خافتة الضوء ، ومن مكان بعيد مجهول سمع صوت طائر أشبه بصرخة أم فقدت وليدها الوحيد .

أحس جابر بأن ثمة شيئاً مس جسده فأصابته رعدة وشعر ببرودة ليل الشتاء – رغم أن الليلة ليلة من ليالى الصيف ، فهرول خارجاً من الماء ، واعتلى المرتفع الجاف بينما الماء يتقاطر من سرواله بصوت ، ولبس جلبابه القصير القديم المصبوغ بالنيلة الزرقاء الواسع الأكمام ، وخلع سرواله وظل يعصره حتى خلصه من الماء فنشره على فرع شجرة سنط قريبة مائلة ليجف ، ومضى يكلم نفسه :

– « كيف غاب عنك يا ولد يا جابر أن الماء مسكون بالجن وأرواح الغرقى والقتلى » .

وقد مر وقت ، لملم جابر نفسه المشتتة وفارقه الخوف ، فخلع قميصه وطواه وثبته بحجر كبير ونزل الماء متنقلاً من جرف إلى جرف باحثاً وسط الأحجار والعشب النامي عن سمك الضبع البطئ الحركة بسبب تلك الشوكة اللعينة المرشوقة فى رقبته .

ظل جابر ينتقل من جرف إلى جرف بحثاً عن سمك الضبع حتى مر وقت طويل ، فقال لنفسه لو أمسكت بسمكة واحدة سأخرج من الماء وأكتفى بها طعاماً ليومى هذا ، وفكر فى أنه لابد أن يشويها قبل أن يأكلها .. فهل سيطلب نارأت من عشيرته التى ضنت عليه بجمل وهو الذى خدمها منذ صباه ليقدمه مهراً لفاطمة . وقال جابر لنفسه :

– « لو حصلت على السمكة سأضرب حجرين وأشعل منهما النار فى الحطب اليابس وهو كثير والحمد لله » .

ولما نظر جابر للسماء وجدها أصفى زرقة وقد كثر عدد النجوم بها ، فقرر أن يخرج من الماء ويحلم بعض الوقت بفاطمة ثم يعود من جديد ليبحث عن سمك الضبع .

كان جابر عارياً كما ولدته أمه ، مسنداً ظهره على شجرة السنط المائلة ، وبعين العاشق رأى فاطمة تأتى وترفع الحجر وتأخذ قميصه وتشم رائحة عرقه الأخضر تحت الإبطين ومضت تغسل القميص بيديها وها هو يسمع رنين الأساور الزجاجية الملونة .

وليل الصيف لما يوغل يشتد برده – وهكذا أحس جابر برعشة جعلته يفيق من حلمه القصير الجميل ، لأنه كان جائعاً فقد قرر أن يهبط إلى الماء مرة أخرى بحثاً عن سمك الضبع ، مقسماً لله ساكن الموات ومقسم الأرزاق إنه سيكتفى بسمكة واحدة .. سمكة واحدة .. الله يكره عبده الذى لا يعمل يا جابر .. والله يكره أيضاً المنشق عن أهله وعشيرته .. إن كانت فاطمة جميلة فالله أجمل من أى شيء وكل شيء .. وهكذا استحق جابر العقاب فخرج من الماء ولبس قميصه وسرواله الذى جف وجلس مسنداً ظهره على جذع شجرة السنط المائلة .

بإمكان جابر أن يسرق حماراً من عشيرة أخرى وذلك لا يحدث إلا فى سوق البندر المسور الذى يحميه عسكر الحكومة ، لو وفق سيجلب السباخ الطيب من المعبد القديم الذى يحرسه خفراء الحكومة ، ولو وفق فسيبيع السباخ الطيب لعشيرته يصلبون به عود النبات الأخضر ، ومع الأيام سيشترى جملاً ويقدمه مهراً لعمه عبد الرسول ليتزوج من بنته فاطمة .

الفخاخ منصوبة للمحبين

– مدخل –

هجع الكل – إلا الضفدع والطاحونة والكلاب وقشمر .

– قاصد الجبل –

ما عاد بمقدور قشمر أن ينكر البرودة التى حلت ببدنه ، وبات عاجزاً عن إيقاف الرعشة السارية بأطرافه : « إنها صحوة القديم يا قشمر تلك التى تسوقك سوقاً إليه وإلى الجبل .

* * *

الكلاب لم تنبح وتوقظ النيام ، فكلاب الوادى جميعها تعرفه ، وإن كانت الكلاب بالليل لا تميز بعيونها بين شخص وآخر ، إلا أنها تملك الأنوف التى بها تشم رائحة قشمر .

– الرحلة –

قمر السماء العالى رمى بالضوء الفضى فوق الرمال ، وخلق الظل الرمادى لقشمر : هذا الظل العجيب يسير إذا ما سار قشمر .. ويقف متى وقف قشمر .

ها هو قشمر الخائف يكلم ظله العجيب :

« أنا صديق قديم للزغبى ساكن الجبل ، إن أردت الحق كنت معه ، هِهِه ، تلك علاقة قديمة كانت فى الصغر وتدرجت مع الأيام وتلك كانت أيام ، حتى جاء يوم أدار فيه الزغبى ظهره لى وللوادى ويمم وجهه شطر الجبل وكان قد قتل الحاج عطية » .

« فى ذات اليوم ظننت أنى قد ملكت حريتى : مادمت النفس .. ومادام قلبى يدق دقاته المعتادة – فلماذا أخاف الزغبى ؟ هل جربت فى يوم من الأيام قوة بدنك يا قشمر . وخضت مع الزغبى معركة ؟ يالله .. وكأننى كنت أملك تلك القدرة على التفكير !! » .

« يوم طلبت هى الطلاق من الزغبى الغائب – قلت : « هذا الأمر لا يعنيك يا قشمر » ، والليلة زفت على مطاوع بن الحاج عطية ، وها أنا يا رفيق الطريق أحمل الخبز لسيد الجبل (ليكفر عن سنوات الوهم والإنكار والمقاومة ، وها هو يا ظلّه على الطريق يبغى الخلاص بالتلاشى فى الآخر) .

سمع قشمر صيحة الجبل ففارقه ظله وهرب :

« ما أقسى لحظات الخوف حين يواجهها الإنسان بمفرده » .

- صيحة الجبل -

يصيح الكشاف من مكمنه أسفل الجبل ويشهر سلاحه ويتلقف آخر صيحة الكشاف فيقبض على سلاحه ويصيح ، ويردد الجبل وتردد رمال الصحراء صيحة الرجال المتتابعة ، وتعوى الذئاب في البعيد .

يعترك الحارس زميله أمام باب المغارة ، ويمر محنى الظهر من سرداب كثير التعاريج محفور ببطن الصخر ، ويهبط ست درجات حجرية ، ويقف أمام القاعد على فرو من جلد الجاموس يتحلقه رجاله الأشداء ، بينما القاعد يفرك راحتيه ويمررها فوق ألسنة النار التي تتصاعد من بوتقة نحاس كبيرة - يقول الحارس :

« رجل قصير شديد البنيان غايته الجبل » .

- المعبر -

ضحك الزغبى وصاح مهللاً ، وصاح الجبل وصاحت الصحراء ، وصاح الرجال :

« إنه قشمر .. دعوه يمر » .

تنحى الكشاف وأفسح طريقاً ورد سلاحه إلى غمده ، والزغبى بأعلى الجبل يصيح مرحباً فاتحاً ذراعيه لقشمر الذى يعرج مع الطريق الوعرة صاعداً الجبل - كأنه الطاووس وقد ولى عنه نصف الخوف .

- أولاد آدم -

يرمى الزغبى الحطب للنار لتأكل فتتأجج وتضئ وجوه الرجال وتزيح الظلمة فتقبع بأركان المكان القصية . ويقترب قشمر من النار فهو فى حاجة للدفء الكثير .. ويشرب الكل شايهم الساخن من أكواب الفخار بصوت .

تكلم الزغبى وردد الصدى كلامه :

« تم الطلاق .. والبارحة كان العرس .. المرأة تفعل ما تريد .. مطاوع ابن الحاج عطية تزوج من أم ابنى .. وابنى تربى فى بيت الحاج عطية .. صار كبيراً بعد العمر الذى مر .. صار الثور ثميناً .. أطعموه ليكثر لحمه ودهنه .. متى سيذبح ؟ » ..

ردد قشمر : « صار رجلاً .. لقد كبر ! » .

صرخ الزغبى : « لماذا لم يحضر إلى هنا ؟ لماذا لم تجئ به أنت إلى هنا ؟ » رد قشمر : إنه .. إنه محب .. و .. عاشق » .

سأل الزغبى : « من تكون المليحة ؟ » .

قال قشمر : « فتاة .. تسكن كروم النخيل الواقعة بأملاك الحاج عطية .. أنت مع الغجر الرحل » .

- العدة -

ها هو بخرقة ابن السبيل ، حافى القدمين ، يظلع فى مشيته ، منحنى الظهر ، يستند على فرع يابس من الحطب ، بلحية طويلة لم يهذبها مشط ، وعمامة خضراء كبيرة فوق الرأس ، ومن رقبته تتدلى مسبحة كاملة : عدد حباتها تسع وتسعون حبة .

- عائق -

داهمه الليل ، وسمع نبح الكلاب الجائعة الراقدة أمام الدور ، وتلك التى تسعى بين الدروب الضيقة ، فقرر أن يبيت ليلته على أبواب الوادى حتى تطل عيون النهار .

- على أبواب الوادى -

إنها شجرة التوت القائمة منذ الأزل المسماة بشجرة الله - تحتها زير به ماء ، وهذا ضريح الولى المجهول الاسم . وتلك هى المصلى : مستطيل من الأرض فرش بالحصير وحوط بسور قصير ارتفاعه قالب طوب قائم .

بداخل الضريح مصطبة مفروشة بحصيرة قديمة ، وفوق المصطبة كومة من الأغطية القديمة ، ومن الكوة المحفورة ببطن الحائط - تطل عين سوداء ولمبة جاز فتيلها قصير تزفر الدخان الأسود وتطوح بالضوء الأصفر القليل والظلال الرمادية الكثيرة .

- الحلم -

الحاج عطية يتكلم من فوق سرجه ، والسمكة من البلور الأزرق النقى (منتفخة البطن ، بجنبها الأيمن زعنفة كأنها جناح طائر وبجنبها الأيسر زعنفة كأنها جناح طائر ، وبأسفل البطن ثقب) ، الحاج عطية يريد السمكة لنفسه والزغبى يريد السمكة لنفسه . والحمار الأبيض العالى

الظهر رمى بالحاج عطية ورمى بسرجه وركض في حقل البرسيم الأخضر ، والسمكة بيد الزغبي ، وضوء النار الأحمر صبغ الكون ، ولا شيء أعلى من ألسنة الدخان غير قامة الجبل المضيئة .

– النداء –

الصوت طلع من حلق مشروخ من البرد ، ومن صدر تكومت فوقه طبقات وطبقات من دخان المعسل المحترق .

– قال : « هو يوسف الأعور ينادى الناس من فوق جامع عبد الله لصلاة الفجر » .

– اللقاء –

قالت : « لو عرفوا أنك أنت .. وأنك هنا .. لأتوا وقطعوا رأسك » .

رد بثقة : « لو عرفوا ، عاونيني حتى أعرفه » .

قالت : « اذهب وخذه من بيتهم قبل أن يقتلوه » .

قال : « بلغنى أنه عاشق .. أريد أن أراه وأراها » .

وسألها : « لماذا طلبت الطلاق ؟ » .

قالت : « أردت أن أكون محصنة » .

قال : « بالزواج من مطاوع ابن الحاج عطية ؟! » .

قالت : « لو أحبنى سيترك لى ابنى .. وها أنت ترانى لابسة ثوبى الأسود » .

قال : « كان بإمكانك أن تحمليه وهو صغير وتأتين به إلى الجبل » .

قالت : « الطريق إلى الجبل وعر وطويل على امرأة .. وكانوا سيلحقون بى .. وأنت تتكلم عن الماضى » .

قال : « المرأة لو أرادت فعلت » .

وقال لنفسه : « وأنا تركتها حبلى غير قادرة على الجهد » .

أمسكت بضفيرة من شعرها ، ودس هو يده تحت ثوبه وأخرج سكينة قدمها لها ، مدت يدها وتناولت السكينة وجزت ضفيرتها وقدمتها له .

قالت : « عد إلى الجبل .. ستجده فى بيتهم أو تحت كروم النخيل .. إنه يشبهك .. لست فى حاجة إلى معونتى » .

وقالت تلومه : « أتيت بالسكينة لتقتلنى » .

قال خجلاً وهو يكذب : « أتيت بالسكينة لأدافع عن نفسى » .

- البغتة والمتفرجون -

أطل مطاوع وخلفه خلق كثير سدوا فتحة الباب .

قال مطاوع : « كنت على يقين من أنك ستحضر بعد زواجى منها » .

وتقدم مطاوع ، وأمسك بالفأس المسندة على الحائط ورفعها بيديه لفوق ولوح بها فى الهواء وصرخ فى وجهيهما . فتراجع الزغبى .

- صانع الفاجعة يلم الخيوط -

صرخ مطاوع :

« ها أنت خائف .. كان عليك أن تتقدم إلىّ حاملاً أكفانك على كتفك بعد قتلك لأبى .. وكنت سأعتق رقبتك .. بدلاً من أن تحتمى بالجحور .. كان عليك أن تثق فى عرف الرجال » .

وصرخ مطاوع فى جمهرة المتفرجين :

« ها هو خائف .. ها هو ساكن الجحر .. وها أنا مطاوع ابن الحاج عطية أعتق رقبة الزغبى قاتل أبى » .

وعاد يصرخ فى الزغبى :

« لن تعود للجبل فالذئاب تقتل الخائف .. ولا أنت خارج من بيتك للوادى فالرجال هنا طبعهم مطاردة الفئران والقرف منهم ، هنا جحرك .. وتلك هى زوجتك التى لن تطيقك .. تعلم كيف تستخدم سكينتك حين تجوع وتطلب اللحم .. أما ابنك فهو راحل خلف الفتاة الغجرية .

- يستحق الجنون لأنه الشخصية الأخيرة -

كسر طوق الرجال ، وجرى حاملاً فأسه يلوح بها ، وهو يضحك ضحكة المنتقم المجنونة فترددها الحوائط ويرددها الخلاء ، حتى بلغ شجرة الله المثمرة (كانت بالضحى ترمى بظلها الكثير على ضريح الولى المجهول وعلى الزير وعلى المصلى ، وقد تجردت الساق الضخمة من لحاها) ورفع فأسه .. وصرخت الشجرة .

الشهر السادس من العام الثالث

البداية :

مع رجال التراحيل رحل مصطفى .. وهو بعد صبى .. مر عام والعام الثانى يطوى آخر أيامه ، وما من خبر عن الغائب الغالى .

عقل الأم :

عقل حزينة مع ابنها الغائب : هناك فى البلاد البعيدة .. وأذنها اليمنى التى تسمع – هنا : مع الحمام الذى يهدل « الملك لله .. الملك لله » . عينها اليمنى فقدت النور من عامين . بعينها اليسرى ترقب : بخيت البشارى الراقد يتقلب فوق المصطبة التى تطوق جذع شجرة الدوم « صار بعد العمر الذى مر كالقفة ، ترفعها من مكان به شمس وتضعها بمكان به ظل ، يرقد على ظهره يرقب الشمس الجارية فى السماء ، يصرخ فى وقت : أبغى الشمس ، ويصرخ فى وقت آخر : أبغى الظل – هكذا طوال النهار ، هكذا يمر النهار ، هى وابنتها الشابة تحملان القفة من الشمس إلى الظل ومن الظل إلى الشمس – لكنه زوجها فى الحلال وولد مصطفى وفهيمة ...

اليدان تلعبان – هنا – بالمغزل الذى لا يكف عن الدوران ولم الخيوط ، والعقل – هناك – مع الغالى فى بلاد الناس البعيدة .

بخيت البشارى فى حديث يقظة :

« المصباح شح زيته ، والليل الطويل الأسـود قادم ، آه من الوجع والسن ، نومى قليل وبولى لا أتحكم فيه ، حزينة الخرقاء تتطير من رؤية النعال مقلوبة ومن الريح لو حملت قشر الثوم ومن قدم تدوس كسرة خبز مرمية ، حزينة ، هى امرأة ، الرجل منا كابد ، عقلها مع الولد والولد بعيد ، قلب الولد من حجر وأنا قعيد البيت ، أرغب فى النوم ، لو نمت وطال النوم – بغير أحلام وكوابيس – سأذهب إلى الله الرحيم – أنا المسلم – وأتخلص من الأوجاع والعمر المكروه وأدخل الجنة ، لو عندى دخان لدخنت ومر هذا الوقت البطئ الذى لا أحتمله » .

من حكم الليل معلم القرى :

« نجمة مشتعلة هوت من السماء الزرقاء العالية واحترقت قبل أن تبلغ الأرض : لو طالت البشر أو الحيوان أو الزرع أو حتى الجن – لتحول فى التو إلى رماد » .

« مصطفى الأصغر – لكنه سيد فهيمة التى تكبره بعامين ونصف عام ، يضربها وتحبه ، الأم موافقة والأب موافق ، مصطفى حامى فهيمة ومخوفها من العيب ، مصطفى رجل وفهيمة بنت ، للبنت ثوب أبيض طويل الذيل ، على البنت أن تمسك بذيل ثوبها وتمشى فى الطريق محاذرة – وهل بالطرق غير الوحل والتراب والقش ؟! .

الصبية مضطربة والليل رفيق الأفكار :

هى بنت الأم والأب ، وهو الشقيق البعيد ، وهى تحبه وهو باليقين يبادلها الحب ، فى المرات الأولى كانت تبكى ، بمرور الوقت وقد عرفت طعم لذة يصحبها الألم – كانت تتعمد الفعل المعوج ليضربها فتتصنع البكاء وتشتمه : هكذا تشتعل ناره وتحمى فيضرب بعنف .

كان يطلع نخل جبانة النصارى بالليل فى غفلة من أحمد المحروق الحارس النائم .. يسرق البلح ويبيعه لمنصور الصادق صاحب الدكان الساهر ويشترى الدخان ويدخن ، حتى هذا الوقت لم يعرف الأب ولا الأم أن ابنهما كبر ويدخن ، فهيمة لم تبح بسره – لأنها تحبه وتقدر أنه يهاب والديه . للبول رائحة على التراب تشمها لما تتذكره ، فى الستر كانت فهيمة تشم رائحة وسخ مصطفى وعرقه بملابسه قبل أن تغسلها ، ورغم البعد فهو ابن الأم والأب وهو الرجل الذى تخشاه وتحبه .

الشهر الثالث من العام الثالث :

همهمت الغجرية لترقص الحلقات المتدلية من الأنف والأذنين ، سحبت من معطفها صرة من القماش فبان رمل وحجر . مدت يدها ببيضتين . قالت الغجرية : « ثلاث بيضات » وابتسمت الغجرية ولمعت سنتها الفضية وقد رمت حزينة بنظرة فاحصة وتمتمت : « مليحة الصبية .. كالبدر فى اكتماله .. مفرودة الشراع كالمركب فى الماء » . لمحت حزينة السنة الفضية والحلقان وهى ترقص قالت : « لن أتركها تخطف ابنتى .. تلك التى لا دار لها .. سارقة الدجاج والأطفال .. لكنها تعرف كيف تكلم الحجر .. ثلاث بيضات ثلاث بيضات » .

ما قاله الحجر وما قالت الغجرية :

قطار من حديد أسود خلفه الدخان والأهل والزرع والتراب والبيوت ، وباخرة حملها الماء وجرت بها الريح ، الجبال سوداء والرمل الأصفر على الجانبين ، وبالبلاد ملوك ، والشمس تجرى فى الماء والشمس تجرى فى السماء ، على الماء قمر ، وفى السماء قمر . وفى الشمس الثامنة حط ابنك على البر بسلام .. اشكرى الله يا خالة .

خبـر :

من النهر عادت فهيمة ، باب بيتهم الخشبى الموارب ضربت ضلفته الواحدة بقدمها اليمنى وزعقت : « آماه .. آماه » . تملك حزينة غضب سمعت خبط الضلفة الخشبية بالحائط الطينى وصراخ فهيمة وصوت الجرة التى سقطت فانكسرت وسال الماء – قالت حزينة : « الرعناء » . صرخ البشارى : « ما الذى جرى .. هل قامت القيامة ؟! » . صرخت فهيمة : « وصل جواب من عبد الحكم لأهله » . قال بخيت بشارى : « البنت تزعق كما لو كانت تنادى فى السوق » ، وسأل مستفسراً « عبد الحكم .. من يكون عبد الحكم ؟! » . ردت حزينة : « ابن صديقة على » . قال بخيت وهو فى عجب من أمر الحريم : « مالنا ومال عبد الحكم ابن صدّيقة على ؟! » . ردت حزينة « رفيق مصطفى فى الترحيلة .. عبد الحكم رفيق مصطفى فى غربته » . قال بخيت « عبد الحكم ابن طه محمد .. تتكلمان عن عبد الحكم ابن طه من صدّيقة على » ، وسأل بخيت البشارى « ومصطفى » ؟ نظرت حزينة للجرة المكسورة وانقبض قلبها « هذا النذير » ، وردت على بخيت – وهى تهم بلبس بردة الخروج « سأعرف منهم .. من أهل عبد الحكم سأعرف » .

بشارة خير :

فى خطاب عبد الحكم لأهله سلام من مصطفى لأهله . هبطت السكينة على قلب حزينة الملتاع فأكثرت من الكلام مع « صدّيقة على » وشربت كوبين من الشاى وأكلت تمراً طيباً ومر الوقت سريعاً – وقالت « لصدّيقة على » وهى تهم بمفارقتها : « عرفت أنهم هناك يعملون .. يشقون الترع ويقيمون خطوط السكك الحديدية لتجرى القطارات .. لكن متى يصلنا منهم المال ؟ » .

الحمد لله والشكر لله :

باكو دخان معسل دفعت فيه حزينة لصاحب الدكان خمس بيضات وأعطته ليوسف سليم نقيب الشيخ موسى صاحب الدعوة المقبولة والقريب من الله ، وطلبت حزينة من يوسف أن يطلب من الشيخ الدعاء لمصطفى فى بلاد الناس .

نقـاش :

قال بخيت : « يوسف سليم سيأخذ الدخان لنفسه » ، وفكر فى باكو دخان كبير مرسوم عليه نجمة ، فكرت حزينة : بخيت كان يريد الدخان لنفسه ، وقالت : « يوسف سليم رجل طيب .. اختاره الشيخ دون أهل البلد لأنه رجل طيب » . قال بخيت لنفسه : حزينة منكدة .. هى الآن تريدنى أنا غايتها فى التو واللحظة تنهش لحمى .. لما كنت أملك عافيتى كنت أغلق فمها .. لما يأتى الليل سأبكى تحت الغطاء أنا رجل البيت .. لو صحا واحد من أهل الدار سأمكر وأقول « أبكى من العلة » . قالت فهيمة « الشيخ كله بركة » ، وفكرت فهيمة : وهو فى مثل سنى خلع ثوبه ورماه فى الماء فطفا الثوب وقعد عليه وعبر النهر من الشرق إلى الغرب وعاد للشرق ولبس ثوبه الذى لم يبتل .

بخيت يواجه نفسه :

فى مواجهة الليل الطويل الأسود والمصباح الذى شح زيته والعلة التى تنهش فى جسده الضاوى – تراجع بخيت البشارى وحدث نفسه وقد خاف الضرر المخبوء فى الغيب :

يوسف سليم رجل أمين .. كان يعمل بالجزارة ويكسب .. كانت الدكانة حجرة من حجرات البيت تطل على الشارع .. لما اختار الشيخ الحجرة لتكون خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد كف يوسف عن الجزارة وصار نقيب الشيخ فى جمع النذور .. الشيخ موسى أيضًا رجل مبارك .. يغلق حجرته بالنهار ويجوس هناك بمكة المكرمة مع صحبه من الأولياء والصالحين ولا يعود إلا بالليل ليفتح حجرته ويستقبل أحبابه ومريديه ، لولا المرض لزار بخيت الشيخ وجلس مع أحباب الشيخ وشرب المعسل وشم البخور الذى يأتى من مكان بعيد مجهول وشارك فى الأذكار وأكل اللحم الذى يشد العظام ويجعلها متينة .

أخيرًا وصل جواب من مصطفى :

بعد ثلاث أعوام ونصف عام وصلت رسالة من مصطفى على عنوان الشيخ الفاضل ، أفاد فيها والده بخيت البشارى بالخلاف الذى قام بينه وبين الريس عبد الظاهر ، وطلب من والده صرف النظر عن موضوع الخلاف وعدم مناقشته فيه فمصطفى رجل يعرف مصلحة نفسه ، قال مصطفى لوالده : لا تدع الأفكار السوداء تنتابك من ناحيتى .. سأسعى فى أرض الله الواسعة .. سأعمل سأحصل على المال الذى يسد حاجتى ويكفى لكى أرسل لكم ما يكفيكم شر الزمان الصعب .. أطال الله عمرك يا أبى ومنحك الصحة والعافية .. سلامى لأمى حزينة وأختى العزيزة فهيمة التى أتمنى

لها حياة مستورة فى بيت ابن الحلال الذى يأتى ويدق الباب وتفتح الباب أنت ويتم الفرح فى حياتك.

النهــاية :

صمت الشيخ الفاضل ثم قرأ : « مع تحيات محمد أحمد كاتب الخطاب » ، ثم طوى الرسالة وناولها لحزينة التى قبلتها ودستها فى صدرها . قالت حزينة لنفسها : سافر من أجل المال فلماذا لا يعود ، والبركة فى دجاجتى منها نحصل على البيض الذى نبيعه ونحصل على حاجتنا .. عشنا الفقر ولم نعرف الغنى فلماذا يحملنى أنا أمه ألم بعده . وقالت فهيمة لنفسها : لما أتزوج سأترك هذا البيت .. ليت زوجى يكون فى جسمه وشكله . وحدث بخيت البشارى نفسه : سأموت قبل أن يكون وأراه .

الموت فى ثلاث لوحات

- اللوحة الأولى -

ها هو بخيت البشارى ممدد على سريره الذى صنعه بيديه من جريد النخيل ، المرض المكروه أقعده من عامين . رفعت حزينة عنه الغطاء ورأت الوجه وقد شرب الألوان الثلاثة : الأسود والأصفر والأزرق – فخمنت أنه الموت . قالت حزينة لبنتها فهيمة : اركضى يا بنت ولا تعودى بغير الشيخ الفاضل ، وقالت حزينة لنفسها وهى ترى الغطاء يطلع وينزل بمكان الصدر : ها هو يقاوم بعزيمة الرجال .

لم الشيخ الفاضل ذيل قفطانه الحريرى الأبيض من خلفه وهم بالجلوس . أقسمت حزينة بمحمد أشرف الخلق أن لا يوسخ الشيخ الفاضل ثوبه النظيف بالقعود على المصطبة العارية . جرت فهيمة وعادت بحصير فرشته على المصطبة – التى تطوق جذع شجرة الدوم القائمة بفناء الدار ، وقعد الشيخ الفاضل .

خبطات الهواء تحرك الأوراق الخشنة الكبيرة لشجرة الدوم وتجعلها تحتك وتصدر أصواتاً أشبه بزحف الحيات وسط دغل الحلفاء . ضوء شمس ما قبل الغروب الأصفر اللين يغمر أرض وحوائط الفناء الضيق . الشيخ الفاضل أشار بالفائدة التى تعود على المريض من الشعاع الأصفر . حزينة القاعدة على الأرض بجوار سرير زوجها لزمت الصمت ، فهيمة القاعدة على الأرض بجوار أمها لزمت الصمت ، قالت لنفسها سأجاريها في كل فعل تفعله : أنا لم أخبر بعد هذا الذى خبرته هى .

أدار الشيخ الفاضل وجه بخيت للقبلة الشريفة وباعد ما بين الشفتين وصب الماء الطهور ومال على أذنه مجاهراً : لا إله لا الله .. سيدنا ونبينا محمد رسول الله ، وعاد وقعد على الحصير فوق المصطبة .

سقط الظل الثقيل على الفناء فجأة . خمن الشيخ الفاضل بطمه أن ملاك الموت قد حضر . وقالت حزينة المجربة : نعم هو ملاك الموت . وظنت فهيمة من غفلتها أن الشمس سقطت هناك خلف جبل الغرب ، لكنها أغمضت جفونها – مثل أمها والشيخ الفاضل – لتحمى عينيها من التراب

المهتاج من ضرب الجناحين الكبيرين ، وسمعت مثل أمها والشيخ الفاضل صوت الشهقة العالية وصوت الباب الذى انغلق فما قدرت على كتمان الصرخة العالية .

* * *

النسوة المعزيات يشاركن حزينة فى الصراخ ويلطمن الخد ، وحزينة تعلم أن الواحدة منهن تنادى موتاها الغوالى ، أما هى فبعقلها هناك مع الرجال .. مع الميت يرفعون الشعر عن الإبطين والعانة .. ويغسلون الجسد بالماء .. ويدعكونه بعشب العفن المر .. ثم يجمعون من جيوبهم ثمن الأكفان البيضاء ويحملونه على خشبة ويصلون عليه وينزلونه فى الحفرة ثم يهيلون التراب عليه – وعليها هى أن تتدبر فى أجر الفقهاء الذين سيحضرون لتلاوة القرآن على روحه طلباً للغفران والرحمة .

– اللوحة الثانية –

صحت بالليل الأخير على صوتها تتضرع : أماه .. أماه ، هبت فزعة . قالت فهيمة : البرد .. البرد يا أماه .. نعم جسد البنت كله يرتعش والرأس ساخن كأنه فرن موقدة ، لمت كل الأغطية وكومتها فوق الجسد ، وبالخل والماء بلت خرقة وظلت ترطب الرأس ، وظلت ساهرة حتى طلعت الشمس ، وهالها أن رأت وجه ابنتها وقد شرب الألوان الثلاثة : الأصفر والأسود والأزرق ، قالت لنفسها : هى الحمى المميتة .

جاء المأمون المدكلم حلاق الصحة ، وحلق شعر رأس فهيمة ، وفصده بالموس ، وامتص بالمحجام الدم الفاسد ، ملأ خمسة محاجيم من الدم القذر القاتم اللون ، وقال : هناك أيضاً دم فاسد يعكر الدم النقى الذى يحفظ لفهيمة الحياة .. ولو كانت صحة فهيمة تحتمل لأخرجت محجامين آخرين وضمنت بذلك سلامتها . وقال المأمون المدكلم حلاق الصحة إنه سيعود مريضته بعد آذان الظهر مباشرة ويرى ما يجب .

جاء المأمون المدكلم ورأى فهيمة مازالت على حالها لا تفيق من غيبوبة حتى تسقط فى غيبوبة ، فأوقد ناراً وحمى مسماراً وكوى رأس فهيمة ثلاث مرات ، وقال المأمون المدكلم : بذلك أكون قد قتلت الدم الفاسد العكر والأمر بعد ذلك لله وحده يفعل ما يشاء .

ظل الأمل يبرق ويخفت ، وأذن يوسف الأعور من فوق مسجد عبد الله لآذان العصر ، وأذن يوسف الأعور ينادى الناس من فوق جامع عبد الله لصلاة العشاء ، وها هى فهيمة تبتسم ،

وصرخت حزينة فى وجه القادم : لا .. لا .. إنها لا ترحب بك .. لكنها صغيرة وغير قادرة على مواجهة الألم .

- اللوحة الثالثة -

بين الدروب الترابية الضيقة المتعددة المتعرجة المحاطة بتلال القبور الراقدة تحت ظلال الغروب الحمراء المتوهجة بغير حرارة ، كانت حزينة تدب وشجر التمر حنة تحت هبات الريح الخفيفة لا يكف عن إمطارها بالزهر الأصفر اليابس ، كانت تسلك طريقها وسط المقابر محاذرة متطيرة من هول ما يمكن أن يصيبها فيما لو داست على عظام ميت ، وسمعت حزينة وقع خطوات تتبعها ، وجاهدت حزينة جهاد الأنثى الضعيفة لتطرد الخيالات والمخاوف السوداء ولكن عقلها عصاها فاستسلمت للقوة القاهرة التى تسوقها ونظرت خلفها ورأت فهيمة : نعم هى فهيمة بلحمها ودمها . فهيمة التى ماتت .. وما أن لمحتها حتى اختفت !! (أتكون القادرة بنت الجن أخت الشقيقتين هى التى فعلت هذا ؟! .. نعم الشقيقات الثلاث القادرات بنات الجن ، من يجمعن القطط والكلاب الضالة ويمسكن بالرحى الكبيرة التى تدور ولا تتوقف ويطحن اللحم والغطاء فتموء القطط وتعوى الكلاب ويختلط الدم باللحم وتلمع العيون الست بمثل الجمر المتقد .

* * *

البيت موحش وحزينة بمفردها ، مات البشارى وماتت فهيمة وحزينة محمومة وعاجزة عن أن تنادى جارة ، وماكينة الطحين تدق فى صمت الليل بصوت واضح رتيب لا ينقطع : تك .. تك . والجنيات الثلاث هنا .. عيونهن تلمع فى الظلام كجمرات متقدة - ولكنها ستحتمى بهذا الذى يقف فوق رأسها ، وابتسمت حزينة للرجل الكبير الجرم الأسود العارى المكشوف العورة .

الجثـــة

خمسون فداناً عالية هي ثلث مساحة أرض حوض المدامود الشرقي . لا يبلغها النيل إلا في نوبة مده فيغمرها بماء الفيضان النحاسي ، وينحسر عنها متى يحل موسم التحاريق ويجري الماء قذراً – هناك في خلجان وترع ومصارف القرية .

خمسون فداناً تغنم كل موسم فيضان جديد طبقة من الطمي الطيب ، يجعلها تلوح كتلّ معلق ، تحته ينبسط السهل المزروع بالقمح والشعير ، وفوقه تمتد السماء الزرقاء ، حيث تجري شمس الصيف الاستوائية منفجرة من جوف تلال الشرق بلون الفضة كل صباح جديد وتسقط جريحة تشخب دماً وقت كل غروب – هناك فوق القمم المدببة لتلال الغرب حيث ينطبق الأفق وتنتهي حدود العالم .

ها هي الخمسون فداناً مغطاة كالعادة بشجيرات العدس القصيرة الكثيفة المتشابكة ، وقد صارت صفراء تنتظر منجل الحاصد المعقوفة ذات الأسنان الحادة القاطعة .

وسط شجيرات العدس الصفراء الكثيفة المتشابكة ترقد الجثة ، لرجل في الحادية والخمسين من عمره ، الرأس مفصول عن الجسد ، بضربة واحدة قوية مباغتة أتت من الخلف ، واستخدمت البلطة كأداة وكانت ذات يد خشبية قصيرة وسلاح من الصلب الأسود المسنون جيداً ، هذا بينما بات سلاح البلطة ليلة في العراء تحت قمر مكتمل – داخل إناء فخاري مملوء بالسم القاتل ، ومرسوم على سطح الإناء الخارجي جمجمة بدم ذبيحة بشرية .

المقتول : واحد من أجساد قليلة ممتنعة على الرصاص ، من القلة المحكوم لصالحها بالخلود، يتدلى من أذنه اليسرى قرط من الذهب النقي انتزع عنوة وترك ذلك الخيط من الدم الذي جمد وتفحم .

القاتل المؤمن بالخرافة : رمى بالجثة وسط شجيرات العدس القصيرة الكثيفة المتشابكة الصفراء القاسية دوماً .

شجيرات العدس : كانت حنوناً هذه المرة فالمقتول واحد من الخالدين ، لمت الجثة ، سترتها ، غطتها ، ضمتها جيداً .

الأرض تحت الجثة كانت جافة وسوداء ومتشققة وعطشى ، وشمس الصيف استوائية حادة عامودية تلامس رأس التل ، وكافرة فى هذا الوقت من النهار .

طيور القبر الضئيلة الحجم القليلة اللحم اختبأت وسط شجيرات العدس حين حومت الحدأة ذات البصر الحاد القوى فوق المكان . وحين أتت ثلاث حداءات وحومت فوق نفس المكان طارت قبرة خائفة ودفنت نفسها فى العشب القصير الأخضر الكثير النابت بالسهل - بعيداً عن الجثة .

الدف والصندوق

سمكة ميتة كانت طافية فوق سطح الماء – فجأة – انقض طائر نهرى . حملها بين مخالبه وطار . وعاد ماء النهار يتماوج بلمعة الذهب وحرارته .

على الضفة الأخرى – تحت قدمى الجبل الغربى الكبير – بانت البيوت : أكوام من تراب – من صنع صبية صغار ، تشكلت البيوت فى خيال مريم : خراف ضامرة بمرعى واسع من الرمال الصفراء اللامعة ، وبدت لها الشمس : صبية عمياء مسوقة بنداء الطلسم المخبوء بصدر الجبل العريض .

(الكون عاكف عن الكلام – منذ أمس – والأشياء أيضًا تحدثت مع مريم على هواها وقد عادت من النهار ، انفجر ثديان كانا مخبوءين طوال أربعة عشر عاماً هى عمر مريم اليوم) .

* * *

تركت مريم الجرة تطفو فجرفها سطح الماء المتحرك ، لمت ذيل ثوبها – كى لا يبتل – وأنامته بين فخذيها وضغطت عليه ، خاضت فى الماء بتطر حتى لحقت بالجرة . أمسكتها وأمالت عنقها ، جرى الماء فى العنق إلى الجوف وهو يقول : بك .. بك .. ، تابعت مريم صوت الماء وشعرت براحة تجئ وتصحب راحة كأن يهبها بسخاء دفء الماء الذى يغمر ساقيها : بالقطع لو وصلت مريم لعمق أكبر تحصل على راحة أكبر – لكنها تخاف البنات وتخشى الغرق ، تخاف أن تطيع رغبات النفس وربما كان كل شيء – الآن – بإيعاز من الجنيات ساكنات القاع .

ودت مريم لو تنتظر حتى يحضر الصبيان . ويقفوا فوق رأس النهار ، ثم تحضر البنات وترشهن بالماء ، ولكنها بسرعة طردت ما فكرت فيه وقالت : « لو الهوى هوايا والأمر أمرى كنت أقلب الدنيا وأجعل عاليها سافلها ، لكن يا حسرة قطة منى تسخط أمى وتجر على لوم صالح (بعد مقتل الأمين الطواب ، هجرت تفيدة حسين أهل الكرنك القديم ، طلقت العمران وبنت البيت الوحيد الخراب بحوض الخمسين ، سكنته وحدها مع صالح ، كان صالح صغيراً وقتذاك وكانت مريم فى الغيب : من الرحم للدار لحياة النفوس الثلاثة ، فى الخارج كان يحيط بهم عالم واسع وقرية يسكنها آلاف البشر) .

حين لاح حوض الخمسين دهم مريم انقباض مفاجئ (خمسون فداناً هي ملك لهم ، مغطاة بشجيرات العدس – هي زراعتهم ، تحوط البيت الوحيد – بيتهم ، والكل نائم تحت الظلال الصفراء الطليلة للشمس الغاربة) .

البيت الكبير الواسع مثير للضجر وموحش أيضاً .. وهو الآن : ينقض على النفس كما تنقض حوائط القبور على الموتى . تنبهت مريم وقد جنحت في غيط العدس ، عادت للخط الجاف الذى يجاورها وضربت فيه ، كان يمتد تحت قدميه موصلاً لمدخل الدار – وحين قفز إلى وعيها أن أمها لم تغادر الدار قط منذ مقتل الأمين والدها – أدركت باليقين أنها وصالح وحدهما صنعا بخطوهما هذا الطريق وسط شجيرات العدس ، تبسمت مريم بالرضى لاكتشافها الجديد .

* * *

كانت الأم جالسة أمام نار الكانون ، نفذت لأنفها عشب الخبيزة ، رائحة خاصة تميزها نفيده ويفوح بها العشب حال نضوجه ، أمسكت بالقدر من أذنيه ، لسعتها الأذنان الملتهبتان ، لمت طرف ثوبها ولفته حول كفها اليمنى وأمسكت بالقدر من أذن واحدة وأنزلته ، جفلت حين لسع وهج الجمر جلدها المكشوف ، أرخت بصرها ورأت ظلال اللهب الرمادية تتطوح على فخذيها العاريتين ، أمسكت بفرعين لينين من الحطب وألقمت النار ، اقتربت من النار أكثر وظلت تزحف ، وهى تتراجع بعيدة عن النار شعرت بخوف يهزها : ستصبح عجوزاً . أغمضت عينيها : اللون الأسود ثقيل ، رائحة الخبيزة قوية ، طرحتها السوداء شديدة القتامة ، فخذان شاحبان هرب منهما الدم ، مريضة صبية .. وحلوة ، مريم من الأمس أنثى ، أنثى بحق ، وتأملت فى ملامح مريم – مريم تشبهها ، وشعرت بالخجل لأنها حين أشارت لصدر مريم المبتل .. لم تلمح مولد فرخى يمام .. كانا قبل كلمتها يرقدان مطمئنين على صدر مريم ، وهى أفزعتهما ، ونفيدة كانت صغيرة وتعرف بأى جناحين يضربان ، لقد صنعت نفيدة بفعلتها الحمقاء الجفوة التى تجعلها وابنتها لا تتواجهان منذ الأمس .

لم تتقدم نفيدة لتعين مريم فى إفراغ الجرة ، قالت مريم لنفسها : الخير فعلت ، ثنت ساقها اليمنى وأراحت ثقل الجرة على ظهر فخذها ، ثم رفعتها بعنت وأفرغت ماءها فى الزير بعجل .

مسحت زجاجة الفانوس الداخلية دون غسلها ، لم تمسح زجاج الفانوس من الداخل ولم تلمعه من الخارجة ، أقنعت نفسها بأنه نظيف ، أضافت كمية من الجاز للمبة الفسحة الوسطى – دون شد الفتيل كى لا تتسخ يديها ، هشت الدجاج ليبيت فى « الكن » ، ضاقت بشدة من دلع الديك .. « صدر

العريان ، ، ووضعت للحمار كمية من التبن الأبيض ، وخلطت كمية من التبن الأبيض بدراس الفول ووضعته أمام البقرة ووضعت كمية مماثلة للجاموسة ، ثم عادت ووقفت أمام بوابة الدار ، أسندت جذعها على حائط المدخل ، كان الأفق متوهجاً ، ثم انطفأ فجأة : زرقة داكنة حومت فوق البيوت المتفحمة ، وسواد كثيف صنع من البيوت والنخيل والأشجار كتلة واحدة شديدة التماسك . أغلقت البوابة وأسقطت اللسان الحديدى من الداخل ، وتركت طاقة البوابة مفتوحة ، رغم الظلام الذى تعديه الليلة ليتساوى المبصر والأعمى ، وجلست قرب البوابة بانتظار صالح ، وعندما جاء الكلب وقعد بجوارها طردته – وقالت لا ينقصنى إلا أنت !!

جاء سعيد – بعد آذان العشاء بساعتين ، كانت الأم تنتظره ، خاب ظن مريم حيث توقعت أن يسبق من هنا صالح سعيداً من زمن ، رفعت مريم لسان الأمان الحديدى وفتحت البوابة ، دخل سعيد وسأل مريم عن حالها .. ردت باقتضاب : خير ، وقالت إن أمها بالحجرة البحرية ، وزعقت منبهة : سعيد ابن خالتى يا أماه ، سبق سعيد مريم ، قالت محذرة : الكلب حر . أبطأ سعيد خطواته ومضت مريم لكوة بجدار الفسحة وأتت بلمبة الجاز . فكر سعيد فى شراسة – شبيب – كلب خالته تفيدة حسين ، توقف حتى عادت مريم وتقدمته ، فكر فى أن يقول لمريم إنها كبرت وصارت عروسة .. ويوم يحمل مهرها ستخلع خالته الأسود .. سيكون الفرح سبع ليال .. بنات الحاج « ركابى » . سيرقصن على طبلة عبد العزيز .. ثم عاد وفكر فى شراسة – شبيب الكلب ، كان ظله وظل مريم يتطوحان أمام عينيه تحت ضوء اللمبة الأصفر القليل – تساءل : الجاز قليل .. ؟ ردت مريم : لا .. الفتيل قصير !! – وهزت اللمبة لتأكد أنها عامرة بالجاز ، وناولتها له ليتأكد هو أيضاً .. أمسك سعيد باللمبة ، شد باثنين من أصابعه الفتيل المشتعل ورفعه لأعلى ومسح الوسخ بجلبابه « الدمور » . كادت مريم تزعق – وقد أفزعها أن يلمها ظلام مباغت بسعيد : حاسب المبة تنطفى ، طاول رأس الفتيل خنصر الإصبع ، وصار لشخص سعيد ظل واضح يموج على أرضية الفسحة الترابية .. كما كان لها ولرأس الفتيل المشتعل ظلان واضحان ، اكتفت مريم بالقول لنفسها . بطريقة بكائية ، يقولون زفوا الوسخ سعيد لمريم .. بنت الأمين تصير لسعيد زوجة .. يقصدون العبيط يصبح سيدى وله الكلمة .. هو الرجل !!

* * *

زام الكلب الراقد أمام باب الحجرة البحرية ، رفع قائمتيه وشد جسمه متحفزاً ، صرخت تفيدة حسين فى الكلب من داخل الحجرة : اخرس يا شبيب .. سعيد سيدك يا نجس .. تشمم الكلب ذيل ثوب سعيد الطويل النائم فى التراب – من خلف – ونهنه شبيب بصوت رضيع .. دخل سعيد من

الباب النصف موارب ، دفعه قليلاً دون أن يفتحه . وعاد الكلب لمكانه القديم وأقعى من جديد ، دفن رأسه بين ساقيه الممدودتين إلى الأمام ، وكف عن أى صوت .

* * *

قال سعيد ، إزيك يا خالة ، ومد يده . سألته تفيدة قبل أن تمد يدها ليده الممدودة : سبع يا سعيد ؟ رد سعيد بعجلة : سبع يا خالة ، ورآها تبتسم ، ورأس قطع اللحم السوداء الراقدة تحت جفونها ترجف – وسمعها تقول : اقعد .

قعد سعيد بجوار خالته على السجادة العجمى – المفروشة على أرضية الحجرة المضفورة بقوالب الطوب المحروقة : القوالب جافة وصلبة وغير مريحة .. وخالته تسأل إذا كان قد قابل صالحاً فى طريقه . قال : سلكت يا خالة طريقاً لا أنظر فيه مخلوقاً ولا ينظرنى فيه مخلوق – وسمع خالته تقول – سبع بعلم الله .

كانت الخالة صامتة . وكان سعيد يتوقع أن تتكلم الخالة .. تقول كذا أو .. كيت – قال سعيد مكلماً نفسه : الأمر كبير ويجب أن تتكلم الخالة . لكن الخالة كانت صامتة .. وانشغل سعيد برسم على السجادة ينام تحت فخذه اليسرى : طبع من نسيج بلون الرمل لحظة الغروب – لوعل هادئ نفر قرناه واستقاما بفروعهما الجرداء .. كشجرتين معاندتين .. ريح الخريف جردتهما من الأوراق وخابت فى إرغامهما على الانحناء .

* * *

دخلت مريم تحمل صينية الشاى ، دق الباب الخارجى ، وضعت مريم الصينية بجوار أمها وجرت لتفتح الباب .

قال سعيد لخالته : صالح .. صالح أكيد .. مين غير صالح !! – وابتسم . تأملته الخالة وقالت لنفسها – حين يبتسم سعيد يبدو أبله وخام ولم يدخل دنيا قالت له : وشك محروق . رد سعيد بسرعة : الشمس .. شمس الصيف يا خالة . ابتسمت الخالة ابتسامة مصنوعة وماكرة . قال : أنا أخاف .. أخاف من إيه !! – ابتسم وهو يواجه نظراتها الصعبة وشعر بالارتباك . حدثت تفيدة نفسها : سعيد غير مليح .. ما يليق بمريم القمر . هل أكون ظالمة لبنت الأمين ؟ لكن سعيد – رمى نفسه فى الموقف الصعب من أجل خالته .. أنا أزفه لبنت الأمين .. سعيد راجل (وقد عادت مريم من النهر .. قامت تفيدة لتعينها فى رفع الجرة الملأى .. لامتها لأنها بللت صدرها بالماء ، أشارت بيدها

لصدر ثوبها المبتل اللاصق بالجلد . راغت مريم كعادتها وابتسمت .. تحت إلحاح بصر تقيدة الغاضب على صدر مريم .. أنزلت مريم عينيها على صدرها .. فجأة .. غامت .. فرحة الطفلة .. نكست مريم رأسها ورمت بعينيها على الثوب .

دخل صالح وخلفه الكلب ، شبيب ، يهز ذيله ، ضربه صالح بقصبة ساقه اليمنى بعنف عوى الكلب وجرى للخارج .. عبر الفسحة الخارجية .. ثم عاد وأقعى بمرقده القديم وهو ينهنه .

مد صالح يده لسعيد الذى قام ماداً كلتا يديه : مرحب صالح .. مرحب . ودخلت مريم خلف صالح .. طلب صالح من مريم أن تتركه مع سعيد – قال : بيننا كلمة خاصة – ونظر للكوبين على صينية الشاى وطلب منها كوباً ثالثاً .

خرجت مريم وقالت الأم : الليلة يا صالح . صمت صالح .. أمسك ببراد الشاى وصب فى واحد من الكوبين وقدمه لسعيد . وجاءت مريم بالكوب الثالث وأعطته لصالح ووقفت . صمت الكل. طلب صالح من مريم أن تغلق باب الحجرة أثناء خروجها . خرجت مريم متباطئة ونظرت لصالح وأبدت له أنها متذمرة ، أخذت باب الحجرة خلفها ، وتركته مفتوحاً قليلاً . قام صالح وأحكم غلق الباب . وتحت حائط الفسحة الوسطى جلست مريم قريبة من الباب وبعيدة عن الكلب مسافة ذراع رجل .

* * *

بصوت مخنوق وحاد قالت الأم : الليلة يا صالح . صب صالح الشاى فى الكوب الثانى وقدمه لأمه . أزاحته بيدها .. سقط الكوب وأغرق السائل الأسود السجادة وطرفاً من ثوب سعيد . صرخت الأم : باليقين الليلة . ظل صالح صامتًا ، أخذ يحدق فى لهب الفانوس المعلق بسقف الحجرة ، أجهده البياض القذر ، أزاح بصره فوقع على ثوب أمه الأسود ، أحس بكره لشيء ما ، لمعت عيناه والتقتا بعينى سعيد . مد سعيد ساقه اليمنى وأزاح عنها الجلباب .. ثم شدّ سرواله الداخلى الطويل : بانت لفة قماش صفراء قذرة .. كانت راقدة تحت سمانة الساق وقد شدت بخيوط القنب ، انهمك سعيد يخلص الخيوط مستعيناً بأسنانه حتى يفك اللّفة ، أمسكها ورفعها فى وجه الخالة وصالح .. هزها موضحاً ثقلها .. فعل ذلك مرتين .. ثم خفضها بأناة ومضى يفكها : وضحت الطبنجة فى الضوء .. سوداء .. بطول ذراع البالغ .. برقت ماسورتها فى الوسط . تناول صالح الطبنجة من سعيد وضربها بكفه ووثق من صلابتها .. قرب فتحة الماسورة لعينه نصف المفتوحة : ظلمة أيضاً وغدر أيضاً (كان الظلام وكان شبيب صديقًا لأبى .. وكان أبى يركب حمار شبيب الأبيض

والرصاصة المجهولة كان مقصود بها شبيب .. حين سقط الحمار سقط أبى .. والثأر هو رأس شبيب أرميه فى حجر أمى !!) أرقد صالح الطبنجة بحجر ثوبه وسأل – سعيداً – وهو يصب الشاى فى كوبه : والذخيرة ؟ . مد سعيد يده لجيب صداره الداخلى .. أخرجها قابضة على ست رصاصات صفراء تلمع .. رماها بحجر صالح .. رن الرصاص وهو يتضارب رنات مكتومة .

هبت الأم صارخة : الليلة يا صالح يموت .. قاتل أبيك الليلة يموت (كفان أطبقا على العنق.. رأت وجه شبيبا .. ثم تبدل وأصبح الوجه لصالح .. كان المكان شبيهاً بمغارة .. ضيقاً ومعتماً ورطباً.. وكان سعيد يطاردهما وهى خائفة .. كانت ملابسها قد تمزقت .. كان الأمين جسداً ممدوداً هربت منه الروح .. حوم ذباب كثير .. وكان له ذيول .. جاء الرجال بشجيرات العدس الصفراء الجافة وستروه .. وهى كانت عارية .. وكانت لبدة من الدم تغطى وجهه .. ظهره كان للشمس تحرقه بغلّ وتصب على حوض الخمسين شواظ اللهب) .

ظل صالح صامتاً . رأت الأم صمته لغزاً محيراً .. رمقته وهو يصب الشاى . قابلها ببصره فاهتز براد الشاى بيده .. أعاد البراد للصينية وأطرق ببصره (غائب هو ومجبر على الحضور .. وهناك خدعة ما .. شبيب لم يقتل الأمين وشبيب يعرف القاتل .. والمقتول كان الأمين لأنه ركب حمار شبيب) . . حولت تفيدة بصرها عن صالح وظلت تكنس المكان ، لم تكن تقصد – شىء ما بذاته – ارتدت أمام ساق سعيد العارية : سمانة الساق سمراء ومنتفخة وهناك جراح راقدة كوزغة ملساء .. حوله العشب .. شعيرات كثيفة وسوداء ، بكت تفيدة فى صمت (طلبت من ثوبها أن ينشق.. ومن ثدييها أن يبخا اللبن فى وجه صالح .. والحيّتان الصفراوان تنهشان ولا ترحمان) . كادت تفيدة تصرخ فى صالح « كان ذلك بمدى عمرك » ، لكنها ناحت ، كانت تنتفض وقد ظفر العرق : الليلة .. الليلة (لتظل تصرخ) القديم الغابر المتقيح المكوم على الصدر .. هكذا .. لتجرى الكلمات بطرقات الكرنك القديم .. مجنونة .. تلطم الحوائط .. تهز جدران العالم الأربعة .. تدك جدران الحجرة التى تحوطهم) يموت شبيب الليلة .. وابن عبد الرحيم يشوف الظلمة .. لتعرف روح أبوك يا صالح الراحة وتذوق نوم الميتين .. الأمين أبوك .. أبوك يا صالح – وهوت بجماع كفيها على وجهها .. وأسلمت نفسها للنحيب الطويل .

ضغط صالح على كوب الشاى بقوة كفه : هنا شىء شديد القسوة .. غليظ .. عفن كعشب الخبيزة ، ليضربك بكره وحقد ، طوح ذراعه بقوة وقذف الجدار المقابل بكوب الشاى .. تهشم الكوب وتناثر الزجاج . ودخل الكلب – شبيب – الحجرة وهو يعوى .. ثم انفلت جارياً لخارج الساحة وظل

يعوى فى الفضاء العريض بصوت عال .. عاد ودخل الحجرة وهو يعوى . وقذف صالح برصاصتين داخل الطبنجة .

* * *

ضغط بإصبعه وقفز الكلب يعلو النصف قصبة وأطلق عواء فاجعاً .. وسقط تحت قدمى الأم .

هبت تفيدة واقفة .. الكلب أطبق فكيه على لسانه وعيونه المفتوحة بدت مريعة . واهتز جسد تفيدة .. إنها تشعر بالخوف ولأول مرة من الكلب شبيب .

حين دخلت مريم كانت الطبنجة ترقد بين فخذى صالح . وتفيدة كانت تشد طرحتها السوداء على وجهها . ولملم سعيد جلبابه وغطى ساقه العارية : كان وجهه باهتاً . والكلب راقد مبقور البطن وقد اختلطت أمعاؤه المتفجرة بدمه . أدارت مريم ظهرها وخرجت باكية .

قال صالح لنفسه : إنه كان يكره هذا الكلب .. وكان يكره أيضاً تلك الدار .. وربما الجاموسة وأمه والحمار وزراعتهم والدنيا بجملتها .. وأنه لابد أن يقتل .. وفكر فى مريم فيما لو قتل .. وقال : كيف يكون حال مريم ؟

انتحت مريم مكاناً بعيداً ، صدر السقيفة كان مفتوحاً ، نظرت للسماء المعلقة فوق السقف : زرقة داكنة وليس سواداً داكناً (لحظة يسهل فيها الخداع) ، نجوم قليلة باهتة الضوء (ليس لها ذيول لامعة .. ليس لها ذيول قط) ، ثقل جثم على الصدر (همّ وعَرّ ما خبره إلا يتيم الأب) ، شهقت مريم .. طلبت لروحها الراحة وطلبت من عينيها راحة الدموع (الدموع محال .. الجوف حشوه بالثلج وأرقدوه على نار .. والهواء الساخن حاصر المكان ، قامت مريم .. دارت فى المكان دورتين .. ساقاها ارتعشتا وناختا تحت ثقل الجسم) المراكب الصغيرة تتطوح فى البحور الهائجة وتلعب الأمواج العالية بالمراكب الصغيرة) ، قالت مريم هاذية : أريد الراحة ، وضربت صدرها بكلتا يديها وأبقتهما تضغطان : أطلب هواء مريحاً وأطرد هواء متعباً ، أمسكت بالثوب شقته إلى نصفين .. وانفجر ثديان (أربعة عشر عاماً .. يمامتان فزعتان تأهبتا للانطلاق – لكنهما محشوتان من الداخل برمل وحصى ساخن) .

(ضربت بعود التوت الجاف فرع شجرة الجوافة . شمس الظهيرة لاهبة . الثمر يبرق . والأوراق الخضراء تلمع أطرافها . عليه ألف رحمة .. هو الذى غرسها أمام بوابة الدار . قامت الأم

ونشرت قميصها الداخلى اليمبى مع الضربات الأولى سقطت الثمار الناضجة ثمرة واضحة الصفرة واضحة الاستدارة وعنيدة . قال صالح – كان يعيد الحادثة على مريم وقد ادعت أنها نسيتها : كان عمرك أصغر من اليوم بخمس سنين .. كنت عنيدة يا مريم . أمسك الفرع بيده . قالت مريم لنفسها: الرجل ذراعه قوية . قبض صالح على الثمرة الصفراء .. قضمها بفمه وهى راقدة بين كفه .. بصق وضحك .. قرب الثمرة من فم مريم . قضمت من نفس المكان الذى قضم منه صالح .. بصقت قالت : مرة .. طعمها مر . ترك صالح الفرع . استقام الفرع لأعلى وظلت الثمرة تطل على مريم بعناد) . رددت مريم بصوت واهن : صالح .. يا صالح . تمنت لو جاء على صوتها فهى فى ضيق (لو سمع لجاء) . عادت الدموع إلى عينيها فى دفق غزير (كانت مستحيلة وساخنة هذه المرة) .

بالحجرة البحرية وجدت نفسها . انتفض صالح قائماً . سعيد رمى بصره على الأرض . على ساعد صالح وساعد أمها وصلت للسرير (جسمها انتفض ورفض أمها . هى لا تكره أمها .. لكنها ترفضها الآن .. أمها تسوق صالح للموت . أبوها مات . الأمين قتله شبيب عبد الرحيم .. صالح يقتل شبيب .. الموت يذوقه شبيب ، اليوم بيد صالح) .

ألبسوها ثوباً آخر .. وهى راقدة على السرير وفوقها الغطاء له وبر .. وحولها ظلام وهواء حار (يخرج من جوفها ويزفر به أنفها) .. صالح خرج .

صالح يضرب والطبنجة تلمع نبح الكلب شبيب وسقط .. والجاموسة سقطت وكذا الحمار والبقرة .. والحمام سقط من الأبراج .. النار تلتهم كل حى .. وصالح يضرب بالرصاص .. كل حى يسقط والأرواح تطير .. والظلام يغرق الأرواح فى السواد الشديد .. وكانت مريم غير قادرة على الصراخ أو حتى على الحركة ونوم ثقيل قادم لا تريد أن تسلم نفسها له .

أعطته يدها .. تأرجح كثمرة صلبة .. كان أسود بمثل ثمار الزيتونة الراقدة تحت الشمس .. سمعت صوت دف وندب معولة وصوت قفص يتكسر .. جرت على الأرض الحامية .. الحصى لامع وخشن ويؤلم قدميها .. هى خائفة من ذلك الذى يتبعها فى فضاء شديد الزرقة .. طائر محوم مقطوع الرأس ريشه شديد البياض يصبغه الدم .. استقام النهر لعينيها .. وانكسر بصرها أمام سطحه المتوهج الاحمرار .. طفت صابونة على السطح .. تولاها فرح أطفال .. وقذف النهر فوق سطحه بألياف النخيل وبعلق كثير أحاط بها وغطى فخذيها العاريتين .. كانت عارية .. السواد زال من ثدييها عندما غطتهما رغوة الصابون .. البقع السوداء كانت ثابتة بين فخذيها وتحت إبطيها ..

الألياف خشنة والدم حار وتدفقه لا يجعلها تشعر بأدنى ألم .. شعور جديد وحار .. وراحة مخبوءة .. عاد الوهج الأحمر يضئ الكون من جديد .. برهان مفاجئ عكسه سطح الماء وتراجعت له جفونها .. أطبقت على نظرها المنكسر .. أمسكها من الخلف .. بكلتا ذراعيه القويتين .. لامس صدره ظهرها.. كان يغطيه الشوك .. وهي معه – كانا يتدحرجان .. كانت الهوة عميقة ومعتمة وغائرة الجوف .. كان الأفق بسمائه الزرقاء وقمره البارد ونجومه اللامعة منطبقًا على أحراش الأرض ورملها الحار .. لم تعد خائفة – حيث هما يتدحرجان .. ظلت تضحك في جلجلة وجهه الآن – بان واتضح .. إنها تعرفه .. قالت له وهي تضحك .. إنها كانت خائفة .. لأنها لم تكن تعرف أنه هو .

أنا وهى
وزهور العالم

الشجرة

حدثت نفسى بصوت خافت يحبه ضميرى :

« والسماء ذات الصدع .. لقد خالف أمراً .. مما لا شك فيه أنه خالف أمراً – لهذا أمسكت به الشرطة ، هو صديق وأنا أحبه – لكنى ما خالفت أمراً قط .. قط .. قط . قط والله أمراً ما خالفت– فلماذا لا يأخذ هو نفسه بما آخذ أنا به نفسى ؟ لماذا يارب السموات !! ، ثم إنه لا يجب أن يرانى حتى لا يدّعى أنه رآنى .. وما من أحد من المارة – وهم قلة – يعرف علاقتى به حتى يأخذنى بلوم .. ما من أحد .. ما من أحد يجرؤ ، كما أن اليوم يوم راحتى .. ولى صديقة تنتظرنى – هناك بالحديقة تحت الشجرة : يالها من شجرة .. ساقها أملس صعب على الإنسان أن يعتليه .. صعب صعب .. جذورها الواضحة فوق الأرض تسعى طالبة لماء العين البعيدة .. لحاها أبيض ناصع البياض .. أوراقها الخضراء تلمع كأنها أجنحة الطير ترف تحت الشمس .

* * *

ها هى ، ها أنا ، ها هو العالم ، وها هى الشجرة . يا للسنوات .

قالت : كنت هناك .. كنت بالشارع .. يوم كنت هناك .. يوم أمسكوا بك .. لم أجرؤ .. يا للسنوات .

قلت : كنت هناك .. كنت بالشارع يوم كان هناك .. يوم أمسكوا به .. لم أجرؤ .. وكنت أظن أنك هنا وكنت أنت هناك .. يا للسنوات .

قالت : يا لك من ولد طيب .. يا لنا من أطفال مساكين .

قلت : يا لك من فتاة طيبة .. يا لنا من أطفال مساكين .

(قلبى وقلبها مازالا محفورين على ساق الشجرة بإسمينا) .

قالت : أذكر يوم أعطتنا ما يعطيه ثدى الأم : كان لبناً ناصع البياض .

قلت : أذكر .. كان دمعاً ولم يكن لبناً ناصع البياض .

صرخت وضربت الأرض بقدميها الصغيرتين : كان لبناً ناصع البياض .. لا تجزم هل ذقت طعمه ؟

وخلعت نعليها ومدت يدها : صغيرة مبلولة ترتعش . وكنا نطوف حول الشجرة .

قالت : ولكن هل يعرف الشجر الأمومة مثلنا نحن البشر ؟

قلت : للبن طعم .. والدموع مالحة .

قالت : ولكنك لم تجرب .

وقالت : لا أنا ولا أنت .. نجرؤ .

وقالت : يا لها من شجرة .

فصرخت : نعم .. يا لها من شجرة .

اليوم الأحـد

(١)

كان يعبر الطريق مسرعاً ، وكانت العربة أيضاً تقطع الطريق مسرعة .

(٢)

خلق كثير صنعوا حلقة حول الجثة والعربة « الفيات السوداء » . صاحب العربة السوداء الذى هبط كان قصيراً ببطن ، لا يكف عن مسح جبهته وعنقه بمنديل أبيض كوره فى كفه .

(٣)

نادى رجل مسن يحمل بيده منشّة – الجميع يستر عورة الميت . بائع صحف طويل ضامر يلبس جاكتة قديمة قذرة طويلة الأكمام – انحنى وفرش كميه من ورق الصحف فوق الميت ، وعاونه فى هذا شاب له شـعر غطى عنقه وكتفيه ، بينما رفيقه الشـاب الشابة أدارت ظهـرها كى لا ترى . « قصيرة القامة قصيرة الثوب قصيرة الشعر كأنها غلام ، رغم ذلك فهى حلوة » – بهذا القول حدث الولد زميله . تململت هى وكشرت وتقدمت خطوتين وسمعته يقول لزميله « ستموت هى .. وأنا وانت » فجأة « وهى تعرف .. والحياة فرصتنا فلماذا ؟ » . دس صاحب « الفيات السوداء » يده فى جيبه وبيد مرتعشة قدم عشرة قروش معدنية لبائع الصحف الذى رفضها قائلاً : « الثواب عند الله » . جاء ذباب كثير وعف فوق المكان . وأتت عربة هبط منها ثلاثة رجال جادون بملبس كامل حسن برفقتهم عسكرى – وفى التو انضم إليهم عسكرى المرور . رجل من الثلاثة كان يتكلم أما الثانى فكان يكتب فى دفتر صـغير ، والثالث كان يشير إلى أماكن محـددة ليرسم العسكرى بالطباشير على الأرض دوائر صغيرة ودوائر كبيرة وعلامات (X) .

(٤)

وقد مر وقت ، استرد صاحب العربة السوداء توازنه فخفت حدة حركاته وهو يتحدث مع الرجال الثلاثة . ولما أتت عربة الإسعاف انفرط العقد وهبط الرجال وحملوا الجثة على خشبة .

صفرت الحلقة ، وانفض الجمع كله لما غادرت العربتان المكان : عربة المحققين والفيات السوداء . وغادر عسكرى المرور المكان لينظم حركة المرور المعطلة : تلك التى تجعل العربات تزعق وتناديه .

(٥)

« الضاوى » العامل بدكانة أحذية « النجمة الزرقاء » أتى بجردل من البلاستيك – وهو يتابع بعينيه عسكرى المرور الذى لم يبلغ مكانه الخشبى بعد ورش مكان الجثة بالماء وكنسه بالمكنسة . وطار كثير من الذباب . وسارت العربات بطيئة فمسرعة : رتلاً طويلاً بكل لون .

أنشودة الطراد والمطر

كان المطر مازال يسقط ، وكان أقل حدة مما كان ، وكان الجو ممتلئًا بالرطوبة تمامًا .. وكذلك كان باطن الأرض ، وكانت السحب الدكناء تعد بالمزيد .

كان الشارع خالياً فالمطر لم ينقطع منذ الصباح ، وكنت قد ابتسمت فتسللت قطرات من ماء المطر كانت على وجهى إلى شفتى : أحسست بجسمى كله متشبعاً بالرطوبة والملح .

كانت أضواء المدينة تبدو من بعيد – فى الظلمة – كنجوم هاوية بين الأرض والسماء المنطبقتين ، وكنت أضرب أسفلت الشارع المبتل بخطوات سريعة وكنت أتابعها وكانت تعود بدق المطر على الأسفلت الأسود اللامع وصوت الماء الهارب للبالوعات .

كنت قد بلغت سدة الشارع ، كان هناك أمام البوابة المغلقة ثلاثة أشخاص ، وبدا لى الذراع الأحمر الممتد بعلامة الخطر كما لو كان معلقًا متدليًا من السماء ، وبدت لى المسافة بين السماء والأرض قريبة جداً – وهكذا كانت دائماً فى الليالى المظلمة حيث المطر .

كان واحد من الأشخاص الثلاثة قد استدار – تاركًا زميليه أمام بوابة محطة السكة الحديد المغلقة – وانسل من بين الأعمدة الحديدية المنتصبة كالرجال السود – بامتداد الخط الحديدى ، وكانت هناك صرخة تحذره – وكنت قد تبعته ، كنا قد نفذنا من الجانب الآخر فجلجلت ضحكات الرجلين أمام البوابة .

كان القطار قد مر وكنت قد اصطدمت بظهر الرجل ، وكانت ضحكات الرجلين قد تحولت إلى مزق ، وكنت قد باعدت بين وجهى وبين التفاتته السريعة ، ولكنه كان قد عاجلنى بنظرته وتأكد – أخيراً – من أننى أنا ومن أنه هو الذى سيتمكن منى .

جريت فى الأرض الخلوية الواسعة ، كانت الأرض مجدورة بمئات الحفر التى تحولت إلى برك صغيرة من الوحل .

وها – أنا – ذا : قد بلغت المنحدر حيث ينتهى الزمان والمكان ، لم يكن أى من الرجال خلفى. مسحت الطين العالق بحذائى ، وبقيت تلك الارتعاشة بأطرافى وبالداخل ، كان المطر قد كف ، وكان الحجر الذى جلست فوقه شديد البياض وقد غسله ماء المطر ، وكان ظلى هناك – بعيداً – يسبح فى برك الوحل الصغيرة .

البكاء والثالث

حل المساء . كانت قاعدة على شلتة قديمة ، عن يمينها باب الحجرة الوحيدة الضيقة نصف مفتوح ، يواجهها باب الشقة الخارجى المغلق بالمفتاح من الداخل قامت مستندة على جهد ذراعيها وساقيها : دقت بالأرض مسمارين وبالهواء مسمارين وعلقت جسدها القليل اللحم .

عبرت مستطيل الصالة القصير إلى ركن المطبخ الضيق . فكرت فى القبرة وقالت إنها تشبه ذلك الطائر الترابى اللون الضئيل الحجم القليل اللحم المختبئ وسط شجيرات العدس القصيرة الكثيفة، قلبت الأوانى القليلة والعلب الفارغة المكومة وعثرت وسط الكراكيب على عودين من الكبريت مبلولين من الرطوبة ، أشعلت لمبة الجاز وأعادتها إلى مكانها : معلقة بمسمار مدقوق بحائط الصالة – فحل محل عتمة الغروب الرمادية ضوء أصفر شديد الشحوب ظل يتغامز ، أغلقت النافذة الواحدة ذات الضلفة الواحدة فاستقر الضوء والظل فى خطوط تقاطعت فى حدة .

عادت وجلست على الشلتة القديمة ، وبجوارها قعدت ابنتها الوحيدة بنت العام الرابع عشر . ظلتا صامتتين . وكانت تلبس ثوباً أسود جديداً وطرحة سوداء جديدة تذكرت زوجها المتوفى من عامين – فجأة ظلت ترثيه وتعدد محاسنه فى سرها ثم جهرت بصوت خفيض ، وبالتدريج ارتفع صوتها وصار له صدى خفيف مسموع يصطدم بالحوائط فى خبط هين .

« قالت : كان كذا ، وكان كيت ، وكان وكان ، أشياء تعرفها هى وحدها دون سائر البشر ، وأشياء عرفها هو عنها دون أى مخلوق فى العالم ، كانت نكدة وكان يحبها أكثر مما كانت تحبه . لهذا مات ، قالت : « أنا أعيش الحياة وأتعذب » .

انفجرت فى بكاء حاد متصل ..

فجأة ، نشجت الابنة ، أخذت نفساً قوياً من الهواء وكتمته وأطلقته قصيراً متقطعاً موجوعاً ، ثم مضت فى بكاء حاد متصل .

تلاوة ماسونية

جواب

مر وقت طويل وأحمد بانتظار الأوتوبيس (١٤) ، وها قد جاء الأتوبيس (١٤) ، وكان اليأس قد تمكن من روح أحمد الصابرة ، جاهد أحمد جهاد المؤمن وتمكن من كرسى وقعد أحمد ، ومازال أحمد قاعداً .

مطوق أحمد باللحم الحى والدم الساخن والعرق الذكر والعرق الأنثى والروائح الطيبة والروائح الخبيثة .

ها هو يفكر فى الله مالك السموات السبع وملاك الموت الذى يلم تحت جناحيه كل حى ، وها هو وحيداً فى مواجهة البدن الهائل والدود النهم المحب للحم ابن آدم .

رد

ما كان يجب أن يفكر بمحض اختياره – وهو قاعد – فى الصندوق المقفل بإحكام ، ما كان يجب أن يستسلم لتلك الرؤيا – وهو قاب قوسين أو أدنى من غايته ، عليه – الآن – أن يخلص روحه بالكتف ، ليهبط ، عليه أن يتقبل العقاب .

جواب

عن يسار أحمد : شجر مورق ، والنيل يجرى بقوارب تحمل العاشق والعاشقة .. وقوارب قادمة من جنوب مصر محملة بآنية وقوارير من فخار .

وهو – بشارع الكورنيش مع عربات ، عامة وأجرة وملاكى ، مسرعة تزعق وتنادى وتكشح الدخان والهواء والورق اليابس الساقط من الشجر .

أدخل أحمد يده بجيب بنطلونه ، وأخرجها قابضة على تذكرة الأتوبيس وكور التذكرة وضغط عليها بإصبعين ، وطوحها للريح الخفيفة التى صنعتها العربات الزاعقة المسرعة .

رد

ها هو مرة أخرى تحت طائلة العقاب ، لا يملك – مهما حاول – دفع أو إيقاف ذلك الذى داهمه : هذا الشعور الواقعى أنه مهان .

فانتازيا .. العنف القبيح

متى ضرب الباب الزجاجي بقدمه دخل البار ، وراح الباب الزجاجي وجاء ، وأمطرت السماء في الخارج ، ينظر للمروحة العاطلة : لا تدور .

يطلب نصف زجاجة براندي ، متوسطة السعر والجودة ، وزجاجة صودا ، حالما يفتحها الجرسون تفور – وإلا فهي فاسدة ، وطلب طبقًات به شرائح ليمون حلو ، صب كأسًا وشربها دفعة واحدة ..

يشرب كأسه الثانية دفعة واحدة أيضًا ، ينظر للمروحة العاطلة لا تدور – ويكون قد شرب كأسه الرابعة .. كأسه الرابعة .. كأسه الرابعة ..

على البار ، يجلس الجميل ، لا تتجاوز سنه الثانية والعشرين لا يكف عن الحديث بصوت عال مع العجوز الإيطالي المتصابي . رفيقان لا يفترقان . العجوز الإيطالي يدفع الحساب دائمًا ويسخو في البقشيش . الجميل صورة مماثلة للممثل الأمريكي الذي يؤدي دور « الدركي » في أفلام شركة «بارمونت» الأمريكية : بنطلون ضيق ، إسراف في الحركة وانفعالات حادة وانضباط مفاجئ ، يوناني الأب ، الأم من أسرة مسيحية أتت من لبنان واستوطنت بمصر منذ أعوام بعيدة ، من العنق تتدلى سلسلة ذهبية ، تنتهي بصليب ذهبي يتأرجح على الصدر العاري (الأملس ، كعب الحذاء يشبه الكوب ، القميص المفتوح . أحمر أحمر أحمر .. وياقته طويلة حادة الأطراف) .

ينظر للمروحة العاطلة : تدور : ويتذكر أشياء في حياته ، ويشعر برغبة في البكاء ، ولكنه يقاوم ، ويشرب كأسًا والمروحة مازالت تدور ، يشير للجرسون ويدفع الحساب ، وتعاوده الرغبة في البكاء ، يشرب كأسه الأخيرة ويغمغم : السفلة ، ويبصق ويندفع للخارج : يتوقف المطر ، والمروحة العاطلة تدور لاتزال .

تحت ضوء اللمبات الأصفر يلمع أسفلت الشارع الأسود المغسول ، لأعمدة النور ظلالٌ ساقطة ، يشعر بثقل الظل .

يمشى خلف ثلاث فتيات يلبسن « الميني جيب » ، واحدة منهن قصيرة وسمراء ونحيلة اسمها « إيناس » طالبة بكلية الفنون الجميلة ، بالسنة الثانية قسم الديكور ، لا تحب اللوبيا ولا الفاصوليا ، تحب « مامتها » جداً جداً وتصارحها بكل شيء ، لا تحب الفول الأخضر أيضاً ، تحب الأطفال حتى سن العاشرة تحلم بالسفر لألمانيا الغربية – تحب أصدقاءها جداً جداً – لها أصدقاء هناك ، تكره القعود على كرسى لمدة ثلاث دقائق بأية سينما حتى ولو كان الفيلم « زوربا اليونانى » .

النسور المدربة يا الله هناك عند المنحنى .. النسور المدربة جيداً يا الله .. كل نسر يا الله قبض بمخالبه القوية على فتاة .. لا يلتهمها بعد .. يطرح فتاته أرضاً ويوسع فتاته ضرباً .. قابضاً على لمة شعرها .. شعرها القصير يا الله .. ويجرجرها على الأرض (التم جمع كبير وتحركت عربة الأخلاق : كسرت الحلقة وتفرق الجمع وأتى الهدوء المعتاد المألوف) .

قال لنفسه : هناك ، فى القسم ، تكتب كل فريسة إقراراً واحداً بعدم العودة للبس «الميني جيب» وينتهى كل شيء .. كل شيء يا الله . كل شيء .

انتظم فى الإيقاع الجماعى : بهدوء كالمعتاد ، الأضواء على الأسفلت تلمع .. الأسفلت الأسود، أعمدة النور واقفة كالرجال .. واقفة تسقط الظلال على أرض الشارع المبلول الأسود الأسفلتى اللامع .

وجد نفسه وحيداً وعاودته الرغبة فى البكاء ، وانتظر شارة العبور ، وفى الميدان وقف أمام فاترينة محل يبيع الملابس النسائية ، فوق قطعة ملابس داخلية كان تمساح صغير من البلاستيك يزحف ببطء .. ولمح الرجل القصير الأبجر يقف خلفه ، وشعر برعدة شديدة لما أشار القصير الأبجر – بصحيفة الصباح التى يمسكها بيده – إلى شارع جانبى خافت الإضاءة .

هبط الدرجات الست وبلغ مدخل القبو ، شعر بالرطوبة وشم رائحة الرطوبة ، وانهزم بصره أمام تماسك اللون الأسود ، وظل ينتظر ، وسمع وقع الخطوات وعاش التوقع : واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة ، ستة ويأتى القصير الأبجر ويضربه بعنف وحقد وكره راهن ، ربما يضربه القصير الأبجر – هذه المرة – حتى الموت .

شموس

(أ)

سيارة الرجال الثلاثة – وقفت ، بجواره ، فجأة – بحللهم السوداء ذات اللمعة المخيفة . الثلاثة– كالغربان ، وقد طوقوا أعناقهم برباطات سوداء تتدلى بميل على قمصانهم البيضاء بياقاتهم الطويلة الحادة . وعلى صداريهم كانت القرنفلة البنفسجية مرسومة .

(ب)

كان مع المارة وأعمدة النور وأسفلت الشارع والعربات وسائر الأشياء – لما مزقت ضلوع صدره حربة النار ذات الشعب : التى يمسك بها الخوف صاحب الدرع والخوذة .

(ج)

ولّى البرد المهلك عن بدنه وفارقته الرعشة الزرقاء – بفضل رب الموت وبأمر رب الموت المطلع على أعمار كافة البشر : الذى صرف السيارة لغاية أخرى ، وبلّ إصبعه بلعابه الأصفر ومرره على الجرح الميت – فإذا بالجرح الذى كان مميتاً يصير إلى جرح غير مميت وإن بقى الوخذ الموجع .

(د)

هو المحب للسير مع الحذر الواجب – وقف ، أمام محل يبيع اللب والفول السودانى والحمص فى قراطيس ، واشترى – هو الذى يحب الفول السودانى – قرطاس حمص تغطيه طبقة بيضاء من السكر .

(هـ)

سار بالشارع مع الناس ، يمص السكر ويشعر بحلاوته ، ويجرش الحمص بأسنان رجل مكتملة . وما هو بالمخمور ، وما هو بالراغب فى الخمرة ، لكنها السنوات تطوح به ، تطوح به – وها هو يهبط السلم عارياً ببدن يرتعش .

١ – جاء المدينة بملابس ذات ألوان ، وكان شاباً ، وكان يملك مالاً (بعت الأرض التي ورثتها عن أمي بعد أن ماتت ، بعت الأرض بعد نزاع مميت مع أبي الكهل المقعد الذي ما لبث أن مات ، فدخلت عراكًا مع خالي وعمي وقريتي التي تطارد من يخاصم أهله كما تطارد ثعالب الحقول وذئاب البر) .

٢ – ماتت ، ومات ، ورأيتهما في كيسين أبيضين ، ورأيت الحفرة مظلمة ، النهار أيضاً مفزع أقضيه حتى يحل الغروب المرعب بحجرتي – وقد قنعت بها مسكناً بعد أن أنفقت الكثير من مالي القليل على الخمرة والدخان والأكل الرخيص (ممدد على سريره الخشبي ، نصف يقظان ، يرى السياج – الذي صنعته أشجار السيسبان – من نافذة لها قضبان من حديد أسود وشبكة من السلك القديمة – ممزقة) .

٣ – يعرف كل خمارات المدينة ، يسعى – برغبة دائمة في الكلام والمشاركة – إلى تلك الخمارات التي يتردد عليها نصف المشهور ونصف الموهوب من ممثلي السينما والتليفزيون والإذاعة والمسرح ، وموهوب نصف مشهور فرض عليه أو قدر له ألا يبلغ الطريق حتى منتهاه ، شعراء وكتاب قصة ورجال صحافة – أصحاب ميول سياسية تجلب السخط على أهلها .

٤ – تنقطع عني المياه وأنا أستحم – ربما بسبب هؤلاء . وربما لأنني ، وإن كنت أجزم ، آه ، لا أذكر ، هل ارتكبت ذنباً ؟ لِمَ تغمز لي لمبات الشارع ، لم يطاردني بشر ينظرون إلى ساعاتهم فور دخولي أي مكان ؟ (يضربونه بالكتف من غير سبب ، ويتخطاه الأتوبيس المسرع ولا يقف إلا وهو مزدحم ، يعامله الكل – الباعة والمارة والصحاب – تلك المعاملة التي لا تليق بكلب ، تطارده الوساوس ، ولا يقف له التاكسي ، حواليه دوماً عربات : عربات إسعاف وعربات شرطة وعربات جيش وعربات صحافة وعربات القطاع الخاص والعام) .

٥ – أي ، إلى متى ؟ ، إلام متى يسرقني الجرسون ويدس لي صاحب المطعم الحصى بالطعام ؟ ، لم لا يرن جرس التليفون لما أطلبها ؟ وإن رن لا أسمع ردها !! ولو رد أسمع من أريدها تقول إنها ليست هي !!

٦ – على كرسيين من خيرزان وقش ، قعدنا على كازينو مطل على النيل به شجر وورد – بعد أن فشلنا في الحصول على مسكن لنا .

قالت : أشعر ببدنى قرية بعيدة هناك ، الليل بنجوم قليلة متباعدة تعارك ظلمة تحجب تلال الشرق الزرقاء ، وهناك وعد بمطر ، أما الرعد فلا أسمعه ولا أحسه .

٧ – قالت : أمر البيت لا يهمنى الآن ، لا شيء يهمنى الآن ، لا أود أن أكون معك ، ولا أود أن أكون مع أحد ، ولا أود أن أكون وحيدة وأود أن يتوقف كلية شعورى ببدنى الذى أكرهه .

٨ – وقفت غاضبة ، ولَحفته على بثوبها الواسع ، قالت : أردت بدنى ، وتظن أنك تمكنت ، تدس نفسك الخوافة وتنتظر . امرأة أنا ، وأنا قرية ووطن ، وأنت سيد بدنى ، يالك من فالح .

٩ – تقول إننى أدبر لها – أنا الذى أقرأ الكتب ، وهى ألا تدبر لى ؟ ، لقد صنعناه معاً ، وهى بمقدورها أن تهيىء الطفل أو تمنع على الطفل ، وبمقدورها أن تخنقه ، لكن – هل تكون المحبوبة قاتلة ؟ هى المحبوبة ولا أريد أن تكون قاتلة .

(و)

الزجاج عكر ، وأنا وجه مملوء بالتجاعيد ، جفونه وارمة والبرص يرقد فوق حاجبه الأيسر ، ينتظر الموت الذى ينتظره ، والأيام التى مرت من العصى أن تعود : هذا ما يحزننى .

إلى الشاطئ الآخر

ناديته ، وهببت واقفاً ، كنت فرحاً به . كنت طائراً لا أظن إلا أنه أسود ، وها هو فى أحضانى بيضة دافئة ، كم هو رائع صديقى هذا .

قال : تعال .. قم يا رجل .. ذات يوم سترفع من مقهاك هذا الكئيب إلى الحفرة على خشبة ».

ناولته سيجارة رفضها ، وسعل ، وسب البرد والدخان وكذا ليالى الصيف التى تجعل الآدمى منا ينام عارياً ، وتجعل – ليالى الصيف تلك – الفرد منا لا ينام ونافذة حجرته مغلقة ، وسألنى عنها .

قلت : هى تعرف أننى هنا .. دائماً .. بهذا المقهى .. ومع ذلك تمر لأراها – لكن دون أن تلتفت إلىّ » .

وشققت صدرى ، ومن البيوت المهدمة المحترقة انتزعت قلبى وهو ينتفض – المسكين – فى كفى صغيراً ، وأسلمته له . ورآها منقوشة بالإبر ، وقال : حلوة .. عرفت كيف تنتقى ثوبها وكيف تهذب شعرها ليبدو وجهها الحزين هكذا ضاحكاً : عارية القدمين بنعلها ذاك ، القدمان أرنبان صغيران ، من ثوبها الأبيض القصير النظيف رأيت الساقين كوبين من الخمرة باللبن ، تمسك منديلاً منقوشاً صغيراً فى كفها تهصره وتخضب الكف الصغيرة المرتعشة – يا لوعتى – بالدم ، يالله كم هى قلقة ، ما أروع حزنها ذاك كأنه كوبان من القهوة باللبن : تبرق به العينان – من خلف نظارتها الطبية – كأنهما كوبان من القهوة باللبن .

وكان يتكلم هو وكنت صامتاً ، وكنت أراها مستعجلة تضرب الشارع بنعليها فينفر الأرنبان ، وتقطع الطريق القصير إلىّ مارقة ما بين العربات – حزينة ضاحكة ، ومن فتحة الصدر رأيتهما : فى عشهما .. يمامتين فزعتين بزغب ومنقارين ، وأغلقت عينى – أنا الذى أفزعتهما ، وسمعت رفيف الأجنحة العارية من الريش .

وقال هو : « الدواء الداء » . وشعرت بشهيتى تتفتح للخمر . واستضافنى هو ، كوبى نشعت على سطحه الخمرة الباكية قطرات من اللؤلؤ النقى ، كوبى قبضت بكفى عليه وسمعت صوت حيات

اللؤلؤ تتكسر وشعرت بالرعشة المشتهاه ، حركت كوبى وسمعت صوت الخمرة وهى ترتج وصوت النسغ فى عروقى وصوت قوالب الثلج الصغيرة وهى ترتطم بالزجاج .

كأسى السابعة ، ذابت قوالب الثلج الصغيرة فى كأسى السابعة ، وصديقى سخى اليد والقلب ، وهى أمامى فوقى ورائى هنا وهناك : فى نيل رائق .. ما أقرب شطيه .. ما أبعد شطيه ، يا ذراعيها اضربا بمجدافين .. أنتما : الفأس وساق الشجرة ، أيتها السماء فوقى يا عيونها التى تطل بالنجوم .. ارقدى يا أيتها العيون لأرقد فأنا جد مخمور وصديقى تركلى وحدى .. وأنا جد حزين .. أنا هالك سيدتى .. الطريق بعيدة والسير أتعب أقدامى .. يا لطرقات تلك المدينة ذات القباب .. يالى من تعس .. يالى من فاشل بأكفان بيضاء .. هذا يوم بخمسين ألف سنة والأمس كان كذلك ، وغداً ، سيدتى ، سأعرج وحدى أنا العاشق – عاجزاً عن الفعل .. مؤمن كطبعى بالكلمات :

« ميم صاد راء .. السنوات .. الماء النار .. اللبن .. الخمر .. الزرع .. القوارب . ميم صاد راء .. الرمح الريح .. القلاع .. المآذن .. السهم .. الأهرامات البيوت .. ميم صاد راء .. الطفل القوس .. الحشائش .. الدم .. الحرب ، العيون .. سيناء الرايات .. الحب الحب الحب » .

الدرس

ثم أضاف باللاتينية : لأن خلقى يا بنى سيكون أسداً هصوراً لا يفتش إلا عن فريسته .

- الأب بيرار -

ماذا يعنى هذا ، إنه فخ دون ريب ، لنستمر فى اللعب بحذر .

- جوليان -

- الأحمر والأسود ، ستاندال -

رفع المزلاج الحديدى الثقيل ليفتح الباب الخشبى الثقيل من الداخل انفرجت أصابع اليد فى قسوة - كما ترى ، عروق اليد نافرة وقد حالت إلى اللون الأزرق بعد الوفاة .

انقلب على الباب بوجهه - وقد أيقن كلياً عجزه ، كان يبغى فتح الباب ليفلت من مطاردة ، شعر بماسورة البندقية تلامس ظهره ، وسبق هذا شعور هائل بالرعب - خلفه المطاردة : بخطواته الواسعة وقدميه الثقيلتين تحملان البدن العظيم وتهرسان أحجار الجير البيضاء الرخوة التى تغطى السطح ، انظر لحجم القدم . إنها لإنسان بدائي ولا شك ، من جانبى أفضل أن أسميه بالإنسان الأول أو إنسان العهد القديم . ولن نترك للبندقية كسلاح قريب العهد أن تضللنا وتطمس شخصية المطارد - لا القاتل - بالتحديد هذا ما أعنيه بالطبع ليس بإمكانك أو بإمكان غيرك أن يرمى الفاعل بأية صفة لا تتناسب مع الفعل ، إن نوعية الفعل هى التى تحدد لى الصفة التى أطلقها على الفاعل .

كان الأمر هكذا إذن ..

ارتمى بوجهه - ولكن بقسوة وعنف وبقوة اندفاع - أجزم أنها مقصودة ثم حدث الجرح المميت الذى نراه بالجبهة هنا من مفرق الشعر حتى قصبة الأنف ، ومنه - من فتحة الجرح - يمكن لكفك أن تنفذ وتخرج لولا الدم الذى انفجر بغزارة ثم جمد وتيبس : إنه ذلك اللون الأسود المتفحم وقد مر على الوفاة ما يتجاوز العشر ساعات .

الاستطراد المنطقى وحده هو الذى سيقودنا إلى النتائج المنطقية المقنعة اصطدام الجبهة العنيف بالباب الثقيل أحدث الشق المؤلم ، وحدثت الوفاة ، ثم أتت الرصاصة متأخرة - ربما أقل من عشر الثانية بعد الوفاة .

كان صاحبنا وقد شك في قدرته على النجاة - هذه المرة لم أقل الفرار - قبض على المزلاج الحديدي الثقيل ودفعه قليلاً : بهاتين اليدين المتصلبتين ، تلك الأصابع المنفرجة والعروق النافرة ، وضرب جبهته بالباب الثقيل الموصد بكل ما أوتي من قوة الراغب في الحياة الهارب من الموت ، وبرعب شديد من المطاردة - هكذا تمت الوفاة .

الأمر كله في ظني - بل في يقيني - لم يكن أكثر من لعبة ، لعبة سمجة ولا شك ، ولكن لم ندع الأمور تضللنا نحن الرجال - بعد تاريخ طويل أنجزنا فيه تفوقًا مذهلاً في الكشف عن أشد الجرائم غموضاً : بنعمة العقل وصلابة المنطق وخبرة التدريب وقوة السلاح وحقائق العلم .

نعم .. دعني أكرر - كيف نسمح لأنفسنا وتحت أيدينا العديد من الوسائل المتقدمة إلى أقصى حد في مواجهة العنف اليومي المتكرر ، كيف نسمح لنفوسنا بأن تخدع ، أنت لا ترى مقدار ما يصيبنا - ولا أكون مغالياً حين أقول يلاحقنا - من سخرية مرة لن نحتملها ، وقد تدفعنا نحن الذين لم نهن ولم نعرف اليأس بعد ، نحن المنوط بنا تنبيه الآخرين إلى الفجأة وحمايتهم منها - إلى الانتحار .. هل نسقط أخيراً ضحايا خدعة تجوز على العامة فتصيب روحهم ببلبلة تؤدي إلى مقتل حتمي .

الأمر ألخصه في أن الرجل المتوفى أراد أن يفلت من ظلمة المكان ومن مطاردة البدائي الواسع الخطوة الكبير القدم : انظر إلى الأحجار الجيرية المتفتتة - هاك طبع القدم : من هنا إلى هنا..

كان المتوفى يجري . وجرى البدائي خلفه مدفوعاً بلذة الطفل ورغبته في المحاكاة .

وأنت معي في أن ، من أين للبدائي عقل الرجل الناضج مثلي ومثلك !! ثم وأن البدائي لاشك قد شاهد الرجل المتوفى في المكان قبل ذلك مرة بل مرات عديدة : رآه يغتسل وينام ويشخر ويأكل ويقضي حاجة ويحمل بندقية ، وأنبهك أن البندقية أصلاً ملك للمتوفى - بهذا تشير كل الدلائل : من أين للرجل الأول رجل العهد القديم أن يحصل على بندقية ؟ بل كيف له وهو صاحب العقل البدائي أن يدرك ماهية البندقية كأداة قاتل !!

لم يكن الأمر أكثر من عبث طفولي بحت من جانب الرجل الأول : محاكاة للرجل المتوفى في عملية الجري ، تلتها اللذة الطليقة التي تخلقها روح المطاردة - وهذا لا يتوفر لعقل البدائي فحسب وإنما لأي حيوان أو حشرة خسيسة كشعور غريزي .

كان يعابثه ، ألصق فوهة البندقية بالظهر ، وبالمصادفة أو بدافع المحاكاة اصطدم الإصبع بالزناد ، وتنطلق الرصاصة ، ولكن بعد فوات الأوان ، بعد أن يكون رجل زماننا قد قضى على نفسه منتحراً : باليأس من رفع المزلاج وفتح الباب والخوف من رجل العهد القديم ، الخوف غير المبرر ، وانطلقت رصاصة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة حتى الرصاص الألف : أحدثت هذه الثقوب بالظهر ، فأحرقت الثوب وتركت ابن زماننا عرياناً وجعلت ظهره كمصفاة بها ألف ثقب .

لو كان البدائي يملك قدرات الوعي - التي هي منحة التجريب والتاريخ - إذن لما أطلق الرصاصة الأولى وقد مات الرجل قبلها بعشر الثانية من اصطدام الرأس بالباب .. فما بالك بألف .. ما حاجة الميت لألف رصاصة ليموت .. هل هي رغبة الرجل البدائي في التأكد من موت الرجل : الذي تراه أمامك بفضل جسده العارض ضئيلاً متناهي الضآلة ، هل كان رجل العهد القديم يخاف المواجهة الصريحة المباشرة وهو العظيم الجرم الفائق القوة - حتى فيما لو جردناه من سلاحه وهو بندقية ليست حديثة الطراز ولا يوجد بخزانتها سوى ألف رصاصة ؟ أنت واهم حين تظن ذلك يشكك في قدرات رجل العهد القديم الطبيعية ، وها أنا أضع تلك الفرضية أمامك .

« هل كان الأمر سيتغير وترى جثة رجل العهد القديم بدلاً من جثة رجل زماننا فيما لو نزعنا البندقية كأداة قتل من يد الأول وأسلمناها ليد الآخر ؟ » .

أقول لك : لا .. سيظل التفوق الطبيعي للفرد القديم على الفرد الجديد ...

ها هي وجوه الخدعة تتكشف أمامنا .. وها أنا أراها كشمس الظهيرة هناك عند خط الاستواء ، وشيء واحد كان بإمكانه أن ينقذ رجلنا المنتحر : المواجهة .

لو واجه ابن زماننا البدائي لرأى البدائي - بدلاً من ظهره - تقلصات في الوجه وجحوظاً في العينين وفكاً فاغراً ، أشياء تنطق بالخوف الصريح ، هنا كان البدائي لاشك سيتراجع بهدى التجربة والغريزة الإلهية - التي لن نسمح لأحد بأن يشككنا فيها ، ولما حدث شيء - أي شيء للحمامة المذعورة : تلك التي تعرف حكايتها .

أنا وهى .. وزهور العالم

كنا بالحديقة – أنا وهى ، وكنت طامعاً فى علاقة تربطنى بها : أية علاقة .

وكان بالحديقة شجر مورق ، وحشائش خضراء ، وطير بأجنحة ، وعين ماء – أراها مرة ياقوتة ومرة زمردة .

إنه الربيع : وتلك شمسه اللينة تنفذ من بين أفرع الشجر بشعاع كأنه الفضة النقية – وقد رمت فوق الحشائش : الضوء واللون والظل والشكل .

كان للشجر رائحة ، وللأرض رائحة ، وللحشائش رائحة ، ولشعرها رائحة ، ولفمى رائحة .

هو الربيع ، وتلك طيور الربيع عند عين الماء تطلب الماء ، وتغتسل وتنفض عن ريشها الماء ، وتتمرغ بالحشائش وتنط وترف فى الجو بأجنحة وتصوصو وتحتمى بأفرع الشجر .

– أحب الموت وكلما أجدنى على حافته أحب الحياة .

– أود لو أمتلك زهرة سوداء .

– ثمة زهور سوداء بالعالم .. ثمة زهور سوداء .

* * *

بالحديقة كنا – أنا وهى ، وكنت طامعاً فى علاقة تربطنى بها : أية علاقة .

كان بالحديقة شجر سقط ورقه وحشائش يابسة وكل الطيور ، وكانت الشمس طالعة ، وعين الماء قل فيها الماء وغطاها الورق اليابس والكلس ، إنه الخريف .

– أحب الحياة ، وكلما أجدنى فيها أعرف أنها الموت ..

– أود لو أمتلك زهرة بيضاء ..

– ثمة زهور بيضاء بالعالم .. ثمة زهور بيضاء .

الرقصة المباحة

إهـــــداء

إلى إدوار الخراط وعبد الفتاح الجمل وغالب هلسا

وإلى مديحة محمد إبراهيم : أم ابنتيَّ « أسماء وهالة » .

عقدى مُفصل - بينْ كل لؤلؤتينْ خرزة

أغنية العاشق إيليا

(إلى صاحب القلب الأبيض والعقل الأبيض)

كان العاشق إيليا يسير بلا هدف - على غير عادته في مثل هذا الوقت المبكر من بعد غروب شمس هذا اليوم الحار . وكان العاشق إيليا حزيناً لأن سامية - الفتاة التي يحبها العاشق إيليا - لا تسير بجانبه الآن .

* * *

كان العاشق إيليا مازال يسير بلا هدف في الشارع الذي تقع على جانبيه أغلب دور السينما بالمدينة ، وقد استقرت يده اليمنى المضمومة بجيب بنطلونه الأيمن واستقرت يده اليسرى المضمومة بجيب بنطلونه الأيسر - بينما الراديو الصغير بجيب قميصه المقلم بخطوط بيضاء وخطوط سوداء يرسل أغنية مهداة لفريق الإسماعيلية الذي فاز أخيراً ببطولة الأندية الأفريقية . وكان إيليا يفكر في سامية ويشعر بأنه أكثر أبناء الله ألماً على الأرض ، وما كان إيليا ليرحم نفسه لو لم يشعر بهذا الشعور ولرمى نفسه بخيانة سامية محبوبته التي لا تسير بجانبه الآن .

* * *

الكثرة من الناس - التي تسير مع إيليا في نفس الشارع - تجعل الشارع مزدحماً . بعض الناس خرج تواً من دار سينما انتهت حفلتها في السادسة وبعض الناس كان سيدخل دار سينما ابتداء حفلتها من السادسة ، وهناك الواقفون أمام واجهات المحلات المضيئة والمصنوعة من الزجاج يتأملون الأشياء تحت الضوء من أحذية حريمي ورجالي وأولاد وشنط أيضاً وزجاجات عطر وساعات وخواتم وولاعات وراديوهات وتليفزيونات متعددة الأحجام والماركات وثلاجات بشتى المقاسات وملابس خارجية وداخلية للجنسين ولكل الأعمار ولكل الأذواق ، بعض الناس كان يقف ليتفرج ، وبعض الناس كان يدخل ويشتري ، وكان للمحلات أسماء « ميكي وريفولي وستار والهبي هوم والسلفر شوز » .

* * *

كان كل ما يستطيع أن يصنعه العاشق إيليا – حيث أنه يسير بمفرده ولا تسير معه سامية محبوبته المفضلة الموجودة الآن مع أسرتها بالصعيد ، أن ينقل عينيه ويقرأ أسماء المحلات ويتأمل صنوف الملصقات والإعلانات على الحوائط وأعمدة النور ، وأن يسأل نفسه « ماذا أفعل ؟ » وأن يسأل الأب المقدس « ماذا أفعل ؟ » وأن يسأل الأم المقدسة « ماذا أفعل ؟ » .

* * *

توقف أمام صورة فدائي يحمل بندقية ، وصورة رجل فرنسي يلبس معطفاً ويسمى بالغامض ويعرض فيلمه لرابع أسبوع بدار سينما رمسيس ، ولرابع أسبوع أيضاً بسينما ميامى .. كانت الفتاة الملقبة بسندريلا الشاشة العربية تلبس « مايوهاً » ، ترك ظهرها عارياً وهى نائمة تحت شمسية على البلاج وأمامها البحر له زبد ، وكان طفل نظيف يشرب حليب « أسترا » من زجاجة بها « بزازة » وهو يبتسم ، وكانت الفتاة ممزقة الثوب وحولها صحراء وخيمة مزقتها الرياح وسلك شائك .

* * *

حاول إيليا البكاء وكان راغباً فيه ولكنه فشل ، وكانت ألياف برتقالة قد اختبأت بين أسنانه تسبب له ضيقاً ، ظل يبحث عنها بلسانه حتى عثر عليها أخيراً ، قذفها مع البصقة فى الهواء وهو يحس براحة من تخلص من هم صغير . وعاودته ذكرى حبيبته سامية فاغتم ، وبرق خاطر نفذه فى الحال ، استدعى صورة مدير بريد العتبة رئيس والد سامية فى العمل والذى أمر بنقل والد سامية إلى مكتب بريد صغير بمدينة صغيرة بالصعيد ، ، بصق إيليا مرة ثانية ، ، كان الرجل سميناً حليق الذقن والشارب له بطن منتفخة تحت جاكتة سوداء وله رأس مستدير وعنق غليظ وعربة خاصة ووجه صامت مصنوع من الشمع ، وكان إيليا يرفع يده ويشير بالسبابة وهو يشرح الأمر ، كان مرتبكاً فى البداية ثم استقام لسانه وخرج الكلام من فمه سهلاً وقد أيقن من عدالة قضيته ، وكان الوجه المصنوع من الشمع صامتاً فثار إيليا وشتم وبصق للمرة الثالثة .

* * *

تلك هى المرة الأولى التى شعر فيها العاشق إيليا – وهو تحت الضوء فى الزحام – أنه الوحيد ، وفوق واجهات الحوانيت كانت الإعلانات الملونة تنطفئ وتضئ لتدهش أبناء الريف والمدن الصغيرة، لو كانت سامية مع إيليا لبحثا عن الوجوه المندهشة ولنظر إحدهما للآخر وابتسما ، فتلك واحدة فقط من ألعابهما الكثيرة التى تجلب السرور لقلبيهما العاشقين ، ولكن سامية الآن مع أسرتها بالصعيد البعيد حيث ينام الرجل الصعيدى وبندقيته وزوجته وأولاده والحمل والبقرة والكلب والحمار

فى حجرة واحدة ، وحيث تسلك الذئاب والثعالب تلك الدروب الضيقة على المارة ، وحيث يتعذر عليك أيها الغريب أن تميز الآدمى من الوحش والناس والأشياء ، وإيليا تحت الضوء الآن ، وإيليا وحيد ، وإيليا حزين .

* * *

عن يمين إيليا العاشق - هناك على الطوار الأيسر - كانت فوانيس الشارع مضيئة ، أما فوانيس الطوار الأيمن - حيث يسير العاشق إيليا - فمطفأة ، لأن ذلك يتفق وظروف الحرب التى تعيشها المدينة الكبيرة وخلفها المدن الصغيرة ثم القرى القريبة والنائية ضد عدو خسيس لا يتورع عن قتل الأهالى غير العسكريين - بل يقتلهم بالفعل ، لكن الشارع رغم ذلك كان يعيش حياته بالطريقة التى اعتادها وبنفس الطريقة التى مازال يألفها منذ آلاف السنين . وكان الراديو القابع بجيب قميص إيليا المقلم بخطوط بيضاء وخطوط سوداء سريع التقلب - فها هو الرجل الذى يغنى قد توقف وها هو رجل يتكلم :

« قالت وكالات الأنباء الغربية المعادية لنا والتى تساند العدو وتشجعه على العدوان المستمر على مواقعنا العسكرية والاقتصادية والمدنية - فى شبه اعتراف كما قالت الصحف العربية والإذاعات العربية - إن الطريقة العادية التى تسير بها الحياة فى الشارع المصرى تعتبر أقوى أنواع التحدى والصمود أمام غارات إسرائيل التى لن تحصل بالقطع على النصر السهل .. نعم لم تحدث الغارات الإسرائيلية التأثير النفسى المطلوب وفشل مخطط إسرائيل فى إسقاط نظام الحكم المصرى » .

* * *

ها هم الناس عن يمين إيليا وعن شمال إيليا وأمام إيليا وخلف إيليا - رغم العدو - يشكلون الطوابير ويتوقفون أمام باعة المثلجات ويطفئون الحر داخل صدورهم بزجاجات الكوكاكولا والبيبسى كولا والسيكو ليمون والسيكو برتقال والسيكو فراولة وغير ذلك من صنوف المثلجات - ماعدا البيرة فهى تشرب من محلات لها واجهات من زجاج نظيف تضاء من الداخل ، وأصحاب تلك المحلات حصلوا من الحكومة على تراخيص خاصة بمقتضاها يقدمون لرواد محلاتهم المشروبات الروحية ، ويتعرضون لعقاب قانونى هو الغرامة المالية أولاً ثم إغلاق المحل فيما لو تكرر وسمح أحدهم لصغار السن بتناول أى مشروب روحى .

هذه الأمور كانت تقلق بال العاشق إيليا فيما قبل ، فحجمه وطوله وملامحه الصغيرة لا تتناسب مع سنه التى تقول إنه بلغ مبلغ الرجال منذ شهر ونصف شهر ، نعم كان إيليا يتخلص

من المأزق تلو المأزق بأن يبرز بطاقته الشخصية فى الوقت الملائم ليفصح عن سنه وهويته كموظف له راتب أول كل شهر جدير باحترام الآخرين ، ولو لم يكن إيليا كبير عائلته ووحيدها وعائلها لكان الآن جندياً يحيا حياة الجنود الخشنة ..

وتعرف سامية ذلك من خطاباته التى ستنقطع ، وتبكى سامية وتردد « الحب أقوى من الموت– الحب أقوى من الموت » .. ثم يأتى النسيان وذلك ما لابد أن يكون فى يوم من الأيام ..

وهكذا أيضاً كانت تصورات إيليا تجبره على أن يعود حزيناً من جديد .

* * *

لم يكن العاشق إيليا يعتقد أنه سيفكر فى أى من تلك الأمور الآن كأن يكون إيليا طفلاً أو أن يكون إيليا رجلاً ، كان إيليا يدرك نفسه القلقة ويبحث فيها الاطمئنان ببطاقته الشخصية ، ولكن بماذا يدرك إيليا نفسه أمام الألم ، هل هو طفل أو هو رجل ؟ ، وإن كان بالأمس قد شاهد – بشغف من يهمه الأمر – الرقيب السينمائى وقد ظهر أخيراً على شاشة التليفزيون وكان شاباً يلبس بذلة سوداء وكرافتة تسقط بميل على صدره .

(قال الرقيب : الحكمة التى تجعلنا نكتب على بعض الأفلام للكبار فقط هو أننا نريد حماية صغار السن من أفلام الرعب والجريمة والجنس ، وقال مرافقه وكان عالماً من علماء النفس وكان يكلم مقدمة البرنامج ذات الأسنان الجميلة البيضاء والابتسامة الحلوة : الصغير صغير القلب والعقل لا يحتمل ما يحتمله الكبار ، وقال الأستاذ الثالث الذى كان موجوداً وقدمته المقدمة للرقيب وابتسم الرقيب وقال إنه يعرفه ، وابتسمت المقدمة ولمعت أسنانها البيضاء وتوجهت بكلامها للمشاهدين وقدمت الأستاذ الثالث ، قال إنه درس علم الاجتماع بأكبر الجامعات الأمريكية وقالت إنه عائد بالأمس فقط من بعثة استمرت ستة أعوام ، وقاطعها عالم الاجتماع مصححاً « خمسة أعوام فقط » ، وابتسمت المقدمة وضحك الكل بصوت مرتفع ، وتكلم عالم الاجتماع مع من حوله ثم توجه إلى المساعدين فى لقطة كبيرة : الصغار كالقردة يحبون التقليد ومن السهل أن ينحرفوا نحو الجريمة ولابد من حمايتهم وحماية المجتمع ، وهذا ما يفعله القانون وهذا ما يجعل المشرعين يسنون القوانين ولذا يجب معاقبة من يخالف القانون بعقوبة كافية ، ووافق الجميع وانتهى البرنامج » .

كان ذلك أول أمس وليس أمس كما اعتقد إيليا ، وكان إيليا فى بيت عمته بعد أن فرغ من توديع سامية العزيزة التى هى بالصعيد الآن مع والدها موظف البريد ، الذى نقل لأنه ساخن

الطبع، ولم يكن على وفاق مع رئيسه مدير مكتب بريد العتبة ، وهذا ما يجعل العاشق إيليا وحيداً وحزيناً تحت الضوء وفي الزحام ، وهذا ما يجعل إيليا يسير في الشارع بلا هدف .

* * *

كانت أغلبية من الشباب صغار السن تقف أمام دور السينما التي من الدرجة الثانية ، والتي تتجاوز عن شرط السن بنصف قرش يعطيه الولد الصغير السن للرجل الواقف أمام باب السينما فيدخل فيلمًا للكبار فقط ، قال العاشق إيليا مكلمًا نفسه وهو يبتسم : كل القائمين على أبواب «السينمات» هكذا .. حتى « سينمات الدرجة الأولى هكذا تتغاضى عن الصغار الداخلين مع أسرهم « أفلامًا للكبار فقط » .. وبالتحديد تلك الأسر ذات المقام تلك التي تجلس على مقاعد « أ » الممتازة ، وقال العاشق إيليا لنفسه وهو مقطب : لو كانت البنت سامية معي الآن لدخلنا فيلماً للكبار فقط .. ولاحتفلنا أنا وهي بانتصار جيلنا على الرقيب ولدخلنا محلاً له واجهات زجاجية وشربت أنا البيرة وشربت سامية الليمون أو الآيس كريم وربما بيرة لو أحبت ، وقال إيليا : نعم سأصرف الجنيه الذي في جيبي وكذلك العشرة قروش الورقية وأصير مفلساً وأكون سعيداً .. ولكن سامية لا توجد معي الآن وهي هناك بالصعيد مع أب ساخن الطبع ورجال ملثمين يحملون البنادق .. سامية بمفردها تواجه الوحش ، وتنهد إيليا : مسكينة أنت يا حبيبتي سامية ، وعاد إيليا العاشق حزيناً ووحيداً من جديد .

* * *

كان الشبان يلبسون قمصاناً إما بنصف كم وإما بكم كامل وإما بأكمام « مشمرة » ، وكان من المألوف أن يسود الشباب إحساس عام بذلك الحر المألوف في مثل هذا الشهر من السنة ، أعفوا أنفسهم جميعًا من غلق الزرار العلوي لقمصانهم ، ظهرت صدورهم العارية الطليقة يعلوها أحياناً شعر وأحياناً زغب وغالباً ما كانت الصدور ملساء ، وكان الضوء الكثير يسقط على الصدور ويجعل جلدها يلمع ، ورأى إيليا الصدر الأسود كالرخام والصدر الأسمر الداكن كركوة القهوة والصدر الأسمر فقط والأسمر الفاقع والأشقر والشديد الصفرة والأصفر فقط ، ومن بعض الصدور تتدلى السلاسل وتنتهي بمصحف أو صليب من الفضة أو البرونز أو النحاس أو الذهب الحقيقي أو الذهب المخادع ، ومن بعض المحلات كانت الأغاني العاطفية تصل لأذن العاشق إيليا من جرامفونات أو ركوردرات أو من الراديو وتذكرة بسامية الغالية ، وبين الحين والحين كان الراديو الترانزستور القابع بجيب إيليا يقطع إرساله العادي ويتلو بياناً عسكرياً ، وكان العاشق إيليا يرى أن ذلك يتناسب مع ميلو دراما

الحياة ويتمشى مع جلال موقفه الحزين ، لذا سمع العاشق إيليا أقرب تعليق عسكرى بصورة تجعل كل من يراه على أهبة الاستعداد بأن يشهد : أن العاشق إيليا مهتم بالسياسة لأقصى حد .

* * *

ولكن هل حقاً أكل الوحش سامية ! .. سأل العاشق إيليا نفسه بلهفة جعلت قلبه يدق بسرعة أكثر من المعتاد ، وقال إيليا إنه لا يصدق تلك الخرافة ولكنه بهذه الوسيلة يخوف نفسه ويحصل على الألم اللذيذ ، إيليا يفضل سامية على بقية بنات العالم لأنها الوحيدة دون بنات العالم التى تحب إيليا بشعره الأفريقى الأجعد الأسود الكثيف الخشن .. سامية تحب إيليا دون سائر المخلوقات التى تسعى فوق كوكب الأرض .. وإيليا لا يريد من العالم سوى سامية .. ومن اليوم سيعيش إيليا على ذكرى سامية مخلصاً لها وإلى الأبد – كما تعاهدا .

« جرح كل منهما إصبعه ، بالدم رسم إيليا قلبه يخترقه سهم وكتب اسمه واسم سامية على الورقة وأعطى الورقة لسامية ، وكذلك فعلت سامية جرحت إصبعها ورسمت على الورقة قلباً يخترقه سهم وبدمها كتبت اسم إيليا واسمها وأهدت الورقة لإيليا » .

سيحتفظ إيليا بالورقة إلى الأبد فسامية جعلت إيليا يحس بأنه سعيد فى اللحظات السعيدة التى قضاها معها فوق حشائش الحدائق العامة أو متجاورين بدار سينما مظلمة أو على كورنيش النيل « كان إيليا يتحرك بخفة ورشاقة كالروح ، وكان يحس بالسعادة أحياناً وهو واقف وأحياناً وهو جالس وأحياناً وهو يسير وأحياناً وهو يشاهد مباراة كرة القدم ، سامية حلوة متوسطة الطول سمراء بخديها حمرة خفيفة وغمازتان ، سامية ليست قصيرة وليست سمينة وشعرها الأسود الناعم اللامع يصلح ضفيرتين طويلتين ، إلا أن وجهها يصبح صغيراً وتتضح الظلال الزرقاء تحت جفونها العلوية والسفلية وتبرق من عينيها السوداوين لمعة حزينة ، وحين تجمع سامية شعرها وتصنع منه كحكة يرى إيليا الكحكة ويرى أن ذلك لا يناسبها ، ومتى رمت سامية شعرها خصلتين من أمام وأخلته سائباً من الخلف وعقصته يرى إيليا ذلك الفرس ويعود وجه سامية كما كان ، يتمنى إيليا لو يصدق دق قلبه السريع فتلك عادة تسبق اللقاء وتصبح سامية فى مواجهته كما يحبها أن تكون : بحذاء واطئ كأحذية الصبيان وبدون جورب على ساقها وجيب فوق الركبة أو ميني جيب أو ميكروجيب أو بنطلون ، يمسكها من يدها ويطيران فوق الرؤوس كما تفعل الملائكة فى الصور والرسوم ، ويشربان البيرة بالجنيه والعشرة قروش الورقية » .

سامية ثالث فتاة يحبها العاشق إيليا ، الأولى كان اسمها هدى وكانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بالمدرسة الإعدادية ، والثانية كان اسمها آمال وكانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بنفس المدرسة الإعدادية ، وأخيراً سامية التى كانت صديقة لهدى أخت العاشق إيليا وزميلتها بنفس المدرسة الإعدادية ، وسامية لازالت بالمدرسة حتى الآن لأنها تحب التعليم ووالدها قادر على مصاريف التعليم ، أما هدى فتعمل الآن بمصنع نسيج مع هدى أخت العاشق إيليا، وقال العاشق إيليا مكلماً نفسه : لابد وأن البنت هدى أختى تحب شاباً من الحى أو زميلاً لها بالمصنع وربما كان طالباً مازال ، ولكن هدى ماكرة وقادرة على إخفاء أمورها الخاصة ، ولام العاشق إيليا أخته وقال إنها لا تثق فيه هو الذى يعرف معنى الحب ، وقال إنه كان مخطئاً حين باح لها بعلاقاته بحبيباته الثلاث ، وقال إنه غير مخطئ وقال إنه مخطئ وقال أخيراً إنه غير مخطئ ، قال : هدى تخاف من أمها التى عملت خياطة بعد وفاة زوجها والد هدى وإيليا حتى خف بصرها ، كل ذلك فعلته أمه من أجل هدى وأجل إيليا . ورفضت أزواجًا كثيرين كى لا يكون مصيرهما الشارع والبهدلة من زوج الأم لذلك فهى قاسية أحياناً على هدى لأن هدى بنت ولكنها تحب هدى وإيليا . وإيليا يختلف مع أمه أحياناً ويوافقها أحياناً ويحبها دائماً ، ويحب سامية أكثر من هدى حبيبته الأولى وآمال حبيبته الثانية ، وقبض إيليا على الصليب البرونزى المعلق على صدره الذى أهدته له سامية وقال لنفسه : لو طلب منى أحدهم أن أقايضه بهذا الصليب على صليب من الفضة الخالصة لرفضت وحتى ولو كان صليبه من الذهب عيار ٢٤ لرفضت .. نعم هذا الصليب رمز كبير لحبنا الكبير أنا وسامية ، وحين تنبه إيليا أنه نطق اسم سامية – البعيدة عنه الآن – عاوده الحزن والشعور بالوحدة من جديد .

* * *

كان العاشق إيليا قد بلغ نهاية الشارع الذى على جانبيه أغلب دور السينما بالمدينة وقال لنفسه: من العدل أن ينقل والد سامية من عمله بالمركز الرئيسى بالعتبة إلى مكتب فرعى بأقاصى الصعيد لأنه ساخن الطبع وليس على ود مع رئيسه ولكن سامية مظلومة .. سامية المسكينة ما ذنبها !! ، ومشى إيليا فى شارع جانبى قليل الأهمية وإن كان على ناصيته بنك أهلى حوله كشافات تضئ بقوة كضوء الشمس ، كان إيليا يسير ويفكر وكان الضوء يخفت بالتدريج ، وقال إيليا منذ سافرت سامية وأنا لم أنظر لفتاة غير سامية .. آه لو تعلمين أيتها الشيطانة سامية مقدار حبى لك مقدار إخلاصى لك ، عند منتصف الشارع عرج إيليا وسلك درباً قليل الشأن أيضاً وشعر إيليا بشراسة الظل وحاول أن يتذكر اسم الدرب وفشل ، وقال إيليا : أنا متأكد الآن من أننى صاحب ضمير .. لم

أنظر لفتاة بعد سفر سامية .. وبعد ما أنهيت علاقتى بهدى لم أكن أرتاح للون عينيها الزرقاوين .. أما البنت آمال فحين واتتها الفرصة وتعرفت على ولد وسيم بوجه أشقر كالخواجة يعمل كومبارساً بالسينما قطعت علاقتها بى وقالت إنها ستصبح ممثلة فى السينما فى يوم من الأيام وتملك عربة حمراء وفيلا على النيل وتسوق العربة وترى الماء الأزرق كل صباح من نافذة يتعلق بها ورد حقيقى، وصرخ إيليا مخلصاً لآمال كأخ : هذا الولد كذاب .. وقالت آمال مؤكدة ومتبرمة : ليس هناك من ولد ولكنها بنفسها دخلت سينما كوزمو وشاهدت الفتاة التى كانت تسكن فى حارة فى بداية حياتها وهى تسوق العربة الحمراء وقد صارت ممثلة مشهورة تملك فيلا على النيل لها نافذة يتعلق بها ورد حقيقى ، وصرخ فيها إيليا مخلصاً كأخ وقال هذا شغل سينما ، وقال لنفسه : لقد ضاعت آمال ، وكان قد بلغ نهاية الدرب المسدود فمال ومشى فى الشارع الموصل للأتوبيس ، وكان عمال المجارى هناك يصلحون المجارى وقد علقوا فانوساً دهنوا زجاجه باللون الأحمر ، لاحت زجاجة الفانوس لعينى إيليا بقعاً حمراء شاحبة وبدا له أن هذا أمر طبيعى من فانوس صغير يتغذى فتيله المشتعل بزيت البترول الوسخ ، كان الفانوس مثبتاً على حامل خشبى يغلق الشارع من منتصفه ، على الحامل كان هناك كتابة باللون الأحمر تحذر من الخطر ، ولم يكن عبور المشاة ممنوعاً فلم يعترض واحد من الواقفين طريق إيليا حتى العسكرى الذى كان موجوداً يشرب الشاى من كوز من الصفيح لم ينظر لإيليا ليسأله عن بطاقته ووجهته وما إلى ذلك فى مثل هذا الوقت المتأخر ، كان العسكرى مشغولاً بالحديث مع عمال المجارى ، وميز إيليا من لهجة عمال المجارى أنهم خليط من صعايدة وأولاد ريف بحرى وأولاد نفس المدينة التى يعيش فيها إيليا وكانت سامية تعيش معه فيها وكانا سعيدين مع سائر صنوف البشر من صعايدة وعمال مجارى ورجال شرطة ومسلمين وأقباط وأغنياء وفقراء وأولاد عرب وأجانب .. مدينة كبيرة بها التاكسى والعربة الملاكى والعربة الكارو والترومای والتروللى والأتوبيس والبسكليت ، وقال إيليا وهو يسير إن القاهرة رمز لمصر كلها ، وفكر إيليا العاشق فى البغل والحمار والحصان من حيث يرمز كل منهم للغباء ، كان إيليا مندهشاً ومتعجباً كيف لا تسقط تلك الحيوانات الغبية التعيسة التى لا تقرأ فى الحفر والمجارى العديدة التى يجرى إصلاحها من جانب عمال المجارى ، وإيليا رأى بغالاً وحميراً وخيولاً واقعة على الأرض وكان ذلك إمّا لأن الأرض زلقة موحلة مثلاً وإما لأن الحمولة التى تجرها الحيوانات الغبية التعيسة والتى لا تقرأ ثقيلة .

* * *

عاد إيليا العاشق يفكر فى حبيبته سامية من جديد وحين تصور نفسه وقد سقط فى حفرة يجرى إصـلاحها من جانب عمال المجارى تخيل سـامية وهى تضحك من منظـره ، وقال إيليـا إن الخجـل فى الموقف ربما يدفعه إلى الجـرى ولا يعود يرى وجه سامية إلا بعد مدة طويلة وربما لا يراها بالمرة ويبحث عن فتاة أخرى بمعاونة أخته هدى ، لهذا السبب طرد العاشق إيليا هذا الخاطر الخبيث وقال إنه من ذلك النوع من الناس الذى يخاف الشك ويخاف اليقين ، وشم رائحة فم سامية فى الهواء المحيط ، وقال إيليا إنـه يكره رائحة الجوع وإن لكل فم رائحة ، وتخف رائحـة الفم حين يأكل الإنسان ، وقال إنه يحب رائحة فم سامية وسامية من أجله لا تأكل البيض ومن أجل سامية يمضغ هو اللبان قبل اللقاء ، وقال يوم يكون لى مرتب طيب سأتزوج من سامية وسيقبل والدها ذلك وكذلك أم سامية وأمـى ستقبل أيضاً لأن هدى ستكون قد تزوجت وأمى قادرة على إعالة نفسها من عملها كخياطة وأمى لا يهمها غير سعادتى وسعادة هدى ، وجرى إيليا نحو الأتوبيس القادم والذى كان مزدحماً لأن الكل الآن فى وقت من اللازم للإنسان منهم أن يقضيه فى بيته – حتى ولو كان عاشقاً مثل إيليا .

الحكاية المثال

- ١ -

يحكى أن فطناً من زماننا - وكان فقيراً أقرع بغير سكن - اختار صحبة الأموات : فهناك يقتات من خبز الصدقات ، وهناك مسكنه - طال عمره أم قصر .

ولمّا وجد الفقير الأقرع كل المقابر المسقوفة مشغولة بالأحياء ، طرد الكلب الضال الأجرب ، واحتل مكانه : حفرة بعيدة ضيقة لمّت عظام ميت .

- الميّت قليل الشأن لا ريب -

قالها ، وكشح التراب الملوث بعلّة الكلب خارج الحفرة ، وكذا عظام الميت النكرة - بينما الكلب الضال ينبح ولا يقدم على الفعل .

شرّق الفقير بعقله الفطن وغرّب :

الناس مراتب ، والحيوان مراتب ، والقبور مراتب ، والأحياء فى بطن القبور مراتب - فهل تبقى المراتب بعد الممات يا نكرة ؟ خبرنى يا من عرفت مرتبتك بين الموتى ؟

إنسـان وحيـوان ، رجل وكلب ، أقرع وجرب ، ضـال أعجمي وضال بعقلٍ ، فما قيمة العقل يا أجرب ؟ ، وأنت هل عندك الجواب يا أقرع ؟

ما الذى أضناهما وعذبهما وسهدهما وأقامهما وأقعدهما فى الدنيا ؟

كيال الدنيا يكيل بمكيالين ؟ لماذا ؟ لا سلِم ولا دام عيشه .

وصرّ الفقير الأقرع الفطن ما اهتدى إليه ودسه فى ركن قصى من واعيته ، حتى لا يتهم - هو العارف بزمانه العسكرى - بالكفر أو الشغب ، وتوسد ذراعيه ورقد داخل حفرة القبر - وكان الكلب الأجرب الضال قد سبقه ورقد فوق كوم التراب والعظم خارج الحفرة .

رأى الأقرع يبول ويشرب بوله ، ورأى الأقرع يتخلص من حاجته ويأكلها ، فهب الأقرع من نومه هلوعاً ببدن بارد والأيام قلب الصيف .

قال : الخير في العتمة .. والله ستار .. وعصيان العبد عقوبته السجن أو الإعدام ، وانهمك في الفعل – وما أن تخلص من ذلك الذى اهتدى إليه ومحاه من واعيته حتى أحس بالأمن والأمان وراحة السلام وريح السلام الرخاء وطعم السلام الحلو .

ومدّ يديه – برفق وحب – وحمل الكلب الأجرب بين ذراعيه وأنزله إلى الحفرة واحتضنه ، وناما بواعية بيضاء لا تعرف الحقد ولا الفروق ولا تطالب بميزات ، وما فتحا العيون إلا مع إشراقة شمس النهار .

– ٢ –

اليوم رحمة ..

ويوم الرحمة يوم للجميع – الموتى والأحياء ، فالموتى يرحمون بصدقة من حى قادر لحى محتاج ، الأموات (بسم الله الرحمن الرحيم) ببطن القبور : أبناء وأزواج وأمهات وآباء وجدود وجدات لا يشكون من جوع أو عطش ، والأطفال (والحمد لله رب العالمين) لا يصرخون على لعبة أو ثدى ، والأحياء (قل أعوذ برب الناس) فوق القبور مشتبكون بالصوت : حسنة قليلة تمنع بلوى كبيرة .. يا غالى ليتنى أنا .. بيب بيب .. يا زينة الشباب .. بيب .. أعمى وكسيح .. (ألم نشرح لك صدرك) .. أنا لا أطلب مكرمة من أم عجرمة .. لله يا محسنين .. بيب بيب .. فتّنى للهوان يارجلى .. بيب .. (ألف لام ميم ذلك الكتاب لا ريب فيه) .

والأحياء : قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق .

نسوة : باكيات ومولولات ونائحات ولاطمات خدود .

ورجال : فى الحزن أجلد وفى مقام الرغبة أصرح .

وامرأة : فى كل أحوالها – بخصر وثديين ورموش وكفل وفرج .

وبائع مزامير : غريب ، جاء من مكان بعيد ، بيدٍ وجيب ومزمار وفم وقلب ، زمّر للأشواق والتلامس والتماحك وللمواعيد ولقاء العيون وللصد بالوجه والقبول بالقفا (فيوم الرحمة يوم الذكور والإناث) .

وصغار : منقسمون – جماعة فرحة تنفخ فى المزامير ، وجماعة فرحة تتطلع إلى النافخين فى المزامير ، وجماعة سعيدة تحجل ، وجماعة سعيدة تصفق ، وقلة سعيدة تنفض التراب عن الحذاء الجديد وتبتعد عن مواطن الزحام كى لا يتلوث الثوب الجديد ، وقراء قرآن ومتسولة أصحاب عاهات وحراس مقابر – فى يوم مشهود : لأن أيام العام طويلة وممدودة وأيام الرحمة قليلة معدودة .

وفقير فطن لم يقبع بحفرة - بانتظار أهل ميت نكرة لا خير فيهم ولا خير عندهم - بل جال بالمقابر وعرض عاهته حتى غاب الشفق وحلت العتمة ، فعاد إلى حفرته وقد نال من حسنات المحسنين : ما يملأ كفيه مرتين تمراً وستة قروش وكعكتين بالسمن والسمسم والسكر واللبن وأربع كعكات بسكر ولبن .. وعشرة كعكات بالكُركم ولا سمن فيها ولا سكر ولا لبن .

- ٣ -

مكث بالحفرة يومين وبعض يوم - حتى فرغ زاده فقصد جاره ساكن أقرب قبر ، وبعد السلام تم التعارف ودار الكلام وفهم الفقير الفطن : أن القبور كالبيوت تُدخل من أبوابها وأن الرأس الكبير اسمه الباشا لأنه يسكن قبر الباشا وهو الناطق بالكلمة الأولى وصاحب الكلمة الثانية وهو اليد القابضة واليد المبسوطة ، وأرتاح فؤاده لما علم أن الجميع يرحبون بوجوده بينهم - فتشجع وطلب من جاره طعاماً لكن الجار اعتذر بلغة لا تحرج . قال : « أنا صاحب مرض أقوم بعمل هين وجهدى محدود والأجر هنا بقدر العمل .. اذهب إلى الباشا واطلب العمل تجده .. كل شيء عندنا يا أقرع محسوب ، لا حاسد ولا محسود .. والعمل قسمة بيننا .. والنظام مطلب مطلوب وهو والحمد لله موجود ، فلا تخاف ولا تحزن وتوكل على الله وخذ بعضك وتوجه إلى الباشا تجد خلاصك وتعرف رِجلك من رأسك .

- ٤ -

فى قبر كأنه القصر - بل هو القصر : به المكيف والثلاجة والتليفزيون والراديو .. أرضه مفروشة وسقفه مدهون - يقعد الباشا على كرسيه وسط صحبه وخدمه عزيز الأهل والنفس بوجه مبتسم وبدن عفى يلفه الحرير المنقوش ، قال الباشا : أهلاً بك يا أقرع : أهلاً بك يا باشا . قال الباشا : البصير قرأ كتابك .. فنحن نحتاط ولا نخاف .. انظر يا أقرع ، وأدار الباشا قرص دولابه فأنار وجه الدولاب وتحركت فوقه الصور . ورأى الأقرع : الأقرع هو يبول .. وهو ينتف ما تحت إبطيه ويكوره ويرمى به الكلب الأجرب ممازحاً .. وها هو الأقرع يجاهد ليخرج الريح السامة من فتحته . أوقف الباشا تتابع الصور - وقال : خير الكلام القصير .. لم تكن عيناً للنهاب - فلا تكن .. عد إلى حفرتك وكن الوحش يحرس صيده .. الصيف هين والشتاء ستغلبه بلبس الوبر .. وإن جاء المطر فسقف جارك الذى يحرسك وتحرسه - يحميك .. كن العين والأذن ، ولا تكن اللسان ولا تسأل وتجلد على السهر بالأفيون ، وطعامك سيأتيك فى المواقيت .. وكل رغائبك مجابة .. العمل يا أقرع العمل .. انصرف يا خازن ..

- ٥ -

نعم . هو خازن قاعد على حفرة ظاهرها التراب والعظم ، وباطنها الحشيش والأفيون والكوكايين والهيروين وإبرة الماكس وبرشامة الهلواس .

- ٦ -

الخازن الأقرع - الذى طرد الكلب الأجرب وتنكر لصحبته - يبدن عفىّ وعقل فطن عفىّ ، وهو فى وحدته وسهره وصمته ويفضل مصّه للأفيون (قمر بدر) مُلمّ بما يخفيه الحكام فى جرارهم:

* الحشاش العسكرى يقبض على الأمور بيد من حديد تضرب بالحديد وتكوى بالحديد ويشنق بالظن ، ورجال المقابر تحت إمرة الباشا ورجاله .

* والنهاب الذى عاش تحت ظل الحشاش فى أمان - وقد اجتمع له المال وكثر الأعوان وانتشروا كالجراد الحاصد - يجهر بالعصيان ، وقد يتمكن من تراب الأرض ويقعد على تلّها فى القريب .

* والقواد يحيا تحت ظلّ الحشاش ويطن له الولاد فى كل آن ، إلا أنه خبيث الطبع لاعب على الحبلين .

وزن الأقرع الفطن بميزان الصائغ قوة المتعاركين ، وبان له أن كفة النهاب راجحة ، وفى هذا زوال مكانه الرأس الكبير أو قطع الرأس الكبير وحبس الأتباع إلا من أعلن الولاء فى حينه . وتلاعب بالأقرع الفطن عواصف الفكر :

إن أعلنت الولاء للنهاب - بعد فلاحه . نفدت بالروح والجسد ، ولو انتكست فعلة النهاب هانت روحى وتعذب جسدى ، وفى التمهل روية مرذولة من كافة الأطراف ، هل حسدك الزمان يا أقرع أم أن الجبن طعام الخاملين والقانعين والمهانين إلى يوم الدين ؟ ، وفى المغامرة خسارة للقمة مضمونة وبدن برأس أقرع أو كسب لما تحت بدن الأقرع من ثروة ، وقد تفوز بلقب الباشا يا أقرع ذلك الذى يراهن على العسكرى الحشاش - لما تفتدى قومك سكان المقابر .. ومن ثم تفوز بقصره وما حوى من نفيس وتجلس حريمه على حجرك .. والأيام دولة والمال دولة بين الناس ، ومن عز بزّ .. قامر يا أقرع .. قامر .

- ٧ -

الباشا الذى يدس رأسه الأقرع - منذ زمان - تحت عمامة كبيرة من حرير الهند بعد ما يدهنها بمراهم فرنساوية لطيفة الرائحة ذات أثر طيب على قروحه - خلع عمامته وطواها ودسها فى صندوق مطعم بالصدف والعاج ، واحتفظ بها كتذكار لجهاده الشاق ، وتقدم من لابس الحلة حاسر الرأس - ليلبس قلنسوة الحكم ، بعد ذلك عاد واستوى على سرير الحكم محروسًا بالجند ، واستمع إلى لابس الحلة وهو يتلو مراسم التتويج وتعاليم التاج من كتاب :

« يا أقرع بن حابس يا أقرع إنك إن يُصرع أخوك تُصرع »

- ما اليانكى ؟

- بعض الجهال تمكن منهم الظن الفاسد ، اليانكى نظير الموت : كلاهما يسلبك ظلك ، وهذا - والله حق ناقص : فاليانكى بظلٍّ كبير (وما الموت هكذا) واليانكى يحجب بظله الكبير كل ما عداه من ظلال - إلا أن الظلال تبقى ظلالاً فى ظل واحد كبير (وما هكذا يفعل الموت) .

- اليانكى منا وفينا وبنا .

- لماذا كان رجال اليانكى أقوياء ؟

- الممتازون قلة .. أصحاب مال - والمال عافية ، والمنتخبون أهل بصيرة وهم أوفر عدداً من المختارين ، إلا أن المختار هو الذى يقرأ فصيلة الدم المنتخب ، ويصله بدم من نوع دمه حتى يصبح بدن المنتخب (فالعقل السليم فى البدن السليم) .

- فروق أخرى بين المختار والمنتخب ؟

- المختار مختار والمنتخب منتخب - والفروق بينه لكل ذى عينين !! وفى الزيادة إفادة - لا الهراوة بمبة النترون ولا الثلاجة قُلّة .

- وما بين اليانكى ومعاونيه ؟

الكل واحد ، والواحد كل ، وفى البعد عن الصواب صواب ، وفى القرب من الصواب صواب ، والإقدام خير من الخوف ، ومن اغتنم فقد جنى عديد الفوائد ، وإليك تلك الحكاية (المثال) :

« يحكى أن قطناً من زماننا - وكان فقيراً أقرع بغير سكن - اختار صحبة الأموات : فهناك مسكنه وهناك بقتات من خبز الصدقات ، وهناك قد يهتدى للذى أضناه وعذّبه وسهّده وأقعده من أمر تلك الدنيا التى تكيل بمكيالين .. » .

السيد أحمد السيد

- ١ -

البيت حجرتان ، قديم ، بحى شعبى قديم ، وهو ميراث من أب مات وأم ماتت للأختين . الأخت الكبرى تسكن فى حجرة ، والحجرة الأخرى مؤجرة للسيد أحمد السيد .

والبارحة أتت الأخت الصغرى ، وهى عجوز ، لتزور أختها الكبرى ، ولسبب ما لا يعلمه إلا علام الغيوب نشب بين الأختين خلاف .

قالت الأخت الصغرى : « أنت تسكنين فى حجرة وهذا حقك : وحقى هو إيجار الحجرة الأخرى التى يسكنها السيد أحمد السيد » . ردت الأخت الكبرى - وهى كاذبة - إن « السيد أحمد السيد لم يدفع إيجار الشهر الذى فات .. كذا إيجار هذا الشهر » . هنا صرخت الأخت الصغرى قائلة بأنها ستطرد السيد أحمد السيد . فنبهتها الأخت الكبرى إلى أن ذلك غير جائز : « انتظرى حتى يمر شهر ثالث » . (ومن ثم فعلى الشقيقة الصغرى أن ترسل إنذاراً على يد محضر ، ثم يكون حجز ، وبعد ذلك ستصدر المحكمة أمر الطرد) .

- ٢ -

كان السيد أحمد السيد يستمع لكلام الأختين وهو يرتجف : إنه الشتاء وهى السماء تمطر فى الخارج بغير توقف وهو خوف مبهم لازمه من الصبا الباكر ، ثمة حادث سيحدث له فجأة ، سبقه تدبير محكم ، لن يقدر على دفعه مهما حاول - وتحسس السيد أحمد السيد جرحاً بالغًا فوق حاجبه الأيسر .

« كانت ليلة ممطرة كتلك الليلة ، والعتمة سلبت من بصره النور ، يسير بهدى من غريزته التى حفظت مواطن الحفر ومسالك الدروب الضيقة الملتوية ، بقدمين أثقل خطوهما الوحل الذى يفوح برائحة تقلقل معدته وتضغط على قلبه وتهدده بالتوقف ، وفجأة ، صدمه جسم حى ، وسمع صراخ امرأة ، وفجأة : ارتد النور إلى عينيه أصفر كأنها السيوف الصدئة قد تقاطعت ، ليرى ضوء الفوانيس يطل من كوى بالحوائط ومن فتحات البيوت ، ولم يبرح مكانه ، كانوا رجالاً وشباباً ونسوة

يسدون عليه كل منفذ ، ولم يقاوم ، وكان عاجزاً عن الدفاع بلسانه الذى شل فجأة ، ولما أفاق كان جسده يفور كالقدر فوق النار .. وقد عصبوا وجهه بخرقة قديمة ودسوا فى فتحة الجرح البن المصحون ، ولما حاول فتح شفتيه ظنه رب الدار الشيخ يريد الدفاع عن نفسه - فقال : « لقد قالت لنا يا ولدى .. قالت إنك لم تكن تقصدها بفاحشة » ، وسمع السيد أحمد السيد مصمصة شفاه النسوة المشفقات ، وكان راغباً فى النوم ، وفجأة وجد نفسه يبكى بدون توقف) .

رغبته فى الخروج قوية - لكنه المطر والوحل والعتمة ، وهو راغب فى السير بدون توقف فى شوارع خالية من الوحل والعتمة والحراس .. ويكون هناك بار خال حتى من البرمان .. ويظل يشرب ويشرب فجسده عطش للخمر ، لكنه عاد - على غير رغبة منه - يقرأ على ضوء فانوس فى كتاب بونابرت فى مصر ، وكم كانت دهشته بالغة حين وقع بصره على كلمات لصيدلى إيطالى :

« الكل خائف ، لا يدور حديث إلا عن المتاعب والفقر المنتشر والسرقات والقتل ، فليس هناك أمن - لا على الحياة ولا على الأملاك ، إنهم يسفكون دم الإنسان كأنه ثور ، والحراس فى جولاتهم بالليل والنهار يحاكمون ويحكمون وينفذون أحكامهم فوراً دون استئناف ، وهم يسيرون بصحبة الجلادين ، وما إن يصدر الأمر حتى يسقط رأس شيطان مسكين » .

أهى محض صدفة ، أم هو بيد محكمة ، أم أن الأيام تتشابه ، أم أنه ليس أكثر من صيدلى إيطالى يحسن الكلام كالفرنسى بونابرت الذى ادعى « أن أراضى المماليك المصادرة ملك للأمة » ، « ومع ذلك وزعت لإشباع ذلك الإله الشره - ونعنى به مالية الجيش - وهكذا ظل الفلاح فلاحاً » .

هنا توقف السيد أحمد السيد عن القراءة وقد سمع وقع خطوات ، ثبت عينيه فى الشخص الذى دخل الحجرة - ولم يكن له به سابق معرفة ، وأغمض عينيه وصرخ :

« القول الأخير يا سيدى تعقيب لمؤلف كتاب بونابرت فى مصر وليس لى على أية حال .. أما بونابرت يا سيدى فقد قال عن مصر لحكومة الإدارة : « هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التى أخذناها عنها من رحالتنا .. إنها أمة هادئة باسلة معتزة بنفسها » .

- ٣ -

هم السيد أحمد السيد للدفاع عن نفسه أمام تهديد الأخت الصغرى التى قالت إنها ستنهش لحمه ، لكنه لزم الصمت لأن الأخت الكبرى غمزت له بعينها ، وهل هو يتعرج سالماً مع الدروب متأبطاً كتاب بونابرت فى مصر ، قاصداً مقاهى قلب القاهرة فله هناك صحاب ، وبالنهار يقل توقع السيد أحمد السيد للكوارث .

- ٤ -

« ها مقهى .. وها صاحب » .

كان الصاحب متجهماً ، سأله السيد أحمد السيد « خيراً » ، رد الصاحب « أمر عائلى » . مضى السيد أحمد السيد ينقر بأصابعه على الطاولة ، قال الصاحب « هذا ما يقلقنى .. كف أرجوك » . دس السيد أحمد السيد يده فى جيب سرواله ومضى يعبث فى كم من القروش المعدنية ، وثبت بصره على لطخة بسقف المقهى أشبه بسمكة الكابوريا . قام الصاحب ورد السلام مسرعاً . وطلب السيد أحمد السيد من الجرسون الواقف المحملق فيه قهوة على الريحة ، وكلم نفسه :

« سألته بتلهف فأجابنى بفتور .. لقد ضايقته ، ومضى مسرعاً وكأنه يخشى أن ألحق به .. كأنه سليم وكأننى أجرب .. لقد ضايقنى ، وأنا لم أكن بحاجة لفنجان القهوة . لكن كنت أريد إبعاد الجرسون » .

- ٥ -

غاب الجرسون والصاحب المهتم بالسياسة كان صامتاً ، كرر السيد أحمد السيد الطلب على الجرسون ، فزعق الجرسون « قهوة عالريحة » ، قال السيد أحمد السيد يستنفر همة صاحبه على الكلام معه : « ضجة فارغة .. ما هذا .. نجاح نيكسون وهزيمة ماكجفرن وأصوات اليهود .. أى رئيس أمريكى ما هو إلا ممثل يقوم بدور فى لعبة على مسرح السياسة الدولية .

ما هو إلا خادم لرأس المال الأمريكى يا صاحبى .. متى نفهم يا صاحبى أن أمريكا لن تقف معنا نحن العرب ضد إسرائيل حتى فيما لو تولى رئاسة حكومتها ملاك بأجنحة بيضاء .. تلك طبيعة نظام يا صاحبى .. إنه رأس المال يا صاحبى .. إنها أمريكا التى تباعد بينى وبينك يا صاحبى » .

همهم الصاحب وأخرج علبة سجائره وأشعل منها واحدة لنفسه ووضع العلبة فى جيبه وغاب برهة ثم أخرجها وقدم للسيد أحمد السيد سيجارة . وجاء الجرسون بالقهوة ، ورشف السيد أحمد السيد وقال بصوت هامس لصاحبه : « فى مدينة كتلك يموت الإنسان بالأفعال الصغيرة .. لقد طلبت منه قهوة على الريحة .. ومع ذلك فها أنا أشرب قهوة سكر زيادة » . قال الصاحب « لا تهتم » . حدث السيد أحمد السيد نفسه « ما كان يجب أن آخذ منه السيجارة .. ربما بدا منى هذا سلوكًا جارحًا .. لكنه ما كان ليهتم .. كما أنى فشلت فى أن أجعله يبادلنى الحوار برغم أنى قلت كلامًا يوافق هواه

«على أية حال أنا مؤمن بما قلت وهذا يكفيني كعزاء» ، وقال لصاحبه «سأقوم» ، وكذب ليخفي اضطرابه «معي موعد» . قال الصاحب : «أحياناً أجلس هنا .. أنت تعرف» . قال السيد أحمد السيد: «سأدفع ثمن القهوة» رد الصاحب «لا تهتم» .

– ٦ –

« .. هاك مقهى .. وها صاحب » .

قال الصاحب المرح «ليس معي مال» . رد السيد أحمد السيد «لا أريد مالاً» . سأل الصاحب الماكر «ولا حتى أجرة الأتوبيس» . قال السيد أحمد السيد «معي مال معي» ، وصفق وطلب لنفسه قهوة على الريحة ، وسأل صاحبه أن كان يبغي شرب شيء . ضحك الصاحب وقال للجرسون : «قهوة على الريحة لاثنين على حساب البيك» وأشار للسيد أحمد السيد . ودخل المقهى بائع يانصيب أعرج واشترى الصاحب ورقة ، وأتت متسولة تحمل طفلة مشوهة الوجه واليدين والساقين . قال السيد أحمد السيد «أعرفها .. مهاجرة .. وهذا الذي بالطفلة من فعل نابالم العدو الحارق» . قال الصاحب مبتسماً في خبث «إنها تصلح زوجة وأم وأنت تصلح أباً صالحاً لطفلة مسكينة .. وطائرات إسرائيل رمت مدن القنال بكل أنواع القنابل ماعدا قنابل النابالم وسأل الصاحب بخبث «لماذا غاب الجرسون ؟ .. هه .. ازعق عليه .. ازعق فأنا ضيفك» . نادى السيد أحمد السيد الجرسون وكرر الطلب وأخرج من جيبه ثلاث سجائر أعطى للجرسون واحدة وللصاحب واحدة وأشعل لنفسه واحدة. سأله الصاحب «ما حال قلبك ؟» . وجاء الجرسون حاملاً فنجانين من القهوة وكوبين كبيرين من الماء . ورشف السيد أحمد السيد رشفة وقال «تلك قهوة مضبوطة .. لو أضاف الشيطان نصف معلقة سكر بدلاً من ملعقة لشربت أنا قهوة على الريحة» . وكرر الصاحب سؤاله «قلبك كيف حاله» أعني ما أخبار تلك التي لا أحد يعرفها سواك» . وكأن السيد أحمد السيد كان ممثلاً يقف على مسرح يعرض ميلودراما هكذا رآه الصاحب ، وسمعه يصرخ «من المحزن أن يركز المرء كل مشاعره في شخص واحد وفي قلب واحد» . قال الصاحب «لمن هذا القول .. إنه ليس قولك على أية حال» ، أشار السيد لكتاب بونابرت في مصر وقال : «قول لبونابرت في رسالة لأخيه جوزيف» . ضحك الصاحب وقال : «يوسف .. يوسف يا سيد أحمد . قال السيد أحمد «لا تسخر مني يا صاحبي ففي كتاب بونابرت في مصر أقوال صالحة لمثل هذا الزمان .. أقوال تعني الكثير .. فقط لو تسمع وتتفكر .. أرجوك .. لا تحسبني عبيط» . ومضى السيد يقلب صفحات الكتاب ويقرأه :

(يقول المؤلف : « لو ظلت قلوبهم العتيقة كنظمهم لقاتلوا كما قاتل أسلافهم من قبل دون نظر للعواقب ولكن قلوبهم كانت عصرية ») « (ويقول الجنرال كفاريللى ، أنا أزعم أن القوانين التى تقدس الملكية تقدس الاغتصاب والسرقة ») (ويقول بونابرت « إن البحر الذى لم نعد سادة عليه يفصلنا عن أرض الوطن ، ولكن ليس هناك بحر يفصلنا عن أفريقيا وآسيا ، وعندنا من الرجال ما يكفى نواة لجيوشنا ، ونحن لا نعانى نقصاً فى الذخيرة ») (وقال كليبر عن بونابرت « إنه عاجز عن تنظيم أى شىء أو إدارته ، ومع ذلك فما دام يريد أن يفعل كل شىء ، فهو ينظم ويدير ، ومن هنا الفوضى والإسراف فى كل شىء ، ومن هنا حاجتنا لكل شىء ، ومن هنا الفقر الذى نعانيه ») .

فجأة دخل المقهى عدد مهول من الناس ، فهب الصاحب واقفًا كمن لدغته عقرب – قال للسيد « عما قليل سيذيع التليفزيون مباراة اليوم فى كرة القدم . سأشاهد المباراة فى البيت » ، وضحك السيد أحمد وقال : « خذنى معك فتلك فرصتى لأركب أتوبيسًا غير مزدحم » . قال الصاحب بلهجة عاطفية : « لو تركتك لقرأت لى الكتاب بكامله .. ستفقد بصرك فى قراءة الكتب .. صدقنى .. ولكن لماذا لا تكتب ؟ .. هه !! » . أجاب السيد أحمد وهو يلهث خلف صاحبه السريع الخطو « لست موهوباً يا صاحبى .. لست موهوباً » .

– ٧ –

طال بهما الوقوف والأتوبيس لم يصل : وكان الفتى طويل الشعر والسوالف ، وكانت الفتاة قصيرة الشعر تلبس جونلة قصيرة زرقاء وبلوزة بيضاء مشدودة عند العنق برباط أحمر ، قال الولد للبنت « لو ركبنا المترو .. ألم أقل لك .. كان يجب أن نركب المترو » ، ردت البنت على الولد « ونمشى محطتين .. لقد تأخرت وماما تعرف موعد خروجى من المدرسة » . قال الولد للبنت : «نركب ونتمشى المحطتين معًا » قالت البنت بدلال وهى تعبث بسلسلة يتدلى منها مصحف « سيصل الأتوبيس بعد قليل » ، قال الولد الذى أساء فهم البنت « طظ » .. ودق الأرض بكعبيه ومضى ، ورفعت البنت حقيبتها وأخفت ثدييها عن نظر الرجل الغاضب الذى كان يتابع حديثها مع الولد والذى كان يلبس بالطو مرفوع الياقة وعلى جبهته علامة من أثر السجود . ولما لم يغير الرجل موقفه من البنت علاوة على أنه بصق – أسرعت البنت تجرى لتلحق بصاحبها .

لما جاء الأتوبيس تضارب الناس بالمناكب ، وتعذر على السيد أحمد الركوب ، ونظر يمنة ويسرة وأيقن أنه فقد صاحبه وأن الصاحب بلغ غايته ، فولّى وجهه صوب مقهى قريب وكان حسن الحظ فها هو صاحب بديل .

– ٨ –

كان الراديو يذيع مباراة الكرة ، وكان الصاحب مستمعاً بأذنيه قارئاً بعينيه التفاصيل التى تسبق المباراة فى صحيفة « المساء » بملحقها الرياضى ، وكانت بقية الصحيفة ملقاة على كرسى مجاور ،. استأذن السيد صاحبه فى الاطلاع على الجريدة ، رد الصاحب : « خذها .. خذها لك » ، وقد صارت الصحيفة ملكاً للسيد أحمد وجد إعلاناً فقطعه بحرص ، لمحه الصاحب فخطف منه القصاصة وقد ظنها ذات قيمة عينية – لكن خاب قصده فدارى خجله بقراءة الإعلان بصوت مسموع « حفلة ساهرة كبرى لجماعة سيدات مصر بفندق النيل هيلتون بقاعة ألف ليلة وليلة غداً لصالح إقامة دار ضيافة والعشاء يعقبه برنامج ساهر تحييه نخبة من الفنانين والفنانات » ، ضحك الصاحب بعصبية ، وقال السيد « قد تحضر » – وقال معتذراً لصاحبه ، وكان فى قرارة نفسه تعيساً لأنه عاجز عن التصريح باسمها « نعم إنها مدام تامبيبه : الحسناء الرياضية الجسم .. واحدة من نجوم التيفولى بالقاهرة .. أثار سخطها أن يصدر بونابرت الأمر بأن ارتداء ثياب النساء رمز على الجبن .. لم تطق التهجم على بنات جنسها .. فأعلنت أنها على استعداد لمبارزة بونابرت .. وإنها ستريه والمسدس فى يدها .. أن الخوف – حتى الخوف منه – لا يملأ قلوب جميع النساء » .

– ٩ –

عند محطة الأتوبيس حكى السيد لصاحب قابله حكاية الولد مع البنت مع الرجل الغاضب المتدين ، وقال إن أهداب البنت كانت طويلة ، سأله الصاحب عن معنى ذلك فأجاب بأن مؤلف كتاب القاهرة وهو إنجليزى يقول – ولا تأخذ يا صاحبى من قول الرجل المعنى البسيط « إن أهداب المصريين الطويلة هى سلاح ضد التراب لا مجرد زينة » .

– ١٠ –

قالت العجوز للسيد أحمد السيد إن أختها عادت لبيتها فى الحى المجاور « لاردها الله » ، قالت إن أختها مريضة بالقلب وستموت حتماً فى بحر هذا العام « لكنها بمفردها » وإن الله كان عادلاً حين جعل أختها الصغرى لا تنجب من يرثها .

وقال نابليون بسانت هيلانة لرفيقه جورجيو :

« إن المرء فى هذه الدنيا يجب أن يبدو صديقاً للناس ، وأن يبذل الوعود الكثيرة ، ولا يفى بوعد منها » .

وقال ج كريستوفر هيرولد – مؤلف كتاب بونابرت في مصر – للسيد أحمد السيد :

« ولكن الأجيال القادمة ستعجب بعمق ما فيها من ذكاء وبصر – إن قمبيز وأخررسبيس والإسكندر الأكبر وعمرو بن العاص وسليم الأول – كلهم دخلوا مصر من صحراء غزة » .

وسأل الرجل – الذى دخل الحجرة فجأة – السيد أحمد السيد : « قل لى .. من هو أخررسبيس هذا ؟ » . أجاب السيد أحمد السيد – وقد دفن وجهه تحت الغطاء – بصوت أقرب إلى الصياح :

« لا أعرف .. لا أعرف » .

وختم روفان تقريره قائلاً :

« وحين استأذنت للانصراف ، لم يقدم لى الشربات ولا العطر ولا المنديل التقليدى ، فأيّد إغفال هذه المجاملات رأيى .... » .

الغجـرى

رزق لا ينحدر من أصل غجرى

بنت الناس القاصدة بيوت العرب البعيدة أحست بتعب ، فمالت على خيام الغجر القريبة ، وقعدت تحت ظل نخلة ووليدها فى حجرها ، وحطت يدها على قلبها وماتت .

من فتحة الخيمة أطلت الغجرية العجوز على الميتة وظنتها نائمة ، ففتشت بعينها الواحدة عن عقد بالرقبة أو أساور باليدين ، ولما خاب ظنها فتشت بأصابع أمهر الحواة عن مال بالجيوب - فخاب ظنها أيضاً ، هنا ارتأيت (البدن يابس وبارد) فقبضت على المعصم . هكذا أدركت الغجرية العجوز أن الميتة ميتة . حملت الوليد وكلمته - هو الذى لا يعرف الكلام :

« أنت رزق ساقه الله إلىّ .. بعد ما أغير ملامحك بإبرة الوشم سأطرق أبواب أصحاب البيوت - وأقول باكية : مات أبوه وهو فى بطن أمه .. والبارحة ماتت أمه .. وحيدتى تركت لى اليتيم قطعة لحم ببطن وفم .. يا أولاد الحلال تصدقوا على اليتيم بكسرة أو تمرة يرحم الله موتاكم » .

رزق كائن أرضى صاعد

فى حضن الجدة وعلى كتف الجدة وبحجر الجدة - عاش رزق عامه الأول وعامه الثانى وعامه الثالث متسولاً بلسان الجدة ، ولما بلغ عامه الرابع خرج إلى الطرقات يتسول بلسانه هو - ممسكاً بيد الجدة العمياء حقاً وصدقاً ، وعاش رزق متسولاً حتى بلغ سن السابعة .

كيف بدل رزق جلد اليتيم بجلد الغجرى

بعقل عمره سبع سنوات فكر رزق - بعد موت الجدة :

« بطنى تشتكى الجوع والخبز بالأفران .. واللحم فى الطير والحيوان .. والثمر على فروع الشجر ، وأنا متسول - لأن لكل شىء على الأرض صاحباً يحرسه ، وما فوق الأرض من خيرات يجعل الأرض تصرخ من ثقل ما فوقها وتناديني : الخوف علة الجوعان يا رزق .

هكذا برع رزق فى نط الحوائط واقتناص طيور النسوة الغافلات وشق جيوب الغير بحد الموسى .. وبالخطاف والقصبة قطع الحبل العالى واستولى على ثياب العروسين العاريين .. وبالليل طرق الباب وقال لأهل الدار : « أنا يتيم بلا دار » فأرقدوه على فراش ، ففتح بطنه ولعب لعبة الحيوان ولما ناموا حمل الفراش وطار بجناح الطير .

وها هو الغجرى ببطن لا تشتكى الجوع وحلق لا يعرف العطش وبدن حر لا يغله قيد : يأكل اللحم الحرام مشوياً ومقلياً فى الدهن ، ويشرب البيرة الحرام من زجاجة أو فى سطل ، ويدخن الحشيش المكروه فى السيجارة أو الجوزة ، ويمص الأفيون وقد يغليه مع القهوة ، ويعاشر من بنات الغجر من تروق فى عينيه ويسرق قرشها الذى أخفته بين ثدييها عن أعين أهل الغجر .

حكاية الغجرى مع ست الدار

فى العام الذى شح فيه الزيت والكيروسين والسكر وتغيرت العملة من فضة إلى نيكل – تزوج الغجرى رزق من الغجرية ست الدار ، وبقى – ككل الغجر المتزوجين – فى الخيمة لا يبرحها إلا إلى خيمة مجاورة . هذا بينما ست الدار تلف وتدور تحت شمس الصيف وتحت سماء الشتاء الممطرة ، تقرأ الطالع أحياناً وتتسول وقتاً وتسرق إن واتتها الفرصة وتنام مع هذا وذاك فى العراء – لتفى بحاجة رجلها الغجرى إلى الأكل والخمر والمخدر .

وفى يوم قالت ست الدار لرزق : زهقت ..

رد رزق : نفترق .

قالت ست الدار : لا .. تزوج من ثانية تطعمك .. وسأبقى أنا بجوارك خادمة مزاجك وزوجة تنجب البنت والولد .

قال رزق : واحدة لا تفى بحاجة اثنين .

قالت : تزوج من اثنين أو ثلاث .

سألها رزق : ولو جاء ولد أو أتت بنت ؟

قالت ست الدار : تزوج ما تشاء ومن تشاء من بنات الغجر يا رزق .

هذا ما جعل رزق يتزوج من هندة وسعدة ومنصورة ، وفى العام الذى تربع فيه النطع على عرش البلاد تزوج من انشراح وقمر (لقد تجاوز الملعون الحد وتخطى شريعة الله – ولكن لا لوم عليه فهو غجرى) . أما ست الدار – أول الزوجات وأكبر الزوجات – فهى سيدة الخيمة : الآمرة .. الناهية .. الموقعة أقسى العقوبات على المقصرات ، ومن رضيت عنها ست الدار من حريم الغجرى نام معها الزوج الغجرى ليلة .

أفسحوا يا غجر .. الحظ فى طريقه إلى خيمة رزق

(الشمس غربت ، واليوم يوم السوق فى القرى ، عما قليل يجتمع شمل الكل وينهق الحمار ويهز الكلب ذيله وتأكل القطة . والزوجات جلبن الماء من البدر فى الصباح – والحوض مملوء ، وشمس هذا النهار كانت حامية ، والأرض تبخ – الآن – ناراً) .

قامت ست الدار ورشت تراب الأرض بالماء ، وفرشت سجادة من قماش قديم أمام الخيمة – تمدد فوقها الغجرى لما تنفست الأرض الهواء الطرى . وقمر أصغر الزوجات سبقت الأخريات ، ولعبت بأصابعها فى ثدييها ورمت فى حجر الغجرى جنيهين من ورق ملون جديد ، وضربت الكلب بساقها وناحت من ألم فى العرقوب وقالت : كيسه مملوء بورق مثل هذا سيسهر معنا الليلة وسيتركنا لما يطلع الفجّر فهو متزوج .. بفمه سمكة ميتة .. قلت له اغسل فمك بالصابون .. لولاك الخائب لبانه سيروح العفن من الفم وتبقى رائحة الفم الحلوة .

زجاجة ويسكى للغجرى

رحب الغجرى بالغريب ، وأمسك بالزجاجة التى جاء بها الضيف – وقلبها بين يديه ، وسأل : حلوى ؟ . قال الغريب : لا .. خمرة من أحسن صنف . فرح الغجرى وهلل : اللمبة يا انشراح .. ارفعيها لفوق حتى أرى ، وأخرج الزجاجة من العلبة ورفعها لفوق ، ورأى الغجرى على نور الفتيل المشتعل : رجلاً منتعلاً يمشى فوق أرض خضراء .. على رأسه قبعة وبيده عصا قصيرة سوداء .. بحلة صدرها قصير وذيلها المشقوق طويل ، فقال للغريب : بعد ما نفرغ من الشرب سآخذ أنا الزجاجة والعلبة . قال الغريب : خذها .. عندى مثلها . وغمز الغجرى لقمر : رتبى الفراش ، قال للغريب : ستنام عندنا .. أنت ضيفى ، ودخل الخيمة خلف قمر وقرص أذنيها : قد أعجز أنا عن كشف سر الباشا .. حاولى مع الباشا ولك منى رطل من بسبوسة الأشرم . لكن الغريب لما سكر – رمى نساء الغجرى بكلام فاحش .. وحكى حكاية فاضحة وقرص فخذ ست الدار .. وقاء على حجر هندة .. وجرى لسانه جريان الخيل ففضح سره دون جهد من أحد .

الغجرى يفكر دون توقف

(صاحب حرفة ارتحل إلى بلد عربى مجاور وعاد بعد عامين من البلد الغنى بكل هذا المال) ضرب الغجرى الكف بالكف – وزعق فى السماء : واه .. لابد من السفر .

شرب أقة من الخمر – فى اليوم الأول – وفكر : كيف يا رزق ؟

فى اليوم الثانى – شرب المخدر وسأل نفسه : كيف أسافر وأنا لا أحسن حرفة ؟

وفى اليوم الثالث أكل الأفيون سيد الكيوف – وفكر : لكل سؤال جوابه .. الحكومة هى التى تقول للمسافر سافر .. والمخبر عين الحكومة التى ترى وأذن الحكومة التى تسمع ويد الحكومة التى تجرجر العاصى إلى المخافر .. والمخبر لا يعجز عن حيلة تجعل الحكومة تقول للغجرى : سافر يا رزق .. مع السلامة .

صداقة الغجرى مع المخبر عبد العاطى والصول عبد البارى

(قال المخبر المخمور للغجرى المخمور : بعد يومين سأرد على ما تبغى وزيادة) .

(بلع المخبر دخان المخدر وكح وقال : يقول الصول عبد البارى – قل لرزق يدخل دكانه مصور يرسم ملامح وجهه حتى تعرفه الحكومة . سأل الغجرى : قد أضار لو عرفت الحكومة وجهى؟ . قال المخبر : لا تخف) .

(سأل المخبر الغجرى بلسان مر من طعم الأفيون : وأين شهادة ميلادك يا رزق ؟ وأين شهادة خروجك من الخدمة فى جيش الحكومة ؟ . رد الغجرى فى خوف : لا شهادات عندى . قال المخبر لا تخف .. سأحضر مساء غد مع الصول عبد البارى .. الصول عبد البارى ابن مزاج حلال عقد .. هات نصف جنيه يا رزق) .

(قال الصول عبد البرى لرزق ورمش بعينه لانشراح : قم الآن واذهب إلى طبيب .. خذ معك المخبر عبد العاطى .. ادفع للطبيب وسيحدد لك الطبيب السن التى تعفيك من الخدمة فى جيش الحكومة .. واترك الباقى لله ولى .. سأجعلك يا رزق من حملة الشهادات) .

وها هو الغجرى – بعد مرور نصف عام – يحمل جواز سفر بصورة عليها أختام وتواريخ وأرقام وتوقيعات من ناس يلبسون الحال ويجلسون خلف طاولات على كراسى هناك بدواوين الحكومة ، بالمال وبفضل معرفته بعبد البارى وعبد العاطى – شهد الكل للغجرى : أنت مواطن .. أنت يا رزق بنّاء عمره فوق الأربعين .. لا تشتك الفقر يا رزق .. سافر فبلاد العرب واسعة .. إخلط الرمل بالأسمنت وضع الطوبة على الطوبة حتى يحك سطح العمارة أنف السماء .

ما جرى من رزق وما جرى لرزق فى بلاد العرب

عارك الكلب الذى يحرس القصر وخرج من المعركة بيد أقصر من يد ، وراوغ سلاح الشرطة الفتاك . وحطم زجاج العربات الواقفة تنتظر أصحابها . وفك أحزمة الحجاج النائمين فى حماية

الحرمين – وفار بمالهم . ونام مع شيوخ مختثين وعجائز شمطاوات . وعاد بعد غيبة طالت إلى خيام الغجر بجيوب منفوخة وثياب جديدة وراديو يغنى بكل اللغات ، يشعل السيجارة من قداحة ولا يشرب إلا الخمر الملفوفة فى علب ، ولما زار المدينة رأى العمارات ورأى الأرض الفضاء فدفع لصاحب الأرض الفضاء المال واشتراها ، ومكث فى الخيام أسبوعاً ويومين وليلة مع زوجاته – وقد أنجبن جميعاً فى غيابه – ثم قفل عائداً إلى بلاد العرب فى غزوة جديدة .

الحاج رزق يُكفّر عن معاصيه

وعمل الحاج رزق بنصيحة صديقه عبد البارى : طلق انشراح ومنصورة واشترى الحاج رزق الأسمنت والحديد وأحجار الرخام من السوق السوداء ودفع للبناء والفعلة المال وأمرهم ببناء المسجد والحجرة الواسعة أسفل العمارة (عمل بنصيحة صديقه عبد البارى : بناء المسجد يا رزق سيجعل الحكومة تعفيك من الضريبة المفروضة على العقار) .

وعمل الحاج رزق بنصيحة صديقه عبد البارى : طلق انشراح ومنصورة تصبح يا رزق نظيفاً أمام الله والقانون والناس (انشراح تزوجها عبد البارى لتعيش مع لطيفة أم أولاده فى حى السبتية ببولاق المحروسة ببركة سيدى أبى العلاء . ومنصورة تزوجها عبد العاطى بعد ما طلق أم سماح ومحروس) وذلك كله فعله الحاج رزق بوحى من ضميره .

١ – العنزة ذبحها واحتفظ بجلدها وباع ابنها وأكل لحمها مع جماعة الغجر فى يوم مشهود .

٢ – باع الحمار والخيمتين وطرد الكلب والقطة .

٣ – أمر زوجاته بمفارقة الخيام مع أولادهن والعيش بالحجرات التى تشغل سطح العمارة .. وأمرهن بعدم الاختلاط بالسكان .. وأمرهن بالتلون مع الحياة الجديدة المحترمة .. والزوجة التى يريدها منهن ستهبط لتبيت معه على سرير طرى الفرش فى الحجرة الواسعة الملاصقة للمسجد .

آخر صورة للغجرى مع السيد عبد الصمد

قال رزق للسيد عبد الصمد : إشرب يا سيد عبد الصمد قبل ما تبرد .. يوم سكنت عندى يا سيد عبد الصمد كان الماء يصل إلى الدور الخامس .. فى هذه الأيام لا يصل الماء إلى الدور الخامس.. حين تريد الحكومة أن يصل الماء إلى الدور الخامس سيصل الماء إلى الدور الخامس .. أنا يا سيد عبد الصمد برئ من كل ذنب .. لما بنيت العمارة اشتريت مواسير ماء قطرها شبرين .. غيرى من أصحاب العمارات اشترى مواسير ماء قطرها أقل من شبر .. وفى العام الماضى – أنت

تعلم أنى بنيت خزانين للماء أعلى العمارة .. غيرك يسرف فى الماء .. أنا لا أقول أنت مسرف يا سيد عبد الصمد .. كذا لا لوم على .. اللوم على سكان العمارة المسرفين .. اذهب وكلمهم يا سيد عبد الصمد فأنا زهقت والله من كثرة الكلام .

قال السيد عبد الصمد : لو بات الماء فى الخزانين يا حاج لوجدت أنا الماء بالنهار .. ولكن أهل بيتك هم المسرفون .. إنهم لا ينامون الليل ودبيبهم والله يا حاج لا يجعلنى أنام .

انتفض الغجرى : اسمع يا سيد عبد الصمد .. هل أحرق أولادى ؟ ، (ورفع إصبعه فى وجه السيد عبد الصمد) بالقطع لا .. أنت دفعت لى أجر عامين مقبلين فى مسكن من حجرتين .. ها هو مالك خذه (ووضع المال على الطاولة أمامه) وأنت لو عشت فى مكان أنا صاحبه عشرين سنة كم ستدفع لى ؟ (وأخرج رزمتين من المال ورماهما فوق الطاولة ، وأخرج القداحة من جيبه وأشعلها) نعم لن أحرق أولادى يا سيد عبد الصمد (ودلق الكحول من زجاجة الكحول فى الأوراق المالية وأشعل فيها النار) افتح عينيك يا سيد عبد الصمد .. وانظر إلى المال وهو يحترق .. والآن – هل من كلام باق فى صدرك يا سيد عبد الصمد ؟

كلام للبحر

سماها أبوها « فاطمة » على اسم أمه الميتة ومات ، إلا أن أهل حارة السبع نخلات ينادونها « بطة » . وأهل الحارات فى مصر محيرون – القملة عندهم بيبة . والاسم هنا حمال أوجه يا بحر – فانتظر (بعد موت الوالد « عجلان » عملت الأم عمل الأرامل قليلات الحيلة : تجلس على حجر وتبيع لأولاد وبنات الحارة أزهار عباد الشمس ملفوفة فى قراطيس من ورق مصور ، وتقعد على الأرض وترص فوق الحجر شرائح البطيخ والشمام – لما يكون الأوان أوان البطيخ والشمام) .

لم تكن «بطة » وقتها طفلة خائفة تمسك بجلباب أمها ولا تفلته إلا إذا سمعت صوت صفارة الجدع بائع البالونات . والجدع بائع البالونات الملونة هذا يا بحر – جدع ماجن ، وأنا أزيدك به علماً . (يربط الجدع بالوناته المنفوخة بخيوط متينة فى عود طويل من الحطب ويتركها ترقص فى الهواء بكل لون فوق الرقاب الممدودة ، ويحتمى من عيون الكبار بالأركان ويفتح حجره ويقول للبنت « أقعدى » ، ويضع بالونة غير منفوخة فى فم البنت ويقول للبنت « انفخى » ، ويعرك بيديه صدر البنت (ويقبض) مع حركة البسط والمد أثناء نفخ البالونة ، ويحدث الجدع الخبيث نفسه الخبيثة « كل طفلة امرأة لا تبوح .. وكل امرأة طفلة بصدر منفوخ قد تبوح ولا تبوح – لكن القرب من هذا الصنف غير مضمون وغير مأمون وأنا أطلب السلامة .. ويكفيك يا طباخ الصدود أنك طبخت وتطبخ لأصحاب القدور) .

أما الآخر يا بحر ذلك الذى طبخ له بائع البالونات صدر « فاطمة » فكان صاحب دكان على مدخل حارة السبع نخلات ، صاحب دكان من ذلك النوع من أصحاب الدكاكين .

(كل السلع المرصوصة على رفوف دكانه وفى السقوف حصل عليها ولم يدفع ثمنها بعد – أخذها من تاجر بالموسكى يقال له تاجر الألف صنف صاحب الملايين ، وصاحب الملايين هذا يعامل أصحاب الدكاكين بعرف يسمونه عرف السوق ، يقول تاجر الألف صنف صاحب الملايين لأصحاب الدكاكين : خذوا ما يلزمكم من بضاعتى ، واتركوا لى على تلك الكمبيالات بصمات أصابعكم حتى يضرب القانون – وهو حليفى – بيده الطويلة وهى من حديد رقبة المنحرف منكم والأعوج وابن الهرمة الذى يشكو كذباً من الإفلاس ، بيعوا بالعجل أو بالآجل .. وارفعوا سعر السلعة

واخسروا فى الميزان – لا دخل لى بأحدكم مادام لا يدلس علىّ ، بيعوا واكسبوا – كل شيخ بطريقته – وردوا لى ثمن ما أخذتم لأحصل أنا أيضًا على مكسبى وهو والله ملاليم .. هكذا حتى يدور الدولاب ويرمى فى حجركم وحجرى ، وتلك سوقكم يا أولاد العرب – والمال دولة بين الأغنياء منكم) .

لكن ما لنا نحن وحكاية تاجر الألف صنف مع تجار الحارات – نحن نحكى عن تاجر بالذات له دكان على مدخل حارة السبع نخلات . هذا التاجر يا بحر أغرى « بطة » بقرص نعناع لتقترب منه وغافلها ومرر راحته على صدر بطة فجفلت « بطة » من وجع الخضر الطالعين ، خلاصة الأمر جرت « بطة » ، وخاف العجوز من فضيحة بجلاجل فيما لو تكلمت « بطة » ، ولام نفسه وقال «الأخذ والرد يتعب قلبى أنا العجوز .. لماذا النظر من بعيد ؟ .. بين البائع والمشترى نعم ولا .. والزمان زمان البيع والشراء .. والقوم الفقراء .. سأكلم أم « بطة » وعلى الله التوفيق .

وقام من فوره وقفل الدكان وقصد أم « بطة » حرم المرحوم « عجلان » ومعه قمع السكر الملفوف وزجاجتين من شربات الورد . وعلى ضرب الطبل دق العجوز باب بستان « بطة » فردت بطة « ادخل يا حلالى » ، لكن العجوز ما هش وما نش ولا رفع العصا ولا نط الحائط ، مد كفه المبسوط بحب الفول السودانى – وقال لبطة « وحق هذى النعمة دفعت المال لأرى طيرك يا بيضاء عن قرب » ، ومد الكف وقال لطير بطة « القط يا طير » .

(وها هما يا بحر – كل حمامة بيضاء بجناحين تروم الطيران فى الكون الفسيح ، لكن الحريصة عرفت كيف تعامل طيرها وتحبه فى الحبس : تلبس الثوب الضيق بشق من العنق حتى الفلقة ثم تغلق الشق بخيطين ، أما المتعة فمكانها الحمام – مع النفس ومع مرآة صافية وصابونة معطرة ذات رغوة وفيرة أو ثمرة موز طرية تشبه العضو ويطلقون عليها أدباً إصبع الإنسان .. آه يا بحر – لعن الله الكلام فى مثل هذا المقام .. وما أغربك أيها الإنسان لما تجبرك الظروف على الهتك والرتك فى الخفاء .. وأف منها تلك الحياة التى دامت عامين ونصف عام : كأنها الكوابيس فى المنام) .

قالت « بطة » لأمها « على غير عادته أغلق الدكان ودخل الدار العصر والمؤذن يقول « الله أكبر » ، ورقد على السرير ونادانى فقلت نعم وقلت خير ، قال أحس بوجع ، قلت أين ؟ قال « هنا » – وأشار إلى القلب والجنبين ، قلت « سلامتك » .. بعد ما تشرب المغلى ستعود إليك عافيتك ويبتعد الشر » ، وكنت أمام النار سمعت الطرق على الباب ، فقمت وفتحت فما رأت عينى الضيف الذى هو لا إنس ولا جان ، وأنا راجعة سمعت صوت النزاع بين الاثنين ، ولما وصلت إلى الفراش كان

الملاك قد مضى ومعه الروح ، وتركني مع الجسد الميت ، وها أنا يا أم أملك البيت والدكان بلا رجل يكح حتى يخاف الطامع فلا ينط الحيطان .. وأنا شابة ويدى يغطيها الذهب من هنا إلى هنا ، وها أنا يا أم أدرك بعد ما شق الفأس الرأس أن كل بضاعة المرحوم ملك غيره ، والآن ، هل أغلق الدكان ؟ وآكل من بيع الذهب قطعة قطعة حتى ينفذ فأبيع البيت وأعيش بقية عمرى على الخبز والبمك كزلطة أم كرملة وفنفوتة أم وزة وشمعة ؟ أم أفتح الدكان وأعيش عيشة زوجي لما كان معنا فى الحياة ؟

أأجر الدكان يا أم – لغريب – وأحيا حياة ناس الحارة صباحي الفول بالزيت وليلى الفول والطعمية ؟ » قالت أم بطة « ما كان كان والفالحة من دبرت أمر عيشها وحال دنياها – لا تلك التى تضع يدها على خدها وتبكى تقلّب الأيام » .

قالت « بطة » « نطقت الصدق يا أمى .. ما ولّى مر وفات .. كيف أدبر يا أم لأكون الأرملة المرغوبة من الرجال ؟ » .

قالت أم بطة لبطة « جمالك يستر عيوبك والمرغوبة من الكل لو ابتسمت للكل فقدت سعرها فى سوق الرجال » قالت بطة « تعملين أنت يا أم بالدكان وأحبس أنا نفسى فى البيت فأحتفظ بحسن السمعة وبمظهر زوجات التجار الوقورات – لما أغلق بابى فى وجه غيرك ، ومن اليوم وحتى ينقضى عام سأرفض الخطاب ولو كانوا المئات وأقول « الميت عزيز » ، بذا يرتفع قدرى ويرتفع سعرى .. ويتكلم الناس على أنا الوفية . فتموت حاسدتى من الكمد ، وتنصحنى العجوز المأجورة من صاحب المال « لا تدفنى شبابك يا بنية ، فالموت حق على الحى .. والحياة حق للحى » – فأرد «بعد اكتمال الحول يا خالة» ويحضر صاحب المقام والمال بعد انصرام الحول ومعه الشيوخ والشهود ويدق بابى فأفتح بابى على مصراعيه » .

ذلك ما قدرته « بطة » ، لكن الأقدار فى بلاد العرب عربية مولدة تحتّ الضحك من المفارقات الماسخة . لما طرق الطارق باب « بطة » فتحت « بطة » ووجدت أمامها الثور على هيئة إنسان وبثياب إنسان : هذا فتوة الحارة الملقب بالبطل يا بطة .. والطبل .. يا بحر .. يأكل لقمته بفرض الإتاوات على الضعاف وكسر عظام الأقوياء .

قالت بطة لنفسها « الثور نطاح تغضبه كلمة لا الحمراء .. الأسلم أن أحاوره وأداوره حتى يأتى الفرج » وقالت بطة للطبل « يعلم الله أنك خير رجل يا طبل .. وكل أنثى تتمناك .. غب يومين وتعال ثم غب شهرين وتعال – هكذا حتى تتعود العين على رؤياك ويشتعل فؤادى إذا ما غبت » .

وجاء الفرج المنتظر – وكان حلو الصورة ، له ثلاث زوجات فاتنات – لكن الوارث يحب امتلاك كل تحفة جميلة يعجز عن امتلاكها الغير ، سمع عن « بطة » ورفضها للرجال ، فراهن أصحابه وكانوا على مائدة القمار فقال : « هي لي ولو خسرت ربع مليون جنيه » .

قالت بطة لحلو الصورة الواقف على الباب « الفتوة يقف في طريقك » .

فرد عليها وقال « أنا أيضاً فتوة بمالي ، والجنيه يذبح كما تذبح السكين » .

أخفت بسهام الرموش سواد وبياض العينين وقالت « أنا لك .. زحزح العقبة وتعال .. وقدم الصداق ألفين .. والمؤخر ضعفين والعصمة بيدي » .

(أواه يا بحر من المال – أنظر : ها هو يصرع الواحد القوى) .

أرسل الوارث في طلب الفتوة ، وقال له لما جاء : يا طبل لي مطلب وسيكلمك رسولي على انفراد .. واللقاء بينك وبين الرسول هناك في مكان بعيد .. ما رأيك في الخرابة الواقعة خلف بيت الصراماتي في وقت بين المغرب والعشاء ؟ » .

قال الطبل الأجوف – وهو لا يدري ما يحاك له : « موافق .. أفديك بنور العين .. كم سآخذ نظير خدماتي ؟ » ..

قال حلو الصورة « ورقتين .. كل ورقة خضراء بمأذنة » .

سال لعاب الفتوة وذهب إلى الخرابة بعد المغرب ، وقبل آذان العشاء جاء رسول حلو الصورة راكباً عربة فيها ضابط بنجمة على الكتفين وعسكر بسلاح وخبير بباطن الأرض ، نبّش الأرض التي يقف فوقها الطبل وأخرج لفة قماش بها حشيش وأفيون ، لما وزنوها فاقت الأقتين . وبعدها ذهبت الحكومة بالفتوة إلى قاضي المخدرات الذي حكم عليه بالسجن مع العمل الشاق لمدة عشر سنوات ، ذهب الوارث حلو الصورة إلى بيت « بطة » وأركبها العربة التي تجرها الخيل . وتحت الرايات والنور وعلى رنين الصاجات بأصابع الراقصات – ألبسها الخاتم الثمين والسوارين ورفع كأسه وخاطب أحبابه الأكابر : « ليالي العرس بعدد أصابع اليدين ، والخمرة فرنساوي وإنجليزي وألماني يا إخوان » .

(عشر سنوات يا بحر – عاشتها فاطمة كأنها عشر ساعات وأنجبت منه البنتين والولد الجميل، وعشر سنوات عاشها حلو الصورة مع فاطمة – نصفها الأول حلم جميل ونصفها الأخير كابوس ثقيل ، فكل يوم يمر يعجل بخروج الفتوة من السجن – والطبل على ظهر الأرض يد ثقيلة وغل ورغبة أكيدة في الحرق والتحطيم) .

دفع الوارث للمخبرين والعساكر المال الكثير رشوة للسجانين ليهدموا بنيان الطبل القوى حيث يتحول إلى أنقاض .. وليلعبوا ألعابهم الماكرة حتى تعود الطبل على المذلة والطاعة واحترام كلمة السيد فالدنيا يا بحر عبد وسيد والسيد مطاع .

« هل أفلحوا ؟ » ، سؤال سأله الوارث لنفسه وللمخبرين والعساكر مئات المرات وكان الجواب : « عيب يا ابن الذوات .. نحن الحكومة .. والحكومة لا تخاتل .. الفتوة الآن بالسجن أجبن من قطة وأضعف من نملة .. وأحقر من صرصار .. فالسجن يا ابن الأكابر تأديب وتهذيب وإصلاح » .

وكان لحلو الصورة العيون والآذان التى يدفع لها المال المعلوم لتنقل له كلام العامة – آباء وأخوة وأمهات وزوجات كافة المساجين بكافة سجون مصر .

(وكلام العامة من أهل مصر يا بحر كطعامهم – الفول بالكمون .. والسمك المملح بالليمون ، وخيالهم جامح ، يقول الواحد للآخر « اسمع يا .... » ويغمز – فيفهم الآخر أنه لا يكلمه ولكنه يكلم العين والأذن المأجورة ، ثم يكمل الواحد كلامه « غيره بالسجن يكسر الحجر .. أما هو فيبلع الحجر .. والثأر كما يقولون القدر تغلى وتفور .. حاول الهروب مرتين وفشل .. لو عشنا سنرى الجزار يذبح الخرفان ، ويبيع الرطل للقادر منا بقرشين وللشقيان بمليمين) .

ضاعت الحقيقة لما اختلط كلام الناس بكلام العيون العسكر بكلام المخبرين بكلام السجانين ، وتاه عقل الوارث فكثر شروده وقل طعامه وزاد طلبه للخمرة ، فهزل بدنه وبهت النور فى عينيه وتقطع نومه وارتخى عضوه وغاصت نضرة وجهه ، وتخيل الحبل ثعباناً ، وظلّ الحائط إنساناً وخبط الصحون بأيدى الطباخين فرقعة سلاح ، وخبر حاله الأطباء ، فرفعوا راية الاستسلام وقالوا «عجز طبنا» ، وقبل حلول الموعد ، الذى يخشاه حلو الصورة خشية الموت ، بأسبوعين – نام حلو الصورة على فراشه ومات بيده لا بيد طبل .

والآن ، دعنا – يا بحر – من طقوس الحزن التى تفرضها الأعراف العربية على أرملة ابن الأسرة الغنية – كأن : (تلبس مجروحة القلب الثوب الأسود حزناً على زوجها الميت ، وتدفع المال لصحف الصباح فتكتب نعيه على صفحاتها مصحوباً بصورته وتجعل الشيخ الذى يراه الناس على شاشة التليفزيون يرتل على روحه سورتين من القرآن الكريم ليلة مأتمه ، وتحضر فرقة موسيقا ملجأ الأيتام لتتقدم نعشه ، ثم تتقبل العزاء فى الميت من رجل عسكرى صاحب منصب كبير) .

دعنا من كل ذلك يا بحر ، وتعال نشهد المشهد الأخير – بين الأرملة الجليلة وسبع البرمبة فترة زمانه :

(أحاط الخدم المسلحون بسيدتهم الجليلة وقالوا « نرميه بطلقات البنادق والمسدسات » .

ردت السيدة الجليلة : « لا .. احرسوني .. وارشدوه إلى أقصر طريق .. ودلوه على قصري أنا أعرف منكم بما أريد » . تفرق الخدم على السمع والطاعة ، وبقيت السيدة الجليلة بحجرة النوم الموصدة تنتظره ، تنهشها نيران رغبة قديمة لم يخمدها رجل له قوة الثور ، وقالت لم لا أكون السمكة في الماء .. والصياد الذي بلا شبكة يصيد باليدين ؟ » ، وكان أن دهنت الجسد بزيت الكافور والشعر بزيت القرنفل والإبطين بالعنبر والثديات بعطر يقال له الفارسي الحار ، ثم لفت فواكهها بملاءة حمراء من حرير هندي ، وسمعت خطوة القادم ففتحت الباب وأدرات ظهرها للقادم - وقسمت بيد عادلة شعرها إلى نصفين ورمت النصف على الظهر والنصف على الصدر وكلمت الواقف « كنت صاحب حق .. والسجن للرجال . هل أتيت تطلب حقك يا طبل ؟ » .

قال الطبل « أتيت لأبوس القدم وأعلن الندم » .

قالت « أنت خبيث يا طبل تلعب معي لعبة القط مع الفأرة .. وأنا ما تنكرت لحقك » .

قال الطبل « لا تذكريني بما فات .. فما فات فات .. أنا طامع في التوبة ولا يدوم على حال غير وجه رب السموات » . ولما نظرت إليه خاب الأمل - فصرخت صرخة اللبؤة في الغاب « يتمت أولادي وخربت بيتي وحرقت كبدي يا كلب .. لا تجعلني أراك وابحث عن طعامك مع الكلاب .. ففي الفضلات المرمية بالطرقات ما يكفيك ويكفيها » . وما أن فارق الطبل الذليل المكان حتى سارعت السيدة الجليلة ودخلت الحمام - ومعها الكلب المدرب على الفعل وكافة الحركات - ونادت أمها بالتليفون من الحمام ، فردت عليها مدام عجلان - وكيلة شركة كان ياما كان الفرنساوية «تعالى القصر الليلة وسنتشاور في الأمر» . ذلك كل ما جرى يا بحر .. ولو كان هناك المزيد لزدت .

حاشية :

من يومها وأهل حارة السبع نخلات يميزون السيدة الجليلة عن سمياتها بقولهم « بطة ملبن وشطة » . وإليك يا بحر تفسير المعنى الخفي لقولهم « بطة ملبن وشطة » .

« البطة من البط ، والبط طير معروف نظيف يعشق الماء ويعيش في البيوت .. لحمه أبيض كثير طيب الطعم ، والملبن حلوى بيضاء طرية - يحبها الكبير لأنه بلا أسنان ، ويأكلها الصغير فيرعى السوس في أسنانه ، أما الشطة فبهار حار يسيل الدموع من العينين ، ويحرق اللسان ويلهب الحلق والشفتين ويملأ الفم باللعاب فيسيل من الشدقين أبيض الرغوة حتى تظن الإنسان كلباً » .

حاشية ثانية :

ما من نخلة واحدة بحارة السبع نخلات – ومع ذلك يصر الكل أنها حارة السبع نخلات ، ربما (فى الزمن البعيد) كانت هناك سبع نخلات بالحارة .. أما الآن (ونحن فى عام ١٩٧٨) فلا، لماذا (وحتى متى ؟) تغفل الحكومات المتعاقبة التى تتبادل الأماكن (وهى رشيدة) عن أهمية الاسم للمكان ؟

حاشية ثالثة :

من أين لحلو الصورة ذلك المال الذى لا ينفد – وهو لا يعمل ؟

أبوه – عليه رحمة الله – كان بلا نعلين ، سريع القدمين يخطف ويجرى ، وفى يوم تعثر ووقع فأمسكت به الشرطة ، وبالسجن تاجر الرجل فى المخدرات وكسب المال الكثير – رغم ذلك لم يحب الرجل حياة السجون ، عاون الرجل – فى ظل الحريات – تجار السوق السوداء وشاركهم . ولعب معهم لعبة إخفاء السلعة فى مكان بعيد .. وطرح سلعة بديلة أقل جودة فى المكان القريب ، وفى تنقلاته خلف السلعة بين القرى والمدن – لحق به عهد الانفتاح السعيد – فضارب الرجل بما جمع من مال وربح : وتلك خبطته الكبيرة التى جعلت منه الاسم اللامع فى دنيا السوق والمجتمعات.. فسموه عاشق الخيل – لأنه حقًا كان يعشق تربية الخيل .. ونادوه بملك البيض .. ولقبوه بالثعلب الأعظم – لأنه كان يطعم الثعالب الدجاج – حتى تسمن الثعالب فيذبحها ويسلخ جلدها ويبيع لنسوة الأكابر فروها .. ويرمى لحمها فى الثلاجات بانتظار حضور الجزار الغشاش وباعة الكباب ، وبعد موت الأب توزعت الثروة على الأولاد والبنات – فباع حلو الصورة ما يخصه لأخوته ، وحفظ كل ماله فى البنوك الأجنبية ، وجهر فى مجالسه التى تضم الوجهاء – هو الذى لا يفرق بين حرف الألف وحرف الألف وحرف الخاء ، لماذا أتعب ؟ مالى فى البنوك سهام تصيب – المال فى البنوك يجرى فى البلدان ويربح – وأنا بينكم قاعد سعيد ..

وحفظ المال فى البنوك الأجنبية – يا إخوان – يجعل بالكم فى أمان ويجنبكم الخوف من التفكير فى أمور مثل تلك التى تكلمنا عنها الراديوهات .. وما حدث من الغوغاء فى الشهر المشئوم قد يكون مقدمة من المقدمات .. والبنوك بدعة إنسان له عقل شيطان ، .

حاشية أخيرة :

مال السفيه فى البنوك المتحدة – رغم تعدد الجنسيات – سهام تصيب المجموع المهلهل ، والجماعة المتحدة الواعية ببيانها – يا بحر – لها الغلبة ولها الأرض بطيباتها ... هل تفهمنى يا بحر؟

الرقصة المباحة

مهداه للشيخ سيد ، ومحروس الترزى

ومحب طالب الطب بالسيدة عائشة

ارقص يا غريب : رقصتك ويا الفجر مباحة .

رقصتك وسط الفجر مباحة .

م الحياة وسط الفجر مباحة ياامه .

للشتاء : هزه ياامه .

للربيع : هزه ياامه .

للخريف : هزه ياامه .

والصيف لنا يا غريب وعيش « الدميرة » .

والشرف لنا يا غريب وعيش الدميرة .

عيش الدميرة يا غريب والشمس الكبيرة .

وانته يا غريب رقصتك ويا الفجر مباحة .

« أغنية من جنوب مصر »

كان إسماعيل أب على يمضغ عود نعناع أخضر ، ويشعر بألم حاد فى أسنانه وضروسه وفكه ومفاصله ، وحين أتى الحاج عبد الكريم محمد عبد الله صاحب البستان نسى إسماعيل الألم وهرول مستقبلاً الحاج . وتبسم .. وقبل الحاج .. وقدر الوقت بـ : قبل الظهر بقليل : كان ظل الحاج ماثلاً تحت قدميه باتجاه الغرب ، تذكر إسماعيل أب على أنه فلاح أرض البستان وحارس ثماره – قال يخاطب الحاج مبتسماً : « باكر أسقى أشجار الليمون فهى فى حاجة لماء .. سأرمى تحتها بالسباخ » وقال فيما يشبه اللوم للحاج : « الشجر محتاج سماد يا حاج .. فى الصباح الباكر يأتينى السماد .. باكر الأحد يأتى الولد حجازى من طرفكم ومعه السماد .. أنا غداً سأسقى الشجرُ » .

تحت ظل تكعيبة العنب وقف الحاج عبد الكريم وبجواره إسماعيل ، كان الهواء رطبًا وطرياً وطازجاً يدخل الصدر فينعشه ، قال إسماعيل : « النبات ليس كالإنسان .. الإنسان كافر وجاحد » .

تناول الحاج بندقيته من على كتفه بسرعة وثبتها وشد الزناد وأطلق رصاصتين . ومن وسط الحشائش وورق العنب الجاف المكوم أخرج إسماعيل الثعبان الكبير الميت ، بالمنجل شق إسماعيل بطن الثعبان الصفراء ورماه فى الشمس وغطاه بالتراب الساخن ، طوق أسود غليظ كان يلتف برقبة الثعبان ، قال إسماعيل بفرح أطفال – وتذكر أن عمره قارب على السبعين : « لو لم تقتله يا حاج لنبت له جناحان .. هذا أخطر أنواع الثعابين .. أنا أعرف » .

أخرج الحاج حافظته الكبيرة المنتفخة والمرسوم عليها ثلاث أهرامات وثلاث نخلات وجمل قاعد وجمل واقف يركبه رجل بيده عصا ، قال إسماعيل مذكراً الحاج بالثعبان الميت المدفون تحت التراب الساخن : « سأسلخ جلده باكر .. ومن جوفه سأملأ سطلين من الشحم .. وأدهن عقب الساقية .. سيلف العامود خفيفًا كما لو كان طائراً بجناحين حتى لو ساقت الساقية معزة جرباء » . ضج الحاج بضحكة نزّت بالدهن المكوم على صدره العريض الغليظ المشعر ، وناول إسماعيل الجنيه الجديد والمرسوم عليه أبو الهول الأخضر ، وأدخل الحاج حافظته الجلدية ذات اللون الليمونى بجيب صديديه الصوفى الأسود اللامع ورمى بسلام الله على إسماعيل وتوكل ، ونادى إسماعيل ربه فى السماء بصوت يسمعه الحاج عبد الكريم : « بحق نبيك محمد اجعل اليابس أخضر إذا داسته قدم الحاج محمد .. آمين يارب » ، ونادى بصوت أعلى : « باكر ارسل حجازى بالسباخ .. لا تنس يا حاج بحق النبى » .

* * *

إسماعيل أبو على جلس تحت حائط الساقية ، انتهى لتوه من فتل حبل غليظ من ألياف النخيل البنية اللون المكومة تحت قدميه الممدودتين أمامه ، النسيم رطب محمل برائحة الليمون والبرتقال ، الشمس حمراء بلا حرارة معلقة فوق سن الجبل الغربى ، برغوثة ملعونة قرصت إسماعيل فخلع جلبابه الأزرق المصبوغ بسرعة البرق ، شم إسماعيل رائحة عرقه ، رأى نفسه عاريًا كما ولدته أمه ، ولعانه ، وبحث عن البرغوثة التى قرصته للمرة الثانية ، اقتنع إسماعيل بأن البرغوثة قرصته تحت الجلد فلبس جلبابه ومد ذراعه وقاس الحبل وحك وسطه وقال : « ثمانية عشر ذراعًا .. أفتل ذراعين ويصبح الحبل بعمق بئر الساقية » . شبك الحبل بخنصر قدمه اليمنى ومد ساقه ومضى يفتل بهمة .

« الحمد لله » ، قال إسماعيل – ورمى الحبل بعيداً . وتملكت إسماعيل حالة من الصفاء والابتهاج جعلته يجزم بأن الدم يجرى صافياً فى عروقه كما يجرى الماء الرائق فى القنوات ، وإذا

كان الماء الصافى يلمع كالفضة النقية دافئاً تحت شمس الظهيرة - فكذلك أيضاً داخل إسماعيل - والصحيح : يتوهج الآن بمثل الشفق الأحمر الذى يلون الأفق الغربى . خمسة فناجيل من القهوة السادة شربها إسماعيل وامتص فصاً من الأفيون دفع ربع جنيه لـ « فكرى الكور » ثمناً له .

الجنيه الذى أعطاه الحاج عبد الكريم لإسماعيل كان جديداً ولامعاً وكانت أطرافه الأربعة مستقيمة حادة ، بطرف واحد من أطراف الجنيه الجديد اللامع كان بمقدور إسماعيل أن يذبح طائراً جارحاً لو أراد : هذا كما يقول المثل الجارى بين الناس ، رغبة كانت ملحة فى الاحتفاظ بالجنيه الجديد اللامع الحاد الأطراف ، والحاج عبد الكريم لن يدخل البستان إلا مع قطف الثمار ، وأبو الهول كان يتربع وسط الجنيه بلونه الأخضر الزاهى .

للحظة أحس إسماعيل بمرارة الأفيون فى حلقه ورمى نفسه بالتعاسة وقال : « هيه » ، وسمع «هيه» ترد لأذنيه مرة أخرى وسمع صوتاً هناك تحت تكعيبة العنب ، وأتت رعشة مفاجئة هزت جسد إسماعيل القليل اللحم ، وضح لإسماعيل أن أنثى الثعبان القريبة أتت لتنتقم لذكرها المقتول ، شد إسماعيل الفأس القريبة وتقدم وزايلته الرعشة وتملكه إحساس وحشى غامر .

* * *

الغلامان جريا ، مد إسماعيل يده وتناول سروال القماش الملقى فوق الحشائش الندية وجرى يلاحقهما وجعّر : « يا كفرة .. يا أنجاس يا أولاد الشياطين » . الولد الكبير قفز السياج الطينى الذى يطاول قامته ثلاث مرات - واختفى : وحاول الأصغر مع السور المرتفع مرة بعد المرة وفشل : خذلته قامته القصيرة وجسمه البدين ، وإسماعيل أضمر بأنه لو أمسك بالولد فسيرفعه لأعلى وبكل قوة سيرميه على الأرض ، هكذا ألف مرة : المخنث ابن الـ .. » . جسم إسماعيل كان ينتفض من الغضب والأرض ربما كانت تتقلقل تحت قدميه : هذا ، فللسماء سبع طبقات وللأرض سبع طبقات تهتز لهذا الفعل .

أفلت الولد ، كانت المسافة بينه وبين إسماعيل قصيرة - لكن الولد كف عن محاولة طلوع السور ولجأ إلى الأشجار الكثيرة والمساحة الواسعة .

« أحدهما فلت أما الآخر فهو فأر فى المصيدة : خمسة وعشرون فداناً استقامت فوقها أشجار البرتقال والليمون والجوافة وطوقت بسور قوى مرتفع » .

- هكذا وضح الأمر لإسماعيل فعاوده الهدوء وصرخ : « سأمسكك يابن الكلب » . بدت رؤوس الأشجار - وكان يوسف الأعور قد نادى للمصلين من فوق جامع عبد الله لصلاة المغرب من

وقت قريب – سوداء كالفحم المحروق جيداً والمنطفئ بالماء – كوجه « بربرية » زوجة إسماعيل أب على .. كذا بنفس لبدة الشعر الأسود الجعد الخشن .

– « أمسك به وأقتل » .

سريعًا مر الخاطر بذهن إسماعيل ، رأسه شعر بها ساخنة تحت نار الغضب الشديدة ، سأل إسماعيل نفسه : « لو طلبت العون من عافيتي ونور عيني هل أفشل ؟ .. منذ سبعين سنة وأنا أعمل» .

صرخ إسماعيل بنشوة :

– « يا ولد .. لك الأمان مني » .

قرر إسماعيل فتح باب الجنينة الخشبي الكبير المطل على شارع عبد الله ليستعين بشخص من المارة أو من المصلين ، قبض على ذراع المزلاج الحديدي ورفعه وتعمد أن يضربه بالباب الخشبي ليصدر صوتاً مرتفعاً ، وصرخ من جديد وأحس بقلبه يدق بين ضلوعه بشدة وبسرعة وبنشوة .

– « أمامك فرصة العمر .. اظهر ولك مني الأمان » .

سمع رائحة هسهسة الطيور – المعتادة قبل الغروب – فوق الشجر ، وشم لزهر الليمون والبرتقال رائحة أكثر نفاذاً اختلطت برائحة عرقه القوي ، وشعر بمسام جسمه تتفتح كلها فجأة – وتضخ العرق الذي يبلل جلبابه ويجعله ندياً .

– « سأفتح الباب يابن القحبة » .

* * *

هبط المصلون الثلاث درجات الحجرية لمدخل جامع عبد الله بسرعة وتحلقوا حول إسماعيل ، بأقصى غضب استطاعه وبأعلى صوت استطاعه زعق :

– « أولاد الكلب .. الاثنين .. الأنجاس .. ابن الجنيّة هرب .. الثاني بالداخل .. رجل وامرأة .. الأسافل .. الأنثى بالداخل . امسكوه ابن الضلالي ابن الزانية » .

* * *

فوق سقف الساقية دفن الولد وجهه بكوم من خوص النخيل الجاف وستره بذراعيه الملمومتين.

صرخ منصور الصادق :

– ها هو .

امتدت رقاب الرجال بعيون النسور ، بحلقوا ، كشف حسان الدوالى ملامح الولد قبل أى من الرجال وزعق :

– عبده .. عبده ابن شحات الجبالى .

كالسيف يمضى فى اللحم الحى شق شحات الجبالى لحم الرجال ، وشق صدره إلى نصفين وصرخ بالألم العظيم ، وبكى الطفل على السقيفة ، وأسفل السقيفة صرخ شحات :

– عبده .. يابن الكافرة .. من منكما ؟ أنت أم هو ؟ .. من الذكر ؟

– أنا ..

سريعة خفيضة حزينة فرحة طرية خائفة دقت الكلمة طبلة كل أذن ، وتمثل شحات لحم زوجته الطرى وجسم ابنه الأبيض الرجراج باللحم وعيون عبده الصفراء كأمه .

– كذاب .. كذاب يابن العاهرة .. سآكل لحمك ، مع من ؟ .. مع من ؟

– مصطفى ..

– .. ابن من ؟ .. بالبلد ألف مصطفى يابن الكلبة .

– ابن فكرى .

– ابن فكرى الكور !

« مصطفى ابن فكـرى الكور » : كررهـا شحات عـدة مرات ، كان كنادبة تخبط على دف لا تتوقف .

– أشار شحات لبئر الساقية العميق المعتم .

« أرمى رمّتك .. مصطفى الذكر يا كلب » .

ولمعت عيون شحات وقدحت الشرر ، وهمهم الرجال ، واشتد نحيب الولد ، زعق شحات :

– من يحمل عنى العار ؟

قال يوسف الأعور :

– الضنا غالى يا شحات .

صرخ شحات ورد صوته من تجويف البئر :

– والشرف غالى .

قال الصادق محمد : « أطفال .. أطفال صغار يا شحات » .

صرخ شحات : « أنا وأنت كنا صغار . هل كنا ؟ .. بداء الصغر يموت الأشيب .. إنها دودة ملعونة تنهش فى اللحم ويحسم وقطع أشار شحات لبئر « الساقية » ورآه الرجال ذئباً جائعاً داهمهم منفلتاً من ظلام المكان : لا شيء يصده الآن .. سينهش فى اللحم الحى ، لاذوا جميعًا بالصمت وسمعوا : صوت اصطدام الجسم الحى بالماء : أقرب ما يكون لصوت اصطدام حجر كبير بالماء .

* * *

أتى الحاج عبد الكريم فور سماعه الخبر ، جثا شحات فوق جثة ابنه يبكى ، بكى كما لم تبك امرأة يوماً فى القرية على ميت عزيز ، وقال الحاج عبد الكريم :

– كفى يا شحات .. كفى .

قال شحات : « أنا فقير يا حاج .. فقير لا أملك غير شرفى » .

قال الحاج : « لاغنى غير الله يا شحات » .

قال يوسف الأعور : « كلنا فقراء يا شحات ولا نملك غير شرفنا » .

– هل كنت تحترمنى يا حاج ؟ هل كان يحترمنى أحد ؟ من كان يحمل عنى العار ؟ أنا الآن أملك شرفى .

قال الحاج مواسياً : « أعانك الله يا شحات » .

* * *

ضم جمع الرجال فكرى الكور ، الحق كان وجه الرجل أمام الملأ أشد صفرة من وجوه الموتى، بحث الرجل عن ابنه الشارد بين الشقوق وتحت الأحجار وما عثر له على أثر ، وما بقى لفكرى غير الوهن والخزى ورقبته التى قدمها لشحات الذى ساحت دموعه .

– ما الذى يرضيك ؟ أنا فقير مثلك ولا أملك غير شرفى .. أنت جارى يا شحات .

قال شحات : « عافاك الله يا فكرى .. الحاج يحكم بينى وبينك » .

فرد الحاج : « ابنك يا فكرى يترك البلد .. يرحل لا يعود .. لا يدخل البلد نهائياً » .

قال الشحات : « رضيت بحكم الرجال يا فكرى ؟ » .

أقبلت الهواجس دفعة واحدة « يعيش مصطفى غريباً .. يموت غريباً .. تماماً كالغجر الرحل : عديمى الشرف سارقى الدجاج » ، أزاح فكرى الهواجس .. فهو عاقل والفرد لا يعارك بلداً ، قال بحزن :

– أمر الرجال ينفذ يا شحات .. قبلت يا حاج . غادر شحات المكان ، قال للرجال بأسى :

– ادفنوا الجثة .. صلوا على روح الميت يا رجال .

* * *

نصف الليل ولّى ، والنوم أيضاً ولّى ، وإسماعيل أب على طرد أكثر من مرّة رغبته فى بريريّة زوجته الراقدة تتقلّب بجواره على الحصيرة ، وعلى الأحزان وداخل الحقول وفوق المصاطب وبالجحور وتحت الأغطية : رجال ورجال .. ورجال ونساء .. ونساء ونساء .. وبنات وبنات .. وقطط وقطط .. وكلاب وكلاب .. وضفادع .. وجرذان وجرذان ، وقالت الأفكار السود لإسماعيل أب على : ابحث عن مصطفى .. اقطع البلد شبر شبراً .. اقتله .. واشرب دمه .. انتقم للجار وحقه فى الشرف .. مصطفى يستحق الموت عشر مرات خنقاً .

لم يكن إسماعيل راغباً فى النوم وفى بريريّة زوجته يوماً من الأيام كرغبته الآن . قال إسماعيل مطمئناً نفسه منادياً النوم : سيحيا عمره بعيداً وغريباً وبلا شرف .. وكذلك سيموت ميتة الغجر الرحل .. .

ومد يده ولامس ظهر بريريّة اليابس وشدها إليه .

رؤيـــــا

آتاك الميت الحي عابثاً – بغير ظل وقد لفّته الخالدة برايتها ، وحلّته بأساور من فضة وأقراط من ذهب – وقد تدلى من جيبه عقد من الجوهر يضوى .

وكنت قد فرغت لتوك من ثرثرة يومية معتادة مع زميل لك غادرك وبقيت أنت بانتظار زميل لك آخر تقتله . وتتعاونان معاً على قتل الوقت ، ولم تكن تتوقع أن يأتي الحي إلى هذا المقهى الكئيب ، لقد باغتك وطوح بكأسك ، وخاطبك أنت المخمور : « اليوم خمر وغداً أمر .. إنها ماتزال تطلب الضحايا .. قم » مد لك يداً من نور ، وطالعت بعينيك الأرضيتين الابتسامة تطل من عينيه السماويتين وتبعته خاشعاً متصدعاً حتى بلغتماها – وقد سجى الليل ، ورأيتها : زيتونة مباركة .. أصلها ثابت وفرعها في السماء . « إنه الوادي المقدس .. وتلك هي الشجرة » ركعت على ركبتيك وكلمك « أن يذبل ورقها ويجف فرعها – فهو الماء عنها قد شح أو هي الجذور اصطدمت بصخرة : هذا ما علمتنا إياه الإيام » ، وقال « ألا يأتي الماء من العالي – فقد منع ساكن العلا الماء ليهلك زرعك قوت أولادك » ، وقال : « جادله .. وأعلم إنه قاتلي » ناديت : يا ساكن العلا .. لقد منعت على الماء وهو خالق كل شيء حي .. الماء لزرعي يا ساكن العلا ..

– يابن آدم .. ستهلك شجرة الجد القائمة منذ الأزل . وسيهلك الزرع وكذا النسل .

« اغلق عيناً وافتح عيناً حتى يرى الذئب فيك .. آه .. افتح العينين ليرى البندقيتين .. آه .. اطلقهما .. هو خصمك : إن لم تقتله قتلك .

« إرفع فأسك المصرية ، وبيديك القادرتين هاتين : إضرب . واجرح الأرض كما لو كنت تقتل حية : مزق جسد الصخرة .. وارفع حاجز الموت عن الشجرة التي تمنحك الظل والثمرة » .

الفلسطينى

(١)

خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب .

(٢)

حشت فمها بخرقة قماش .. وأطبقت عليها بأسنانها ، وصرخت صرخة الألم والخلاص : وكان دافقاً .. وكان دافئاً ، وغابت عن الوعى .

(٣)

لما حامت الطائرة : الطائرة بجناحين . صرخت الحصاة البيضاء : « العدوة » . فتلونت الحرباء بلون الرمل . وزفر الجبل ووضع كفه الغليظة على صدره حتى لا ينشق إلى نصفين : « آه .. لو لم أكن للأرض وفى الأرض وتداً » . وكشح كشاف بعيد الضوء مرة للشمال ومرة لليمين ، فلمعت الرمال كالترتر . وانغرس الرضيع فى حضن أمه ولم يفارق فمه الثدى .

(٤)

كان على مبعدة منها يحبو فى ظل عينيها الحارستين ، وحامت الطائرة ذات وجه الكوكليس بعينه الواحدة المخوفة ، فعاد إليها صارخاً ، لمته ، وأعطته ثديها ، ومسحت دمعه بكمها ، حتى لا يختلط دمع العين بلبن الثدى .

(٥)

بفرح كانت ترقبه وهو يحبو ، وحامت الطائرة التى تحمل فى جوفها قنبلة ناسفة وقنبلة حارقة ، فعاد إليها باكياً ، لمته ، ونضت ثديها الذى دهنته بعصير ثمرة الحنظل المرة ، مص مصة ، وبصق ، وتأهب للبكاء فدندنت تناغيه : « حميدة ولدت ولد .. سمته عبد الصمد .. جامت فوقه طيارة .... » .

(٦)

لما حامت الطائرة الكافرة بكل حى . وكانت هى تغزل بالمغزل من فرو الشاة خيوطاً من الصوف ، توقفت ، ونظرت إليه :

رفع قائمتيه فى الهواء ، وتصلب على قدميه ، وخطا خطوتين ووقع ، تقدمت إليه ، وقبلته ، وتفلت على الأرض - على الشيطان - حيث وقع .

(٧)

ظلت ترقبه وهو يتابع الطائرة بعينين سوداوين ، ورأت فى عينيه : بذراً وليلاً وخرزة زرقاء .

(٨)

تحت ليل الله الأسود وقمر الله الأخضر : مضت تخلص الخيوط وقد تشابكت - بينما رشق الولد ريشة حمامة بجنب تمرة بلح صفراء ، ورشق ريشة بخلفية التمرة ، ورشق بجنب التمرة الأيمن: لقد فرغ من صنع لعبة .. لقد فرغ من صنع طائرة ، من تمرة صفراء رشق فيها ثلاث ريشات من جناح حمامة سوداء برقبتها طوق أبيض .

(٩)

الطائرة رأت اللعبة . وكانت اللعبة على شكل طائرة . الطائرة التى يجرى خلفها خيط الدخان الأبيض تكره اللعب .. كل اللعب .

(١٠)

قالت السماء للمتعال الجالس على العرش :

« سيدى .. لقد رأيت بعينى الزرقاء الكبيرة المخادعة تلك .. كل ما يجرى .. إنها مشيئتك .. ولكنه فلسطينى .. وأنا أيضاً فلسطينية » .

وغداً أيضاً الأحد

(أ) أعرف أنها تمر على المقهى كل يوم أحد .. متى تعرف هى ؟

(ب) لم تمر . الحصان العجوز الأبيض كان يجر العربة المحملة بأكياس الدقيق . أنا الأرق والحصان العجوز والحوذى العجوز والشرطى الساهر والمومس المخمورة .

(ج) هذا موعدها الثانى : اغفر لها يا قلبى وقد عرفت .

(د) أيتها الكارهة : أحبك .

(هـ) الآن : لا أحبك .

(و) أنت لا تستحقين ، نعم ، ورميت زهرة القرنفل – وقد عريتها من ورقها – فى كوب الخمرة ، وشربت ، وشربت ..

(ز) يا أيها العالم – أنت شاهدى : أنا لا هو .. أنا الذى أحبها ..

(ح) رغم السنوات : اليوم الأحد .

الغــول

وقف المطرود من أهله ، وتفل على الأهل القساة ، ورمى بنظرة أخيرة على البيوت القصية . وكم كانت فرحته كبيرة بوفاء الحيوان لما وجد قطته الحبلى تتبعه .

سار ، وسارت خلفه وطال سيرهما إلى أن أوغلا في القفر فاستبد بهما العطش والجوع – وكانت القطة الحبلى قد ولدت عدداً من القطط الصغار العميان . وسدت جوعها بلحم واحد من أولادها الصغار ، وروت عطشها بدمه ، قلد المطرود من أهله فعلة الحيوان – إلا أنه لم يستطب اللحم النيئ ، فضرب حجرين وأشعل النار في حطب لمه وشوى قطه وأكلها ، وما أن أحس بقسوة العطش حتى شرب دم ضحية جديدة .

وهكذا مر اليوم حتى وجد المطرود نفسه في يوم هو وقطته يتعاركان ، إلى أن دان له النصر فأكل لحمها . وواجه صاحبنا ابن ذلك الزمان وحده الجوع والعطش والوحدة والخوف من الوحش ، فقرض أظافره ، وقضم نصف أصابعه ، وأوقد النار العالية ليرهب الوحش ويهدى الضال والضارب في القفر ، فقد يعود يوماً إلى دنيا الناس .

وما أن واجه المطرود الإنسان الضال حتى غلب عليه الخوف من العودة إلى الجماعة ، فصرع ابن جنسه وشرب دمه والتهم لحمه نيئاً ومشوياً .

ومع الوقت تمكنت منه العادة ، وأصبح هذا طبعه ، وبمرور الزمن ذاع صيته لما هاجم جماعة الأحياء ، وتفنن الناس في وصفه ورسمه ، وأصبحت الأم ترهب ابنها إن عصاها بالغول ، وتحذر زوجها المسافر والد ابنها من الغول .

هــى وهـو

– لم يكن الظلام قليلاً ، رأيت اليد المرفوعة ولمعة السكين ، كنت قد بوغتّ وها أنا هنا .

رفعت يدها عن جبهته ، وقامت .. طارت حمامتان ، والنار ماتزال مشتعلة . ظهرها له ، تعبث بعلب الأدوية فوق طاولة قريبة ، ربما لتخفى دموعها : كانت الضربة نافذة .. وكان الجرح غائراً .

رفعت يدها فى وجهه – قالت « يدى هذه ليست يدك .. ويدك لن تكون أبداً يده .. حاول .. هل تحاول ؟ » .

وقالت لنفسها :

سأحمّيه بماء ساخن .. وأرش جلده بماء الورد .. وأدهن جسده بزيت الكافور .. وأرمى على جبهته خصلة من شعره أشبك فيها خرزة زرقاء وعجينة من مسك ، وأصنع من شعر رأسه ضفيرتين سوداوين خشنتين .. حين ذاك سيكون قادراً .

الجـــوع

جاوز الحد وخاف من قسوة التشريع فثقب الحائط بالهمّة واليدين وبذراع من حديد ، هكذا فر الآدمي ذات يوم بعيد -- من جحيم الأهل ونعيم الحضر إلى جحيم البيد : حيث لا ماء ولا بشر . والآدمي لا يواجه الوحش إلا بالنار التي تولد من ضرب حجر بحجر . فر آدمي ذات يوم بعيد من جحيم التشريع .

البكــاء

قطع رجل – ذات يوم – بقضيب من حديد ذيل حية ، فهربت الحية من بيته – واحتمت ببيت أرملة عجوز .

قالت الأرملة العجوز – وكانت حكيمة – لنفسها :

« حياتي في دجاجاتي .. فأنا أقايض صاحب الدكان – يأخذ البيض ويعطيني كيس الشاي وقرطاس السكر وعلبة الكبريت .. كذا الزبال يأخذ زبل دجاجتي ويعطيني الإبرة وشلة الخيط وحفنة الملح وحبات الفلفل .. والحية رفيقة قبر ، وهي في الدنيا رسول موت بخاخة سم بنات قاتل .. الحية تحب البيضة مطبوخة بالبصل .. سأطبخ للحية كل يوم بيضة بالبصل .

هذا ما فعلته العجوز من أجل الحية . وعلى هذا الحال مرت الأيام وفي يوم باضت الحية بيضها الأرقط أخفته كما تفعل كل حية أم .. ثم جاء يوم وطلعت ديدان تتلوى تحت أرجل الدجاج الآمن . وما هي إلا أيام – وإذا بالديدان حيات تسعى في أركان البيت الآمن . ويوم وجدت الأرملة العجوز دجاجة قتيلة – قعدت على تراب الأرض والدجاجة القتيلة في حجرها وظلت تبكي ضعفها وخيبة حكمتها وهوان أرملة عجوز أجبرها الزمان على مواجهة صغار حية مقطوعة الذيل .

أما الحية التي قطع رجل ذات يوم ذيلها بقضيب من حديد – فقد لمّت صغارها وشمّتهم الواحد بعد الواحد وكانت قد شمّت الدجاجة المقتولة ، ولما تمكنت من فاعل الفعلة أطبقت على عنقه بأسنانها ومنعت عنه الهواء ، ولم تتركه إلا جثة بغير روح ، ثم فارقت الحيّة الوفية المكان يتبعها صغارها إلى عراء رحب لا أمان فيه . بينما الأرملة العجوز – في جحرها الضيق – مع دجاجاتها وقتيلين تبكي ولا تعرف متى تتوقف عن البكاء .

هكذا تم الفراق .

الضحك

العليلة عليلة من سنين .. خاب طب الأطبة .. كما خابت وصفتك يا عجوز يا مجربة .. فهل تفلح ساحرة مقنعة وقرد لعاق ؟

زعقت (والناس حولها دائرة محكمة) : هاتوا العليلة ، ومن جرابها أخرجت الطين والحجر وأكياس اللون وعيدان الحطب المعطر والسفودين ورشت اللون على تراب الأرض . ورسمت آية الحق ورموز الباطل ، وضربت الحجر بالحجر فتطاير الشرر الأحمر واشتعلت النار حمراء فى الحطب (هكذا خلقت الساحرة العارفة من اللهب الصغير الراقص – الحدود التى تفصل بين لابسة وعريان) ودقت الطبل فرقص القرد وظل يرقص ، وكلما زادت في الدق زاد القرد فى الرقص ، إلا أنها توقفت بغتة عن الدق على طبلها – وصرخت فى القرد الذى لم يتوقف عن الرقص : قدامك بيتك.. بدِّدْ خوفك – وارجع لأمك . وما إن تخطى القرد حاجز اللهب وعيون الجمر المبحلقة وهمّ بالفعل بعدما طلع (وكان قد عرّى الجسد) – حتى هاجت الحلقة .

الخــوف

تزوج صاحب حانوت – لا ينجب – من جميلة ، وحرص عليها كما يحرص على بضاعته . فالجميلة صورة فى إطار : تزار ولا تزور ، كريمة فى نعيم البيت – مع طير مغرد فى أقفاص ، وسمك زينة ملون يسبح فى آنية من زجاج ، حوراء مطوقة الجيد بعقود مفصلة من كريم الحجر ، بخلاخيل من فضة وأساور من ذهب ، تلبس الثياب الغالية موشّاة بالقصب والمناديل ملونة ومعطرة ومطرزة بترتر وخرز .

والأيام – كما شاء خالق الأيام – قسمة بين ليل ونهار ، ونهار ابن زماننا صاحب الحانوت أبيض : أبيض بالنور السماوى .. وأبيض بالربح لما تتزاحم الخليقة على السلعة الشحيحة ، أما الليل فوسواس خوان .

كلما جاء ليل : أغرق رب البيت صاحب المال وحارس الجمال البيت بالنور الفاضح وأطلق الكلب النابح .. وعرى الخليلة ولاعبها وأرضاها بالفاكهة والحلوى ولحس ومص ، وبعدما ينال البعل مراده ينام ويشخر – حتى يذهب هذا الليل ويطلع نهار أبيض جديد ، بربح أبيض جديد .

على هذا المنوال – كـرت الأيام ، وذات ليل – وعلى نبـاح الكلب الأمين – هب صـاحب الحانوت من النوم هلوعًا : فها هى خيالات تتحرك فى النور تبغى المال أو تبغى الجمال – وهو حريص على المال والجمال .

رمى الخيالات بكل ما وصلت إليه يده من أشياء ، وسقط خيال فحمله زميلاه وفرا من النور إلى العتمة ولم ينم هو تلك الليلة . ولما طلع النهار رأى الدم على السجاجيد ، وأيقن بفطنته أن الدم الذى سال من الخيال قد يفقد الخيال حياته . هنا زاد خوفه من انتقام خيالين لصاحبهما الميت ، فأشترى بندقية تزهق روحين وكف عن البيع وأغلق حانوته ، وإذا ما جاء الليل – فهو سهران قابض على بندقيته يحمى المال والجمال ، وبين الحين والحين يطلق رصاصتين فى الهواء ..

المــوت

يروى أن الملاك العبوس عزرائيل أراد أن يعابث روحين لعبد وعبدة يعملان فى غيط السيد ، فتنكر على هيئة شيخ ضرير بلحية ، تحت إبطه لوح وبيده ريشة ودواة .

استبد العجب بالعبدين الغافلين : ما حاجة شيخ ضرير إلى اللوح والريشة والدواة .. ولم لا يدب بعصا كسائر العميان ؟

وقالت العبدة لزوجها العبد : لو أمرتنى سألته ؟ .. إلا أن الملاك الذى سمع حديثهما قال : العبد لا يسأل يا بنية .

فسأله العبد : وهل أنت سيد ؟

قال الملاك : أنا سيدٌ لا أسأل .. وأنا عبد لا أسأل .

ركع العبدان وقالا : يا لك من حكيم .. علمنا أيها السيد الحكيم حكمة تنفعنا .

قال الملاك : ستموت زوجتك من فعلك .. وتموت يا عبد من فعل زوجتك .

قال العبدان : فسر لنا قولك الملغز يا حكيم .

قال الحكيم : عطشان .. وشربّه من بئر السيد تسقينى .

قال العبدان : سنسقى السيد الحكيم من بئر السيد العذبة .

أنزلت الزوجة الدلو فى البئر ، وهى تسحبه رأت سمكة كبيرة بعيون مضيئة ، فتركت الدلو وهبطت سلالم البئر ، ولم تكن على قدر من الحكمة حتى تدرك أن الملاك عزرائيل قادر على أن يكون سمكة كبيرة بعيون مضيئة ، يراوغ ويعض كل من يمسكه .

فلما عضتها السمكة صرخت : إلحقنى يا زوجى .. سارع الزوج العبد لنجدة زوجته العبدة ، وهبط البئر .. وهنا تمكن الملاك عزرائيل من الإثنين ، فشهق شهقة كبيرة ولم الهواء النافع ، وزفر زفرة كبيرة وبخ الهواء الضار .. ليموت العبد والعبدة اختناقاً فى بئر السيد .

أشكال

ها أنا راكع أغسل بدموع المعذب المقهور قدميك .

ياربى ، يامن خلقتنى من طين . أنا أسير بأمرك البغل الذى يجر العربة المحملة بكل صنوف الثمر الحلو الملون فواح الرائحة .. بغل من هذا النوع يا ربى : بغل لا يقول لا ولا يقول نعم . بغل يسير ويحرن وقتًا ويعد الجلد يواصل المسير . بغل يشتهى كل صنوف الثمر الملون الحلو .. فقط يشتهيه ثم لا شىء آخر .

أقول إنى بغل يشتهى ويستعيض عن متعة الأكل بمتعة الاشتهاء . فليس من الضرورى أن يأكل بغل ، فالدجاجة لا تأكل بيضها .

إن الاشتهاء حرية مأمونة حتى وإن كانت منقوصة . أما مبتغى – الطعام فقد يقع يومًا فى قبضة العسكرى ، ويدفن فى السجن المعتم الرطب ، لا هو بالحى ولا هو بالميت ، ولا صديق له إلا الحشرة والرائحة النتنة .

كُن المصرى الصالح : كُن السيد

تزوج – هو الفارّ من أهله – زوجة جميلة فارّة من أهلها ، ووعدها بمسكن :

هكذا لبس ثوب الوحش ملك الحيوان ، وقصد العراء . ولما وجد الماء يشق المجرى فى بطن الصخر بنى بيته وسوّره بالشجر الذى التفّ على الشجر .

جاء الضال وطلب منه الطعام فأطعمه ولم يطلب منه الثمن . وبعد رحيل الضال بأيام عاد الضال ومعه أهله ليشكره ويشكروه ، فأطعمهم وأصروا على دفع الثمن . وهكذا شيد حانوت « كل واشكر » الذى صار راحة للمسافرين .

قسم أوقات اليوم مع زوجته يتناوبان العمل ، ولما فاضل بين ربح المرأة وربح الرجل ، وسفاهة السكران ونصاحة الواعى .. قرّ قراره على أن تقوم زوجته بالبيع أغلب أوقات اليوم ، وشدّد عليها :

« إرمى ذلك المشترى بنظرة تمسك وتفلت ، ولا ترقدى على ظهرك فتخسر الجلد والسقط ، وتبقى المهانة بعد العودة إلى أيام عشناها – أنا الفارّ وأنت الفارّة – وخبرنا مرّها » .

وتحت إلحاح الراغبين فى النوم شيد الفندق من طابقين فوقهما طابق مفصّل لا يبلغ الماشى نهايته . هكذا خلق الدنيا كاملة : أكل ، وشرب ، ورقص ، وجنس ، ونوم ، وأطفال – هم أحفاده وهو جدهم الشرعى . وها هم يلعبون فى الكرمة تحت الشمس ، وينتظرون ابتسامته العصيّة .

* * *

دجاجة تبيض ، وبيض يفقس ، ودجاج يطلع – هكذا المال يلد المال . فإن لم تحكم به الغير حكمك الغير ، وهم الكثرة وأنت القلة ، أنت الفرد وهم الجماعة . وهكذا الجماعة إن اشتريت قليلها أخضعت كثيرها ، ليكونوا لك اليد التى تبنى وتزرع وتقلع وتصفق ويكونوا الفم الهاتف بالحمد .

* * *

سألها : ما حاجتك للاسم ؟ وما حاجتى للاسم ؟

قالت : تناديني حورية – وأنا فى الماء حورية – وأناديك بهاء ، فيدوم بيننا التعارف .. لا تضل ولا تدق الطبل واهتدى بشمسك ..

هل فهمت .: أم أكرر قولى يا بهاء ؟!

(*) هذه القصة كانت مخطوطة ضمن مخطوطات وأوراق يحيى الطاهر عبد الله . وكان يحيى الطاهر – قبل وفاته – قد أشار إلى هذه القصة خلال حوار مع صديقه حسين حمودة عن « مشروعاته » القصصية التى لم يكتمل بعضها ولم يكتب بعضها كتابة نهائية .

ويقول الأستاذ إدوار الخراط إن يحيى الطاهر كان قد أشار إلى هذه القصة باعتبارها قصة مكتملة .

إلى سنوحـــى

(١) على البيت سقطت القنبلة : يالونه الأزرق .. يالونه الأزرق .

على القلب سقطت القنبلة : يارنّة الفضة .. يارنّة الفضة .

(٢) نذرت أنا للشارع ، ونذرت هى للأوجاع . علاقتنا بلا غايات بعيدة ، لا الخمرة ولا أن تصالحنى تلك التى أحبها – سيقيم البيت الذى دمرته القنبلة .

(٣) صوتها قادم من صحراء أعرفها ولا أبوح حتى لا أسقط فى أيدى الشرطة . صوتها قادم بالأزرق والفضة .

(٤) فى النوم رأيت نفسى مهرة سوداء ، نعم : فى الحلم كنت المهرة السوداء .

فى الحلم يعشق الموتى

سمعت الصوت « الجبل يا سارية .. الجبل » .

ورأيت :

طائرة العدو تطير ، وتكرهنى ، دمرت بيتى بقنبلة ، ودمت قلبى بقنبلة ، ودمت قلب محبوبتى بقنبلة – وكنت قد سمعت الصوت .

لم يعد قلبى فى بدنى ، فحملنى ذلك على قطع الصحراء . لم يلمنى أحد ، ولم يبصق فى وجهى أحد ، ولم أسمع أية إهانة ، ولم يرد اسمى على فم أى مخبر .

بيدى (صنعتها) ، زرقاء من ورقة ، لكنها تطير ، طائرتى ، أنا ، الملاح الماهر صانع الصندوق والقارب ، الروح الحية الهائمة بغير ظل ، عدوى أدمية بقنبلة ، والعاشق والعاشقة أرميهما بوردتين .

« لا تفلت الخيط » ، أنت من صلبى ، « لا تفلت الخيط » .

الرســول

رسول الموت – وهو مخادع قادر – خلع أثواب الحرير وعقود وأقراط وخلاخيل الزينة : وتنكر في هيئة سمكة حية تسبح في ماء حلو .

رسول الموت – وهو مخادع قادر – خلع أثوابه الحريرية والعقد والقرط .

رسـول الموت المحب للزينة – وهو مـخـادع قـادر – خلع أثواب الحـرير والعـقـد والقـرطين والخلخال – وتنكر في هيئة سمكة كبيرة حية تسبح في ماء بئر حلوة الماء ونادى رب الدار عليه بلغة السمك ، تعال ، الرسول قابض الأرواح – وهو مخادع قادر – خلع ثياب الحرير .

إبريل ١٩٨١

(*) تعتبر هذه القصة آخر ما كتب يحيى الطاهر في حياته حيث توفى ٩ من إبريل ١٩٨١ .

حكايات للأمير
حتـى ينـام

من الزرقة الداكنة حكاية

الحمد لله الذى لم يسلبنى كل نعمة فمنحنى نعمة الخيال ...

والصلاة على النبى الذى أجار غزالة البر لما استجارت به من شر صاحبها اللئيم ..

والثناء الثناء عليك أميرى ..

(أقول)

إن الكونت الإيطالى شاذ الطبع ، دخل مدينة الشتاء بالصيف ، فما أن حدقت فيه شمس صيف المدينة – هو الغريب – بعين كبيرة ورمته بألف رمش من نور وألف رمش من نار – حتى سارع بخلع كل ثيابه وأبقى على البنطلون القصير ولولا الملامة لخلعه ، ودس رأسه الأصلع تحت قبعة زرقاء ، وأشار بيده الممسكة بالغليون – فهرول نحوه الجندى الأسكتلندى بخوذته ذات الريش الأزرق وثيابه الزرقاء الزاهية وسيفه المتدلى من جنبه ومد يديه بزجاجتين من الويسكى ، شرب الكونت المحب للشراب زجاجة وهو واقف وزجاجة وهو قاعد على درج المطار ، وفرك راحتيه فتحركت باتجاهه عربة زرقاء مقفلة نوافذها تغطيها الستائر الزرقاء وهبط منها رجل ضخم حمل الكونت وأقعده على الكرسى الخلفى ، واعتلى الجندى الأسكتلندى حصانه وتقدم العربة شاهراً سيفه .

(أقول)

من شرفة الفندق المطل على النيل أطل الكونت الثمل ، ورأى النيل رجالاً بثياب الموج الداكنة الزرقة وقد تناثرت حواليهم النجوم الزرقاء – فهاجت روحه واشتاقت للفعل : رسم على الورق البيوت السبعة ، وأحاطها بسور من حديد مدبب ينفذ فى اللحم وجعل بوابة السور فى حماية كلاب تنهش اللحم ، كل بيت من البيوت السبعة بحديقة وحوض ماء به سمك ملون ونافورة ، وداخل السور كان اسطبل خيل ، البيت الأول من طابق واحد والثانى من طابقين – وهكذا تدرج (١ = ١ ، ٢ = ٢ ، ٧ = ٧) ، ودهن البيـوت بلون أزرق يقـتم (من ١ إلى ٧ أو من ٧ إلى ١) ، ورفع الكونت منظاره واختار من الرجال ستة (البناء ماهر ، والحداد قوى ، والحوذى شاب ، وفالح الأرض فحل ، وصانع الأثاث بيدين مدربتين رائعتين ، والنقاش مرح) .

(أقول)

أخيراً تكلم الكونت بالإيطالية ، وهو راقد على بطنه فوق مرتبة من المطاط محشوة بهواء رطب من تحت شمسية يتدلى منها ورق الزينة الأزرق : براڤو .. لقد وثقتم بى وقد وهبتكم البيوت... وها أنتم أمامى سادة بحلل سوداء وأحذية تلمع تتمخطون فى مناديل .. كل شيء هنا داخل السور صار لكم .. واليوم للخمر والمتعة الصافية .. ومن غد سأعلمكم لعبة الورق فخلال شهر سنستقبل هنا أضيافنا وهم من علية القوم .. سيكون كل منكم قد أحسن الإمساك بالشوكة والسكين وعرف كيف ينزع اللحم من العظم .. سأبذر فى نفوسكم المتباعدة روح الجماعة التى ترفض أن تغلَب – تلك التى تخطط للنصر الذى سيجعل منكم الأغنياء السادة بحق لهذا العالم الذى لا يحترم إلا السيد الغنى .. لقد اكتسبت أنا تلك الروح بعد جهاد شاق وحياة دون كادت تحشرنى فى زمرة الموتى عرياناً جائعاً .

ورفع الكونت كوبه – فرفع الأسافل أكوابهم وقرعوها كأنهم السادة منذ زمان بعيد .

(أقول)

مر الشهر وتلاه شهر وشهر ، وها هم القوم يستقبلون أضيافهم من ثراة العالم – الطامعين فى كسب مستحيل – برفع القبعات ، يرطنون مع بعضهم بالطليانية ويكلمون أبناء جلدتهم بخلطة من كلام العرب وكلام الطليان ، يلعبون الورق بخفة الحواة ويحسنون الغمز واللمز الذى نهايته الظفر بمال خصومهم ، ويشربون من جيد الخمر : البذر والنهر والبحر فلا تدور لهم أدمغة ، ويأكلون من اللحم المشوى والمقلى والمسلوق : التلال والجبال والسهول والوديان – فلا يصيبهم مغص أو وجع .

(أقول)

بعد الثناء عليك أميرى والصلاة على النبى – لله الحمد على هذه الخاتمة الحسنة :

فها هى ذى العربة قادمة من البعيد بستائر زرقاء مسدلة – وقد داست بعجلاتها فوق بشر وشجر وحيوان وطير داجن وهدمت بيوت النمل ووقفت أمام البوابة وهبط منها الرجال الأقوياء الصالحون لكل شيء . رفع الكونت قبعته الزرقاء بيد ، وأشار بيد ممسكة بالغليون للكلاب فكفت عن النباح ، وبأسى قال الكونت للرجال : كيف جاء الموعد هكذا سريعاً ، ولم يسمع جواباً ، فركب العربة . وركب بعده الرجال . وركضت الخيل . وتصاعد الغبار فغطى كل شيء ..

حكاية صيف

بعد رحيل الكونت (ذلك الذى حكيت لك حكايته أميرى) ثار الغبار الكثير فى أعقاب العربة فحجبها عن أعين البشر .

هنا – أقول أنا : إن ثمة صيفاً أقبل ، لا ككل صيف ، فهذا الحر فى الجوف لا يلطفه ماء ، ورطوبة الجو تخنق الأنفاس ، والشمس الكبيرة القريبة من الأرض لا غاية لها إلا أن يشب الحريق بعالمنا فى التو واللحظة .

(والله واحد يا أميرى والشمس بوجهين) .

قالت الأم : أبوك رحمة الله عليه كان طيباً ، يمشى فى حاله ، ويطلب من الحوائط أن تداريه ، والكونت يا ولدى اشترى الأرض من جدك بماله .

ردّ البكرى : جدى كان يسكر وكان يقامر – وتلك شيمة الرجال ، لكن بأى حق يرث القرين الأرض ، ولا هو كونت ، ولا هو ابن كونت ، ولا من سلالة كونت ، كذا لا أنا ولا أنت نعرف طليانى حتى نحكم إن كان كلامه طليانى أم غير طليانى ؟ كما أن اسمه القرين !! ، طظ ، سأمنعه بعصاى هذه من زراعة الأرض .

صرخت الأم ، فتجمع الجيران ، ودار جدال ، لكن البكرى شق الجمع وبيده عصاه – والأرض مقصده – ومن خلفه سارت أمه تلطم ومعها جمع من النسوة المولولات .

صرخ البكرى فى القرين : انزل من فوق البغلة وكلمنى .

قال القرين لنفسه : هذا كلام قبيح .. وسروالى ابتل ، وهذه الرائحة الكريهة التى أشمها بنت خوفى (وهمز القرين بغلته فركضت) .

(وآه يا أميرى الليل أيضاً برأسين ، والله فى ملكه لا شريك له) .

قال القرين للحداد : اصنع لى حجرة جدرانها من الصاج المتين ، بسقف من الصاج المتين ، ولها باب من الصاج المتين يغلق من الداخل بلسان متين ،. واجعل للباب عيناً مسحورة – أرى منها

الطارق ولا يرانى ، ولك منى يا أيها الحداد عشرة جنيهات ورقية ، وعشرة جنيهات ورقية ، وعشرة جنيهات ورقية .

وقال القرين للقتلة الثلاثة – ورسم لهم البيت والشجرة والمنحنى والتل والترعة : أريده حيًا ، مربوطًا بالحبال ، سأبصق على وجهه الكلب ابن الكلب – أنا القرين ، وسأدفع لكم عشرة جنيهات ورقية ، وعشرة جنيهات ورقية وعشرة جنيهات ورقية ، وفوقها عشرة جنيهات ورقية .

وقال القرين لنفسه – بعد أن فارقه القتلة : قلت لهم إنه كلب وابن كلب ونسيت أن أقول لهم إنه ثعلب وابن ثعلب ، قد يضللهم ويغطس فى الترعة أو يلبد فى جحر وينتظر الحين المناسب ليثب علىّ هنا ، ربما فى ثياب خادمى الذى يحمل لى قلة الماء وصينية الطعام ...

حكاية عبد الحليم أفندى
وما جرى له مع المرأة الخرقاء

أنا لم أشهد تلك الأيام لكنى حضرت ليلة أحياها ثلاثة ، ثلاثة من أفضل الرواة – يا أميرى ، خطفهم الموت الظالم فى عام واحد ، عليهم رحمة الله ، لقد كانت خسارتنا فيهم كبيرة ...

* أكتع يدق على عود ، فيبكى وتر ويضحك وتر ..

* وأخرس يرسم الدنيا بالصرخة والإشارة : دنيا ببحر وشجر وطير وناس ...

* أما الأهتم فكان ضارب دُفّ لا نظير له ..

بعدما أكلوا الأكلة الدسمة وشربوا وشمّوا ، صرخ الأخرس ، فدق الأكتع على عوده وضرب الأهتم على دفّه – ذلك الضرب السريع المسمى بالقادوس ، وقالوا : فى ليلة – كأنها الليلة ، ورب الكون شاهد على صدق ما نحكى نزل الإنجليز من القوارب ، ونصبوا الخيام – هناك فى فضاء الأرض الرملية .. وظلوا على حالهم قرابة الشهر بينما النهر يفصل بينهم وبين بيوت ناس الشرق حتى جاء ذلك اليوم :

تفل ولد من أولاد ناس الشرق تفلة ، وراهن الولد أنداده – قال : ما قولكم لو عبرت النهر من الشرق إلى الغرب وعدت قبل أن تجف تفلتى ؟

رد الأولاد : نسميك البطل .. ونحكى حكايتك لكل الناس قال الولد : لا .. قولوا عبد الحليم أفندى راح وعبد الحليم أفندى جاء .. لقبونى بالأفندى .. ونادونى يا أفندى ..

ضحك الأولاد وقالوا : أمرك يا أفندى .. تمام يا أفندينا .

خلع الولد خرقته ، ورمى فى الماء بدنه ، وعارك الموجة حتى بلغ بر الغرب ببطن منفوخة – فكلم نفسه : هنا فوق الرمل الناعم أقف وأبول وأفرغ القربة .

وسمع الإنجليزى يناديه بلسان أعوج : لا تخف أنا كبير مطبخ الإنجليز ، وناداه الإنجليزى بلسان حلو ملوى : سبحان من صور بدنك ورسم وجهك ، وناداه الإنجليزى بلسان أحمر : اسمح لى بلمس بدنك وتقبيل خدك .

خلاصة القول – يا أخوان ، إن الكلام الحلو الملون فرض الطريق إلى خيام الإنجليز بالورد والحناء .

واسمعوا يا سامعين : قال الإنجليزى لعبد الحليم : أدخل الحمام واستحم – وناوله صابونة معطرة . دخل الولد الحمام وحك جلده ، وطرد القملة والبرغوثة ، وخرج الولد من الحمام ببنطلون أزرق وجاكت أبيض وبشبشب فى القدم ، وقعد على كرسى .

وجاء مُزيِن الإنجليز وقص شعر رأس عبد الحليم ودهنه بدهان طيب الرائحة .

وكما ضحك الأولاد من عبد الحليم لما قال لهم : نادونى يا أفندى ، ضحكت الأقدار من الأولاد ، وها هو عبد الحليم أمام عيون الكبار والصغار أفندى بحق ، يلوح بيديه بينما رسول الإنجليز يلوح بمنديل أبيض ، أما القارب فكان بموتور يهدر : فو .. فو .

ذهب عبد الحليم أفندى للمنادى ، فدار المنادى الأعمى فى الدروب . ومن القارب كلم الإنجليزى رسول الإنجليز الناس بلسان أعوج وطلب منهم بناء سور من الحجر ، وأعطاهم ريالات الفضة ، واشترى من أم الأولاد البيضة والدجاجة ، كما باعت له البنت الأرنب والحمامة .

صلوا على طه النبى :

فى نهارين أقام الرجال السور وشيدوا البيت اللطيف الذى سكنه كبير الإنجليز ، وبنوا المطبخ والورشة والمخزن ، وأصلحوا الطرق ورصفوها – لتهبط فوقها طائرات بمراوح وطائرات بأجنحة .

وفى شهرين – وبفضل كبير مطبخ الإنجليز – تعلم عبد الحليم كيف يطبخ طبيخ الإنجليز وكيف يصنع الفطيرة الحلوة والفطيرة المالحة ، وعرف رطانة الإنجليز فصار يرطن كالإنجليز .

وقال المعلم لتلميذه : إذا جاء الصيف البس له الحلة الفاتحة من قماش الشاركسكين .. وامسك بيدك منشة – ففى الصيف يكثر الذباب يا عبد الحليم .

وقال الخواجا لابن البلاد :

وفى الشتاء البس الحلة من قماش غامق .. والصوف الإنجليزى كما تعلم خير صوف يا حليم..

وتحت نور الكهرباء تلاصق الجسد بالجسد ، وقال المحب : لو صاحبت كبار القوم سيحترمك صغار القوم ويقفون لك ويطلبون منك العون .. ساعدهم يا نور العين ، واحمل شكواهم لكبار القوم القادرين على حل المشاكل وإخراج الناس من الحبوس .. هكذا يكبر اسمك ويطير صيتك .. وتصبح كما أردت أنا لك أن تصبح يا حليم ..

وكما تدور السواقى دارت الأيام ، وسافر الإنجليزى معلم عبد الحليم مع بقية أهله الإنجليزى إلى بلاد الإنجليز .. وجاء ضابط من بر مصر وسكنوا المطار وحكموه . وفى اليوم الذى هطلت دموع الحزن من عينى عبد الحليم وهو يودع معلمه الإنجليزى ، هطلت دموع الفرح من عينى عبد الحليم وهو يسمع الأمر من المصرى كبير ضباط المطار : أنت من اليوم كبير مطبخ المطار .

وهكذا – يا إخوان – صار عبد الحليم كبير مطبخ مطار مصر ، يجلس على كرسى ، بينما الكل خلية نحل تعمل : يغسلون الأطباق وينشفونها بالمناشف .. ويلمعون الحلل والشوكات والسكاكين بدقيق القيم .. وينزعون القشرة عن الثمرة .. ويهركون الأخضر ويصحدون اليابس ثم يطبخون وجبة الطعام ليأكل ضباط مصر .

على صوت المؤذن والديك تصحو أم عبد الحليم من نوم حلو ، وتحمل إبريق الماء الأحمر بيد والطست الأبيض بيد ، وتقول بصوت خفيض : يا عبد الحليم . يصحو عبد الحليم وينظر لساعته ويغسل وجهه دون أن يفارق سريره ، وبعدما يشرب فنجان قهوة بلبن وسكر – يدخن سيجارة من صنف إنجليزى رسم على طرفها القط الأسود قاعداً على كرسى وفوق رأسه برنيطة ، وقد دخن عبد الحليم سيجارته يفارق سريره ، ويحلق ذقنه أمام مرآة بلجيكية ويلبس حلة نظيفة مكوية ، ويشرب فنجان قهوة بسكر ، وينظر لساعته ويخرج ليمتع العين برؤية بنات الصبح حاملات الجرار، ويركب القارب من بر الشرق إلى بر الغرب ، وهناك فى المطبخ يجلس على كرسى وينظر إلى ساعته ، ويسألهم : هل سلقتم البيض ؟ ويسمع ردهم : سلقناه ، فيسأل : والزبدة والجبن والمربات ؟ ، ويأتيه ردهم : بالأطباق ، ويسألهم : وهل شطرتم الأرغفة ؟ فيجيبوا : شطرناها .. وينظر عبد الحليم أفندى لساعته ويقول : الآن قدموا وجبة الفطور لضباط مصر وهاتوا لى فطورى .

وهكذا يا سادة – كما يفطر ضباط مصر يفطر عبد الحليم أفندى : خبز مشطور مدهون بزبدة وبيضة مسلوقة وبيضة مقلية .. وصحن مربى وقطعة جبن رومية ، ثم يشرب فنجان قهوة من غير سكر ، ويدخن سيجارة وينظر لساعته ويأمرهم : بعد ما تغسلوا الأطباق وكافة المواعين هاتوا من صنف الخضر كذا ومن صنف اللحوم كذا .. ومن صنف الفاكهة كيت وكيت .

وهكذا يا سادة يختار عبد الحليم أفندى نوع الطعام الذى سيأكله ضباط مصر فى وجبة الغذاء ، وينظر إلى ساعته ويقوم من كرسيه ويتبعه تابع ، وهناك فى البيت اللطيف – يقف وخلفه التابع أمام سيدة المكان وزوجة كبير ضباط المطار التى تقول :

أريد من صنف الخضار كذا ومن اللحوم كذا ومن الفاكهة كيت وكيت ، فيقول عبد الحليم أفندى لتابعه : اذهب إلى المطبخ الكبير .. وهات سلة بها من صنف الخضار كذا ومن صنف اللحوم

كذا ومن صنف الفاكهة كيت وكيت ، وقبل أن يعود التابع – يدخل عبد الحليم أفندى المطبخ الصغير ويغسل القدور والصحون والشوكات والسكاكين والملاعق وينشفها بالمناشف ، ولما يعود التابع بأمره عبد الحليم أفندى يغسل الخضر ونزع القشر عن الثمر ومسح قعر الحلل بالسمن وبيضا البيض ، وبعد ذلك يطبخ عبد الحليم أفندى ما ستأكله زوجة كبير ضباط المطار مع ابنها حسام الدين وزوجها كبير ضباط مصر ، ويعود إلى المطبخ الكبير ليأكل من طعام لم يطبخه لنفسه .

زوجة كبير ضباط المطار هذه يا حضرات : كانت كريمة صفات مقيمة حفلات لها من الصاحبات العشرات وكلامها مسك وعنبر . بفضلها عرف الأكابر ونسوة الأكابر وأبناء الأكابر عبد الحليم الذى يتكلم كلام الإنجليز ويطبخ طبيخ الإنجليز ويصنع أحلى حلوى ، وبفضلها طار صيت عبد الحليم فبلغ المدن وعرفه المأمور والحكمدار ومفتش الصحة ، كما عرفته زوجة المأمور والحكمدار وزوجة مفتش الصحة ، وكذلك عرفه أبناء المأمور والحكمدار أما غبريال مفتش الصحة فلم يكن عنده أولاد حتى يعرفوا عبد الحليم أفندى .

لا غرابة ولا حسد يا إخوان ولكنها الحقيقة نحكيها كما جرت بغير زيادة وبغير نقصان :

قام الشيخ المسن ولم يقعد إلا بعد أن قعد عبد الحليم . وقبلت أم الخطاف يد عبد الحليم لأنه أخرج ابنها من ظلام السجون ، وجاء الخطاف بنفسه أيضاً قبل يد عبد الحليم وأعلن التوبة على يديه . والنتاش أيضاً قبل يد عبد الحليم – وقال : أنت الذى أنقذتنى من ضرب الكرابيج . وخطيب الجمعة قال عنه : عبد الحليم أفندى – الذى يتكلم بلسانين – صورة للعبد الحامد الشاكر ، يكلم أمه – التى ربته – بصوت خفيض ، ويشكر ربه الذى ساق إليه الإنجليزى الذى عمله الحرفة التى فتحت له أبواب بيوت أفاضل الناس ، وعبد الحليم أفندى يسير بيننا وفى صدره أسرار البيوت العالية – فإذا كلمناه عن ساكنة القصر مثلاً .. كلمنا بالمدح فيها والثناء عليها .

مع هؤلاء – يا مستمع – عاش عبد الحليم أفندى عيشة العزيز المكرم ، وتلك كانت عاداته : بعد ما يتناول ضباط مصر فى المطار طعام عشائهم ، يعود عبد الحليم بالقارب من الغرب إلى الشرق ويدخل بيته فيستحم ويبدل ثوبه ، ويسير ، مع المساء ، على قدميه تحيط به الأشجار ، وفى قهوة العتبة يجلس مع خلانه فيلعب مع واحد عشرة طاولة ويدخن شيشة ثم يلعب عشرة طاولة مع آخر ويشرب كأسين من كونياك فرنسا ، ويخاطب صحبة الأفندية ضاحكاً : الشط هو الذى يفصل بين الإنجليزى والفرنساوى ، ثم ينظر لساعته ويقوم ، ويركب عربة يجرها حصان توصله حتى بيته.

على هذا المنوال مرت السنوات ، وعلى هذا المنوال سارت حياة عبد الحليم ، لم يغير عادة ولم يبدل مسلكاً إلى أن جاء اليوم الذى أوقفته فيه امرأة – وكان فى طريقه إلى قهوة العتبة .

قالت المرأة : ولدى الغائب يا عبد الحليم أفندى .

رد عبد الحليم أفندى على الفور : يعود سالماً بإذن الله .

قالت المرأة : هذا مكتوب منه ، وقدمت ورقه لعبد الحليم أفندى ، وقالت : اقرآ كلامه لى أنا أمه يا عبد الحليم أفندى واسمعنى حتى يرتاح بالى وتبرد نار شوقى .

وقع عبد الحليم أفندى فى حيص بيص وأحس أنه سمكة فى شبكة ، وقال فى سرّه : الخرقاء بنت الخرقاء تقول لى اقرآ أنا الذى لا أقرأ ، وتذكر معلمه الإنجليزى فعاتبه : لا أنا ولا أنت حسبنا حساب هذا اليوم .

طار الوقت فلعب الفأر فى عبّ المرأة وولولت : لماذا أنت ساكت يا عبد الحليم ؟ .. تكلم يا عبد الحليم أفندى وخبرنى .. هل جرى مكروه لولدى .. ؟ انطق يا عبد الحليم أفندى .

صرخ فيها عبد الحليم وهو الحليم : لا تصرخى فى وجهى أنا لا أقرأ الورق ، ورمى الورقة على الأرض .

هنا جعرت المرأة الملهوفة بالصوت العالى : آه .. مت فى بلاد الناس البعيدة يا ولدى .

أطبق عبد الحليم على فم المرأة وأسكتها ، وقال لها مستعطفاً : لا تصرخى حتى لا يلتم حولى العاطل والباطل ، ورفع كفيه عن فمها ، وانحنى على الأرض وناولها الورقة ، وقال لها : أنا لا أقرأ ولا أكتب يا أم .. أنا أفندى بثوبى يا أم .. وها أنا يا أم أشق ثوبى أمامك .

ولم يذهب عبد الحليم أفندى على قهوة العتبة فى هذا اليوم ، عاد إلى داره ، وأغلق بابه ، ودس نفسه فى حضن أمه .

تلك هى حكاية عبد الحليم أفندى مع المرأة الخرقاء ، رويتها لك – يا أميرى – كما سمعتها من الرواة الثلاثة ، أنا الذى لم أشهد زمانها ، والله على صدق ما حكيت لك – يا أميرى – شهيد .

حكاية الريفية

صفية :

العذراء يتيمة الأبوين تبيع السلة التى تصنعها أم الأم من خوص النخيل ، لتأكل من كد يومها وعرق جبينها ، وتحيا ككل بنات الفقراء فى قفص ، بانتظار زوج فقير يمسك بيدها ويقودها للعيش معه فى قفص ، وتمر الأيام وتفقد الحلوة ابتسامة الفم وعـافية البدن ، ويبقى الأبناء والزوج المكدود والصيف والبرد والحشرة الضارة وتراب الأرض وعفونة المِشّ ورغيف الشعير باليد ، ولا فكاك لبنت الفقراء من ظلمة المصير المحتوم المسطور فى لوح الغيب إلا بالفعل الزاعق ... ثم يأتى النور ويحكون عنها فى الحكايات :

(ولما كثر الكلام وشاع عن جمال الفقيرة وبلغ مسامع الغنىّ فى قصره ، وتعلق بها قلبه قبل أن يراها ، وقال لرسله هاتوها ، فلما أحضروها ورأى الغنى شعر الخيل على رقبة الطير والوردة الحمراء بعين بقرة متوحشة ، قال : سبحانك ربى .. كأنها الطبيعة أم الكائنات، وأرسل فى طلب القاضى ، فجاء القاضى فى الحال وكتب فى كتابه : على شريعة الله وعلى سنة خير الأنام تزوج صاحب القصر وخزانة المال من ذات الضفيرتين أخت الشمس والقمر) .

يوم الثلاثاء :

يلتقى أكابر القوم فى البورصة ويلعبون لعبة « الإنسان والقدر » بالخيط ودمية الخشب :

* فيذبح الجزار البقرة .

* ويرتفع سعر الطماطم من قرش إلى قرشين .

* وتفقد الأم ابنها فى زحام اليوم العظيم ، فتسأل عنه المتسول الأعمى .

* وتصرخ أخت الأيتام : الغشاش سرقنى فى الميزان وباعنى البطاطس معطوبة .

* ويمد الحصان الشريد فمه ويأكل من غلة مكومة فتنهال على بدنه عصا التاجر والمشترى والوسيط والكيال ، فيغادر المكان وهو يصهل : هيهات هيهات يا أراذل الناس .. من منكم يجسر فيعتلى ظهرى ويجبرنى على جر عربة بعد موت صاحبى .

* وللخارجين من السوق يغنى المجنون من فوق حائط متهدم :

« ولع الوابور يا جودة .. القطنة أكلتها الدودة » .

« والبنات عايزة تتجوز .. والصبيان نفسها مسدودة » .

فيضحك صاحب العقل من خرقه ، ويضحك رب العلم من ركاكة شعره ، ويرميه صبى بحجر ، وتدس بائعة الأساور الزجاجية حفنة بلح فى حجره وتطلب من الله أن يلطف بحالها وحال زوجها المريض وحال المجنون .

يوم الثلاثاء :

باغتت صفية ابن الأكابر ولطمته على خده لطمة أوجعته فطار الشرر من عينيه وصرخ فى صحبه : اضربوها ، لكنهم وجدوا الأنثى الضعيفة محاطة بعشرات الأنفس لحمايتها من غضبة الذكر المفترى .

قال المضروب : والله بلا سبب .

ردت صفية : كاذب .

وقالت بائعة اللبن الحامض : قرصها بفخذاها .

وردت القريبة منها : لا يا أم حفصة ... رماها بالكلام اللين فرمته بالخشن المؤلم .

ودق العجوز الحدوة بحافر الحمار وتكلم فى عبه : من جاور الحداد اكتوى بناره .. ومن خرج من داره قَلّ مقداره .

بعد وقوع الواقعة :

تزاحم شباب الفقراء – على باب صفية – المغلق – يخطبون ودها ويباركون عفتها وينادونها لتعيش فى حماية سواعدهم كريمة النفس ، فسألتهم : ومن يطعم الجدة العجوز ؟ وتملصت من وعدهم وخاطبتهم بلسان يحفظ قول السابقين لكل ثمرة أوان قطف ، ولكل زرع وقت حصاد .

ونهرت صفية مالك القيراطين المتزوج من امرأتين ونعتته بالغراب . وقالت صفية للعجوز الميسور الحال : لكل حبة مكيال يا جدى .. ولما تقدم لخطبتها ابن الأكابر – الذى لطمته فى السوق بلا سبب – رفضته : وهى موقنة من أنه ما جاء إلا لينتقم .. يريد أن يدس لها الفخ تحت ورقة سيكتبها شيخ ويشهد على ما فيها شهود .. ثم يكون الهوان الذى ما بعدها هوان .

النعـيم :

تزوجت صفية من غريب عن القرية : لعب فى تجارة الحبوب والأقطان لعبة حققت له حظ التجار وصيت التجار ومكانة التجار المرموقة – فملك البيت المرتفع السقف الذى يقوم على أعمدة بيضاء من الحجر ، وعاشت صفية – كما تروى الحكاية :

(فراشها لين من ريش النعام ، وحلوها الفاكهة طازجة ومطبوخة ، وطعامها لحمة فى صينية أو حمامة مشوية ، بدولابها الثوب الملون والثوب المنقوش والثوب المخرم ، وصندوق زينتها مقفل على المكحلة والسوار والحجر الكريم . تحت قدميهم عبدة سوداء وعن يمينها جارية بيضاء تروح بمروحة ، لو صرخت حضر الطبيب ولو زعقت هرول خدم ، وإن طاف بخيالها خاطر سبب الضيق نظرت من شرفة ذات خروم لترى الماء الجارى والنبات المتحرك وقبة السماء خضراء) .

الحـافة :

كـان من عادة صـفـية – فى الليلة التى يكتمل فيـها القـمـر – أن تركب العربة التى يجـرها حصانان أبيضان يسوطهما حوذى بجيبه المسدس الفاتك بالأرواح ، وتنظر من وراء ستائر الدانتيل المخرمة إلى ابن العامة وهو يفر خوفًا من العجلات وأرجل الخيل والسوط كما تفر أشجار النخيل وأشجار مخـاط النبى وكلاب الطريق – فتضحك صفية من القلب ، وكلما راح بصر صـفية إلى القاعدين والنائمين أمام الدور المبنية من الصفيح والعيدان والطين والقش – انكمش القلب .

(أنت يا صـفـية بنت هؤلاء – رغم النعيم الذى تتـقلبين فيـه ، لقد هربت – وإلى الأبد من مصيرهم المعتم .. إلا أنك – وإلى الأبد – مربوطة بسلاسل من حديد إلى أبدان أهلك الفقراء التى نخرها دود القبور منذ زمان بعيد ، الحق حقٌ يا صفية – فتكلمى بالحق :

ذاكرة الفقراء تعرف النسيـان ... أما ذاكرة الأغنياء فلا تعرف النسيان قط ... لم يحضر الأغنياء يوم عرسك .. وفى العيدين لم تزرك غنية واحدة .. وفى أيام المرض التى مرت بزوجك – لم يسأل عن صحته غنى واحد ، زوجك مثلك يا صفية من صلب فقراء – ضحكت له الدنيا كما ضحكت ذات يوم من الأيام) .

الهــاوية :

السائرون فى طريق الانتقام أحكموا غلق المصيدة على الزوجين : فباتا لا يلتقيان تحت نور... وعلقا الأمل على الأيام حتى تزول الغمة .. إلا أن الأيام جعلت واحدهما يقنع بنقيصة الآخر ويسخط على نقيصته هو – ومن هنا نبت الشعور بالشفقة على الآخر المصحوب برعدة الخوف من الآخر ، وهكذا استعصى الحب الذى يوحد الأجساد ويثمر البنين .

السـلام :

جاء يوم ورأى ملاك الموت – وهو يطوف – شجرة الحياة تحمل فرعين يابسين متباعدين .. فقصفهما .. وطوحهما لريح الخريف الأبدية .

حكاية أم دليلة .. طاهية الموت

بعينيّ هاتين – وأنا أعرف أنهما طعام الدود الملعون في يوم معلوم – رأيت البنت يا أميرى تركع على ركبتها وتبلل بالدموع قدم والدها – وتقول : زوجنى يا أبى من الغنى ولا تجعلنى كشجرة جف عودها ومال فرعها لما غاب عنها الماء .

وبأذنى هاتين – سمعت الأب الأمين يحاول رد ابنته عن مرادها بالكلمة اللينة وبحكمة الأقدمين – قال : يا ابنتى .. المال يصلح حال بيتى أنا الفقير .. لكن الرجل عجوز .. وأنت بستان بثمر .. وهذا يغرى الغير باعتلاء حيطانك .

ناحت البنت – ودموعها على الخدين دجلة والفرات : لا تخف يا أبى .. قلبى البارد هو الذى أحب ذهبه البارد .

ومالت الأم إلى صف ابنتها وناصرتها ووسوست فى أذنها : البنت سر أمها .. ولنا كلام .

هنا قلت أنا لنفسى : وقع المحظور يا ولد .. وها هو الزمان يكرر على مسمع الدنيا – حكاية أم دليلة طاهية الموت .

وها أنا أسوق إليك الحكاية القديمة يا أميرى ، من بدايتها إلى منتهاها بتفصيل محكم :

قالت أم دليلة لزوجها – وعصرت على الفول ليمونة : لا تجزع من قولهم (الرجل الفقير باع ابنته للعجوز الغنى) واسمع قولى (قل للعجوز الغنى الراغب فى مصاهرتك والزواج من ابنتك .. سآخذ مهر ابنتى ثقلها من نقى الذهب .. ولن تدخل بنتى قصرك العالى إلا بعد مرور شهر) ، (وحين يصرخ الغنى : هاتوا الميزان) (سنمسك نحن بطرف الخيط ونشد عامة الفقراء إلى بيتنا ليمدحنا لسانهم ويرفعنا إلى مراتب الأغنياء) .. لو سألتنى (كيف يكون ذلك ؟) سأرد عليك بالآتى (سنذبح كل يوم وحتى يمر شهر بهيمة ليأكل الفقير والمسكين وابن السبيل .. سيكون شهرنا بثلاثين يوماً تتدحرج .. حين ذلك ستتطلع عيون فقراء المسلمين إلى شمس يومنا كما لو كانت هلال العيد .. هكذا يحسبون اليوم عاماً .. وثلاثون عاماً من اللحم يا زوجى ستردم الحفرة التى

حفرتها أعوام الشدة بدماغ الفقير) .. وهذا كلام الفقير لصاحبه الفقير - بينما أصبعه يشير إلينا : (ها هم الأغنياء منذ زمن بعيد يصاهرون ابن طبقتهم الغنى) .

وقالت أم دليلة لدليلة الراقدة فى حضنها : لن أخاطبك كما خاطبت الأم البلهاء ابنتها - وقالت (اغرقى فى ماله وارمى فى حجر أمك) ولكنى سأعلمك فى شهر واحد أنا المجربة طبخة الموت .

(أ) وضع القدر على الكانون :

تحت الخميلة - همست دليلة فى أذن بعلها العجوز : أحس برفسة الجنين فى بطنى .

قطف العجوز الغنى من كل خد برقوقة وزعق فى خدمه : إلىّ بالحكيم الفاهم .

ولما جاء الحكيم الفاهم دخل حجرة نوم دليلة وبعد ما رد الباب عاين جسد دليلة وفتح الباب وقال للعجوز : مبروك - ادخل ورش ماء الورد على وجه أم وارث مالك واسمك .

حط العجوز كفه على قلبه وأنّ : انجدنى أيها الحكيم الفاهم فقلبى لا يحتمل الفرح .

(ب) القدر فوق نار هادئة :

دست دليلة قشر البيض تحت فراشها ، ورقدت وتقلبت وجعرت : آه يا ضلوعى . جاء العجوز يجرى كصبى ، ووقف أمام سرير دليلة وهو يلهث ، وشوح بيديه فى وجه خدمه وقال : هاتوا الحكيم المعالج ، وراح يلف ويدور حول سرير دليلة ، يفرك قلبه تارة ويفرك راحتيه تارة أخرى - حتى جاء الحكيم المعالج . رد الحكيم المعالج الباب وعاين جسد دليلة وفتح الباب وهو يضرب الكف بالكف - وقال للزوج العجوز : تلك حالة محيرة ونادرة .. أما الجنين فبخير وهذا من فضل الله ، وفتش الحكيم المعالج فى جسد الغنى وقال : كن على حذر .. فنسيانك لسنك يفتك بقلبك لا تفعل كما يفعل الشباب .

(جـ) تحت القدر نار حامية :

كسرت دليلة مرآة قصرها الشتوى وصرخت : الجرح فى رقبتى ، ركضت الوصيفة - وهى عين لسيدها ، وقالت سلم عقل سيدتى يا سيدى . وضع العجوز راحته على قلبه ليحميه من الوقوع، وهرول حتى بلغ غرفة الزينة وخاطب دليلة : سبحان الله فى طبعك يا دليلة .. أنا أنا لا أرى الجرح .. لكنى أرى رقبتك كبرج لبنان المطل على دمشق . بكت دليلة وظلت تلطم خديها وصرخت :

ها هو زوجي يتهمني بالعمى وها هو يلاطفني بكلام جميل لأنه يظن أنني بلهاء ، ولم تسكت إلا بعد ما أحضروا الحكيم العارف الذى طلع برج لبنان ورأى دمشق ولما نزل خرج من غرفة نوم دليلة وهمس فى أذن العجوز الغنى : وريثك بخير .. وسيدة بيتك مريضة بالوهم .. لاطفها .. وأحطها بالمغنيات والماشطة والمدلكات والضحك الخصى وضاربات الدفوف .. وعامل قلبك العجوز برفق .. لا تحزن ولا تفرح .

(د) بعدما ينضج الطبيخ - ترفع القدر :

فى القصر الصيفى - سألت دليلة زوجها الغنى العجوز : متى يبتسم لى الزمان وأراك وقد نفضت المرض عن بدنك آه .. متى يقبل هذا اليوم ؟ .. وقت ذاك نجلس أنا وأنت متجاورين على كرسيين ونطل من شرفة قصرنا العالى .. ونمتع العيون برؤية الماء والخضرة ووجوه ناس هذا الزمان ، وصرخت دليلة فى الخدم : إلينا بكرسيين .. أنا وزوجى هناك بشرفة قصرنا العالى .. إلينا بسلال الفاكهة وجوزة الهند .. وهاتوا لنا أطباق الجوز والفستق واللوز المقشور ، وحطت دليلة يد زوجها العليل فوق كتفها وزحفت به إلى الشرفة ، وهمست فى أذنه : فعلت ما فعلت خشية أن تموت ولا يتحقق حلمى ، وبالشرفة زقت دليلة بأطراف أصابعها حبة عين جمل فى حلقوم بعلها الغنى العجوز ، وسألته - وأشارت بيدها : تلك البنت الماشية تدب وتتثنى - هل تعرفها ؟ .. نظر العجوز إلى أسفل ورأى : الماء والشجر والزرع والزراع والحصاد والحاصد .. والأجران وحامل المذراة .. لكنته لم يعثر على بنت ماشية أو واقفة - فقال لنفسه : من الأسلم لى أن أجاريها حتى لا تتهمنى بأنى أتهمها بالعمى ، وقال لدليلة : ها .. تقصدين تلك البنت الحافية .. أعرفها .. إنها بنت نافخ الكور . فسألته : مالى أراها معلقة البصر بشرفة قصرنا وكأنها تقول لى : قومى لأجلس مكانك . قال الغنى العجوز هذا حال الفقراء يا دليلة .. يتطلعون بعيونهم إلى فوق - فرؤية الأغنياء تبهجهم وتجلب لقلوبهم المسرة .. كشرت دليلة : البنت تنظر إليك أنت لأنك تعرفها وها هى تشير بيدها نحوك .. وأنا ألمح بعينيك الرغبة . أسند العجوز رأسه على صدر دليلة وسقطت عمامته فلم يلتقطها وقال : آه يا دليلة .. هذه البنت نملة .. وكذا كل بنات العالم .. أما أنت يا دليلة فقمر فى السماء . مالت دليلة وقبلت رأسه الأصلع ، وتمتمت : أنا أحبك وأغار عليك يا مالك قلبى ، أحلفك بالله وبرسوله الكريم - لا تطلقنى من أجل تلك الجربوعة .. لا تطلقنى يا سيد بدنى .. فأنا من حبك لا أنام الليل .

كح العجوز - وقال : وأنا يا دليلة لا أنام الليل ، ولا أنام النهار ... وهذا ما فعله بى حبك .

(هـ) رش الملح والتوابل :

كحلت دليلة الرموش ورشت العطر على الثوب المنقوش وربطت العنق النافر بمنديل ملون وأمسكت بيدها وردة وطلعت على زوجها الراقد فوق سرير المرض بوجه يضحك وجسد يرقص وقالت : والآن قل قولك يا رجلى ، ومالت فقطف العجوز من الغصن الدانى قبلة ، وقال : أنا فى النعيم وأنت حورية .. وأنا فى الجحيم وأنت جنية ... أخ . كل مرادى ضجعة فوق صدرك .. ثم أغمض العين . فتحت دليلة ذراعيها – وقالت : تعالى يا رجلى .. هنا – يا ولد ابنى ستستريح .. تعال ..

حكاية الصعيدى
الذى هدّه التعب فنام تحت حائط الجامع القديم

صحا على صرخة فوجدها فوق رأسه تبكى ، تلبس الأسود وتحمل بين يديها طفلاً ميتًا . قالت: يا فلان يابن فلانة هل ضاقت بك الدنيا الواسعة فلم تجد غير هذا المكان تزاحمنا فيه أنا وأولادى.. لقد قتلت ابنى يا قليل النظر .. وحتى يخفّ حزنى على ولدى عليك أن تفارق بيوتها قبل أن يدركك صبح .

لتّ الصعيدى فى الكلام وعجن – قال : أتيت إلى المكان ولم يكن بالمكان غيرى .

فصرخت فيه : لو لم أكن جنيّة مؤمنة ، بنت جنيّة مؤمنة ، بنت جنّى مؤمن ، لركبت كتفيك عامين قمريين كما تركب الدواب يا دابة .

ظرط الصعيدى ظرطتين ، ولمّ ذيل ثوبه وأطبق عليه بأسنانه وانطلق يسابق الريح وهو لا يصدق أنه أفلت من شر جنيّة تسكن الخفاء ، ولا يراها ابن آدم إلا حين تريد هى لابن آدم أن يراها.. بعد وقت صدق أنه نجا ، وسأل نفسه : كيف أبارح أم القرى التى تلمّ عظام جدودى ؟ .. سأذهب إلى حامل البخارى ، حافظ كتاب الله المهاب من الجن وا شتكى الجنية . وقال :

وجدته قاعداً تحت العتبة وأمامه الحطب مشتعل ، جعلت المسافة بينى وبينه قصبة ونصف قصبة وقلت السلام عليكم ، ولمّا لم أسمع رده تقدمت وجعلت المسافة بينى وبينه قصبة وقلت السلام عليكم ، ولما لم أسمع رده تقدمت وجعلت المسافة بينى وبينه نصف قصبة ورددت السلام فلم يرد – بينما النار التى أشعلها لاتزال مشتعلة ، قلت – وقد فهمت : انتهى كل شىء إذن .. جاء الطوّاف قبلى وقضى الأمر.، وحفنت من تراب الأرض بالكفين وكشحته على النار فخمدت ، وقعدت أبكى .

(كانت اليد الكبيرة يا أمير قد رسمت له الطريق – خطين حديدين تجرى فوقهما القطارات .. وأعمدة خشب تشد أسلاك التلغراف) .

لما وجد الصعيدى الطريق مرسومة أمامه مشى فيها ، ظل يمشى وبلاد الله تترى حتى بلغ أم المدن ، فدخلها حافياً متورم القدمين فى اليوم الخامس من ذى الحجة وكان العام عام الذئب والدببة،

وفي بحر من الحديد والنار رأى الإنسان يحجل ويطلب الصدقة ورآه على البسكليت ورآه يدب ورآه بالأوتوبيس وبالتروللي وبالترماى ورآه يطير ورآه يسوق العربة ، وقف يتفرج ويتعجب ونسى زمانه حتى جاء الرجل وسأله عن شخصيته . قال : فلان ابن فلان . قال الرجل : أنا أسأل عن بطاقتك ؟. قال : معي بطاقة . قال الرجل : هات ، وأخذ الرجل البطاقة – وقال : أنت المرسوم أمامي ... يبقى الكلام المكتوب وتلك معضلة فأنا لا أقرأ . قال الصعيدى لنفسه : مادام لا يقرأ .. ومادام الكلام المكتوب كله عندى أنا .. وأنا الذى قلت هذا الكلام لكاتب البطاقات فكتب كاتب البطاقات بطاقتى ... إذن تلك فرصتى للتباهى ، وقال للرجل : أنا أقرأ ، ومضى ينظر فى البطاقة ويتذكر كل ما قاله لكاتب البطاقة ويقوله للرجل . باغته الرجل ولطمه على فمه ليسكت فسكت ، وظل الرجل يضربه بالكف على القفا وهو ساكت ، ولم يكف الرجل عن ضربه حتى وقع الصعيدى فى أول يوم له بأم المدن على الأرض مغشياً عليه ، أفاق فوجد حواليه ناساً يجهلهم ويجهل قدر الشر وقدر الخير فى نفوسهم (الشر مطوى داخل كل نفس ولا يعلم دواخل النفوس يا أميرى إلا الله) كان عليه أن يتكلم معهم ليعرف مقاصدهم فتكلم ، وكان عليهم أن يردوا على كلامه فردوا ، وفهم الصعيدى أن الناس حوله (متفرج ومشفق ومصلح وناصح) ...

قالوا : لا عليك .. الرجل شرطة ، وقالوا : أنت هنا ولست هناك ، ونصحوه أن يغير محل إقامته وقالوا : بسيطة .. شجّ حاجبك الأيسر ، وقالوا مادمت من صعيد مصر فقل لنا إلى أى طائفة من الصعايدة تريد أن تذهب ، وعددوا له قومه : (باعة خضار وبوابون وعمال بناء وباعة جوالون) . قال لهم : لا مال معى أشترى به الشيء لأبيعه ، وقال لا أملك غير بدنى ..

قالوا : اذهب إلى عمال البناء ، ووصفوا له الطريق . ذهب إلى عمال البناء وكان النهار قد انقضى فوجدهم قد أشعلوا النار وتحلقوها . رد السلام وقال : أنا ابن فلان . قالوا : أهلاً أنت منّا . وحكى حكايته . قالوا له : ما حدث لك يا فلان حدث لعبد الحليم أفندى . تحسس جرحه وأنّ ، قال: ليت أمى ما تزوجت أبى – وكان قاعداً فرقد . أقاموه ، وسقوه العدس الساخن ودعكوا قدميه بالماء الساخن والملح ، ولاموه ، لأنه أتى بمفرده ، وقالوا له : الأرض مرسومة يا فلان .. ونحن لا نمشى هنا فرادى وإذا مشينا فنحن قوم نعرف الحد ولا نتجاوز الحدود ، واعتذروا عن ضيق ذات اليد، وقالوا : اليوم يوافق قبل نهاية الأسبوع بيوم ، وها نحن لا نملك المال لنشترى البن لجراحك ، وقال واحد منهم ودفس الرماد فى جرحه ، ووعدوه بشراء البن لما يقبضوا راتب الأسبوع ، وقالوا له : لما ينتهى نهار الغد ينتهى الأسبوع .

ولما انتهى الأسبوع اشترى الصعايدة البن ودفسوه في جرح الصعيدى ، واشتروا « منديل محلاوى » وربطوا به الجرح . وتتالت الأسابيع وجاء الشهر وشفى الصعيدى من جرحه وأورام قدميه وطابت له الحياة مع أهله الصعايدة - إلا أنه في الليالى المقمرة كان يتجنبهم وينام مبكراً قبل أن تطلع القمرة . وظل ينتقل معهم من مكان لمكان ، ويبنى معهم العمارات من الطوب والحديد والرمل والأسمنت ويغنى مواويل حمراء ومربعات زرقاء والليالى الأخضر ، لكنه لم يسمع صوت سواقى أم القرى .

ومن زملاء العمل اختار له معارف من أبناء المدن الحرفيين سكان الحارات (الحدادون ... النجارون .. عمال رصف البلاط .. النقاشون) يزورهم في بيوتهم ، ويشرب معهم ومع نسوتهم الشاى ويأكل مع أطفالهم البطاطا .

دعوه مرة إلى حفل ختان أحياه مطرب بأرغول وراقصة لحمها أبيض تدق الصاجات فيقوم ناس ويقعد ناس . قام مع القائمين وقعد مع القاعدين - وكان قد شرب الحشيش مع من شربوا الحشيش ، وتذكر أم القرى البعيدة فترحم على روح جدوده وهاجت شجونه وتقدم من المكرفون وأمسك بشلن ورق وأمر المطرب بالغناء لأم القرى ، وتكلم في المكرفون فقطع صوته : السلام على الصعايدة الرجال يبنون العمارات ويعمرون أم المدن . قام واحد من الحرفيين أهل الحيّ ودفع للمغنى والراقصة ربع جنيه وتكلم في المكرفون وقال : السلام على أرباب الحرفة الرجال من أبناء أم المدن فهم الذين يعمرون أم المدن . وعلى كلام الحرفي قعدت الراقصة تعجن لحمها الأبيض وغنى المغنى أغنية .

وكادت تنشب مشادة بين الحرفي والصعيدى ، لولا الصعيدى العاقل الذى قام ودفع للراقصة والمغنى نصف جنيه وقال في المكرفون : السلام على الجميع .. السلام على كل الحاضرين من صعايدة وأهل حرفة .. السلام على الرجال يبنون العمارات ويعمرون أم المدن . وقام حرفي خفيف الدم وحيا الصعيدى العاقل ودفع نصف جنيه للراقصة والمغنى ، وقال في المكرفون : الصعايدة ونحن نبنى العمارات ونعمر أم المدن ولا نسكن في العمارات .. السلام على سكان العمارات .

فضحك الكل ، وهكذا انتهت الليلة بخير .. ومن تلك الليلة وصاحبنا الصعيدى يكلم نفسه : نحن الصعايدة نبنى العمارات .. ونحن وأهل الحرفة لا نسكن العمارات لكنا نحن الصعايدة نترك الصعيدى منا - وهو أكبرنا سناً - على باب كل عمارة نبنيها ، وسأل نفسه : متى يأتى دورى لأستريح وأقعد على دكة ..

ظل صاحبنا يضرب في المقبل بعد ما طرح ونسي الحاضر ، قال : الطيب محمد وقع من فوق إلى تحت فقصفت رقبته وفقد دوره .. ومحمود الساكت فقد دوره - لما قبض عزرائيل روحه وهو نائم .. كذا عبد الباري حين أراد أن يتمخط وهو قاعد بيننا فتمخط روحه .. يأتي دوري لأصير بواباً قبل عبد الحارس وعبد المالك ، بعد حجاج ومحمود الظني وعبد الحاكم ..

وفي نهار مشمس ، وكان يطلع الدعامات الخشبية المربوطة بالحبال وعلى كتفيه حمولة الرمل والأسمنت - طرح صاحبنا وضرب ونسي الحاضر ، قال : لما ننتهي من بناء هذه العمارة سيقعد على بابها عبد الحاكم ونمضي لنبني العمارة التي سأقعد على بابها أنا فوق دكة من خشب .

في هذا النهار - يا أميري - ضيّع الصعيدي عمره كما ضيعت بائعة اللبن الحمقاء اللبن .

حكاية برأس وذيل

يا أميرى :

مر شتاء ، وهذا شتاء ، وكل الوصفات لم تفلح فى القضاء على وجع الروماتزم ، وأم شعلان حرم جاد المولى شعلان تولول ، والصاحب المجرب ينصح جاد المولى أن تأكل أم شعلان لحم قطة سوداء ، قطة سوداء وبالبيت قطة بيضاء !! قطة بيضاء ، لا قطة سوداء – يا جاد المولى ، فلماذا قطة سوداء ؟

(هو السر – يا أميرى – أحاط به كالسوار بالمعصم . كالعسكر بسوق الخميس مادام البيع والشراء لا يتم بغير الكلام ، هو السر وهو عاجز بعقله حتى آخر العمر وكذا الكل عاجز – إلى أن يأمر الله الحريق فى ذلك اليوم لتحترق الدنيا التى لاتزال تخالف) .

اشترى العبد العاجز – جاد المولى – فص أفيون من فكرى الكور ودفع له من جهد بدنه ربع ريال ، والشابة (حلوة رغم الصفرة والقشف وتسوس الأسنان) صنعت له فنجان القهوة – كما أمر – سادة ، فشربه ومص فص الأفيون وأطبق على حمامة راقدة على بيضها ونزع ريشها ريشة ريشة وقام وعاشر أم شعلان – وتلك عادته لما ينتوى التدبير والتفكير :

(هى شابة – رغم قساوة الأيام ، حلوة – رغم ندرة الصابون ، وحرام ياربّ أن تصير كسيحة ، وحرام والله أن يطلقها – لا قدر الله – فهى مطيعة أنجبت وكلفته فوق العشرة جنيهات مهراً دفعها وعليه خمسة جنيهات يدفعها لو طلق – لطف الله – فالطلاق بغيض والحياة مع كسيحة بغيضة ، والزواج من ثانية بطلاق الأولى = خمسة عشر جنيهاً × زمن نحن فيه + ما يحكم به القاضى ومن جاوره – لا أرانا الله أيامهم ، والزواج من ثانية بغير طلاق الأولى = عشرة جنيهات فى زمن نحن فيه !!) .

خبط جاد المولى جبهته ثلاث خبطات موجعة فقامت أم شعلان وصنعت له فنجان قهوة آخر شربه وضاحكها فرقدت فعاشرها وضحك فضحكت فظل يضاحكها حتى نامت .

(الأفيون – يا أميرى : رعاك الله – يشعل النار فى الرأس ويصنع الوهج الحق والوهج الخادع لتلوح الطريق البعيدة قريبة : وجاد المولى شعلان الآن (الذى لا نراه) بليل أسود يمسك بجذع

لشجرة سنط سوداء يهزه لتساقط الثمار السوداء المرة فيجمعها بعد منلى من أرض سوداء مـشققة ويهرول فى طرقات سوداء حتى يبلغ داره (فنراه تحت لمبة جاز ، هى الشيطان بعينه ، بألسنه من نار ودخـان يطوح بسكاكين مـقلومـة من ظل وسكاكين من نور) وها هو جـاد المولى يرى أم ابنه تحضن شعلان ابنه النائم دوماً ، ويرى القطة صاحية بيضاء ويرى الثمر المر بكفيه أسود فيرميه فى حلة ماء ويوقد النار بالحطب والكبريت ويرقب الماء الذى سيصير لماً يغلى أسود والقطة بيضاء حتى يلونها المـاء الأسود ولا فرق بين لحم قطة سوداء وقطة بيضـاء – لكنه مـا وقر فى النفس من زمان بعيد صنع للجدود كل هذه القبور : وبذلك خبرنا الغراب الأسود) .

هو الأفيون – يا أميرى ، كذا هى قدرة ابن آدم صاحب الحظ القليل من علم العلام الرحمن على العرش استوى :

قـال جـاد المولى : ها هو ثمـر السنط المر فى الماء .. والماء غلى وصـار أسـود ... أدلقُ الماء مغلياً على القطة البيضاء فتدوخ وتصير سوداء .. ثم أهزّ أم شعلان فتصحو من نوم وترى القطة سوداء فيدخلها اليقين .. وبالقضـيب وهو من حديد أضرب القطة وأضرب حتى تصير ضعيفة فأذبحها – كما أمر الله .

ذلك – سـيدى الأمير • ما فعله ابن آدم الملقب بجاد المولى شـعلان ، كان قد دبر وعـرف مـا يريد ، فلما فعل فى القطة فعلته فهمت الأعجمية الحيوان ويا للعجب ما يريد ، ربما – سيدى الأمير ، عافاك الله – لأن الماء كان مغلياً ، خمشته القطة فى ركبته وعضته بعد أن ولولت كما تولول بنت حواء ، فصحت أم شعلان وصحـا شعلان من نوم طال : على ولولة أنثى وصرخة ذكر ، وخـجل جاد المولى من خوفه وأربعة عيون تراه يواجه قطة تكورت – فواجه القطة وضرب ضربة الخـائف فخابت وضرب ضربة الذكر فأصاب وضرب ضربة الأب وأصاب وضرب ضربة الكاره وأصاب فـضرب وضـرب كـاتماً صراخـهـا ، بينما القطة ، الدم اللحم ، تخمش وتصرخ تـخمش وتصرخ ، آه يا مولاى حتى ماتت ....

وتلك – أميرى – نهاية حكاية الأعرج والكسيحة .

حكاية بزخارف

كان أبوه يملح اللفت ويلونه بزهر العصفر ويبيعه - تلك أميرى أول ضربة على قفا عباس من دنيا ظالمة بنت كلب والت الضربة بغير رحمة :

طلق أبوه أمه وكان اسمها أسماء بعد أن أنجب منها سبعة ماتوا الواحد بعد الواحد - وبقى عباس ليرى أمه العجوز ممزقة الثوب حافية تجمع وسخ البهائم وتبيع للكل وقود الأفران حتى للكاره مادامت تبيع ومادام يدفع .

وتزوج أبوه من بنت بائعة كرشة اسمها صالحة ، فكانت شديدة القسوة عليه لأنه مولع بالحرب وفرقعة البمب - بينما البيت حجرة ضيقة وصالة ضيقة .

ومن بائعة الكرشة - التى اسمها صالحة - أنجب أبوه البنت وسماها غالية ، وكانت كأمها مليحة الوجه مدورة البدن حلوة اللسان ، كلامها أثواب من حرير هفهاف مطرز بالترتر الغماز ناعم نعومة بطن حية خداعة تلدغ : لقد رضعت غالية من ثدى أمها اللبن الأسود ، أما عباس - يا أميرى - فكان عليه أن يناديها : يا أختى وأن ينادى أمها : يا أمى .

يا لها من حياة دون ، يا لتلك الأيام من أيام ، كل يوم بليلة طويلة ونهار طويل ، وجلد عباس جلد آدمى ، وجلد الآدمى لم يكن فى يوم من الأيام جلد جاموسة بليدة ، كما أن الآدمى لا يملك قوة ثور نطاح حتى يغضب غضبة ثور نطاح ، وأنت عليم بل أنت أعلم الناس يا أميرى أن لكل ليل أسود نهاره الأبيض ولكل النهارات السود لياليها البيض - كذا الصغار أبناء الفقراء يكبرون فيحطمون الزجاجات ويخرجون للدنيا فى الشوارع بملابس الحيوان رجالاً يلتقطون الرزق بمناقير الطير : خطافون سفهاء جهلة .. يتجنبون النور الفضاح .. قتلة لا يقتلهم إلا العشق .. غايتهم الفوضى وإقلاق المدن الآمنة - لهذا تبغضهم الحكومات وتطاردهم الشرطة .

إلى هؤلاء - أميرى - كان لابد أن ينتمى عباس لما قال لنفسه (الشارع أفضل من البيت ألف مرة) إلا أن عباس اختار - بتوفيق من الله - ثوب الثعلب الذى يموت حين تريد منه أن يموت - بهذا : نال رضا حلوانى فعمل صبى حلوانى ، ولما انتهى أجل الحلوانى مات الحلوانى فبكاه عباس لينال عطف صاحب مقهى كان صديقاً للحلوانى ، وبالمقهى قضى عباس السنوات وتدرج من

مرمطون إلى صبى جرسون وعرف العاطل والباطل وصبية الورش والمخبر وشارب الكحول وباعة الصحف والصاحب الذى يشتم صاحبه من خلف ظهره وهذا الذى لو غضب لحطم الكراسى وقلب الطاولات .

من هنا – سيدى الأمير – من مقهى ببابين كل باب يطل على حارة صار لعباس ثلاثة أثواب: ثوب ثعلب ماكر وثوب قرد وثوب قط له سبعة أرواح ، يخلع هذا الثوب ليلبس هذا الثوب أو ذلك حتى جاء يوم ووقفت – هناك بالشارع – عربة بحجم مركب وعلى شاكلة أوزة ، وهبط منها رجل بملبس حسن يخطر كأنه يمشى فوق ماء ودخل حارة أفضت به إلى حارة إلى أن بلغ المقهى وقد أدركه تعب فجلس وطلب كوب ينسون رغبة منه فى ملاطفة الروح الشعبية . جاء عباس ورحب واختفى يزعق وأقبل ينقر على الصينية بالملعقة نقرات لو سمعتها راقصة طلقت الرقص لعادت للرقص غير أسفانة . قال الرجل المبتهج وكان غنياً لعباس « اترك المقهى وتعالى معى » ، وصرخ عباس : أنا ؟

ذلك ما حدث – يا أميرى – ولك أن تعجب ، لكنها دنيا بنت هوى تدير ظهرها لسنين ، ثم تقبل بوجه ضاحك وجيد مثقل بالأجراس .

هناك ببيت الغنى تعلم عباس حروف الهجاء الثمانى والعشرين – هكذا سريعاً – لينظم من الحروف العقود من خرز يلونه ليزين عنق ومعصمى ولى نعمته الذى علمه كيف يمسك السكينة بيمينه والشوكة بيساره . هذا بينما الغنى ، بحق يتناول إفطاره وغداه وعشاه بصحبة عباس بالنادى: لحوم مقلية ولحوم مشوية .. بط وديوك رومية وسمك ودجاج وفاكهة أيضاً ونبيذ ، وما بين الغداء والعشاء من وقت يقضيانه معاً – الغنى وعباس – بحمام السباحة مع المرأة من الرجال والأولاد والنسوة والشابات . ما مر شهران – يا أميرى – حتى تحول عباس إلى شخص يجهله كل من عرفه: طبع رقيق .. وأصابع رقت ما شاء الله وصار لها ملمس الحرير .. بروح شفافة تعشق كل فتاة بشعر مبلول .. وولع لا حدّ له بالتصاوير والرسوم والموسيقا وغناء المغنيين ولسينما بحدائق الشرق تعرض الأفلام بلون وصوت .

هنا ، يا أميرى ، دعنى أحكى لك فيلم شافه عباس تسع مرات وأعجب به الإعجاب كله : ناس عراة يلبسون الريش يسكنون غابة ويقتلون الناس بنبال مسمومة لأنهم لا يسكنون معهم فى الغابة (فجأة) يأتى ناس يلبسون الملابس ويركبون الخيل ويحملون البنادق ويطلقون الرصاص من

بنادقهم على العراة ليموتوا جميعاً – إلا كبيرهم صاحب الريش الكثير الذى راوغ الرصاص ونط (فجأة) فوق ظهر حصان أسرع من موتوسيكل وأسرع من نعامة . وها هو الوغد (فجأة) يخطف الفتاة الرحيمة التى عالجت جروح الرجال من النبال المسمومة وطبعت على خد كل منهم قبلة – ماعدا الفتى الوسيم فقد أعطته فمها ليشرب منه ماء الحياة لأن جرحه كان قتالاً ، وها هو الوسيم يطارد بحصانه لابس الريش الكثير – ليرد الفضل لصاحبه الفضل ، ولكن ما كاد الوسيم يلحق بالوغد حتى سقط حصانه (فجأة) فى حفرة ماكرة ذات عين كبيرة سوداء ، وها هو الوغد يسوق الفتاة كما لو كانت معزة ، لا يدرى عباس إن كان الوغد سيذبحها أم سيحلبها – إلا أن عباس صرخ فى الوسيم « هنا » ، وأشار عباس إلى كهف يختفى خلف مزق الثوب الطويل (فجأة) لترى كل العيون الراغبة فى الوغد : شجرة انفلقت – بعد أن شبت فيها النار الحمراء – إلى ساقين من جمر ، وصرخ عباس فى الوسيم « أسرع » وصرخ فى الفتاة « قاومى » فأمسكت هى ببلطة وتقدم الوغد وواجه الكل بعينى مارد مخيف فقالوا « لا دخل لنا » ، ولكن الفتاة رمز المقاومة لاتزال تمسك بالبلطة : عارية الفخذين – ولا ملامة عليها ، (فجأة) دخل الوسيم الشجاع وقتل الوغد – حتى لا تصير الجميلة قاتلة ، وانتهى الفيلم – يا أميرى – بقبلة طويلة تحبب الإنسان مدنا فى الأفلام وتجعل كل صناع الأفلام ، أبناء زماننا يذهون أفلامهم بالقبل التى تحببنا فى الأفلام ، بعد هذا الفيلم – وهذا ما جعلنى أحكى لك ، يا أميرى ، حكاية هذا الفيلم : أتقن عباس الحاذق صناعة الكلام ففتل من الكلمات حبالاً تصلح لشنق آدمى وربط دابة وتقييد وحش وإغلاق طريق – كما أفلح فى كتابة حكاية مشوقة عن رجال يعاركون الحيوان المفترس ويهزمونه ويصنعون من جلده النعال التى يلبسونها ، ذلك ما كان ، بينما – أنا – سيدى الأمير – نسيت إخبارك بخبر الرجل الغنى الذى يسكن بيتًا من أربعة طوابق بكل طابق أربع شرفات ، وكان بالبيت حديقة بها شجر لا يثمر وأشجار ورد مزهرة تنشر العطر ، وكان الرجل الغنى يحب مثله فى عفة جعلته يلبس قناعاً : لا يمس أحداً ولا يدع أحداً يمسّه – فقط يحب ويذبل كما تفعل زهرة النرجس المحبة لنفسها وللماء . تلك كانت حاله مع عباس حتى أدركه وأدرك عباس اليوم الذى تحكى من أجله الحكايات وتنشد الأناشيد ويجن من يجن من بنى الإنسان :

كانت بالطابق الرابع للعمارة المقابلة ورآها عباس وقال « يا أيها النور » ، فأغلقت هى باب الشرفة وغابت ، وأشرقت فى اليوم الثانى وكان يوم ثلاثاء فقال عباس « يا أيها النور » ومضت وهى غاضبة ولم تغلق باب الشرفة واحتجبت يوم الأربعاء لتطل يوم الخميس وبدت كما لو كانت غاضبة،

ولما هم عباس بفتح فمه أدارت ظهرها وتكرر هذا منه ومنها ، وفي اليوم الذي يستريح فيه المسيحي أطلت بوجه هو الأزاهير ومررت كفها على شفتيها ونثرت في الهواء زهرتين شم ريحهما عباس فداخ وأفاق وطالبها بلقاء عاجل في النادي فهزت رأسها رافضة ورمت على جبينها من شعرها خصلة ، وقال عباس الملهوف ، بينما حدائق الشرق ، - فرمت هي رأسها إلى الخلف رافضة وأعادت خصلة الشعر إلى مكانها ، وفتح عباس فمه وأغلقه ولما حركت يدها وأشارت إلى حديقة بيتهم ورسمت الشجر ورسمت الغروب .

أخ ، ليت اللقاء ما تم تحت الشجر الذي يشتعل بالنور إذا ما داهم الغروب بيوت السادة ...

أخ ، يا أميري ، كان الرجل سيداً وكان فاضلاً وكان كهلاً احتاط لحماية عرض زوجته الخامسة الحلوة من طيش يتملك نفس كل شابة حلوة ومن ضعف قديم في طبيعة الأنثى ومن أحابيل السفهاء مثل عباس : سوّر البيت وحصنه بالحديد والسلك والشجر والأجراس والكلاب السود والطهاة السود والخدم السود .

وكان عند السيد الكهل ، يا أميري ، عصا من العاج يهش بها ويها يجلد - تجعل كل من يراه يخافه فيحترمه ويفسح له الطريق إن كان ماشياً يتريض أو راكباً عربته التي يسوقها سائق بسوط ، هكذا ، يا أميري ، بات من المقدر لعباس أن يقع صيداً : يتوجع ويستنجد بالله في السماء وبرحماء الناس على الأرض ، حتى قيض الله له ذلك الشرطي فجره للمخفر سارقًا لا عاشقًا ، وخرج من المخفر إلى مستشفى يصحبه شرطي فقد ثبت أنه السارق لا العاشق ، ولما طابت جروحه وجد نفسه حيواناً في قفص من حديد ورجل هناك خارج القفص - لا يعرفه - يسبه لرجال جادين بوجوه صارمة لبسوا الأسود كالقسس يسمعون من فوق منصة عالية فيهزون أدمغتهم ويهمهمون وكبيرهم أمسك بمطرقة ، قرع بها لما تجاوز الرجل الذي يسب عباس فسب أم عباس والحلواني وصاحب المقهى ، أحنى الرجل الشتام رأسه وقال إنهم - أم عباس والحلواني وصاحب المقهى - زرعوا بذرة الشر السوداء في نفس عباس .. فلما مد له السيد الكريم يده الكريمة عضها عباس فأدماها ودمر حياة صاحبها الغني الخير الذي أصيب الآن بصدمة قد تجعله - وقد كان عباس بالنسبة له بمثابة الابن - مطيعاً لأوامر الطب حتى نهاية عمره : يشرب اللبن الساخن مخلوطاً بالويسكي وحب الحبهان .. مطلقاً هو الغني كل طيبات الدنيا الزاهرة كما يعلم سيدي القاضي وسادتي القضاة الأفاضل .

ومن عجب – مولاى الأمير – أن الرجل الشتام قص أدق التفاصيل في حياة عباس بما يدلل على نفوذه وسعة اطلاعه في الكتب والملفات السرية الكثيرة التي دونت فيها سيرة عباس وغير عباس من بني الإنسان .

وبعد ، أميرى ، وقد بلغتك سيرة الكل – ها أنا أنهى على الباقى من سيرة عباس (حمته سنّه الصغيرة من عقوبة السجن فهو بعد حدث – كما قال القاضى : رغم ما شاف لا يفقه من أمور الدنيا قدر خردلة .. ليوكل شأنه إذن لإصلاحية تربّيه وتهذب روحه وتعيد خلق الإنسان فيه من جديد . تمالك عباس نفسه فلم يصرخ ، سمع الحكم الظالم الصادر من ناس لا يعرفهم بإيعاز من رجل شتام لا ريب مأجور من زوج المحبوبة الجميلة التي لن ينساها عباس – فالحب لا يموت هكذا سريعاً .. كما أن مقادير الناس لا شك ليست بأيديهم فها أنت يا عباس الرجل تُعامَل معاملة طفل لتسير حياتك المقبلة بالإصلاحية بأيدى بشر في الغالب الأعم كالكل قساة لا يرحمون ، وبفرض أنهم رحماء فلا نبيذ عندهم ولا لحم ولا تصاوير ولا موسيقا ولا شرفات ولا حمام ساخن ولا سينما حدائق الشرق تلك التي تعرض الأفلام بلون وصوت .

نعم – لا أنت ولا حتى أنا كنت أتوقع تلك النهاية الظالمة لعباس يا أميرى .

حكاية ميلودرامية

البيت :

بمدينة الفسطاط ، من طابقين من حجر أبيض ، بكل طابق أربع حجرات مرتفعة السقف ، الطابق العلوى للمعيشة ، وبالطابق السفلى : حجرة الزاد وحجرة الغلة وحجرة الراحة وحجرة الواجب – وتلك حجرة منفية عن سائر الحجرات وقريبة من المرحاض والحمام وقد أعدت لاستقبال الضيف الرجل .

وهو بيت من بيوت أشراف ذلك الزمان البعيد ، فى زمن لاحق ملكت مفتاحه – بحق المصاهرة – سيدة تركية ، وقد آل بعد موتها إلى ورثة سفهاء – باعوه لما اختلفوا فى أمر إصلاح درجه الخشبى الذى يوصل الصاعد من الطابق الأول إلى الطابق الثانى .

بابه الكبير من خشب الأثل ، يغلق من الخارج بسلسلة متينة الحلقات يطبق على طرفيها قفل كبير ، ويغلق من الداخل بمتراس ، فإذا ما جاء القادم طرق الباب بكف من حديد قابضة على خوخة من حديد مثبتة هناك فوق الباب – ووقف ينتظر ، ومن فرجة بصدر الباب تطل عيون أهل الدار – حتى يستبينوا العدو من الصديق .

كواء الطرابيش :

مالك البيت الجديد ، قبطى مؤمن ، اختار بمصر العتيقة – بالقرب من بابليون الدير والحصن والرمز والذكرى الحية ، وحوّل حجرة الضيف إلى دكانه ، وعاش بالدور السفلى مع أمه العجوز ، ولما ماتت أمه لم يطق حياة الوحدة فى البيت الكبير – فأصلح السلم ، وتزوج من قبطية شابة عاش معها بالطابق العلوى حياة سعيدة – وكانت أماً لابنه جرجس .

جرجس ولعبة الزمان :

ورث البيت عن أبيه وورث الحرفة ، لكن يد الزمان المخاتل امتدت ورفعت الطربوش عن رأس المسالم وباركت المتزلف ودقت عنق لابس الطربوش (المكابر والعنيد والمتمسك بعهد ولّى

وفات) ، وها هو جرجس يميل على قميص نوم السيدة المخرم وفستان البنت القصير وقميص رجل البيت العارى الرأس (دنيا غرور كاذبة .. مثل السواقى النادبة) .

مرقس سواطن صالح :

مرقس ابن جرجس ووالد حنا - جمع الأحياء من أهله وخطب فيهم ليقنعهم ببيع الدكانة وكذا حجرات الطابق الأرضى ، وقال : أنتم أبناء وأحفاد كواء الطرابيش . أرغمكم الزمان العاتى على الرضوخ لحكمه .. قولوا معى الحمد لك فى ملكوتك أيها الرب الممتحن فتلك مشيئتك .. خلقت حنا ابننا وحامل اسم أسرتنا لا يحسن العدو ولا يفرق بين التمرة والجمرة .. ولولا عيون المحبة الحارسة - نحن أهله - لهام على وجهه وتاه فى زحام الشوارع .. وها أنا اليوم بينكم العجوز المحنى الظهر الذى لا طاقة له على العمل .. لكن لا تتركوا اليأس يتمكن من نفوسكم المؤمنة .. واعلموا أن ابننا حنا يصلح للزواج .. وعلينا نحن أبناء وأحفاد كواء الطرابيش أن نساعده وننتظر عطاء الرب .. والآن : هلموا يا أبناء الرب وكلوا من طيبات ما أحضرت (شرائح لحم الخنزير ولحم الضأن وفاكهة الصيف وشراب العنب والروم والبراندى والشموع لتمثال العذراء) .

محمد كميل الأول :

مالك الطابق الأرضى ، السيد الجديد ، بدين ببطن وقلب من البلاستيك ، بعين من زجاج وعين ضيقة مزرورة .. يداريهما بنظارة سوداء كبيرة ، يملك بيتاً بباب الشعرية تعيش فيه أم أولاده زيدة مع أهلها وأهله ، وله شقة بشارع سليمان باشا الفرنساوى - يحيا فيها مع خليلته الراقصة الكتوم التى عاونته بإخلاص فى أعماله ، ببيروت ، قبل نشوب الحرب الأهلية ، له فى البنوك البعيدة مال جامد وله فى أسواق البلاد مال يتحرك ، بماله حول دكانة الكواء إلى بوتيك ميامى - حبس الضوء فى أقفاص من زجاج سبحت فى مائه الملون ثياب الأنثى الداخلية وزجاجات عطرها وعلب زينتها وآلات كى شعرها الكهربائية وكذا سجائرها الأمريكية المفضلة ، كنت ، ذات النكهة الفاخرة .

وكيل الأعمال :

صباح يوم افتتاح بوتيك ميامى - جاء العمال ورشوا الرمل أمام البوتيك - وصفّوا أكاليل الورد وعلقوا الصورة وقد كتب تحتها بخط كبير (كبير العائلة بطل يوليو ومايو وأكتوبر وكل شهور السنة) .

وفى غروب يوم افتتاح بوتيك ميامى هبط محمد كميل الثانى من عربة أمريكية سوداء وتقدم - تحيط به عصبة من صحبه وأتباعه الأشداء - وأمسك بالمقص وقص الشريط ، بينما

المسجل يصدح بالأغنية التي يفضلها محمد كميل الأول (الطشت قال لي قومي استحمي يا بنت يا ..) .

وفي صباح اليوم التالي لافتتاح بوتيك ميامي – نشرت الصحف الصباحية الثلاث صورة لمحمد كميل الثاني وهو يضحك وقد أحاط به جمع يضحك كما نشرت إعلاناً عن بوتيك ميامي – هذا نصه : محمد كميل إخوان يبشر المواطنين بمصر القديمة وينقل أعماله من بيروت ويخطو أول خطوة له مع بداية عصر الانفتاح على طريق العلم والإيمان .

الإصبع الثالثة :

لمّ محمد كميل الصغير الملقب بالإصبع الثالثة حبات مسبحته الملونة ودسها في جيبه ، وأخرج منديله ففاح عطر فرنسي وتمخط وفرك راحتيه وأخذ سمت محمد كميل الأول – وقال للرجال الواقفين بجوار الشاحنتين : افرغوا الحمولة وأدخلوها المخازن – وأشار بإصبعه إلى الطابق الأرضي للبيت .

العشاء الأخير والأحد الأخير :

منذ رأى حنا المال وجل اهتمامه بهذا الورق الملون والصور المطبوعة عليه ، أكل مع أهله وشرب بفكر شارد – فلم يفرط كما أفرطوا ، وسأل حنا حنا : كيف أحصل على الصرة المدسوسة فوق الدولاب دون أن يروني ؟ ورد حنا على حنا – بعد عناء : لما يناموا ، وشعر حنا بضيق فقام وقعد – وقال : ليتهم ينامون ، وكلما سمع ضحكات أهله وصوت سعالهم وصوت مضغهم ورشفهم – أحس بأنه يعاني عناء يفوق احتماله ، فطلب من العذراء أم المسيح أن تساعده . هذا بينما أهله يأكلون ويشربون ويأكلون ويشربون بشعور المحروم الراغب في شبع مقيم وشراب مقيم ، حتى أتت عربة الإسعاف الحكومية وحملتهم نصف موتى يمسكون ببطونهم المنفوخة – إلى المستشفى الحكومي حيث ماتوا .

حنا آخر الأحياء :

داس على الزجاجات الفارغة والمليئة وداس على قراطيس المانجو وحبات الكمثرى المبعثرة وطلع فوق كرسي – وهكذا وجد نفسه فوق الدولاب : ففك الصرة وأخرج المال وحشا به جيوب سرواله ، وكان حريصاً – فلم تقع عليه عين تمثال العذراء .

بعد ما عبر حنا الكوبرى – قصد السينما التى كثيراً ما حام حول إعلانها الكبير المعلق وكان لنسوة عاريات يهرين ضاحكات من موجة البحر الساخط .

وكما جاء حنا ووقف يتطلع ، جاء رجال الشرطة أيضاً بعربة الشرطة – ووقفوا يتطلعون ، وما أن وقعت عين المخبر السرى على حنا حتى ظنه لرداءة ثوبه واضطراب حاله – من الصبية المتسولة .

وهناك فى مكمن الشرطة قلبوا جيوب حنا وأخذوا المال غصباً ودسوه فى خزينة الحكومة بمفتاحين ، أما حنا فرموه دامع العينين ليبيت ليلتين مع الفاجر والسارق والمخنث وشارب الكحول والمتباهى بذكورته والشمام ومدمن الإبرة – فى حجرة ضيقة معتمة رطبة بشقوقها يسكن القمل والنمل والبق والبرغوث والوطواط ، ثم ساقوه دامع العينين وتلك نهاية أمره – إلى دار رعاية وإصلاح حكومية – ستعلمه الحرفة وحسن التعامل مع مجتمعه الإنسانى .

قفص لكل الطيور

١ - وحيدًا فى بيتى :

دق بابى - ففتحت ، وعجبت أن يكون الطارق جارى المريض على وحدته ، فصحت : من..؟ وحيد ! وقال هو - دون أن يرد السلام : لا تستغرب زيارتى .. فبينما أنا أفتش وأقلب فى نفسى كعادتى - اكتشفت أنى لم أضحك منذ زمان .. ولما حاولت وفشلت - شعرت بخوف من نفسى . قلت : سلمت يا جارى من كل سوء .. لكن ما تقوله هو الخطر بعينه .. هيا بنا إلى حكيم من زماننا يقال له عبد البصير .

٢ - إلى عبد البصير :

قابلنا عبد البصير بوجه عبوس ، وقال لوحيد : طلبُك عندى .. لكنى اليوم فى أسوأ حال .. فالضرير زوج الخرساء أُختى - والدنيا عليمة بمدى حبى لها - محبوس ، وصباح الأحد تجرى محاكمته . فصحت أنا : ولم الخوف يا عبد البصير - والأستاذ فصيح بيننا ونحن أبرياء ؟

صرخ عبد البصير : بالله عليك لا تذكر اسم زفت الطين هذا أمامى .. لقد طلبت منه أن يترافع ويدفع التهمة عن زوج الخرساء أختى - فطلب منى زجاجة كينا .. ومن أين لى أنا والفقراء أمثالى بثمن زجاجة الكينا ؟ قلت : حياتى فداك يا عبد البصير .. لا تشغل بالك .. أنا لها .. عالج جارى وبمشيئة الرحمن ستصلك اليوم زجاجة الكينا . قال : لما تحضر زجاجة الكينا سأعالج صاحبك . فعاتبته : ألا تثق بى يا عبد البصير ؟ . قال مستنكراً : معاذ الله .. كيف لا أثق بك .. لكنى أحسب الحساب .. ماذا يقول الجار على حين يسمع جلجلة الضحكات فى بيتى - بينما زوج أختى المنكوبة داخل قفص من حديد ينتظر أفظع مصير ! قلت - وقد طاب خاطرى : صدقت يا عبد البصير ، وقلت لوحيد : تعال معى يا وحيد لنحضر زجاجة الكينا .

٣ - من أجل زجاجة كينا :

دخلنا دكانة الصيدلى ، وقلت أنا للصيدلى : هات زجاجة كينا ، فلما جاء بها أخذتها منه وناولتها لوحيد ، وسألت الصيدلى : كم ثمنها ؟ . قال الريال لا ينقص مليماً . فلطمت : أفقأ الدمل

بريال ؟ قال : وما علاقة الكينا بالدمل ؟ . قلت : بجسمي دمل عمره يوم .. وقد نصحني صاحب بشرب زجاجة كينا ، وسألني الصيدلي : وهل صاحبك عليم بالطب ؟ . قلت : لا .. صاحبي يبيع العرقسوس .. ولكن ألا تصلح الكينا لفقء دمل ؟ . قال الصيدلي : لا تخرف .. الدبوس والمرهم يصلحان . فصرخت : انجدني بريك ، وسارعت بخلع ثوبي وقلت : هنا – وأشرت إلى فخذي ، وغمزت لوحيد – فهرب بزجاجة الكينا . ولما زعق الصيدلي زعقت أنا – فالتمَّ الناس . وقال الصيدلي للناس : يا ناس .. هرب السارق وهذا شريكه . وقلت أنا : اخرس يا مأبون .. لماذا طلبت مني أن أخلع ثوبي ؟ . قال : لأرى الدمل . قلت وأين الدمل ؟ . قال بفخذك .

فصرخت فيه .. يا كاذب .. يا مفترى ، وكشفت للناس الفخذين ، وقلت : انظروا يا ناس .. بالله عليكم هل رأيتم الدمل .. أم رأيتم اليماني ؟! .

وندبت : قلت للماكر ، برأسي صداع ، فقال لي أنا الذى لا علم له بالطب ، اخلع ثوبك ، ... ولما همَّ صرخت لأجمعكم – لتشهدوا معي ما صار إليه حال نفر من ناس هذا الزمان ، قلت قولي هذا – ورأيت أحدهم يخلع نعل الصيدلي ويهوى به على رأس الصيدلي ، كما بصق آخر على وجه الصيدلي ، أما أنا فمضيت إلى بيت عبد البصير لألحق بوحيد .

٤ – الضحك يميت القلب :

قال عبد البصير : لو وقع الرجل – فما موقفك منه يا وحيد ؟ . رد وحيد : أصنع له الجبيرة . قال عبد البصير : ولو دقت عنقه ؟ قال وحيد : أترحم عليه .. وأحفر الحفرة وأستر عورته وأواريه . فسأله عبد البصير : هل كان بإمكانك أن تضحك على الرجل في أى صورة ؟ . قال وحيد : حاشا لله ... كيف أضحك على من يصيبه عطب ؟ . قال عبد البصير : مرحى مرحى ذلك شأن الأصحاء يا وحيد .. ابصق في عبِّك يا حبة في عقد من لؤلؤ نضير ، وقال عبد البصير : بنا إلى الأستاذ فصيح. حاول وحيد التملص وقال : مادمت بعافية وخاليًا من المرض – فسأعود إلى وحدتي . فلامه عبد البصير . وقبض على يده بود : يا رجل .. أنت من اليوم الفرد في الجماعة .. هيا ولا تتلكأ – فالخير في الجماعة .

٥ – مع الأستاذ فصيح في بيته :

صرخ فينا : لا تدقوا بابي هكذا .. كذا الوقت ليل .

قلنا : للضرورة أحكام يا أستاذ فصيح ..

قال : للنهار عيون .

قلنا : معنا زجاجة كينا .

عاتبنا بلطف : أبواب بيوت الفقراء التي نخرها السوس لا تدق هكذا يا صحاب ..

وفتح الباب ، وخطف منا زجاجة الكينا ، واعتذر عن العتمة - لما رآنا نتعثر ، وقال ، بسراجي زيت قليل أحتفظ به لليلة سوداء ، وفتح طاقة دخل منها نور القمر ، وقعد في ركن يجرع من فم الزجاجة ، ويشد بأسنانه جلده تفرقع كلما أخلاها ...

وسأل : ما قضيتكم ؟

قال عبد البصير : الضرير زوج أختي الخرساء - لما أتاه غلام صاحب القلعة - ذهب إلى الحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل .... وقال لهم « تنافسوا في صنع قفص لكل الطيور - في زمن مقداره سنة .. والغالب منكم سيحصل على ألف قطعة من النحاس .. وصاحب القلعة سيهبط بنفسه ليمنح المال ويكال المنتصر » ... ولما مرت السنة - وكانوا قد فرغوا من صنع الأقفاص وبانتظار هبوط صاحب القلعة الذي لم يهبط - ذهبوا إلى القاضي ورفعوا صورتهم بالشكوى فما كان من القاضي إلا أن أمر بالقبض على الضرير زوج الخرساء أختي بنت أمي وأبي.

قال الأستاذ فصيح : لا تقلق يا هذا .. سأنام بعد جرعتين .. وحين يصيح ديك الفجر أيقظني لأشرب ما بقي من الزجاجة .. ثم أمضي معك لأحصل للضرير على البراءة .

٦ - يوم الحساب :

دخل القضاة المقنعون - فوقنا . وقعدوا على الكراسي - تحت السيف الذي يصارع السيف - فقعدنا على الأرض . القاعد بالوسط له وجه الأسد ملك الوحوش ، والذي عن يمينه له وجه النمر الوثاب ، أما الذي عن يساره فكان بوجه الثعلب الواسع الحيلة .

ملت على أذني وحيد وهمست : لقد تاه الضرير في الغابة وعما قليل سنرى لحمه في فم الحيوان المفترس .. وهذا الفصيح ضل طريقه وضللنا معه بعد ما خدعنا وشرب زجاجة الكينا بمفرده .

قال وحيد : كنت أفضل أن أبقى في بيتي ..

٧ - القضية شرم برم :

كشر القضاة الثلاثة في الضرير المحبوس داخل القفص - وزام الأسد : لم غررت بالحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل ؟ . رد الضرير : لا .. كنت رسولاً لصاحب القلعة .. زام الأسد : وهل قابلك صاحب القلعة ؟ . رد الضرير : لا .. ما من أحد قابل صاحب القلعة .. لكن

غلامه جاء إلى خصّي وأمرني أن أبلغ قول صاحب القلعة للحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل . كشر النمر : لكنك بغير عينين فكيف رأيت الغلام ؟ قال الضرير : زوجتي هي التي رأت .. أما أنا فسمعت . زام الأسد : زوجتك رأت .. أما أنت فلا .. كيف تقطع إذن بأن الرسول هو غلام صاحب القلعة ؟ . قال الضرير : زوجتي وصفت لي صورته . زام الأسد : كيف تصف لك صورته وهي خرساء ؟ . قال الضرير : خرساء نعم .. لكنها تفهمني وأفهمها . أنا وهي في المسرة والضراء شريكان نقتسم الكسرة . كشر الذئب : وما هي أوصاف غلام صاحب القلعة ؟ . أجاب الضرير : صبوح الوجه أمرد .. على خده شامة .. جيده المطوق بعقد من لؤلؤ كأنه جيد يمامه .. بمعصمه سوار من نقي الفضة .. وعلى بدنه قميص من حرير أبيض .. والقرط الذهبي يتدلى من أذنه اليسرى .. والكتاب بيمينه .

فعوى الثعلب : تلك العلامات الكل يعرفها عن غلام صاحب القلعة .. والخرساء شريكة للضرير في التهمة ومكانها داخل القفص لا خارجه .

قبض الحراس على الخرساء المعلقة البصر بالسماء وأدخلوها قفص الحديد . وجعر عبد البصير: وا أختاه . فهب الأستاذ فصيح وشخط فيه : اخرس انت ، وكح وخاطب القضاة (بعد السلام عليكم .. الرحمة نطلبها منكم – يا ظل صاحب القلعة على الأرض .. ونحتمي بكم من قيظ هذا اليوم ... يقول الفقير الأريب : ما من مخلوق على الأرض التي نعرفها يجسر فيدعي كذباً أن غلام صاحب القلعة قد أتاه ... كما أنه ما من مخلوق ممن نعرفهم يجسر ويتنكر في ثوب غلام صاحب القلعة .. ذاك يقيني .. فصاحب القلعة قوي مهاب طويل اليد شديد العقاب ... باطش لو أصاب وكلنا تحت القلعة – قضاة ورعية – الضعاف المذعورون المرتعدون من برودة الخشية التي نحن فيها منقوعون .. أليس كذلك ؟ هذا سؤالي الذي أطلب جوابه فوراً – من القضاة ومن الحضور ومن الحداد والنجار وصانع الأقفاص من جريد النخيل ؟

قال القضاة : نعم ... الأمر كذلك .. وكلنا كذلك .. ولا أحد يجسر ..

وقلنا نحن الحضور : نعم .. لا أحد يجسر .. ونحن كذلك ... وكلنا كذلك .. نحن الرعية من برد الخشية نرتجف .

وقال صانع الأقفاص من جريد النخيل والحداد والنجار :

نعم ... نحن كذلك ... من ذا الذي يجسر ..

وسألنا الأستاذ فصيح : والذي يجسر ؟

فهتفنا خلف القضاة : مجنون أو أخرق ...

قال الأستاذ فصيح : مادام الأمر كذلك .. فالضرير والخرساء لم يكذبا لأنهما كالكل لا يجسران ... وبفرض أن ما زعماه كذباً – فهما ينتسبان إلى الجنون والخرق – وهذا يدفع عنهما التهمة ويحيلهما إلى المورستان أو إلى دار الإصلاح ...

زأر الأسد : دعونا نتشاور .. وساد فى صفوفنا هرج ومرج . وهب عبد البصير – وجعر : واأختاه .. هل سيأخذونك إلى الخانكة أم سيأخذونك إلى دار إصلاح ؟

٨ – الأستاذ فصيح يستمر فى مرافعته :

زأر الأسد : محكمتنا ليس من اختصاصها محاكمة المجانين أو الخرق .. لذا يحال المتهم والمتهمة إلى المورستان أو إلى دار الإصلاح فهذا من اختصاصهما .

قال الأستاذ فصيح : لا يا رمز القوة .. الضرير والخرساء صادقان فى قولهما (ويتمتعان بعقل كامل) فصاحب القلعة – الذى يريد قفصاً لكل الطيور – كلم غلامه .. وقد جاء الغلام للضرير والخرساء وكلمهما .. وذهب الضرير بدوره وبشر النجار والحداد وصانع الأقفاص من جريد النخيل – بالجائزة التى رصدها صاحب القلعة لمن يصنع القفص لكل الطيور ... وفات العام ولم يهبط صاحب القلعة ليسلم أياً من الصناع الثلاثة الجائزة – فجاء الطامعون فى مال صاحب القلعة واتهموا الضرير بالكذب .. ولكنهم لو سألوا أنفسهم هذا السؤال الواقعى : لِمَ لم يهبط صاحب القلعة كما وعد؟...

لو أنهم سألوا أنفسهم كما سألت أنا نفسى لأتاهم الجواب كما أتانى ... (ما من أحد حقق الشرط ... ما من قفص مهما كبر حجمه يكفى لحبس كل الطيور) ... ياه – قفص لكل الطيور؟... يا لكم من سذج طامعين فى مال صاحب القلعة .. ها ها .. لعلمكم – يا من سقطتم فى أول اختبار – هناك طيور الجهات وطيور البحر وطيور النهر وطيور الحقل .. وهناك طيور تسكن البيوت وطيور بنَتْ عشها فى السحاب ... وهناك طيور تبيض ولا تطير .. ومن الطيور الجارح والأليف والمغرد .. وبعد ، لقد ضيعتم وقت المحكمة الغالى وافتريتم على الأبرياء .

٩ – الجزاء من جنس العمل :

دوت أكفنا بالتصفيق لمرافعة الأستاذ فصيح البليغة . وانشغل القضاة بالتشاور مع بعضهم . وصرخ النجار فى الأستاذ فصيح : خربت بيتى الله يخرب بيتك . وقال صانع الأقفاص : انجدنى

يا أستاذ من كرب أوقعتني أنت فيه . وقال الحداد : لو تعرضت لمكروه يا أستاذ فصيح فستدافع عنى يا حجة أهل زمانك . وقال الأستاذ فصيح : الخراب والمكروه والكرب واقع واقع .. لا تجزعوا .. سأدافع عنكم وسأحصل على أتعابي بطريقتي .. سآخذ الأقفاص الثلاثة .. وسأستخدمها بالطريقة التي تحلو لي : السرير من حديد لأنام عليه .. والطاولة من جريد النخيل .. وما الدولاب إلا من عدد النجار .. لكن النجار الصفيق أهانني .. وها أنا أطالب بزجاجة كينا طولها شبران وسعتها لتران ...

١٠ - الختام مسك وعنبر :

زأر الأسد : الضرير برئ والخرساء بريئة .. والنجار والحداد وصانع الأقفاص من جريد النخيل مدانون ويستحقون الحبس .

قال الأستاذ فصيح : حضرات القضاة ...

فكشر الذئب - وعوى : ماذا تريد يا بومة ؟ .. خذ الضرير والخرساء واغرب عن وجهنا قبل أن نخلط لحمك بعظمك ...

انحنى الأستاذ فصيح - وقال : حتى تكتمل بهجة المحكمة وبهجتنا - أأمروا المحابيس بخلع ملابسهم .

مد الثعلب لسانه - وعوى : لك ذلك ..

بكى المحابيس - وقالوا : يا ويلنا ها نحن عراة ، وقالوا للأستاذ فصيح : ألم تعدنا - ووعدناك؟

وكلم الأستاذ فصيح القضاة : ها هم أمامكم يا أفاضل جلد على عظم .. وإن كان ثمة لحم - فهو مر لا يؤكل ... ومن كان هذا بدنه - فدماغه فارغة من المخ .. وأنتم يا رمز القوة لاشك زاهدون في تلك الأبدان المرة والأدمغة الفارغة .

هكذا تكلم الفران

٣ أحلام وحكمة و٣ أفعال

قلب لي الزمان وجهه وأدار ظهره – فعز النوم ، وكنت من المؤمنين بقول الحكيم القديم : سافر ففي الأسفار سبع فوائد – هكذا يا أميرى استعرت دابة جارى الطيب ، وقصدت صاحبى الميسور الحال الملقب بابن خلف – المقيم ببلدة العين من أعيان محلة صروف ، وهناك شكوت للصاحب من الفقر وعدم النوم ولعنت الزمان . فخبط ابن خلف على فخذه ليرن المال فى جيوبه وضحك ، وقال: لا عليك من الفقر فهو مرض منتشر .. أما الأرق فميسور علاجه . قلت : كيف ؟ . قال : اصبر .. والله مع الصابرين يا صاحبى ، ونادى غلامه وأمره بإحضار الفران زوج أم أسماء . وبعد ساعة من الزمان – عاد الغلام ومعه زوج أم أسماء الفران . فلما نظرت إليه وجدته : ضامر العود .. فاحم اللون .. ربعة .. بحاجب مجروح .. على بدنه قميص كله ثقوب من حروق .. وقد تلفع بخرقٍ كعادة أبناء الحرفة ، قلت فى نفسى : سبحانك ربى .. تبوح بسرك لأضعف خلقك .

كلمه ابن خلف : ما تريده من ألوان الطعام .. سنأمر لك به يا فران .. ولنا شرط .

رد الفران : فول بزيت وفول بسمن وفول بطماطم – ذلك مطلبى .. وهات شرطك .

قال ابن خلف : لك علىَّ هذا .. وهاك شرطى .. ستقص على ضيفى من تخاريف نومك ويقظتك حتى ينام .. ولن أسمح لك بدخول الحمام .. فإذا ما فشلت يا فران أمرت خدمى بفتح بطنك وإخراج طعامى منها ..

قال الفران : شرطك هين .. وعلاجى ناجع .. والآن عجل بطلب الطعام فبطنى خاوية ، وأشار الفران إلىَّ : أما أنت فسأحكى لك الحلم الأخضر البهيج .. والحلم الأزرق المرعب والحلم الأبيض الذى لا طعم له .

وبسط الفران كفه الخاوية ، وأمسك الهواء بإصبعين ، وكمن يدس النشوق فى أنفه – دس الهواء فى أنفه وعطس ، وقال : لقيته أمام باب الفرن ، ممسكاً بلجام بغلة ، ورددت عليه السلام فردَّه ، ولما أعطيته ظهرى – نادانى : إلى أين يا سيدى ؟ . قلت : إلى دار أم أسماء . قال : ولم

لا تركب البغلة ؟ . قلت : لا مال معي يا فتى .. لقد عملت اليوم بثمن الأرغفة التى حرقتها . قال : لكن .. تلك بغلتك يا سيدى . فقلت لنفسي : الفتى مجنون أو أخرق .. وعلى العاقل مثلى أن يبتعد أو ينتهز ، وقلت له : ساعدنى على الركوب .. واجعل غايتك درب سعادة ، وقلت لنفسى : سأنزل قبل خصي بخصين حتى أضلله فلا يهتدى بعد ذلك إلى سكنى . وقال هو : مـا الضرورة لدرب سعادة هذا يا سيدى وسيدتى بالبيت تنتظر ؟ . وقلت أنا لنفسى : همْ .. سيدتى تنتظرنى ؟؟ . لقد بان المستور – فهذا الولد تيس لسيدة من علية قوم هذا الزمان تبحث عن فحل من عامة الناس ، وسألته : وأين تسكن سيدتك يا فتى ؟ . قال : بحى الحدائق والزهور يا سيدى . فقلت له : ها .. حيث يسكن أبناء العرب وأبناء الفرنجة ويختلطون .. ليكن ... أنا لها .. خذنى يا فتى إلى حى الحدائق والزهور هذا .. ولا تقلقنى بعد الآن بقول .. فأنا راغب في نوم أستعيد به عافيتى ، وقلت فى سرى : وهل ينام المشتاق المحروم ؟؟

وأمام بيت لطيف منير به حديقة صغيرة، بسور وباب من حديد تتسلقه ياسمينة نعسانة – هبطت أنا من فوق ظهر البغلة بمساعدة الفتى وتقدمت صوب البـاب – فهب بواب نوبى بثوب نظيف شديد البياض وحيانى ، طوحت رأسى – كما يفعل السادة – ورددت التحية ومرقت من الباب ، وسرت – أنا المزهو – بطرقة قصيرة مرصوفة بحصى ملون حتى قابلنى باب مغلق فطرقته ووقفت أنتظر ، وألقيت نظرة عن يمينى ونظرة عن شمـالى – وهالنى أن رأيت أسدين رابضين وعيونهمـا علىّ – فنطقت بالشهادتين ، ولما ســمعت صوت صفارتين ورأيت الأســدين يغمـــزان لى بعيونهما بضوء ملون أدركت أنهما لعبتان – فبصقت فى عبى وشكرت الله . ومن فرجة الباب أطل غلام أمرد كـأنه بدر السمـا انحنى وتنحى . فمرقت أنا وتحت الثريا وقفت وأغلقت عينى لأحميهما من قسوة الضوء . ولما سمعت صوت خطوات فتحتهما فإذا به أمامى بشارب مفتول وعلى رأسه طرطور .. يمسح دموع عينيه بمنديل ، فقلت – وقد ألهمنى الله ما قلته : أنت البـاشـا رب الدار ... وقد حلت بأهل بيتك مصيبة لم تكن فى الحسبان .. على أية حال أنا حزين وإنا لله وإنا إليه راجعون..

أنا يا باشا راجع .. سأفارقكم توا لكنى تحت أمركم فى أى وقت ترونه مناسباً ولا مقام فيه لمرض أو موت .

ضحك لابس الطرطور – وقال : أنت خفيف الدم يا سيدى وهذا طالع طيب .. لقد جعلتنى أنا الذى تعرضت لأشد ألوان الإهانات فى حياتى – أضحك . قلت له : لا تهتم .. فالدنيا دون والناس دون والزمـان دون . انتفض كالملسوع وسقط من فوق رأسه الطرطور – وتهته : عفواً يا سيدى ..

لم أقصد هذا .. كل ما فى الأمر .. بل كل الأمر .. وذاك قصدى .. نعم .. هذا بالتمام والكمال ما أود أن أقوله .. لقد منعتنى سيدتى من طهو وجبة العشاء لك ولها وللمحروسة الصغيرة أطال الله عمرها .. ولكن لو لم تفارق سيدتى المطبخ فوراً يا سيدى – فسأفارق أنا البيت حالاً .. لأنى أحترم مهنتى يا سيدى . فصرخت فيه : لا يا طباخ .. لا بربك .. لا تنزع قلبى من موضعه .. تعال وأرنى سيدتك وأنا كفيل بإقناعها وستغادر المطبخ بإذن الله .. فأنا قادر على إطفاء نارها ولهذا أتيت، وقلت لنفسى : سأجعلها ترى الخيرزانة .

وهناك بالمطبخ وجدت ، يا لدهشتى ، من ؟ يا رب السموات هل أنا بحلم ؟ ، كأنها أم أسماء ، نعم ، تلك هى أم أسماء قاعدة وبحجرها أسماء تلعب فى كوم لحم وكوم قمح – وقد تدلى من أنفها على فمها خيطان من مخاط ، نعم تلك هى تدق الهاون ، وها هى أم أسماء أمامى تلوك قطع لحم نيئة ، ضربت جبهتى بيدى – لأن اختلاط الأمور ليس بالأمر المحمود وسألت لابس الطرطور – لأقطع الشك باليقين : وأين سيدتك ؟ . قال – وانحنى : ها هى أمامك يا سيدى بهية النور .

فقلت له : انصرف وانتظر بعيداً ، وخاطبت القاعدة بأدب حتى يستبين لى الأمر : لم يا أم أسماء تمنعين الطاهى الماهر من طبخ طعام لنا ؟ . ردت المشئومة : لا تحاول معى .. لن أفارق المطبخ ما حييت .. وها أنت ترانى أدق القمح واللحم فى الهاون لأطبخ لك كفتة . فقلت : أنت أم أسماء إذن . زعقت : ومن تظن ؟ .. أم بعرة ؟؟ . سألتها – لأفهم منها مغزى ذلك الذى يجرى : وهل لة جدة تركية ماتت بأسطنبول – فورثناها ؟ . قالت : لم وولى النعم صاحب الأمر العادل – أطال الله عمره– خيرنا بين حياتين ولقد اخترت أنا تلك الحياة لى ولك ولأسماء صانها الله من كل سوء .. سنقضى بقية عمرنا نأكل الكفتة يا زوجى الغالى .. وبعد ألا تستحق أم أسماء منك كلمة حمد . بعد هذا القول ارتاح خاطرى ، وناديت الطاهى وأمرته : دع أم أسماء على حالها تطبخ لنفسها ما تشاء .. أما أنا فأطبخ لى قرع كوسة باللحم المفروم وقرعًا عسليًا باللحم المبروم .. ولحماً خالصاً ببصل وبفلفل وبثوم .. وعجل بربك يا طباخ . وبالبهو قعدت على كرسى مغمض العينين – أفكر وأطرد كل وسواس خبيث ، ورغم ليونة الكرسى وطراوة قاعدته – إلا أنى كنت كالقاعد على جمر ، وكلمت نفسى : لتظل أم أسماء بالمطبخ – هذا فيما لو استمرت هذه الحياة – تدق الكفتة وتطبخ الكفتة وتعيش ما بقى لها من أيام راضية سعيدة .. أما أنا رب هذى الدار وصاحب هذى الدار فسأتزوج من ثلاث كما أحل الدين الإسلامى الحنيف : شامية ومغربية وبنت بلد مصرية لها لون المهلبية وطعم المهلبية وطراوة المهلبية .

وأيقظني الغلام الأمرد من شرودى الحلو – وقال إن التليفون يطلبني أنا سيده . فقلت له : وأين هو ؟ خذني إليه أو قل له تعال . قال الفتى : هاك يا سيدى ، وأرشدني فقال : من تلك الفتحـة تكلم يا سيدى ومن تلك الفتحة يا سيدى استمع . ومن الفتحة قلت لمكلمي : من أنت ؟ . قال زعبوط الخياط. فسألته : ماتذا تريد يا زعبوط ؟ . قال : هل أحضر لأخيط لك ثوباً ؟ . قلت له : وتسـألني يا زعبوط ؟؟ . والله إن أمرك لعجيب .. ما الذى منعك عنى طوال تلك السنين يا زعبوط ؟ أحضر ثوباً يا رجل ولا تضيع وقتاً . ومن فتحة التليفون العجيب – كلمنى مسمار الجزمجي – فقلت له : تعال يا مسمار وعجل .. أما كنت تعرف يا مسمار أن قدمي الحافية يلزمها حذاء ؟؟ .. باليقين أريده بلون أصفر يا مسمار . ولما اتصل بى رقاق صانع الفطيرة المالحة والفطيرة الحلوة ودعاني إلى حفـلة سيخاصر فيها الرجل الأنثى ويرقصان . قلت له : لا مانع عندى يا رقـاق ، وقلت له : لا مانع عندى البتة .. سأحضر ، وسألته : ما الذى حدث فى الكون يا رقّاق ؟ وكيف كان ذلك ومتى تم ؟

قال : ما حدث حدث ولا فائدة من التفكير فى الأيام السوداء التى ولت وما كان كان وهو خير.. وكل ذلك تم فى يسر كانفصال الخيطين وقت الفجر . قلت له : هذا بينما كنت أنا الغافل أمام نار الفرن بمخبز إسرافيل ؟؟ .. لقد أجبرنى الظالم على العمل بغير أجر نظير ما حرقت من أرغفة.. تخيل معى هذا يا رقـاق .. والآن أريد أن أغير حرفتى يا صاحبى – فهى والله مهلكة . وأتانى صوت رقاق كأنه الصراخ : لا يا فران .. لا تفعل .. هذا غير ممكن .. كل منا فى مكانه يخدم الآخر .. أنت تعمل من أجل الغير والغير يعمل من أجلك ذلك هو الشرط الأوحد لولى أمرنا .. ماذا تريد بربك؟ .. ما الذى تريده بنا ؟ .. لا تفسد حياتنا الجديدة يا فران.. أرجوك. قلت له : لا تقلق.. هذا يكفى يا رقاق .. لكنى لا أحسن الرقص . قال : لا تشغل البال بمثل تلك الأمور .. هذا هين .. هنا معلم رقص يعلمك الرقص – وما عليك إلا أن تحضر قبل المـوعد بوقت .. سلاماً . قلت: سلاماً يا رقاق .. سلاماً . وناديت الغلام الأمرد – وسألته : أين الطعام ؟ قال هناك .. ينتظر الآكلين، وأشار إلى حجرة – دخلتها فوجدت طاولة فوقها أطباق تبخر ولها رائحة طيبة تسيل اللعاب، وهجمت على اللحم هجمة ، وباليدين أطبقت على فخذة ، وفصلت العظم عن اللحم بضربة، ومزقت بأسنانى ما استطعت ، وفتفت بأصابعى ما أمكننى ، ورفعت طبق القرع كوسة الساخن ودلقته فى حلقى – فكوتنى ناره – وجرى اللهب فى بلعومى وأيقظنى من حلم عزيز ، أود لو يتحقق ويتكرر .

* * *

فكرت في قوله ساعة . ولف هو الفران – من الوهم – سيجارة ، ودخنها بشهقة طويلة ، وطرد الدخان الوهمي عن رئتيه بزفرة طويلة – وكح . فعزمت عليه بسيجارة مرسوم عليها الغزالة – وقلت : هذا صنف رخيص أدخنه بعد الفقر الذى حل بى .. وبمقدروك يا فران أن تدخن منه كل يوم علبة – تعوضك عن تدخين الوهم ونفخ الهواء . قال : أنا لا أجد ما آكله يا حكيم الزمان – فكيف بالله أدخن ؟ تلك هى الأولى .. أما الثانية – فخذ .. اليوم تهبنى أنت سيجارة وبالغد لن أجدك .. وهكذا تسلمنى لآخر والآخر يسلمنى لآخر .. وتدور الدورة وأتحول أنا الفران – على يديك وبفضلك – إلى شحاذ .. والثالثة يا أخا العرب – إن من لا يأكل يموت .. أما الذى لا يدخن فلا يموت .. والرابعة ولا مقام لها هنا – أقولها لك رغبة منى فى إبعادك عن كل حماقة فى القول أو فى الفهم ..

قال الفران : طردنى صاحب الفرن وحرمنى من أجرى – لأنى حرقت الأرغفة ، لعنة الله على صاحب الفرن ولعنة الله على الأسباب ، كنت واقفاً أمام عين الفرن فى مواجهة النار ، وتحت قسوة الوهج لعنت واقعى وقلت . جهنم أرحم وسرحت بفكرى – فوجدتنى أمشى فى طريق معبد على جانبيه أشجار الكافور التى ترمى بالظل اللين – حتى بلغت الميدان الواسع وهناك وجدت جمعاً هائلاً من الناس – فداخلنى الشك أنى بيوم الحشر ، وسألت جارى – فلكزنى فى جنبى وقال : هس ، ولما نفخ شخص – على رأسه ريشة – فى نفير أقبل الرجال على صهوات الخيل وترجل سيدهم فحملوه على محفة ، وطلعوا به درجات النصب التذكارى ، بعدها نادى المنادى – وقال : السيد الكبير ملك الجاز والغاز لابس القبعة الكبيرة المرشوق بها ريشة نعامة والمتحلى بالحلى والأساور وعظام البشر – قال : سأدفع ألف جنيه لمن يحل اللغز ، وتقدم رجل أصلع علق برقبته فوطة – وزعق : ما الذى يمشى فى الصباح على أربع وفى الظهيرة على اثنتين .. وعلى ثلاث إذا ما هبط المساء ؟ . هنا صرخت أنا – ودفعت كل من حولى باليدين (الإنسان) .. وهكذا بضربة حظ كسبت أنا الألف جنيه ، وأحاط بى الخلق بعضهم يمسح بكفه على كتفى .. وبعضهن يطمع فى مالى الكثير .. ومنهم الحاسد والمادح والنتاش وسارق الكحل من العين .. ومنهم ذلك الذى سألنى : ماذا ستفعل بمالك ؟ . فرددت عليه فى الحال : لن أفعل كما فعل ابن بلدتى الصعيدى المنحوس الذى اشترى ميدان العتبة الخضراء .. سأشترى الطعام الذى يكفينى لمدة عامين .. وأولى وجهى نحو الجبل المقطم .. وأزرع شجرة أحتمى بظلها .. والحجر الكبير بإزميلى – سأهذب حوافيه وأخلق منه هرماً صغيراً بقمة وقاعدة وسرداب وباب .. بعد ذلك أستريح وأقعد تحت ظل الشجرة على دكة بغدادية فوقها فروة من خراف برقة .. وأرمى عل كتفى شالاً دمشقياً بشراشيب .. وألمّ بدنى تحت عباءة من جوخ مراكش .. وهكذا أجمع النقود من السياح هواة الفرجة على الأهرامات . جلجل

سائلي وشنشل ولكزني – شلت يده – لكزة أيقظتني من حلمي السعيد وأعادتني إلى واقعي المرير بمخبز إسرافيل .

قال الفران : ولما حكيت حلمي لأم أسماء زوجتي – قالت : يا لك من صعيدي منحوس .. لا يحسن اختيار معارفه ولا يعرف الاقتصاد في كلامه .. كنا سنقضي بقية أيامنا في نعيم يا رجل .. نأكل في كل وجبة سمك السالمون المملح .. ولكان حلونا دوماً عسلاً أسود بطحينة .

شردت ساعة وافقت على كلام الفران وكان قد رسم على الأرض بعود : الكلب والكلبة والجرو والعظمة . قال : في الربيع تصاب عيونه برمد الربيع – فيرفضه أصحاب الأفران لأنه يحرق الرغفان . وذات يوم من أيام الربيع ، قالت أم أسماء لزوجها الفران : ما الحل ؟ وما من صاحب فرن يقبلك عنده هذا بينما أنا جلد على عظم .. والصغيرة السمراء لا تجد بالقربتين اللبن .. **ما رأيك لو خدمت أنا ببيوت الأغنياء** ؟ فصرخ الفران في وجهها : لا يا أم أسماء .. **حرة العرب تجوع ولا تأكل بثدييها** ، وقال لنفسه : نم يا رجل .. وادخل عيادة طبيب وعالج عينيك ، وقال : لما نمت – توجهت إلى عيادة طبيب عيون يقال له « خير الله » وجاء خير الله بوجه هاش باش ومعطف أبيض ، وقال لي – بعد ما فحصني سأصنع لعينيك عوينات من زجاج ملون تحميهما من ضوء الشمس ووجه نار الفرن . قلت له : أشكرك ، وسألته : ومتى يتم ذلك ؟ . قال : تعال بعد ساعة من الزمان أو ابعث برسول . فصحوت من النوم وقلت لأم أسماء – ورسمت لها الطريق إلى عيادة خير الله طبيب العيون : قولي له : أنا زوجة صاحبك الفران المريض .. أتيت في الميعاد لآخذ عويناته الملونة . وحملت أم أسماء على كتفها أسماء ومضت . وقلت أنا لنفسي : والآن .. ما الذي ستفعله يا فران – حتى تعود أم أسماء ؟ .. كيف تقضي الوقت وحدك في مكان هو القبر ؟ . وقلت : حاور أيام الخراء بالنوم والفساء ، ونمت – وذهبت إلى كازينو يطل على النيل وقعدت على كرسي تحت خميلة – بانتظار عودة أم أسماء من عند خير الله طبيب العيون . ومرت أمامي واحدة في مشيها ميلا ورقص – يفوح من بدنها وثوبها عطر ، وجلست بقربي تحت الخميلة التي تلاصق خميلتي ، وأغراني بمغازلتها أنها تقعد وحيدة ، وفكرت في كلام حلو ليّن له طلاوة الشعر ، وارتجلت تلك الأبيات :

أنت في اليم سفينة — يا طرية كالعجينة
يا حلاوة في حلاوة — أنت ملبن يا سمينة
يا مليحة بخفر — هات خدك ننتصر
يا طحينة بعسل — بعد قبلة نتصل

قلت قولى وانتظرت . فأقبل شاب كأنه الغيمة ورفعنى من فوق الكرسى رفعاً – كأننى كرة اللعب ، وبصق فى وجهى ، وأقعدنى مرة أخرى على الكرسى . فى هذا الوقت وصلت أم أسماء – فأمسكت بتلابيب الشاب وصرخت . والتم ناس . وقامت البنت – التى كنت أعنيها بشعرى واتجهت نحونا . وقلت أنا لأم أسماء : أين نظارتى الملونة ؟ . قالت : معى : قلت : هاتيها حتى لا تنكسر . قالت : خذ . قلت : دمت لى يا أم أسماء زوجة صالحة ... لا تفلتى الشاب من يديك .. ولا تكفى عن الصراخ حتى يفصل الناس بيننا ، وقلت للناس يا ناس .. لقد أهاننى أنا العجوز المريض ، ووضعت نظارتى الملونة على عينى – لأمتع البصر برؤية فاتنتى الشابة واقرأ تفاصيلها ، ولما دنت وقرأت – صرخت : هذا مستحيل . على صرختى انتبهت أم أسماء ، ورأت وصرخت صرخة عظيمة ارتج لها الكازينو ، وسقطت مغشياً عليها. ولطمت أنا خدودى أمام الناس – وقلت : يا للعار.. أسماء بنتى أنا تجلس مع شاب غريب تحت خميلة بكازينو . ولما هم الشاب بمعاونة زوجتى على القيام من سقطتها – صرخت أنا فيه : لا تلمس عرض أشراف العرب يا عديم الحياء والذمة يا سافل، وتقدمت ورششت المياه على وجه أم أسماء فأفاقت ، وقلت لها : هيا بنا من هنا فتلك أماكن لا يرتادها إلا أوباش الناس .. وخذى البنت ولا تحدثيها عن الذى جرى حتى نتوقى فضيحة يتحدث بها الراكب مع الماشى والقاعد مع الواقف .

هكذا عدنا إلى البيت فى صمت . وفى البيت – منعنى الخجل من النظر إلى أسماء التى غازلتها بالكازينو – فقلت لنفسى نم .. فالنوم خير حل لما أنت به ، ونمت ومن نومى أيقظتنى أم أسماء – وهى تبكى وتتوجع : أنت رجل لا أمان له . سقط قلبى من بين ضلوعى – وقلت : يا امرأة لا تصدقى . صرخت : كيف لا أصدق وقد عرضتنى للإهانة وألم البدن .. صاحبك طبيب العيون طردنى .. وتمرجى صاحبك طبيب العيون لكزنى فى جنبى وركلنى على مؤخرتى . قلت لها – وحمدت الله : اقعدى يا أم أسماء .. واحمدى الله معى يا امرأة .. لقد اختلط الحلم بالواقع ، وحكيت لها ما جرى وما كان بالكازينو .

فقالت : ولكن أسماء يا رجل بنت شهرين ،ومعها ملاك بجناحين يحرسها .. وهى على كتفى كل الوقت .. لم تغادرنى إلى كازينو أو خلافه . قلت لها : والله لو فعلتها فى يوم لأذبحنها كما تذبح البهيمة – فأنا رجل عربى محافظ أحمى التقاليد وأصونها ما عشت .

فردت – بنت الأزقة : خيبك الله يا عربى .. ومن تكون تلك التى غازلتها فى الأحلام؟؟.. ولعلمك – يا قنطار خشب ويا درهم حلاوة – إنى من اليوم سأخدم فى بيوت الأغنياء حتى لا نهلك من الجوع .

* * *

صحوت – يا أميرى – على هزة من يد ابن خلف وهو يقول : قم يا رجل .. نحن بالضحى .. ففركت عينى – غير مصدق أننى نمت ، لكن الشمس كانت فوقى بعيدة عن سماء الشرق قدر ذراعين . وقال ابن خلف والآن .. قل لى – ما رأيك فى طب الفران ؟ . قلت : والله .. لقد جعلنى أفكر ساعة وأشرد ساعة وأنام أنا المفلس – على حب وكره .. وها أنا فى يقظتى – ككل الفقراء – أطمع فى الحصول على الجرة الذهبية .

حكاية للأمير عنوانها :
من يعلق الجرس

هذا نور مأتم يا أميرى ، لقد مات الرجل الغنى اليوم والليلة سأقطف لك من حياته الثمرة المرة والثمرة الحلوة فقد تنام .

يوم حفظ كتاب الله :

علقت أمه في أذنه المخرومة خرزة زرقاء ، وقالت : « من شر عين الحاسدة والحاسد » ورشت أرض البيت بالملح . ولما جاء الرجال بالصرة فكّت أمه الصرة وقالت « من مال المسلمين » ونثرت ما فيها أمام عيون النسوة : الجبة حمراء مطرزة بالقصب ، والطربوش مغربى أحمر والمداس الأصفر من جلد الجمل ، والحزام أخضر ، والقفطان الأبيض بخطوط سوداء .

ولما لبس صابر – وهذا اسمه – ملابس الشيخ وهم بالخروج مع الرجال ، قبلت أمه يده وقالت « يا مولانا » ومسحت دموع الفرحة بطرحتها السوداء .

فى جامع عبد الله :

ركع صابر ركعتين وشكر ربه ، وقام ، وقبل يد مولاه ومعلمه الشيخ سليمان ، وتسلم من يمينه السيف الخشبى وتقدم – هو الصغير – جمع الرجال ليطوف بهم دروب القرية .

فى بيت أمه وأبيه :

أزاح صحن البصارة وقال لأمه « شبعان يا أمى » وحط يده على خده وفكر : لن أركب قطار الحديد ، ولن تنظر العين مصر أم الدنيا التى يجرى فوق أرضها الترماى ، ولن تدخل الأزهر يا صابر وتعيش عيشة المجاورين وتصاحب أبناء الشام وعرب المغرب ، وسأل صابر ربه : لم يارب خلقت أبى حارس حقول وأجران الغير يهش الطير عن الحب بمقلاع ؟

وفى بيت أمه وأبيه :

قال لأمه « جوعان يا أمى » ورفع يده من على خده وفكر : لا فائدة من لبس أجنحة الطير مادمت تملك ثوب الشيوخ ، أنت تحفظ كتاب الله وصوتك لا عيب فيه وكلام الله حلو لما يرتل وكلام الله يليق بالمآتم ويليق بالأعراس ، كن ابن يومك يا صابر ولا تعاند زمانك ، احبس نفسك فى قريتك وانشد القرآن ورتله فى أفراحها ومآتمها ، ولما يتوفر لك المال اشتر الدابة واركبها ، ورتل القرآن فى مآتم وأفراح النجوع البعيدة ، ومن يقنع اليوم ببصلة فسيأكل فى الغد اللقمة مغموسة بالعسل ومن يقنع اليوم ببيضة فسيأكل فى يوم بطة .

الأم الحاقدة – ذات الفصول – لا أمان لها :

جاء اليوم البارد فمزق حبلين من حبال صوت الشيخ صابر ..

وجاء اليوم الماطر فقطع حبلين من حبال صوت الشيخ صابر وشرخ القصبة .

خلص الشيخ صابر بقايا اللحم من بين أسنانه بعيدان الكبريت ، وقال : حين تضعف همة الإنسان تقبل الفكرة السوداء وتنهش روحه ليظل قعيد البيت كعجائز النسوة .

وفى يوم سبت طلع على الناس بثوب العارف :

قال : لكل مرض علة ولكل علة سبب .. هناك يا أخوتى داء لا يقتله إلا الكى بالنار .. وهناك مرض لا يفيد فيه شراب يبيعه الصيادلة . كما أن العلاج بالعشب لا يتقنه إلا أنا الخبير بخلط الأعشاب .. أما النمل الأسود فطرده من البيوت سهل لو كتبت أنا آية من آيات الله على ورقة بحجم إصبعى – ولصقتها أنت بعجينة على باب دارك .. كذا أنا قادر على طرد الجنى ومص سم العقرب.. وأنا أرفع الخوف من كل نفس خوافة قابلها العفريت فى ليلة معتمة ، يا أهل قريتى وناسى لا خوف عليكم من لدغة الثعبان وقرصة البرغوث .

ولما خبرته النجوم بيوم سعده :

دخل السوق . وقصد مجلس الشمردلى شيخ تجار السمك ورد السلام . رد الشمردلى على السلام بسلام أفضل من السلام ، وقام وصافح الضيف الغريب وأجلسه بجواره على الدكة فوق الفروة وطلب له قهوة ونارجيلة وسأله عن غايته . قال صابر : الخير كل الخير .. بكم تبيع السمك وبكم تشتريه ؟ . قال الشمردلى : أشترى القنطار بنصف فضة وأبيعه بواحد فضة . قال صابر :

أنا أبيع لك القنطارين بنصف فضة .. كم قنطاراً تشترى ؟ . رد الشمرلى : ما عندة . قال صابر : عندى الكثير . قال الشمردلى : أشترى منك نصف حاجة السوق .. قل عشرة قناطير . قال الشيخ صابر : الناس تقول (الذى أوله شرط آخره نور) وأنا أقول لك يا شيخ (هات نصف الثمن فوراً .. وأنفذ أنا اتفاقى بعد يومين والعقد على رقبتى سيف) . قال شيخ السماكين : موافق ومالى حاضر . قال صابر : على بركة الله هات الشهود والموثق .

وهذا نص الاتفاق يا أميرى :

على بركة الله نشهد نحن الشهود أن شيخ العرب صابر بن فلان من فلانة سيبيع كل عشرة قناطير من السمك الطيب لشيخ السماكين الشمردلى بن فلان من فلانة بسعر القناطر ثمن الفضة لمدة شهر قمرى وقابل للتجديد لو رضى البائع والمشترى .. وبموجب هذا العقد يدفع الشارى فوراً للبائع نصف الثمن فضة ، والعقد نافذ المفعول من بعد طلوع شمسين ، والعقد على رقبة البائع سيف .

الكلام الأزرق :

قالت الأم : بعت الهواء يا ولدى وقبضت الفضة .

رد صابر : بعت السمك يا أمى ومن يبيع الهواء لا يقبض الفضة .

قالت الأم : بعت ما لا تملك يا ولدى .

قال صابر : السمك فى الماء يا أمى .

قالت الأم : لكنك لا تملك سمك الماء يا ولدى .

وسألها صابر : ومن يملك سمك الماء يا أمى .

قالت الأم : لا أحد يا ولدى لا أحد .

قال صابر لأمه : صرر المال تحت حزامى .. أدخل حارة النجارين فيصنع لى النجار القارب من خشب التوت وأنا أشتريها ، وأبحث عن صياد قليل النط كثير الصيد وأقول له : اركب القارب وارم شبكتك فى الماء ولم السمك من الماء وكومه على الشط وخذ أجرة يومك منى ، والحمال لو رفع السمك وحطه فوق العربة سأدفع له أنا أجرة بدنه وعرق جبينه ، كذا الحوذى سيأخذ أجره منى لما ينقل السمك من شط النهر إلى السوق ، هكذا أفى بشرطى يا أمى وأرفع السيف عن رقبتى .

قالت الأم : حفظ الله عقلك يا ولدى ..

حديث الثعلب وبكاء النواطير :

مر الشهر وقال صابر للشمردلى (نجدد العقد) ومر بعد الشهر شهر وشهر واشترى صابر القــارب ومر شــهر وشــهر وشهر وشهر واشترى صابر القاربين وقــال للشـمردلى (أنا لا أرغب فى تجديد العقد) ، سأله الشمردلى (لماذا) قال صابر (العقد ظلمنى يا شمردلى نكتب العقد الجديد- وتقنع أنت بنصف ما تكسب اليوم) ، وكان صابر كلما مرا شهر وشهر وشهر يشترى قارب صيد ، وينادى الصياد الذى يحمل الشبكة على كتفه ويقول له (اطلع فوق القارب فهذا أفضل من مشيك على الشطوط بقدميك) ، بعــد عام ونصف عام قال صابر للشمردلى (اقنع بربع ما تكسب يا شمردلى) ، قال الشمردلى (ما الذى غيرك يا رجل ؟) ، قال صابر (كن قنوعًا يا صاحبى فأنت تكسب دون أن تقوم من دكتك) ، بعد عام فسخ صابر العقد بينه وبين الشمردلى ، ولما باع الشمردلى السمك بالسعر الذى يبيع به صابر اقتسما السوق ، لكن صابر خفض سعر السمك وخفضه فهرب المشترى من الشمردلى وهرب الشمردلى من السوق بما تبقى معه من مال وقضى بقية عمره فى خمارة صاحبها مالطى .

هكذا بقى صابر فى السوق بغير منافس واحتكر بيع السمك :

اشترى قارب الصيد لكل صياد يروح على الشط بقدمين وفوق كتفه شبكة ، وحذر الصيادين من صيد السمك الصغير وقال لهم (السمكة الصغيرة اليوم هى حوت الغد) .

وبدل الموازين وأمر المنادى بأن ينادى فى السوق (البيع من صباح الغد بالكيلو لا بالأقة) ، وجاء بمصنف خبير بأنواع السمك ومنحه الأجر الكبير وقال له (قيِّم أنواع السمك واختر لكل نوع من السمك الاسم وحدد السعر فالناس عبيد وسادة وكذا السمك أيضاً) .

وقال صابر لروحه :

(اطرحوا نصف حاجة السوق من السمك الحى والباقى ملحوه .. بذلك نرفع سعر السمك الحى، ونحدد نحن سعر السمك المملح) .

وقال صابر لنفسه :

(ها أنا بعقل الراجح أحكم السوق بقلب الأسد ملك الحيوان) .

حديث صابر مع الزمان :

أطل صابر من شرفة قصره وكلم الزمان :

* ملك السمك الحى والسمك المملح (عجوز) .

* خالق الزحمة بالأسواق (وحيد) .

* مالى يحرك القارب والصياد والحمال والحوذى والعربة والبغل والحمار وريشة الرسام (وأنا جامد) .

* عربتى يجرها حصان أبيض وحصان أسود (وأيامى يجرها ليل أسود ونهار أبيض إلى المقبرة) .

* يفسحون الطريق لى أنا الملك حامل السوط (وأنا راحل وهم باقون) .

* كما يرقد المال فى خزائنى سأرقد (بارداً كالفضة) .

* يا أيها الزمان أنت الوحيد الذى لم أهزمه (كأنك أنت الملك) .

* بذهبى سأشترى أجمل بناتك أيها الزمان لتلبس بعدى ثوب الحداد . وتنتفخ بطنها من أى ابن زانية هذا فيما لو عجزت أنا وعزائى أن تظل ألسنة النار مشتعلة بالأسواق تحدِّث الآتين بخبرى .

ترنيمة للأمير

كنت بزيارة صديقى ، وكان أستاذاً ، وهناك التقينا فقلت لنفسى.. أخ .. تلك فتاتك الموعودة .

وكانت هى تكلم الأستاذ وتسمع منه وتضحك وتميل لقدام فتطير خصلة من شعرها الأسود وتحط على جبهتها فتردها بيدها وتعود لوراء كما كانت : كما لو كانت الغصن يا أميرى يواجه نسمة.

بيديها بيديها .. آه بيديها – وقد قامت – صففت الورد ورسمت اللوحة بألوان وعطر يا عقلى وغادرتنا ، هكذا سريعًا ، وابتسمت وسلمت وابتسمت : كأنها قالت لى أهواك هكذا سريعًا ، وهكذا سريعًا غادرتنى ، وتلك الرائحة التى خلفتها ما كان بمقدور الورد أن يفوح بمثلها – وهل يجرؤ الورد.

طالبنى صديقى بالبقاء وكنت راغبًا فيه : لقد كانت هنا ، وقال لى من عمرى وأنا محتاج للمال لأعيش .. أنا الأستاذ كنت أبغى التطوع بالجيش الذى سافر للحرب باليمن فمرتبات الجند هناك كانت عالية .. لكنى الآن أفكر فى الزواج من تلك التى أحبها – مع أن الفرصة أتتنى الآن لأسافر لليمن معلماً براتب يفوق راتب جنديين إلا أنها لا تحب غير المدن .. وها أنا كما ترى حائر بين حبى ومستقبلى ومستقبلى وحبى ، وسألنى أيهما الصحيح الزواج أم السفر ؟ ها هو الفالح يطالبنى بالإجابة ، ولو قلت له (مستقبلك) لقال (حبى) ، وأنا أعرف أنه يقصدها هى ، دعه فهو لا يعلم ، ليكن يا أميرى للصديق على الصديق حق لا يعرفه إلا الصديق ، من جانبى سأدمن الخمرة فهى كفيلة مع الأيام أن تأتى بالنسيان ، نعم سأدمن الخمرة – ما الذى بقى ؟

فى البار – بعد السنوات أتتنى أخباره : لقد سافر إلى اليمن وتزوج من يمنية مات زوجها اليمنى فى حادث جد مؤسف فورثت الأرض الواسعة الجيدة تزرعها بناً ، بعد زواجها الثانى لم تعد تبيع البن أخضر ، فقد أشار عليها صديقى بشراء محمصتين ومطحنتين وكذا مصنعاً لتعليب البن وقال لها : بمصر محامص كثيرة ومصانع لتعليب البن كثيرة معروضة للبيع بسعر قليل – وتلك فرصة لابد أن تقتنص ، وافقت هى واشترطت أن لا ينزل هو بالفنادق الكبرى فسمعة الفنادق الكبرى تعرفها هى من أم لها ماتت ، وقالت له من الأفضل لنا شراء بيت بالقاهرة لتكون القاهرة لنا

مسكناً شتوياً ويبقى اليمن مسكناً صيفياً ، وكان هو قد تعود بفضل ذلك الشعور القديم بالفقر أن يعمل بما تشير به زوجته الغنية التى أطلقت حوله العيون : من وقت يقلع بالطائرة من صنعاء إلى أن يهبط بمطار القاهرة ... يقضى نهاره وبعضاً من ليله بين المحامص والمطاحن ومصانع التعليب ويعود إلى البيت – تتبعه العيون – مهدوداً فينام .

(فى الحلم قابلها صدفة فلامته وقالت له : لقد شغلت عنى بالمال وبزوجتك الأرملة الغنية اليمنية ، فقفز من نومه فزعاً لتكسر ساقه ، لكنه أصر على السفر بساق مكسورة : قصد مطار صنعاء وحده وركب الطائرة المقلعة لمصر ، وبمصر بحث عنها ، ولم يجدها بحث عنى أنا الصديق المخلص مدمن الخمرة فوجدنى فى البار) .

ذلك ما قاله لى ...

(سافرت إلى فرنسا لزيارة شقيقها المتزوج من فرنسية وهناك تزوجت من شقيق الفرنسية) وقلت له (هذا كل علمى) .

وكل علمى بعد ذلك – يا أميرى :

أن الأستاذ عاد إلى اليمن مغموماً ، أدمن القات يمضغه ويمصه ، حتى قالوا يا أميرى – جُن، وفعلت اليمنية كل ما يمكن أن تفعله زوجة مخلصة : أتت له بالحكماء المعالجين من كل بلاد الدنيا.. وبناء على تعاليمهم اشترت له طائرة هليوكبتر تقودها بنفسها – هى الصحبة – خوفاً عليه ، وذات يوم غافلها – هو المدمن للقات – وركب الطائرة وحمل معه خارطة ودليل فرنسا وكان يخفيها فى ثنية سرواله ، وطارت به الطائرة إلى قدره وقدرها ، وكانت هى تطل من بلكون تشير بيدها إلى تلك الحدائق الفرنسية الشهيرة – فظن العاشق المجنون مدمن القات أنها تشير إليه هو ، ولما لم يحسن الهبوط اصطدم جسم الطائرة بإفريز البلكون ، فاحترقت الطائرة واحترق هو واحترقت هى...

وها أنا أيضاً – يا أميرى – بالخمرة أحترق .

حكاية أخيرة عن الطير الأليف والطير الجارح

أمام دار السينما – التى تعرض فيلماً ملوناً عن البنات والبحر ، كانت طيور الهواء تجفف شعر البنت القادمة لتوها من البحر ، وكان الببغاء المحبوس داخل قفص كبير ملون معلق على باب السينما يردد : فيلم ملون .. البنات والبحر فيلم ملون ، وكانت البنت الجميلة التى تنتظر صاحبتها الجميلة – تدق بقدمها النشيطة الأرض ، تدق الأرض ليرتج الثدى ويبين الفخذ ويلطم الثوب الركبة– فيصرخ الببغاء – الذى يجهل حب البنت الحلوة لبنت حلوة : البنات والبحر .. فيلم ملون .

الولد – القادم من تحت الأشجار – وقف ، ورأى .

واليمامة – التى ترى بعين سليمان النبى – رأت ، وطارت لتخبر سليمان النبى بما رأت ...

والحمامة – من فوق برجها العالى – رأت ، وحضنت فرخها ، أما البومة – فمن عجب أنها لم تهتم ...

ونوارس البحر – لم يكن بمقدورها أن تحلق بالأعالى لترى – والقواس الطائر ، مر ، وما رمى بسهم العشق قلب البنت ورمى بسهم العشق قلب الولد .

وأنا الذى رأيت – تقدمت ، للبنت التى تبيع التذاكر – والتى تلبس ملابس الطاووس ، أريد تذكرتين (تذكرة للولد القادم من تحت الأشجار وتذكرة لى) .

لكن البنت – التى تلبس ملابس الطاووس – صرخت كما يصرخ الببغاء : الفيلم للبنات .. وعن البنات والبحر .

لما رجعت أنا الخائب – يا أميرى ، رأيت الولد يدمى بمنقاره أجساد فتيات الإعلان – الطالعات والنازلات البحر – الواحدة تلو الأخرى .

هكذا يا أميرى قررت – من مكانٍ العشق على أرضه مستحيل ، وأنا أضرب الكف بالكف من اختلاط الأمور فى هذا الزمان ، ولسان حالى يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .. وآهٍ من زمان أعيشه .

حكاية على
لســـان كلــب

أيامى فى الريف

أنا ابن الصدفة العمياء

اسمى محظوظ ، ولاسمى حكاية تحكيها أمى : « ولدت جروين وجروين وجروين .. وكنت أنت أحدهم . وقال صاحب الدار لأم أولاده : « اختارى يا أم أولادى من تلك الجراء جرواً يحيا مع أولادنا » . أشارت زوجته إليك - وقالت : الذى نصفه أبيض ونصفه أسود . فقام صاحب الدار وحمل أخوتك ورماهم فى الخلاء البعيد - للجوع والبرد والريح والمطر والحيوان المفترس . وتقدم أبوك منك وشمك ولعقك - وقال : أنت محظوظ . فقلت أنا : ما رأيك لو نسميه محظوظ ؟ . رد أبوك : موافق يا أم محظوظ .

القاتل وأنا فى بيت واحد

لما رأيت صاحب الدار نبحت فى وجهه : أنت رجل بلا قلب ، ونبحت فى وجه أبى - لما رأيته يهز ذيله مرحباً بصاحب الدار : كيف ترحب بقاتل أخوتى ؟! . رد أبى : لقد فعل الرجل ما فعله لأنه كامل العقل يا صغير العقل . قلت : مادام العقلاء قتلة .. فلنبحث عن بيت صاحبه مجنون . وتنهدت أمى : حتى المجنون لا يقبل قبيلة من الكلاب فى بيته . وقال أبى : هل يطعم الفقير قبيلة من الكلاب ؟! .. هه ؟! الرجل غير قادر وعنده قبيلة من الأولاد . وتنهدت أمى : نعم.. الفقر سبب كل بلاء .. الفقر هو القاتل يا ولدى .

صاحب الدار وأبى واللصوص

- يا دنيا .. أمورك غريبة « وأحوالك عجيبة » !!

أبى وصاحب الدار - كلاهما يبيت خارج الدار . أبى يحرس الدار بالليل من اللص - والدار مبنية من صفيح وطين وقش !! . وصاحب الدار يحرس بالليل بستان الغنى من اللص - والغنى نائم!! . أبى ينبح كل الليل - بسبب ومن غير سبب - حتى يخاف اللص فلا يقترب من دار ليس فيها ما يسرق !! . وصاحب الدار يقضى الليل كله يتمخط ويبصق - بسبب ومن غير سبب - وقد يطلق رصاصة فى الهواء ثم يزعق « من هناك ؟ » : هكذا يخاف اللص فلا يسرق البستان ! . وأبى

لا يملك الدار !! وصاحب الدار لا يملك البستان !! . أما اللصوص فيسهرون خارج الدور – لأنهم بغير دور ، وهم أفقر من أبى ومن صاحب الدار .. ولذلك فهم يطمعون فى أشياء صاحب الدار القليلة – لولا أبى الصاحى اليقظ !! .. وهم طامعون فى بستان الغنى النائم – لولا حارس البستان الساهر والقابض بيديه على بندقية تخرج النار الحارقة من ماسورتها !! .

يوم لا أنساه

جاء ضيوف من أهل المدينة – لقضاء يوم فى الريف ، وقفز الأولاد والبنات – من العربة المكشوفة التى تشبه الأوزة – وعانقوا وقبلوا أولاد صاحب البستان وبنات صاحب البستان .

ونطَّت من العربة كلبة بيضاء .. قليلة الحجم .. نظيفة .. يكسوها شعر غزير ، وكان اسمها «لولو» ، وكان برقبة لولو طوق من الجلد تدلت منه أجراس تدق وتنشر النور ، وكانت لولو رشيقة الخطوة .. مشيها على الأرض يشبه الرقص .

أخاف – يا أبى – أن يطير عقلى من رأسى

قلت : ليت أمى فى مثل جمال لولو .

رد أبى : الطبيعة هى التى أهدت لولو شكلها الجميل .. يا جاهل .

صححت كلامى : ليت الطبيعة أهدت أمى مثل جمال لولو .

رد أبى : لولو من عائلة اللولو .. ونحن من عائلة البلدى .. يا مغفل .

قلت : ولم ظلمت الطبيعة أمى وأنصفت لولو ؟ .. الطبيعة غير عادلة يا أبى .

نبح أبى فى وجهى : لا تنبح فى وجه الطبيعة أم الكائنات أيها الغبى .

وتركنى أبى – مع أمى – ونط فوق سور البستان .

يا أمى : أخاف أن يطير عقلى من رأسى

قالت أمى : مالكة السيارة هى صاحبة لولو ، وهى التى أهدت لولو الطوق وهى التى علمت لولو كل لغات الأرض .

فقلت لأمى : وهكذا ظلمنا صاحب الدار – لأن الدنيا ظلمته .. يا لها من دنيا ظالمة .

قالت أمى : اقنع بنصيبك يا ولدى .. لا تعاند .. هيا بنا نلحق بأبيك .. فهنالك وليمة أقامها صاحب القصر ببستان القصر – حتى يرى الضيوف وهم يأكلون : الخضرة والماء والمنظر الحسن .

عقلى سيطير من رأسى

من فوق سور البستان – نظرنا إلى مكان الأكل .

كانت لولو تأكل من دجاجة مشوية راقدة فى طبق .. وتلعق الخضار والمرق من طبقين .. وتشرب الماء – الذى رشوا عليه ماء الورد والسكر – من طبق ، وكان أمام الضيوف وأهل القصر مائدة فوقها البط المحشو والحمام المشوى والدجاج المقلى واللحم المسلوق ، وكان الضيوف يرمون البقايا من شحم وجلد وعظم فى أطباق ، وكان الخادم الذى يلبس الطرطور يرمى ما فى الأطباق على الأرض – لتأكل كلاب صاحب البستان التى تشبه الذئاب ، وكان صاحب دارنا يقف كالناطور وبجواره خادم بيده دورق الماء الملون .

قلت لأبى : أتينا لنأكل .. وها نحن نتفرج .

كشر أبى : لست وحدك الذى يتفرج يا عزّة الكلاب .

قلت : ها هى كلاب أرمنت تأكل .

زام أبى : هم أهل المكان ونحن غرباء .. هل فهمت يا بلدى يا ابن البلدى ؟

وقالت أمى : الأكل كثير يا محظوظ .. بعدما تشبع كلاب أرمنت وتعاف الطعام – سنأكل أنا وأنت وأبوك حتى نشبع .. سيبقى الكثير يا ولدى .

هممت بفتح فمى – فزعق أبى : إخرس .. لا تفسد على متعة الشم فهى عندى كمتعة الأكل . ونظر لأمى – وقال ساخراً : إبحثى عن ريشة وضعيها فوق رأس ابنك فهو يظن أنه الملك ..

قلت : لا يا أبى .. سأبحث أنا عن ريشة وأضعها فوق رأسى .

وقفزت من فوق السور ، وجريت إلى الطعام ، وأمسكت بعظمة بها لحم .

معركة غيرت مجرى حياتى

حاول الكلب الأرمنت الصغير نزع العظمة منى – فضربته بالعظمة على رأسه ضربة جعلته يصرخ ، وتقدمت أمه مكشرة فكشرت أنا ولوحت بالعظمة مهدداً – فوقفت فى مكانها تزوم . وقفز الأب ناحيتى فتراجعت خطوتين وملت شبرين – فوقع على الأرض ، ولما قام وواجهنى بعينين تشتعل فيهما النار – ضربته على عينه بالعظمة هكذا ، لم يعد يبصرنى فطاشت كل ضرباته ، أما أنا فقد أشبعته ضرباً بالعظمة .

المحاكمة

جاء أبي يجرى ، وكان غاضبًا ، وعضني في أذنى أمام الجميع ، ووصفنى بأبشع الصفات . وهتف ولد من الضيوف :

اتركوا الكلب الصغير يصارع الكلب الكبير .. أريد أن أتفرج . وصرخت بنت من الضيوف :

لا .. لا .. لولو خائفة .. إبعدوا هذا الكلب الصغير المتوحش .

عند ذاك صوب حارس البستان بندقيته ناحيتى – فجريت واختفيت بين الأشجار .. وأنا أنبح وأكيل له السباب : يا ناطور .. يا ناطور .. أنت تتفرج وهم يأكلون .

الخُطبة التى جعلتنى أهاجر

هاج أبى وماج ، وارتجل خطبة قال فيها كلاماً له ثقل الأحجار – كان يتساقط فوق رأسى وأنا منكمش تحت الأشجار :

« سيداتى سادتى .. أنا أحييكم برأس محنية .. وأعتذر لكم أيضاً برأس محنية .. فى يوم أغبر ولدت شريكة حياتى هذا الكلب الفاسد .. فى هذا اليوم بكت السماء فسقط المطر وكفت العصافير عن التغريد وجف فى حلوقها النشيد .. ومرت الأيام وكبر الفاسد فقلّ ماء النهر وقل حجم القمر فى السماء.. واليوم أفسد الكلب الفاسد متعة الضيوف ، وأهان كلاب الأرمنت ، وأفزع المحترمة لولو.. ومن اليوم سأرى أنا الكلب الصالح النور ظلاماً والظلام نوراً .. هكذا تختلط الأمور يا سادة – حين يتطاول مخلوق من مرتبة سفلى على مخلوقات من مرتبة عليا .. ومن اليوم – لا هو ابنى ولا أنا أبوه .. سأطرده ليعيش عيشة الكلاب الضالة .. وسيعلم بعد فوات الأوان – لما تسقط على بدنه عصا الشحاذ – إن انتقام السماء عظيم .. وصدق الذى قال (لا تشتر العبد إلا والعصا معه – إن العبيد لأنجاس مناكيد) .. والسلام عليكم » .

صفق الضيوف وصفروا ، وهتف بعضهم بحياة أبى ، وهتف بعضهم بسقوطى .

الوداع

بحثت أمى عنى ، ووجدتنى ، وقالت وهى تبكى : قلبى هدانى إلى مكانك يا ولدى قبل أنفى، وقالت : كبد أمك يتمزق يا ولدى .. وأبوك تكلم بلسان الخوف ..

قلت : لا تحملى همك وهمّى يا أمى .. أنا كرهت الحياة هنا .

فسألتنى : وإلى أين أنت ذاهب يا ولدى ؟

قلت : خلف العربة .. إلى المدينة .. وراء لولو .. سأجرب حظى .

الرحيل من الريف

جريت خلف العربة ، وناديت لولو المنكمشة فى حضن صاحبتها : لا تخافى يا لولو .. ولا تصدقى كلام أبى عنى .. أنا كلب طيب ومعجب بك .. والطريق الطويل يحتاج لأنيس .. أنا ذاهب إلى المدينة وأنت من سكانها .. أنا لا أعرف المدينة وأنت تعرفينها .. ساعدينى يا لولو .

أخيراً تكلمت لولو – فابتسمت أنا . قالت لولو : لقد أفزعتنى بتصرفك المتوحش .. لكنى لا أمتنع عن مساعدة من يريد المساعدة . قلت : عشت يا لولو .. ودامت لك النعمة التى تعيشين فيها .

فقالت : أشكرك ، والآن كف عن الكلام حتى لا تغضب صاحبتى منى .. وتعال بالغد مع الشمس إلى الفيلا التى ستقف أمامها العربة .. ستجدنى وحدى ألعب فى الحديقة .. باى باى ..

أيامى فى المدينة

ليلة فى شوارع المدينة

ليل المدينة بنهارين .. كل نهار بشمسين ، والناس فى المدينة يجرون على أرض الشوارع كماء السيل .. ملابسهم غريبة – وكأنهم فى مولد أو عيد .

رأيت العجب – وأنا أتسكع فى أسواق المدينة :

الطير الملون المحبوس – يغنى داخل القفص !؟ ، النور بكل لون ، الألوان تغمز وتتبادل الأماكن ، المخلوقات والأحذية والثياب وكرة الطفل – محبوسة داخل أقفاص من زجاج ، المرأة المعلقة على الحائط تصرخ بغير صوت – وهى تغرق فى ماء البحر – ولا أحد ينجدها !! . الحوانيت أغلقت أبوابها – فقل النور واختفى الناس ، لولا وجود العربات وأصحاب العربات لنبحت أنا فى وجه المدينة : يا مدينة هجرك سكانك .

تمكن التعب من بدنى – فوقفت أفكر فى حالى ، وأفقت من أفكارى على قرصة فى أذنى – فهرشت أذنى . وهمس صوت فى أذنى : لا تهرش من فضلك فأنا نملة . نبحت . بغضب : ابتعدى. همست : ابتعد أنت أيها الكلب عن هذا المكان .. وابحث عن مكان آمن يحميك من بندقية الصياد . قلت : أنا غريب يا نملة .. قادم من الريف .. لا صاحب لى هنا ولا بيت . همست النملة : مسكننا قريب .. تعال معى وقابل أمى الحكيمة .. أمى ستساعدك يا كلب – فهى تفهم أكثر منى لأنها أكبر منى . قلت : أنت خيرة يا نملة . فهمست فى أذنى : أنا صابرة .. اسمى صابرة .. وسأقدم لك خدمة مقابل خدمة . قلت : اطلبى يا نملة . همست : سأبقى هنا بجوار أذنك وأتفرج على الدنيا .. لأن ما تراه أنت فى ساعات – بفضل خطواتك الواسعة – أراه أنا فى شهر وعامين . قلت : اتفقنا .. موافق يا نملة .

التصقت بساق الشجرة – فزحفت النملة الحكيمة وحطت فوق أذنى وهمست : لو كان بيتى يسعك لقلت لك : « أهلاً بك فى بيتى » ..

وأنا لا أنصحك بالبقاء فى المدينة – حتى لا تموت ميتة الكلاب على يد صائد الكلاب . قلت: لا أريد أن أغادر المدينة .. لى صاحبة تعيش بقصر وسأقابلها فى الصباح .

همست النملة الحكيمة فى أذنى : أنت كلب طموح .. ولكن لا تدخل المدينة بالنهار . فسألتها : وهل تبغـى لولو هلاكى ؟ .. ردت النملة : لا تفهم كلامى بالمقلوب ولا تظلم لولو .. لولو تعـيش فى قصر – ولا يعرف عيشة الشوارع إلا من عاش فى الشوارع .. ولولو قد تمشى فى الشارع – فهل كل من يمشى فى الشارع يعرف عيشة الشارع ؟ . الشارع بحران مالحان يا محظوظ . أنا أحذرك من السير بالنهار فى شوارع المدينة ، لأن مصائد الكلاب يعمل بالنهار وينام بالليل ، وتلك خصلة محيرة من خصال أولاد آدم .

قلت أنا بحزن وفرح معاً : ضاع لقاء لولو .. والمدينة مباحة بالليل .. ولا أعرف المكان الذى أختفى فيه بالنهار .

ردت النملة الحكيمة : لا .. اذهب الآن إلى قصر لولو واترك ابنتى هناك .. وستقول لها لولو ما تود أن تقوله لك .. وعندما يحل الليل اذهب مرة أخرى إلى القصر لتعرف ما قالته لولو لصابرة، وقد تقابل لولو .. واقض نهارك بالأحياء الشعبية – فمصائد الكلاب يعيش هناك ، ولكنه يعمل بالمدينة .. ككل سكان الأحياء الشعبية .

نهار بشوارع الأحياء الشعبية

الناس أكوام ، والقمامة أكوام ، والبيوت خالية من الرجال ، عامرة بالنسوة الجالسات أمام الأبواب يطبخن ويغسلن ويأكلن ويرمين بالفضلات لنا نحن الكلاب – لكن الصبى المتشرد يطارد الكلب بالحجر وينزع العظمة من فم الكلب . النهار – هنا – شمس بلا عيون ، والحياة – هنا – عذاب ما بعده عذاب .

ليلة أخرى بالمدينة

على باب فيلا لولو أسندت رأسى – فحدثتنى النملة صابرة بحديث لولو، قالت صابرة إن لولو تقدر موقفى وتقبل اعتذارى عن موعدى معها ، ولولو تعتبرنى من أبناء جنسها الحيوانات – مع إنى من عائلة بلدى ، ، ولولو تعتذر الليلة عن لقائى لأنها تنام مبكرة ، ، ولولو تسهر أيام الخميس – لكن خـارج البيت ، ، وهى فى كل مرة مع صـاحبتها .. فى زيارة للأصـدقاء أو لمشاهدة مسـرحية أو سيرك ، ، ، ولولو تقول إن اللقاء فى السيرك ممكن .. وعسير فى بيوت الصاحبات ، ولا يجوز فى السينما ، ولا يليق فى المسرح ، .

وقالت لى النملة : لولو سترى ألعاب السيرك يوم الخميس المقبل – وهذا من حسن حظك – .. ولولو تركت لك قطعة لحم وفطيرة فوق قاعدة من الحجر يقف عليها تمثال من النحاس لأسد راقد

يبخ الماء من فمه .. نطَّ السور يا محظوظ وخذ قطعة اللحم وخذني معك – لقد نلت مرادك من هنا . قلت : تعالى يا صابرة .. إن ضاقت عليك أذني حملتك في عيني .

من أقوال النملة الحكيمة

حكيت للنملتين ما جرى لي في الريف – من الألف إلى الياء . فقالت النملة الحكيمة : « أنا لا أحب الإنسان ولا أكرهه .. وأعجب من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . حياتك مع النمل ستعلمك الصبر .. نحن جموع النمل ننال بالصبر كل ما نريد » .

في السيرك مع لولو

درت حول مبنى السيرك دورتين من بعيد – حتى لا يعاملني إنسان معاملة الكلب الشريد ، عرفت مداخل السيرك ومخارجه – لأضمن السلامة إذا ما حدثت المتاعب ، سأدخل في أعقاب لولو – فيظن الواقف على باب السيرك أنى كلب صاحبة القصر ، وسأجلس بجوار لولو في أدب ووقار – حتى لا تشك صاحبة لولو في أمرى وتحسبني كلب الإنسان الذى يجاورها .

ضربت المروضة الفيل بالعصل وأمرته أن ينام فنام ورفع أرجله في الهواء ، وصفقت لولو فصفقت أنا ، ولما ضرب المروض الهواء بالسوط .. فرقع السوط وصفر الهواء وخاف الأسد فقعد على الأرض وقلد الفلاحة وهى تعجن العجين ، وقامت لولو وقعدت فقمت أنا وقعدت ، ومشى الدب بالدراجة على السلك الرفيع المعلق في الهواء ، وقالت لولو أيها الدب .. سنلتقى كل يوم خميس من أول كل شهر ، وقلت أنا : ليتنى أراك كل يوم يا دب مرتين .

حديث القلب مع القلب

أمامي شهر ثم ألتقى بلولو في السيرك .. وبعد الشهر سنلتقى أنا ولولو – ثم نفترق لنلتقى بعد شهر .. هكذا ستمر السنوات والسنوات يا لولو – وأنت بالقصر في أمان وأنا بالشارع في هوان .. الشهر زمان يا لولو والشهر مسافة .. والمسافات تباعد بيننا والزمان يعاديني ، والسيرك أحلى الأمكنة يا لولو .

أول هزيمة للزمان وهزيمة كاملة للمسافات

قالت لي النملة الحكيمة : لو عرفت الجماعة ما تريد لاقتربت المسافات البعيدة .. قل لي كل ما تريد أن تقوله للولو .. وسأنقل أنا كلامك لجارتي القريبة .. وجارتي ستنقل كلامي إلى جارتها

القريبة .. سيجرى كلامك من فم نملة إلى فم نملة حتى يصل إلى أذن لولو ... وهكذا لا يتعرض النمل للتعب ولا تتعرض أنت للمتاعب .

رسالة إلى لولو

سأعمل بالسيرك يا لولو .. لا تندهشي وخذى الحكمة من فم النمل .. بالصبر سأنال كل ما أريد .. العروض في السيرك مسلح بالمسدس والسوط – لأنه يخاف من لسعة السوط وغدر المسدس.. أما أنا فسأعلم نفسي بنفسي – فلا تخافى يا لولو .. لن أحتاج إلى من يجلدنى أو يهددنى.. وأنا الآن أبحث عن ألعاب جديدة تصلح للسيرك .. وحتى نلتقى – دمت يا لولو .

القفص يتكسر

(١)

حذرتنى لولو : لن يكون موقفك اليوم أفضل من موقفك يوم البستان . قلت : حسبت حسابى يا لولو ولن أضيع الفرصة .. الكل هنا يضحك على المهرج وعلى محاولاته الفاشلة فى تقليد الآخرين.. وأنا سأشترك مع المهرج فى نمرته .. إن فشلت فسيضحك الكل علىّ كما يضحكون على المهرج .. ولو نجحت فسأخرج لسانى للزمان .

(٢)

وقفت على الأرض بساقين ورميت ساقين في الهواء .. ومشيت على الساقين الأماميتين مرّة، وعلى الساقين الخلفيتين مرة ، ووقفت على رأسي .. وكما تتدحرج كرة الحظ تدحرجت .. ودرت كما تدور الساقية .. وها أنا فى الأرض مرة ، وها أنا فى الهواء مرة أتفادى ضربات المهرج الطائشة .

(٣)

قال صاحب السيرك – وعقد العمل بين يديه : من سيركى نال شهرةً .. وليس من العدل أن يعمل مع صاحب سيرك غيرى .. سأدفع له كل ما يريد من مال .

وقالت رشا صاحبة لولو : برافو ميزو .. وقالت لولو : برافو .. رائع يا ميزو ..

صوت واحد لم أسمعه .. صوت صابرة .. وقعت صابرة وأنا أصنع مجدى .

أيام الهنا .. كل يوم بسنة

– ون –

صرنا نلتقى أنا ولولو بالسيرك وبالفيلا ، وكان أهل الفيلا يرحبون بى ويفخرون بالرابطة التى تربطنى بلولو وبهم ، واليوم هش صاحب الفيلا فى وجهى وبش – وقال لضيوفه : ميزو فى سماء الفن نجم .. وارتباطه بالمجتمع الراقى طبيعى .. هذا حقه ، وأشار إلى الحائط : « كنا داخل الإطار الذهبى نبتسم من وراء الزجاج – أنا ولولو ورشا ابنته » ، وكانت الصورة الملونة معلقة فى المكان الذى يستقبل فيه أهل الفيلا ضيوفهم .

– تو –

إسمى ميزو أسكن فيللا ينام فى حديقتها الياسمين ، عندى عربة ليموزين وموتوسيكل ، أقوم بألعابى فى السيرك بقبعة ودراجة وعصا ، الطوق فى رقبتى والأجراس فى قدمى من الذهب الخالص ، الباعة ينادون على تماثيلى المصنوعة من الحجر والبلاستيك والشمع والسكر الملون فى القطارات والمقاهى وعربات الترولى باس ، والدمى التى على شاكلتى محبوسة داخل فاترينات كل المحلات ، ولبن ميزو أفضل هدية تقدمها الأم لطفلها ، وكلما سرت فى شوارع المدينة – سد علىّ المعجبون المنافذ وطلبوا بصمتى على صورتى ، ويشق لى حارسى المسلحة الفجوة التى أنفذ منها – فيرمى عشاقى بالورد وأصابع الحلوى واللوز المقشور .

– ثرى –

أرسلت الرسول إلى الريف – فجاء أبى وأمى واستقر مقامهما فى حجرة تليق بهما بدار الرفق بالحيوان ، وحاول أبى تفسير مواقفه القديمة منى – فقلت له : لا عليك يا أبى .. عندما كنت تقسو على بلسانك – كنت أنظر فى عينيك وأرى نفسى محاطة بكل حب ، وتركتهما – لأنى مرتبط بأداء دورى فى فيلم « ميزو وعصابة المرأة المقنعة » .

– فور –

اشتريت نظارة لأمى وأسنان صناعية لأبى ، وقلت لنفسى : لا بأس من وجودهما بدار الرفق بالحيوان .. ولا مبرر للحزن ، فتلك دورة من دورات الزمان لا ينالها إلا المترف والمحظوظ .

هبّة الكلاب أبناء الكلاب

تحت شمس الظهيرة – نصب العمال الصوان . دقوا أعمدة الخشب فى الأرض ولفوها بالقماش المنقوش .. وعلقوا الرايات واللمبات الملونة .. وصفّوا الكراسى وأكاليل الورد .

وتحت النور – جلست أنا ولولو على كرسيين كبيريين .. نبتسم للراقصة التى تدق الصاجات وتتلوى كسمكة فى الماء .. ونتقبل التهانى من أكرم وأعرق عائلات اللولو والوولف والرومى والسلوقى ، وفجأة سمعنا النباح العالى البغيض ودق الطبول ونفخ المزمار البلدى وأفواه تغنى بصوت قبيح : « الدنيا حظوظ .. واليوم حظك يا محظوظ » ، إنها وفود من الكلاب البلدى وكلاب أرمنت زحفت إلى عاصمة البلاد فى مظاهرات صاخبة لتحضر فرحى .

بان الفزع فى وجه كل الحضور : صرخت إناث السلوقى وأغمى على ذكور اللولو ، وتعالت صرخات عائلات الرومى تطلب من الحرس العون فى وقت الشدة .

نظرت إلى حارسى وأنا أهوهو غاضبًا : يا لهم من أغبياء .. لقد انقلب عرسى إلى مأتم .. فأشار حارسى إلى بقية الحراس – وصرخ : اطلقوا الرصاص .. دعوا الرصاص يلعلع .

على النجوم مسايرة الموضة

اشتريت سيارة رولز رويس صفراء ، ونزعت طوق الجلد وعلقت فى رقبتى سلسلة من الذهب تدلى منها تمثال لولو ربة الجمال وربة بيتى ، وعلى وسطى علقت الحزام المرصع بالخنافس المنحوتة من الحجر الكريم .

الشهرة كشجرة الفاكهة : طعمها حلو وبذرها مر

وقتى وزع بين السيرك والسينما والتليفزيون والإذاعة والسهرات والمقابلات والاتفاقات – مع المنتجين والموزعين والمخرجين .. وعند الكوافير والمدلك ومقلم الأظافر ، لا أرى أمى وأبى إلا قليلاً – ولكنى أرسل لهما الهدايا والتحيات مع سكرتيرتى « سانى » وسائق عربتى « فرج الله » .

الحرام والحلال

طيبات الأرض كثيرة أمام عينى وفى متناول يدى – لكن أقل القليل منها مباح ، أطبائى فرضوا علىّ النظام القاسى – حتى يحتفظ جسمى برشاقته ومرونته . متعتان لا أسمع فيها رأى الأطباء : تدخين البايب والفرجة على لعب الورق المسماة « كن كان » .

الماضي يطاردني « أ »

ابني من لولو – له وجهي الكبير وجسم أمه الصغير . شكله المضحك أبكاني وأصابني بأرق جعلني لا أنام – إلا إذا حضر الطبيب ورشق الإبرة في جسمي : ليجري السائل الأصفر في عروقي.

اسم ابني « لوز » حرف اللام من لولو .. وحرف الواو من لولو وميزو .. وحرف « ز » من اسمي أنا « ميزو » أبوه ، لكن الصغير الغبي ينطق اسمه هكذا : « لوظ » .. كأنه يريد أن يذكرني باسمي القديم « محظوظ » .. ذلك الاسم الغليظ على السمع والقلب .

الماضي يطاردني « ب »

بينما الكوافير يصفف شعري – أحسست بقرصة في أذني ، كتمت الألم ولم أهرش ، أجلت هذا الفعل الذي لا يتفق مع الذوق الراقي – حتى أختلي بنفسي ، ولما اختليت بنفسي – سمعت الصوت يهمس في أذني : أنا النملة الحكيمة أم صابرة .. أتيت لأرى ابنتي يا محظوظ ، فنبحت في غيظ : أنا ميزو .. وصابرة هناك مع محظوظ ، وهرشت أذني – وأنا أعوي كذئب : والآن الحقي بهما في نار جهنم أيتها النملة الحكيمة .. وبلغي سلامي إلى صابرة ومحظوظ .

الماضي يطاردني « ج »

لعقت الدورق الكبير الذي يطفح منه اللبن الدافئ – لتهدأ أعصابي الثائرة ، ونظرت إلى المرآة – وأنا أكلم خيالي : قل لي يا خيالي .. خيال من أنت .. خيال ميزو أم خيال محظوظ ؟! ، وقبل أن يرد دخل الطبيب ورشق الإبرة في بدني فجرى السائل الأصفر في عروقي وتراجع الماضي . ولما أقبل النوم – وألبسني نظارة سوداء رأيت بها كل شيء يحترق .. كل شيء .. والنار تقترب مني ، وأنا لا أتحرك ولا أفعل شيئاً ..

الطوق والإسورة



للشجر المورق العالي .. وللريح المغنية وللإنسان ،

– على الأرض ذات الخير – في قوته وفي ضعفه .

يحيى الطاهر عبد الله

القسم الأول

الغائب

مع الرجال رحل مصطفى إلى السودان ، وهو بعد صبى . مر عام والعام الثانى يطوى شهره الأخير ، وما من خبر عن الغائب الغالى .

عقل حزينة قلب أم

عقل حزينة مع ابنها : هناك فى البلاد البعيدة . وأذنها اليمنى التى تسمع – هنا : مع الحمام الذى يهدل « الملك لله .. الملك لله » . عينها اليمنى فقدت النور من عامين . بعينها اليسرى ترقب : البشارى الراقد فوق المصطبة التى تطوق جذع شجرة الدوم .

(صار بعد العمر الذى مر كالقفة ، ترفعها من مكان به شمس ، وتضعها بمكان به ظل ، يرقب الشمس الجارية فى السماء ، ويصرخ ، فى وقت : « أبغى الشمس » ، ويصرخ فى وقت آخر : « أبغى الظل » – هكذا طوال النهار ، هكذا يمر النهار ، وهكذا تمر الأيام التى تطوى الأعمار : هى وابنتها تحملان القفة .. من الشمس إلى الظل .. ومن الظل إلى الشمس – لكنه رجلها فى الحلال ووالد مصطفى وفهيمة) .

اليدان تلعبان – هنا – بالمغزل الذى لا يكف عن الدوران ولَمّ الخيوط ، والعقل – هناك – مع الغائب فى بلاد الناس البعيدة .

بخيت البشارى فى حديث يقظة

المصباح شح زيته والليل الطويل الأسود قادم ، آه من الوجع والسن ، نومى قليل ويولى لا أتحكم فيه ، حزينة المخرفة تتطير من رؤية النعال مقلوبة ومن الريح لو حملت قشر الثوم ومن قدم تدوس كسرة خبز مرمية ، معذورة : هى امرأة ، الرجل منّا كابد ، عقلها مع الولد – والولد بالسودان

(*) سبق أن نشر « يحيى الطاهر عبد الله » الجزء الأول من هذه الرواية فى مجموعة « الدف والصندوق » فى قصتى « الشهر السادس من العام الثالث » و « الموت فى ثلاث لوحات » .

البعيد ، قلب الولد من حجر وأنا قعيد البيت ، أرغب في النوم .. أشتهيه ، لو نمت وطال النوم – بدون أحلام وكوابيس – سأذهب إلى الله الرحيم : أنا المسلم – وأتخلص من الأوجاع والعمر المكروه وأدخل للجنة ، لو عندى دخان لدخنت ومرّ هذا الوقت البطئ الثقيل الذى لا أحتمله .

من حِكَم الليل معلم القرى

– ١ –

نجمة مشتعلة هوت من السماء الزرقاء العالية واحترقت قبل أن تبلغ الأرض : – لو مست البشر أو الحيوان أو الزرع وحتى الجن ، لتحول في التو رماد .

– ٢ –

مصطفى الأصغر لكنه سيد فهيمة التى تكبره بعامين ونصف عام :

يضربها وتحبه ، والأم موافقة والأب موافق ، مصطفى حامى فهيمة ومخوفها من العيب ، مصطفى رجل وفهيمة بنت . البنت ثوب أبيض طويل الذيل ، عليها أن تمسك بذيل ثوبها وتمشى فى الطريق محاذرة ، وهل بالطرق غير التراب والوحل والقش !!

الصبيّة مضطربة والليل رفيق الأفكار

هى بنت الأم والأب ، وهو شقيقها ، وهى تحبه ، وهو باليقين يبادلها الحب . فى المرات الأولى كانت تبكى ، بمرور الوقت كانت تتعمد الفعل المعوج ليضربها ، فتتصنع البكاء وتشتمه ، وهكذا تشتعل ناره وتحمى فيضرب بعنف ، وجهه الرجل يطفر بالدم الأحمر الدافئ ، والعروق فى رقبته تنفر وتكاد تنفجر .

يا حفيظ من غضبته ، هذا الذى كان يطلع نخل جبانة النصارى بالليل – يكون أحمد المحروق الحارس فى سابع نومة ، يسرق مصطفى البلح ويبيعه ويشترى الدخان ويدخن ، لم تقل فهيمة لأمها حزينة ولا لبخيت والدها إن مصطفى يدخن ، وحتى الآن هما لا يعرفان ، لقد كان مصطفى يهاب أمه ويهاب والده المريض .

ولقد كان يسبح فى الترعة مع الأولاد ، دون علم والده وأمه ، وعلى غير رغبتهما ، خشية أن يغرق ، أو أن تخطف قلبه جميلة من بنات الماء فينساق خلفها إلى الأعماق البعيدة الزرقاء .

خلع كل ملابسه ، وصار عارياً كما ولدته أمه ، تبعته فهيمة – لكن خفية ، ولم تقل لوالديها ، وهل كان بمقدورها أن تقول ؟! ، وحتى الآن لا هو ولا هما يعرفان .

خرج للخلاء وقضى حاجته وعاد للدار ، وتسللت فهيمة متسترة بالليل ، وكان للبول المختلط بالتراب الجاف : رائحة ثمرة جميز خضراء عطنة ، وحين تتذكر فهيمة مصطفى تنتشر فى الجو رائحة ثمرة الجميز الأخضر العطن ، وفى الستر كانت فهيمة تشم رائحة عرق مصطفى ورائحة وسخه بملابسه – التى تلم جسده – قبل أن تغسلها .

وها هى الصبية ترقب نجمها السارى وقلبها يرجف :

كم هى بعيدة تلك السماء الشديدة الزرقة ، وكم أنت مخوّف – رغم البعد – أيها الشقيق الغالى الغائب .

الشهر السادس من العام الثالث

هممت الغجرية لترقص « الحلقان » المتدلية من الأنف والأذنين ، وسحبت من مقطفها صرة من القماش ، فكّتها ، فبان رمل وحجر . مدت حزينة يدها ببيضتين . قالت الغجرية : « ثلاث بيضات » ، وابتسمت وهى ترمى فهيمة بنظرة ، ولمعت سنتها الفضية ، وتمتمت : « مليحة الصبيّة .. كالقمر لما يكتمل » . لمحت حزينة « الحلقان » وهى ترقص – قالت : لن أتركها تخطف ابنتى .. تلك التى لا دار لها ، سارقة الكحل من العين ، سارقة الدجاج والأطفال ، لن أتركها تسرق ابنتى ، لكنها تعرف كيف تكلم الحجر وتسمع منه ، ثلاث بيضات ثلاث بيضات ، هيه .

ما قال الحجر وما قالت الغجرية

أراه ، ها هو ، اقتربى يا أم وانظرى :

قطار من حديد أسود رمى خلفه الدخان والأهل والتراب والزرع والبيوت ، وباخرة حملها الماء وجرت بها الريح ، الجبال سوداء ، والرمل الأصفر على الجانبين ، وبالبلاد ملوك ، وشمس جارية فى السماء وشمس تجرى فى الماء ، فى الماء قمر وفى السماء قمر : إنها الأيام والليالى يا خالة ، أبشرى يا أم : فى الشمس الثامنة حط ابنك على البر بسلام .

خبر

من النهر عادت فهيمة ، باب بيتهم الخشبى الموارب ضربت ضلفته الواحدة بقدمها، وزعقت: « أماه .. أماه » . وتملّك حزينة غضب – سمعت خبط الضلفة الخشبية بالحائط الطينى وصراخ فهيمة وصوت الجرة التى سقطت من فوق رأس فهيمة فانكسرت ، قالت حزينة : « الرعناء » .

وصرخ البشارى ونفض عن رأسه الغطاء : « البنت تصرخ فى سوق على بضاعة بارت .. ما الذى جرى ؟ .. هل قامت القيامة !؟ ..» صرخت فهيمة : « وصل جواب من عبد الحكم لأهله . قال بخيت البشـارى » : البنت مازال تنادى فى السـوق .. من يكون عبـد الحكم ؟ .. ومالنا ومال عبد الحكم !؟ . قالت حزينة : « عبد الحكم ابن تفيدة بنت على .. رفيق مصطفى فى غربته » . قال البشـارى : « عبد الحكم بن طـه محمـد .. تقصـدان عبـد الحكم ابن طه الحاج محمد .. هيه ؟ » ، وسأل مستفسراً : « ومصطفى !! ما أخبار مصطفى ؟ » . نظرت حزينة للجرة المكسورة وانقبض قلبـهـا : « هذا النذير » ، وردت على بخـيت بعـد وقت وقـد همت بلبس بردة الخـروج : « منهم سأعرف.. سأعرف منهم » .

بشـــارة

فى خطاب عـبد الحكم لأهله سلام من مصطفى لأهـله : ها قـد ارتاح بال حـزينة ، جلست مع النسوة ومع تفيدة بنت على أم عبـد الحكم ، أكلت تمراً ، وشربت شاياً ، وسمعت خمسة أطنان من الكلام عن الرجال وعن مضمون الخطاب وعن المال ذلك الحلم ، ورددته كالببغاء على مسامع البشارى وفهيمة :

« يبيتون فى خيام تجاورها خيام ، والأرض ذات الخير محتاجة لماء ، يشقون الترع ويقيمون خطوط السكك الحديدية معهم فى الخيام وفى العمل عساكر سود يرطنون رطانة الإنجليز الحمر ، وصوت الوحش البعيد يسمعه الرجال ، والثعابين كبيرة برقبتها أطواق سوداء ولها أجنحة ، وكذا العقارب كثيرة ، السودان بلد الأولياء والصالحين وأهل الخير وبلد السحر والأحجبة والمهدى المنتظر، بعض أهل البلد يستطيبون لحم الآدمى ، لكنهم يسكنون الغابات بعيداً عن الرجال .

الحمد لله والشكر لله

باكو دخان معسل كبير مرسوم عليه نجمة قايضت عليه حزينة منصور الصادق صاحب دكانة الأمانة ، أعطت حزينة منصور الصادق ست بيضات وأخذت باكو المعسل وأعطته ليوسف سليم نقيب الشيخ موسى فى جمع النذور ، وطلبت حزينة من يوسف سليم أن يعطى باكو المعسل للشيخ موسى وأن يطلب من الشـيخ صاحب الدعوة المقبولة من الله أن يدعو لمصطفى بالسـلامة فى بلاد الناس .

نقـاش

قال بخيت البشارى لحزينة : « يوسف سليم سيأخذ الدخان لنفسه » ، وفكر : « باكو دخان كبير مرسوم عليه نجمة » .

فكـرت حزينة : « بخـيت البشـارى كان يريد الدخان لنفسه .. كى يأمرنى بإشـعال النـار فى الحطب .. ويأمـر البنت بوضع الماء فى الجـوزة .. وينفخ هو الدخـان من فـمـه وأنفـه ويكركـر كالسلطان، يوسف سليم رجل طيب » .

وقالت لبخيت : « يوسف سليم رجل طيب .. فضله الشيخ على سائر أهل البلد واختاره ليكون نقيبه فى جمع النذور .. هل اختارك أنت ؟ » .

فكر بخيت البشارى فى حزينة التى عرفها من المعاشرة الطويلة : « حزينة متأكدة .. هى الآن تريدنى أنا .. تريد لحمى لتنهشه .. أنا رجل البيت .. لما كنت أملك عـافيـة الشباب كنت أغلق فمها .. لما يأتى الليل سأبكى تحت الغطاء ، لو صحت حزينة أو فهيمة على صوت بكائى سأصرخ فيهما : اتركانى لحالى .. أبكى من العلة .. لا شىء .. دعانى .. أبكى من العلة » .

قالت فهيمة حتى تبدد الصمت بين الأم والأب : « الشيخ موسى كله خير وبركة » . وفكرت فهيمة : « وهو فى مثل سنى خلع ثوبه ورمـاه فى الماء فطفا الثوب وقعد عليه الشيخ وعبر النهـر من الشرق إلى الغرب وعاد للشرق ولبس ثوبه الذى لم يبتل » .

وعاد بخيت البشارى إلى نفسه يلومها — وقد خاف الضرر المخبوء فى الغيب : « يوسف سليم رجل طيب .. كان يعمل بالتجارة ويكسب ، كانت دكانته حجرة من حـجرات بيتـه ، تطل على الشارع .. ولما اختار الشيخ تلك الحجرة لتكون خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد كف يوسف سليم عن الجزارة وأصبح نقيب الشيخ فى جمع النذور ، والشيخ يغلق باب حجـرته عليه بالنهار ويظن الجاهل أنه بداخلها بينما الرجل الصالح يجوس هناك بمكة المكرمة حيث قبر الرسـول الطاهر .. فى عام حج لمح الحـاج حسن عبد الله الشيخ مندسًا فى زحام الحجاج فناداه — لكن الشيخ اختفى بقدرة قادر ، نعم فالشيخ لا يحب العلانية فى العبادة .. حتى وقتنا هذا لم يشاهده مخلوق يدخل الجامع ليصلى .. لكن الشيخ يصلى ، ويصلى الجمعة بالذات فى المسجد النبوى .. ومن يقول غير ذلك فهو جاهل بمقام الأولياء » .

لولا المرض الذى يقعد بخيت لزار بخيت الشيخ ، وقبل يد الشيخ ، وبكى بين يدى الشيخ ، وجلس مع أحباب الشيخ ومريديه وسمع منهم وسمعوا منه ، وشرب المعسل ، وشم البخور الذى يأتى من مكان بعيد مجهول ، وشارك فى الأذكار ، وأكل اللحم الذى يشد العظام ويجعلها متينة .

جـواب

بعـد ثلاثة شـهور ونصف شهر من وصول رسـالة عبد الحكم طه لأهـله وصلت رسـالة من مصطفى لأهله على عنوان الشيخ الفاضل .

أفاد مصطفى والده البشـارى بالخلاف الذى نشب بينه وبين الريس عبد الظاهر ، وطلب من والده عدم التدخل فى موضوع الخلاف وعدم مناقشته فى ذلك الأمر الذى حسم . قال مصطفى :

« أنا رجل أعرف مصلحة نفسى ، فلا تدع الأفكار السوداء تنتابك من ناحيتى ..

كتبت أخاطب الريس سعيد عقيل بفلسطين الشام .. أرسلت خطابى بالبريد العاجل .. وفات أسبوع كامل من يوم أرسلت الخطاب .. حال ما يرد الريس سعيد سأسافر من هنا رأساً إلى فلسطين الشام .. سلامى إلى أمى الغالية حزينة وأختى الغالية فهيمة : التى أتمنى لها حياة مستورة تحت سقف بيت ابن حلال ، يأتى ويدق الباب ويقام العرس فى حياتك يا أبى : أطال الله عمرك » .

عطر الحبيب

فرغ الشيخ الفاضل من قراءة الرسالة وهم بطيّها ، فخطفتها حزينة الملهوفة من يده وشمتها وقبلتها ، وكذلك فعلت فهيمة ، وما عاد بخيت البشارى بقادر على كتمان فرحه برسالة الابن فطلبها وشمها وقبلها ، وحبس الدموع حتى لا يفضح ضعفه وهو رب البيت مازال .

ذلك المجهول

الفرحـة برسـالة الابن الغـائب أنست الجـمـيع أن يسـألوا الشـيخ الفـاضل عـمن كـتب الخطاب لمصطفى الأمى . أما الشيخ الفاضل فهو الوحيد الذى قرأ تلك الجملة عن ظهر الخطاب :

« مع تحيات محمد أحمد كاتب الخطاب .. والسلام لساعى البريد » وسأل الشيخ الفاضل نفسه « من أنت يا محمد أحمد ؟ .. ومن أى بلد أنت ؟ » .

قلب العذراء فى الصندوق

« أ »

فجأة تقل رغبة البنت فى الكلام مع الآخرين من حولها لما تشعر بثقل الحمولة على الصدر ، تطل بعينيها من مرتفع على الصدر الذى انشق وترى النديين شمسين طالعتين ، فيكثر حوارها مع القلب :

« عريسى قادم على حصانه .. عريسى راكب فوق سرجه .. عريسى يطرق بابنا وأنا التى ستفتح الباب .. إن لم يكن اليوم فغداً .. إن لم يكن اليوم فغداً وتلك مشيئة الله .. يا فرحتى لو جاء غنياً .. ولو جاء فقيراً فهذا نصيبى .. الغنية للغنى والفقيرة للفقير . ولكنى مليحة فهل تراني عيونك أيها الغنى مليحة .. كل ما يروق لك عندى يا رجلى .. هذه هى أشيائى الجميلة فى صندوقى الخشبى المحلى بصورة الزناتى خليفة والهلالى سلامة وكليب وجساس والبسوس المولولة : مكحلة .. ومناديل ملونة ذات شراشيب .. وزجاجة عطر وثوب منقوش وصابونة معطرة » .

« ب »

فتحت فهيمة صندوقها الخشبى ، وأخرجت من بين طيات الثوب المنقوش رسالة مصطفى ، وشمتها وقبلتها ، وما شبعت وما ارتوت ، ونقلت عينيها بين الصورة المرسومة على الطابع والصورة المرسومة على الصندوق ، وقالت لنفسها وهى تحاورها :

« هذا هو ملك مصر والسودان بطربوش أحمر ونياشين من ذهب على الكتف والصدر وشارب مفتول ! .. وهذا هو الزناتى خليفة المصروع بيد الهلالى سلامة يحمل تحت أنفه شارباً مفتولاً أكبر من شارب الملك ! .. وهذا هو الهلالى قاتل الزناتى بغير نياشين على الصدر والكتف ! .. ومصطفى يوم سافر كان بغير شارب .. فهل له الآن شارب يفتله ؟! » .

من الشــام

بعد مضى أربعة شهور من وصول رسالة مصطفى الأولى من السودان ، وصلت رسالة مصطفى الثانية من الشام وبها حوالة بريدية – قال مصطفى :

« أنا بخير حال .. وفلسطين الشام جنة الله فى الأرض ولا يشغل البال غير بُعد الأهل » .

رسالة ثانية من الشام

ما من شهران آخران حتى وصلت رسالة من مصطفى ، بها مال أقل من المال الذى بعث به من قبل فى رسالته السابقة .. قال مصطفى :

« أنا بخير حال .. ولا وحشة أشد من وحشة الغريب المنقطع عن الأهل والأوطان » .

حديث الشيخ الفاضل مع نفسه

فارق الشيخ الفاضل دار بخيت البشارى ، ورمى خلف ظهره خمسة بيوت طينية واطئة وحدث نفسه – هو الذى قرأ الرسالتين :

« جنيهان .. فجنيه .. ثم نصف جنيه ؟! .. ثم يأتى دور « لا شيء » : هكذا يدخل الأبناء الحياة ويجربون ، المال فى يد الصغار مفسدة .. وفى يد الصغير المحروم كمصطفى مفسدة وأى مفسدة » .

ولَمَّ الشيخ الفاضل فى ذاكرته تلك التفاصيل وابتسم :

١ – ببيت بخيت البشارى سرير جديد : لم يجف جريده الأخضر بعد .

٢ – حزينة تأمر فهيمة بأن تحضر حصيرة وتفرشها على المصطبة ليجلس هو : الحصيرة جديدة ومن عشب السمار .

٣ – أتت فهيمة بكوب الشاى على صينية جديدة مرسوم عليها ورد أحمر كبير محاط بورق أخضر صغير لكنه كثير .

القسم الثانى

١

ما يخافه البشر

- أ -

ها هو بخيت البشارى ممدد على سريره - الذى صنعه بيديه من جريد النخيل ، قبل أن يقعده المرض من عامين . رفعت حزينة عنه الغطاء ، ورأت الوجه وقد شرب الألوان الثلاثة : الأسود والأزرق والأصفر ، فخمنت أنه الموت . قالت حزينة لبنتها فهيمة : « اركضى يا بنت ولا تعودى بغير الشيخ الفاضل » وقالت حزينة لنفسها - وهى ترى الغطاء يطلع وينزل بمكان الصدر : «ها هو يقاوم بعزيمة الرجال» .

- ب -

لم الشيخ الفاضل ذيل قفطانه الحريرى الأبيض من خلف وهم بالجلوس . أقسمت حزينة بمحمد أشرف الخلق صلّى الله عليه وسلم أن لا يوسخ الشيخ الفاضل ثوبه النظيف بالقعود على المصطبة العارية . جرت فهيمة وعادت بحصيرة فرشتها على المصطبة .. وقعد الشيخ الفاضل .

- ج -

خبطات الهواء تحرك الأوراق الخشنة الكبيرة لشجرة الدوم وتجعلها تحتك وتصدر أصواتًا أشبه بزحف الحيات وسط دغل الحلفاء ، وضوء شمس ما قبل الغروب الأصفر اللين يغمر أرض وحوائط الفناء الضيق .

أشار الشيخ الفاضل بالفائدة التى تعود على المريض من شعاع الشمس الأصفر . حزينة القاعدة على الأرض بجوار سرير زوجها لزمت الصمت . فهيمة القاعدة على الأرض بجوار أمها لزمت الصمت ، وقالت لنفسها : « سأجارى أمى فى كل فعل تفعله .. أنا لم أخبر بعد هذا الذى خبرته هى » .

- د -

أدار الشيخ الفاضل وجه بخيت للقبلة الشريفة ، وباعد بين الشفتين وصب الماء الطهور ، ومال على أذنه مجهراً : « لا إله إلا الله .. سيدنا محمد رسول الله » ، وعاد الشيخ الفاضل وقعد على الحصيرة فوق المصطبة .

- هـ -

سقط الظل الثقيل على الفناء فجأة ، خمن الشيخ الفاضل بعلمه أن ملاك الموت قد حضر . وقالت حزينة المحنكة : « نعم هو ملاك الموت » . وظنت فهيمة من غفلتها أن الشمس سقطت هناك خلف جبل الغرب ، لكنها أغمضت جفنيها - مثل أمها والشيخ الفاضل - لتحمي عينيها - فالتراب مهتاج من ضرب الجناحين الكبيرين .

- و -

سمعت حزينة وسمعت فهيمة وسمع الشيخ الفاضل - صوت الباب الذى انغلق خلف ملاك الموت الحامل روح بخيت البشارى . فما قدرت البنت على كتمان الصرخة العالية ، أما الأم المجربة فقد حبست صرختها وأطلقت دموعها ، فهى تعرف أن هناك واجبات نحو الميت عليها أن تقوم بها قبل أن تقول حان حين العويل . وتمتم الشيخ الفاضل : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

النسوة المعزيات يشاركن حزينة الصراخ ويلطمن الخد . وحزينة تعلم أن كل واحدة منهن تنادى موتاها الغوالى - لا حباً لبخيت فى حياته ولا جزعاً عليه بعد مماته . أما هى فبعقلها - هناك: مع الولد البعيد الذى لم يحضر جنازة والده ، مع الميت ، مع الرجال بالغرفة القريبة .

« يرفعون الشَعر عن الإبطين والعانة ، ويغسلون الجسد بالماء ، ويدعكونه بعشب العفن المر ، يجمعون من جيوبهم ثمن الأكفان البيضاء ، يحملونه على خشبة ، ويصلون عليه ، ينزلونه فى الحفرة ثم يهيلون التراب عليه ، وعليها هى أن تتدبر فى أجر الفقهاء ، الذين سيحضرون لتلاوة القرآن على روحه طلباً للمغفرة والرحمة .

٢

على الأحياء واجب نحو أهل الميت

– ١ –

لأن الشيخ الفاضل يعلم حق العلم حرمة البيت فقد قام بواجبه :

اشترى الأكفان البيضاء التى لفت الميت من ماله ، وصلى بالناس إماماً ، ودفع من ماله أجر الفقيه الذى قرأ القرآن على روح بخيت طلباً للرحمة والمغفرة .

– ٢ –

أيام العزاء مرت كلحظة خاطفة :

بخيت البشارى فارق دنيا الأحياء ، فهيمة فى مواجهة حزينة ، وحزينة فى مواجهة فهيمة ، ها هما وحيدتان ، عائلهما الرجل فى بلاد الناس البعيدة ، وها هما – البنت والأم – فى مواجهة عالم الناس وحيدتان .

والنسوة المعزيات شغلن الدار حركة فى الأيام التى مرت ، أحضرن الشاى من بيوتهن لكى تفطر حزينة وفهيمة ، وبالبيض والجبن لتتغذى حزينة وفهيمة ، وغالباً ما كان العشاء اللحم المقلى والخضار المطبوخ .

وفى صوت حزين يفتت الكبد كن يرتجلن المراثى ، بعد تناول الفطور وعقب الغداء وقبل الغروب .

– ٣ –

من مراثى النسوة حفظت فهيمة ما تردده – الآن – بصوت خفيض ، حتى ترد الواجب فى حينه – لكل من شارك فى مأتم الأب – بدلاً من الأم التى شاخت :

« كتب الكتاب يا ليتنى شفته ، كسرت القلم والحبر نشفته » .

« كتب الكتاب يا ليتنى رأيته ، كسرت القلم والحبر كبّيته » .

– ٤ –

لوح الشيخ الفاضل بالسيف الخشبي في وجه الرجال – من فوق منبر جامع جده عبد الله – وخطب في المصلين :

« امنعوا نسوتكم من ترديد تلك المراثي .. لن يرحمكم الله إن لم تأمروا حريمكم بالكف عن الفعل الحرام .. والرجال قوامون على النساء .. وتلك عادة جاهلية وأنتم مسلمون .. فلا تعرضوا موتاكم وأنفسكم لعذاب من الله شديد .. وصلوا على أرواح الموتى يغفر الله لهم ولكم ولنا .. إن الله غفور رحيم » .

– ٥ –

كتب الشيخ الفاضل رسالة على عنوان الريس سعيد عقيل بفلسطين الشام وطلب منه أن يسلمها لمصطفى بخيت على عجل . قال الشيخ الفاضل في الرسالة : « انتقل والدكم بخيت البشاري من الدار الفانية إلى الدار الباقية ، تجمل بالصبر يا ولدي ، فليس من ديننا من لطم الخد وشق الجيب ودعا بدعوى الجاهلية ، الدوام لله وحده وكلنا إلى فناء » .

– ٦ –

وصلت رسالة مصطفى على عجل – قال :

« لم أصدق ولن أصدق ، والدي حي – لكنه بعيد ، وأنتم بعيدون ، وتلك إرادة الله ». كان يجب عليّ أن أراه قبل أن يرحل ، مرسل لكم مال لتقوموا بواجب الميت ، والدوام لله وحده ، ولكم طول العمر ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

٣

نهر الحياة لا يتوقف عن الجريان

– ١ –

أملت حزينة على الشيخ الفاضل ، فكتب :

« طلب الحدّاد الجبالى يد أختك فهيمة ، أجلنا الرد حتى تصلنا منكم الموافقة » وأضاف الشيخ الفاضل من عنده :

« الحدّاد حسن السمعة طيب المعاشرة ، يملك بيتاً من والده المرحوم الجبالى ، ويرث سبعة قراريط : ثلاثة قراريط من أمه وأربعة قراريط من أبيه ، ولا يأكل من ساعد الحدّاد غير أخته الحدّادة زوج المرحوم القناوى ضاحى ، ولا أعتقد أنه سيغيب عن بالكم أن الناصح ضاحى قادر ، وفقه الله ووفقكم ، ووفقنا جميعاً لما فيه الخير والصواب » .

وذيّل الشيخ الفاضل الخطاب بملحوظة ، أوصى فيها مصطفى بأمه وبذوى الأرحام ، مذكراً إياه بقول النبى : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

استملحت حزينة الملحوظة ، فأمسكت بيد الشيخ الفاضل وقبلتها ، ومثلها فعلت فهيمة .

– ٢ –

أوصلت حزينة وفهيمة الشيخ الفاضل حتى باب الدار .. وخلعت حزينة غطاء رأسها ونفضت شعرها الأبيض ورفعت ذراعيها وتطلعت للسماء الزرقاء المفتوحة ، ونادت الله :

« يا رب اجعل عقله الميزان العادل للأمور ، واجعل خلفه صالحاً ، ومد فى عمره ، لقد وقف الرجل بجوارى أنا وابنتى فى الوقت الصعب » .

- ٣ -

وافق مصطفى على زواج أخته من الحدّاد ، وأرسل المال مساهمة منه فى تكاليف عرس الغالية بنت الأم والأب - وقال :

« لو كان بمقدورى إرسال أكثر من المبلغ المرسل لأرسلت والله أعلم » .

ووعد مصطفى بإرسال مبلغ شهرى لأمه :

« يعينك على مطالب الحياة التى أعرف أنها قاسية » .

تهلل وجه حزينة وكساه الفرح ، ودعت لمصطفى بطول العمر . وطوى الشيخ الفاضل رسالة مصطفى ولمح كتابة على ظهر الورقة فقرأ :

« ربطنى العيش والملح بأسرة شامية ، لها بنت هى عين العقل ووجه القمر ، ربما يتم زواجى فى القريب العاجل » .

- ٤ -

واضحة شمس النهار ، والحق - مثلها - واضح لا إبهام فيه ، وحزينة لما علمت بخبر زواج ابنها - فى القريب العاجل - خطى الكدر الأزرق وجهها . والشيخ الفاضل رأى وجه حزينة لما غطاه الكدر ، وحزينة غير قادرة على خداعه :

« هكذا - حتى تأتى العاصفة وتعصف بكل البشر - ستظل غيرة أم الابن من زوجة الابن غيرة أبدية » .

القسم الثالث

من فلسطين الشام كانت الأموال المعلومة تصل حزينة بانتظام ، لم تنقطع علم الله إلا فى شهر واحد ، واعتذر مصطفى فى الشهر الذى يليه :

« أسقطت زوجنا الغالية حملها ، كانت بالشهر الرابع ، وهى الآن تتمتع بصحة طيبة ، لولا هذا السبب القهرى ما تأخرنا فى إرسال المعلوم » .

ترددت فهيمة على بيت أمها بحجة الزيارة ، كيف يتقبل العقل تلك الزيارات المتكررة من عروس ، وهل يفوت حزينة أن الحدّاد أيضاً كان يأتى فى أعقاب فهيمة مباشرة كما لو كان قشة تعلقت بذيل ثوبها :

« هيه .. مما يخاف الحدّاد ؟ .. آه .. أن تبوح البنت لأمها بسر لا يريد الحداد لحزينة أن تعرفه !؟ » .

فى كل مرة أتت فهيمة أتى خلفها الحدّاد ، ولا يبقى أكثر من الوقت الذى يشرب فيه كوب الشاى ، وينهض ، ويرمى فهيمة بنظرة عتاب ، فتقوم البنت وتتبع زوجها صامتة ! ، وهما لا يتبادلان الكلام مع بعضهما ولا يكلمان حتى حزينة » .

تحايلت العجوز وخلقت الخلوة التى جمعتها بابنتها ، وها هما على انفراد :

« اطردى الخجل وصارحينى يا بنتى أنا أمك » .

وقال وهى تحاور : « الرجل منهم يفلح أرضه .. يحرثها ويرمى البذور ويتابع الرى .. ثم يحصد ، هل يفلح الحدّاد أرضه ! .. أم أن الأرض كافرة لا تعطى ؟ تكلمى » .

تردد فهيمة ثم باحت : « ينفخ المصباح ويأتى إلى فرشنا .. يلمّنى ويظل يقاوم .. هناك قوة تقيده .. يمر وقت طويل .. يهمد وينفلت فى بكاء مر » .

لامت حزينة ابنتها ، ورمتها بالبله والخيبة الشديدة ، وحذرتها من أن تحكى ما حكته لكائن من كان – وقالت معاتبة :

« وتكتمين عن أمك ليمر كل هذا الوقت !؟ مثل تلك الأمور لا يسكت عليها ، والأمر غير كبير كما تظنين : واحدة من بنات الإنس تريد الحدّاد لنفسها ولا تريده لك يا فهيمة .. فاستعانت الشريرة

ببنات الجن القادرات ، هكذا تم الفعل الشرير ، والشيخ العليمى ساكن نجع الجبل الغربى يستطيع رد الشر إلى صاحبة الشر : بيديه القادرتين سيفك الحبال التى تربط رجولة الحداد » .

قصدت حزينة الشيخ العليمى ، وطرقت باب خلوته بنجع الجبل الغربى ، فأجابها وسمع شكواها ، وأعطاها قلب الهدهد الأبيض وزجاجة صغيرة بها سائل عكر وورقة طويت تسعاً وتسعين طية . ومدت حزينة يدها بقطعتين من العملة النحاس . ورفض الشيخ العفيف المال ولم يأخذه إلا بعد إلحاح شديد من حزينة .

أذّنت الديكة من فوق أسطح البيوت ، فهبت حزينة من الفرش ولبست بردة الخروج ، ستتجنب لقاء أى واحدة من بنات الإنس حتى لا يبطل مفعول الورقة . وتحت عتبة دار الحدّاد دفنت الورقة المطوية تسعاً وتسعين طية .

يبقى قلب الهدهد الأبيض : يشوى ، ويصحن لدقيق ناعم ، وينثر الدقيق خلف كل زائر يدوس بقدمه عتبة دار الحدّاد :

« الحذر يا فهيمة يا بنتى .. بطل كل شىء لو داست قدم الحداد ذرات الدقيق » .

« هذا السائل العكر لن أبوح لابنتى بسره .. فهو من صلب رجل كامل القدرة من رجال الجن، على فهيمة أن تضع نقطة واحدة لا تزيد من السائل فى حلة ماء طاهر ، يستحم الحدّاد وتحفظ فهيمة الماء ، وفى اليوم التالى تفعل فهيمة ما فعلته فى اليوم الفائت ، وتزيد النقطة إلى نقطتين ، ويستحم الحدّاد وتحفظ فهيمة الماء ، ويتكرر الفعل لمدة ستة أيام لا تتداخل فيها الجمعة المباركة ، وتزيد النقطة بعدد الأيام : هذا وإلا بطل كل شىء ، قبل طلوع شمس اليوم السابع تستحم فهيمة بالماء الذى جمعته من الستة أيام الماضية ، وتلتقى بالحداد فى فرشه ، وسيتم كل شىء بإذن الله وتنال المراد من رب العباد » .

اعتذر مصطفى عن إرسال مبلغ أكبر من المبلغ الذى يرسله ، بينما الجفوة القائمة بين فهيمة والحدّاد لها تكاليف ، والبنت الجاهلة بالحياة تخل دائماً بالشروط وتفسد كل شىء ، وها هو الحدّاد يتحاشى حزينة حتى فيما لو زارته فى بيته ، يزوغ الحداد بعينيه ويتعلل بعلل لا تقنع عقل حزينة ليهرب من البيت وكأن حزينة شيطان والبنت باحت لأمها بأن الحدّاد يضربها ولا يدخل بيته إلا لينام بعد سهر طويل فى الخارج مع العاطل والباطل .

« يشرب الحشيش يا أمي في غرزة توفيق السيك ، ويمص الأفيون ويدسه في جيوبه ، ويدارى عجزه بالنظر لحريم الغير ، والحدادة أخته رمتنى بالتهم الباطلة ، تقول الحدادة إننى أنقل الأشياء من بيت زوجى لبيت أمى » .

« الحدادة تشعل النار في قلب الحداد لتحترق ابنتى » .

« هل تصدقين يا أم .. لقد واجهنى وقال إنى عاقر » .

سيطلق الحداد فهيمة ، إن لم يكن اليوم فبعد اليوم بيوم أو بعد شهر أو بعد عام على الأكثر ، الطلاق واقع واقع لا محالة ، والحدادة أخت الحداد تمهد للأمر وتشيع في كل مكان أن بنت حزينة عاقر ، ومتى طلقت فهيمة من الحداد فلن يطلب يدها خاطب ، وستبقى البنت مع حزينة في بيت البشارى بضاعة بارت : عازب وعاقر وعتبة داست قدم ، الحدادة تطمع فيما يملك الحداد من قراريط، والحدادة لا تريد الخلف للحداد لترثه هي ففى ذلك مصلحة لأولادها من القناوى ضاحى .

« هكذا إذن تجرى الأمور ، لابد من تدبير سريع يسبق المحظور ، ولن يميز عقل الحداد المخدور بصفة دائمة ما ستخيطه حزينة بإبرتها .

قالت العجوز للصبية : « ربما كان العجز عندك » .

قالت البنت : « لم يقربنى قط » .

قالت الأم : « نجرب حتى نتأكد » .

* * *

ها هو المعبد القديم المشيد من الحجر الكبير ، تهدم بعض الحجر وسقط من بعض جوانب السور بفعل الزمن العاتى ، إلا أن بوابات المعبد السبع باقيات ، من فوق كل بوابة تطل شمس ذات جناحين يحيط بها ثعبانان حارسان .

هناك بالداخل بهو الأعمدة حيث كانت تقام صلوات أهل الزمن القديم ، لقد حرقوا هنا أكوام البخور الذى جلبوه من أقصى المعمورة ، وبالداخل رب النسل المكشوف العورة المحبوس بغرفته الضيقة ، والمسلة التى لم تكتمل .. المسلة ذات الصوت الرنان ، والبحيرة المقدسة : ماؤها لا يرتفع ولا يهبط رغم عيون الماء التى لا تكف عن البكاء لتصب في حوض البحيرة الصغير : كنوز الأرض ترقد هنا تحت الماء من قلائد وأساور طوقت رقاب آلاف الملوك والملكات .

أمام بوابة المعبد القديم وقفت حزينة تكلم العرابى أب فكرى على انفراد . ومضت فهيمة تنقل عينيها بين الكباش :

« تلك الكباش كانت بشراً فى الزمن القديم ، وغضبة الله هى التى حولت بشر الزمن القديم إلى حجر ، عقاباً لهم على كفرهم ، نعم .. كيف يتزوج الأخ من أخته ؟! والابن من أمه ؟! وها هم البشر العصاة يرقدون فى صفين متقابلين لهم رؤوس كباش وأجساد أسود .

تقدم العرابى أب فكرى من فهيمة وقال : « اتبعينى » .

ستدخل فهيمة على الرجل الذى كان يتفاخر برجولته فحوله الله إلى حجر أسود بارد وجعله مكشوف العورة إلى أبد الآبدين .

« تركوه مع النسوة ومضوا للحرب ، ودامت الحرب بينهم وبين عدوهم سنين طويلة ، وكان يرسل لهم الأبناء وقود الحرب ، ولما تحقق لهم النصر نصبوه إلهاً من دون الواحد الأحد » .

صرَّ المفتاح فى القفل الكبير ، وصرت البوابة الحديدية الكبيرة ، وقال العرابى أب فكرى لفهيمة : « ادخلى » ، فدخلت ، ورد العرابى الباب خلف فهيمة .

فهيمة بمفردها ، والغرفة رطبة معتمة ، والخفافيش تطير قريبة من الوجه وتحرك الهواء الساكن ، وفهيمة تسمع صوت تنفسها وتسمع دق قلبها ، وبالتدريج وضح لعينى فهيمة - تحت الضوء الساقط من كوة عالية بالسقف المغلق شبح الرجل الضخم الأسود العارى المكشوف العورة : عينان حمروان كأنهما جمرتان مشتعلتان . حاولت فهيمة أن تطلق صرخة احتبست فى الحلق ، وفشلت فى إيقاف الرعشة الشديدة المفاجئة التى هزت بدنها - وهى ترى الرجل الضخم الأسود العارى المكشوف العورة يتحرك ويخطو نحوها .

« ها هو الظلام يطبق كثيفاً .. انطفأ كلياً نور العينين ، وسقطت الروح فى الكعبين ، والعقل ضاع ، أما السمع فحى مازال يلتقط دبدبة الأقدام الحجرية الكبيرة على الحجر » .

أسلمت فهيمة ظهرها لمن فتح الباب وغابت عن الدنيا .

« هذا بيت أمى ، أنا راقدة فى سرير أبى الميت ، القائمة ترعانى هى أمى : ترطب جبهتى الملتهبة .. وتمسح وجهى الذى يحترق .. وتدلك عنقى .. وتضغط على صدرى ، الماء البارد حلو، والماء الدافئ حلو ، النوم الطويل المقبل حلو ، أشتهى البلح الرطب ، الأيام مالها تمر سريعة ، أشم رائحة عرقه ، أشم رائحة البول على التراب الجاف ورائحة الجميز الأخضر العطن ، أشتهيه ، أنت أخى وأنا بنت الأم والأب ، هاك حضنى .. خذنى .. تعال » .

شربت فهيمة شاياً دافئاً ونامت نوماً عميقاً .

القسم الرابع

خير الماكرين

له التدبير الأعلى ، أرسل الموت – فى صورة خنجر بيد مجوسى خسيس – إلى ابن الخطاب عمر وهو أمير المؤمنين ، ورمى النطفة فى بطن فهيمة فإذا هى حبلى بعد عام ونصف عام من زواجها بالحداد .

مكرت حزينة – لكن الله خير الماكرين ، وها هى حزينة تجنى الثمرة المرة : لقد خرجت فهيمة من بيت الحداد – طالق بالثلاث ، ولم يشفع لها عند الحداد أنها حامل فى شهرها الرابع .

رسالة إلى مصطفى ورسالة من مصطفى

لخص الشيخ الفاضل الخبر البغيض وكتب :

« وقع الأمر المكروه من الله والناس ، وبالطلاق الذى لا رجعة فيه فيه انفصلت شقيقتك فهيمة عن الحداد » .

ظلت حزينة تنتظر الرد بفارغ الصبر ، وتصارع الوساوس فى اليقظة والكوابيس فى المنام ، خوفاً من أن تقتل الظنون السوداء ابنها فى بلاد الناس البعيدة – لولا جاء رد مصطفى على رسالة الشيخ الفاضل ، بالرسالة مال من مصطفى ووصية :

« نصف المال لابن فهيمة المقبل : لو جاء ولد سموه البشارى » .

إلى السوق

أول يوم ثلاثاء – عقب وصول المال من مصطفى ، ذهبت حزينة إلى السوق المقام بالبندر ، واشترت أرنبين كبيرين : ذكر أسود وأنثى بيضاء .

« الأنثى حامل بإذن الله ، وفهيمة بحاجة إلى اللحم حين تلد ، وأربع حزمات من الجزر ، تأكل الثمر الحلو والأوراق الخضراء للأرنبين . ولبان حلو للمضغ ، تتحايل به الحامل على الوقت

الطويل فهى ممنوعة من بذل الجهد حتى تلد ، وفهيمة راغبة فى العنب الأسود ، والأوان ليس بأوان العنب ، وكم هى كثيرة وغريبة رغبات الحوامل !؟ » .

طريق العودة طويل

قبل أن تبلغ حزينة منتصف الطريق أحست بالتعب ، فجلست تستريح تحت أشجار السنط القليلة الظل ، ترقب الطريق بعينها الواحدة لتصطاد بنت إنسان راجعة للبيوت وقد قضت حاجتها من السوق : فالطريق طويل يلزمه أنيس .

الحظ الطيب جاء ، فتلك هى أمينة زوجة التهامى : امرأة يشغلها الأولاد الكثار وهموم الدنيا عن الخوض فى سيرة خلق الله .

حكت حزينة لأمينة عن رغبة فهيمة الحامل فى العنب الأسود قبل أوانه ، قالت أمينة إن رغبة فهيمة إن لم تتحقق ستظهر على جسد مولودها شامة تشبه حبة عنب ، وضحكت أمينة وقالت:

« وربما على شكل عنقود عنب منتفخ الحبات » .

ضحكت حزينة وقالت :

« الدلع طبع بنات اليوم .. حملت بمصطفى وحملت بفهيمة ولم ترغب نفسى فى شىء » .

قالت أمينة – رغبة فى المرح ، ولكى يقصر المشوار ، وحتى تتجنب الحديث عن طلاق فهيمة من الحداد ، ولتطرد صورة المتسول المقطوع الساقين بالسوق :

« احمدى الله .. أن تكون بنتك راغبة فى العنب هذا أهون من أن تكون راغبة فى البطيخ » .

وضحكتا ضحكة قصيرة انقطعت ، ولم تجدا بعدها كلاماً تقولانه ، حتى وصلتا مدخل القرية ، وبجوار الزير المملوء بالماء – تحت شجرة النبق المسماة بشجرة الله – ليشرب ابن السبيل العطشان المقبل بوجهه على القرية أو المولى ظهره للقرية ساعياً فى بلاد الله ، تواعدتا على لقاء قريب ، وافترقتا كل تبغى دارها .

القسم الخامس

لماذا نبوية ؟

زار الحداد مطلقته ، ليرى المولودة ، دس فى لفة المولودة قطعتين فضيتين ، وتحاشى بعينيه فهيمة ، وقال لحزينة منبهاً :

— « جئت من أجل ابنتى .. والمال لها » .

وعارض فى تسمية البنت نبوية ، قال الحداد :

— « لماذا نبوية ؟! ، هناك أسماء جميلة كثيرة !! لماذا ترفضان الأسماء الجميلة ؟! ، هه لا أحد يشترى الأسماء الجميلة بالمال ، لماذا نبوية ؟ سأسميها بحورية ، حورية اسم جميل والبنت جميلة، ألا تشوفان » .

زيارة ثانية

أتى الحداد لابنته بأقمشة كستور ملونة « لأن الشتاء مقبل » . وضاق الحداد من إصرار حزينة وفهيمة على مناداة بنته حورية الجميلة بنبوية . وقرر بينه وبين نفسه عدم مناقشة الأمر معها ، وعليه هو أن ينادى ابنته الجميلة حورية :

— « حزينة عندما تركب رأسها لا يقنعها الكون بأجمعه ، وفهيمة بنت أمها » .

ولام الحداد نفسه الراغبة فى إعادة فهيمة لداره . وقال :

— « كنت سأفعل ذلك من أجل حورية » .

واستعاذ الحداد بالله من تلك العجوز الداهية المسماة بحزينة :

« جعلتنى أدخل المحكمة لأول مرة فى حياتى ، وأقف أمام القاضى الذى حكم لفهيمة بدفع نفقة العدة ومؤخر الصداق ، ولن ترحمنى حزينة إلا إذا دفعت نفقة للصغيرة ، لن أذهب للمحكمة ، سيتم الأمر برضا كل الأطراف ، لكن العودة لبنت حزينة محال : تلك التى شككت فى رجولتى وأحاطتنى بالنظرات الشامتة » .

القـــرار

— « سأدفع ريالاً ونصف ريال لابنتى حورية ، سأرسل المال مع أى فرد غيرى ، حورية ستكبر وسأستردها من حضانة فهيمة بأمر من المحكمة ، نعم .. هذا هو قرارى الأخير : البعد عن الشر غنيمة » .

وحتى ينتهى الحوار مع النفس كلية ، قرر الحداد أن يفاتح أخته الحدادة بشأن زواجه من بنت الصياد .

القسم السادس

على غير توقع حدث كل هذا

- أ -

عبد الحكم طه قدم من فلسطين الشام ، جاء بطرد هدية من مصطفى : قفص صغير به تين جاف وبندق وأقراص قمر الدين وثوب أسود للأم وثوب به نقش للأخت ، ولكل منهما طرحة سوداء، وللبنت الصغيرة نبوية قطعة قماش تصلح ثلاثة أثواب .. وحذاء أصفر محلى بصفيرة حمراء .. وثور صغير من الحلوى بقرنين مشرعين .

من هدية الابن أهدت حزينة الأحبة :

« ألم يقفوا بجوارى فى ظروفى الصعبة التى مرت ! .. لقد قاموا بما يجب وها أنا أرد » .

سِنّتان ذهبيتان لمعتا لما ضحك عبد الحكم ابن تفيدة - وقال :

« مصطفى بخير حال .. ومشتاق للأم والأخت .. ويتمنى رؤية الصغيرة نبوية ، نعمل مع الجيش الإنجليزى .. تحت أمر الريس أحمد الزنباعى .. أحمد الزنباعى بلديات من البر الغربى .. طالبنى بأن أزور أهل بيته .. سأزورهم اليوم .. حملنى أمانة وطالبنى بتوصيلها لأهل بيته ، قد نعود للبلاد فى القريب ، مصطفى طلق زوجته الشامية .. لم يرزق منها بخلف ، مصطفى حملنى مالاً وطالبنى بتسليمه لكم » .

وأخرج عبد الحكم حافظة نقوده - كانت من الجلد .. صفراء اللون .. منتفخة .. مطبوع عليها بلون أخضر وجه أبى الهول ، ومن رزمة محكمة بخيط من المطاط استل جنيهاً ، مد عبد الحكم يده بالجنيه لحزينة ، ومدت حزينة يدها وهى تبتسم :

« وقد طلق زوجته .. سيبقى لى بقلبه وماله .. أنا التى حملته ببطنى تسعة أشهر وتحملت وسخه لما كان كومة لحم يقضى حاجته بالعويل .. لن يفسر عبد الحكم ابتسامتى بغير الرغبة فى المال ! .. مع عبد الحكم مال كثير .. ليت مصطفى يعود .. أى كنز ذاك الذى يغرف منه الإنجليز .. هى أموال قارون عثر عليها الإنجليز ومنها يدفعون لمن يعمل معهم ! ... » .

قال عبد الحكم :

« مشغولياتى كثيرة .. وهذه هى زيارتى الثانية لكما .. والوقت ضيق ، اليوم سأزور أهل أمى بنجع الملقطة ، معى رسائل وأمانات من الصحاب زملاء العمل ويجب أن تصل لأهاليهم ، سأزوركما فى القريب .. قبل السفر إن شاء الله .. للسلام ، ونظر لفهيمة وابتسم » .

فتح فمه وأغلقه على الذهب الذى لمع :

« ربما تودان إرسال أى شىء لمصطفى » .

قالت فهيمة :

« احضر وتناول الغداء معنا .. سأذبح لك حمامة » .

وابتسم عبد الحكيم مختالاً بسنتيه الذهبيتين ، وردت عليه فهيمة بابتسامة فيها حياء ، وقالت حزينة :

« أنت ضيف .. وأنت كمصطفى .. وأنا أحق من الغير وأسبق من الغير » .

قال عبد الحكم : « سأحاول » ، وشكر فهيمة وحزينة على شعورهما الطيب نحوه .

وقال إنه يفضل زيارتهما له فى بيت أمه وأبيه رغبة فى الأنس والمسامرة – وابتسم .

حدثت فهيمة نفسها : « ربما يكون قد ابتسم بكسر عينه » .

وهو يودعهما ضغط على كف فهيمة ، واستبقاها فى راحته لوقت ، ولمعت سنتاه الذهبيتان ، ومن المؤكد أنه غمز بكسر عينه :

« هل هو راغب فى الزواج .. أم هو طامع لأنه مع كلام الغير ؟ .. هو قادر بما معه من مال على الزواج من بنت حسب ونسب تفوق فهيمة فى الحلاوة – لكن قد يشط القلب وربما تزوج العاشق من مطلقة غيره » .

نعم ففهيمة لم تفقد بعد نضارتها وحلاوتها ، وهى ماتزال مرغوبة من الرجال .

زارت حزينة وفهيمة عبد الحكم فى بيت أهله ، تم الاتفاق على أن توصل فهيمة الحاجات المرسلة لمصطفى إلى محطة السكة الحديدية .

قال عبد الحكم : « سأركب قطار الفجر .. سأنتظرك أمام باب المحطة فلا تقطعى تذكرة دخول » .

قالت حزينة : « نبوية بنت فهيمة كما تراها تمشي وتتكلم » .

وقالت حزينة لنبوية : تكلمي يا غالية .. قولي لعمك عبد الحكم سلم على خالي مصطفى » .

رددت البنت كلام جدتها : « سلم على خالي مصطفى يا عم عبد الحكم » .

تضايقت فهيمة من أمها : « هذا يذكر عبد الحكم بأنني تزوجت وطلقت ويرقبتي بنت » .

لا حزينة نامت الليل ، ولا فهيمة نامت الليل ، حتى نبوية بنت فهيمة ظلت ساهرة لوقت متأخر من الليل : تقلب الأشياء وتجرى في المناطق التي يغمرها ضوء القمر وضوء الفانوس .. وتضحك بعلو الصوت .

من دقيق القمح الأبيض صنعنا الأقراص .. سطح الأقراص مغطى بالسكر ومدهون بالسمن البلدى ، والفرن الحامي لم يحرق قرصاً واحداً .

الفجر لم يؤذن بعد ، والقفة بها أقراص ، وبلح ، وغطاء القفة محكم بخيوط القنب .. أزف الوقت : فلتتحرك فهيمة وتقصد محطة القطار بالبندر .

على باب المحطة قابلها عبد الحكم ، أنزل عن رأسها القفة ، ونظر لوجهها فأسبلت عينيها على خجل ، لمست يده وهي تهبط ثديها لمساً خفيفاً .. فارتج الندى :

« بقصد أم بغير قصد .. في وداعة ودعني : بالحرارة التي سرت من كفه إلى كفي » .

طريق العودة طويل من البندر إلى القرية ، في الذهاب كان أقصر .

النور يرفع العتمة عن البيوت ، ويكنسها ، فتتجمع هناك في الأفق القصي .. الشمس لم تطلع بعد .. وإن كان هذا نورها .

صراخ له رنين مخبول ، ارتفع ومزق الصمت .

بلغت فهيمة دارها ، وقالت حزينة : « أحترق الحداد وبنت الصياد » .

الليل والحر الخانق ، والرغبة في النوم ممتنعة ، والرأس يدور في دوامة الأفكار المسعورة ، وفهيمة لا تكف عن الجرى خلف الحقائق :

« بنت الصياد بيضاء الجلد ، كالبطة دهن ولحم ، العينان واسعتان سوداوان بغير كحل ، شعر رأسها الأسود الطويل كرموشها الطوال يلمع » .

« لو كشفت بنت الصياد عن صدرها ، سيرى الحداد الثديين المشرعين .. وبياض اللحم .. والحلمة السوداء .. والشق ، سيهم الحداد .. ويقاوم .. ويضم الجسد .. ويخاف الفضيحة المقبلة .. فيعض ويمزق اللحم .. ويسكت الصرخة برش الجاز وحرق الجسد .. ويرش الجاز على نفسه ويموت محترقاً بسره » .

« لو تمكن لحرقني فأنا أيضاً أعرف سره » .

« هل يعرف بالي الراحة بعد اليوم ؟ .. لا أظن » .

— ب —

هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، ومع ذلك فالسلطات تطلب الأكباد للجهادية وهوان الخدمة في معسكرات الحمر الملاعين ، القادر على دفع البدلية والفقير طلب من ابنه أن يقطع الإصبع الذي يدوس على الزناد .

اختفت سلع وبارت سلع ، وارتفع سعر الحاجات : ما كان بمليم صار بقرش ، حتى سكر القمع والمكنة والناعم اختفى ، والشاي يحلى بقطع الملبس والبنبوني – تلك الحلوى التي تذوب بصعوبة ، شح الجاز والزيت حتى الشموع والمصابيح تضاء بفتائل تغمس في دهن الحيوانات ، أصاب اليسر بعض الناس واشتد فقر العامة وعمت السرقات ، ولا رسائل تذهب إلى الأبناء ولا رسائل تجئ ، فلتحرق هذه النار الإنجليز وليحترق هتلر والبقالون والملك وتجار الأكفان .

القسم السابع

- أ -

تلا حسان العاجز فاتحة الكتاب وختم بقراءة سريعة لسورة البقرة ، وطلب من حزينة وفهيمة أن تترحما على أرواح من ماتوا على دين الله وسنة نبيه ، وقام من قعدته ورفع كم يده اليمنى المقطوعة . وأفرغت حزينة ما في مقطفها الصغير من بلح وخبز أصفر .. معجون بلبن ،وكُركُم - في كم حسان . ومضى حسان ليقرأ على قبر قريب ، وكانت بانتظاره نسوة قاعدات .

قالت حزينة لفهيمة - وهي تشير إلى النسوة القاعدات :

« حريم الرجال ، من ماتوا بالبر الغربي في حادثة الآثار » .

رجف جسد فهيمة ، أمها تتكلم عن الحادثة القديمة والمعبد القديم ، وهناك أيضاً البهو والغرفة المظلمة والرجل الأسود المكشوف العورة .

قالت فهيمة : « سأقاوم .. سأقاوم بعناد » .

بين الدروب الترابية الضيقة المتعددة المتعرجة المحاطة بتلال القبور الراقدة تحت ظلال الغروب الحمراء المتوهجة بغير حرارة ، كانت حزينة تدب من قدام في وهن وفهيمة تتبعها ، وأشجار التمر حنة - تحت هبات الريح الخفيفة لا تكف عن إمطارهما بالزهر الأصفر . كانتا تسلكان طريقهما وسط المقابر محاذرتين متطيرتين من هول ما يمكن أن يصيبهما فيما لو داستا عظام ميت.

حادثة الرجال الذين ماتوا في المعبد القديم ترج عقل فهيمة وحزينة تلح على الأذنين بحكاية سبق أن حكتها أكثر من مرة :

« خرج رجل من النفق ، كان الرجل مترباً والعرق يتساقط من رقبته ويتكوم على صدره كتلة من الطين الأسود ، وكلم الرجل الريس بسيوني ، ونقل الريس بسيوني كلام الرجل لمفتش الآثار الفرنساوي ، رطن المفتش بالفرنساوي ورفع عصاه القصيرة في الهواء وشوح بها في وجه الريس بسيوني والرجل المعفر : « ابن العرب يلعب ولا يعمل .. ابن العرب لا يحب العمل » ، زعق الريس

بسيوني في الرجل المعفر فعاد الرجل إلى النفق على الفور لينقل الأمر للرجال .. وصرخت الأرض بأمر ربها وصار الفوق تحت ، حدث ما حدث في الظهيرة ، ورفعت جثث الرجال قبل الغروب » .

جاهدت فهيمة جهاد الأنثى الضعيفة لتطرد الخيالات والمخاوف السوداء – لكن عقلها عصاها، فاستسلمت للقوة الغلابة تقودها خلف أمها بغير إرادة .

كلمت نفسها : « فكري فيما جرى للرجال داخل المعبد ولا تفكري فيما جرى لك في المعبد .. لا تطاوعي أفكارك وإلا وجدت نفسك بغرفة الرب الأسود العاري المكشوف العورة » ، « المهندس الفرنساوي سقطت به العربة في النيل ومات غرقاً وكان مخموراً وكانت معه زوجته ، وامرأة الريس بسيوني تنجب الأولاد فيموتون في شهرهم الأول » .

انتهت حكاية « حادثة الرجال في المعبد » فتوقفت فهيمة تتذكر حكاية أخرى حتى تهرب مما جرى لها في غرفة الرب بالمعبد . وتذكرت حكاية الجنيّات الثلاث فقالت سأحكيها لنفسي :

« ثلاث أرامل .. ثلاث شقيقات ، يلبسن الأردية السوداء الطويلة التي تغطي الرأس والقدم ، يظهرن في الظهيرة .. وقت تكون الشمس بوسط السماء : عين حمراء متوهجة كجهنم ، بينما ظلّ الساتر مدقوق بالأرض ، وتلال القبور تفتح أفواهها فتطلع منها ألسنة النار ، ثلاث أرامل .. ثلاث جنيّات ، يمسكن بالرحى الكبيـرة التي تدور ولا تتوقف قط : تطحن الكلاب والقطط الضالة .. فتتكسر العظام من طقطقات عالية ويختلط الدم باللحم ، ويطفر الدم من اللحم ساخناً يضرب وجه الجنيات بينما عيونهن تقدح بالشرر .. ووجوههن تطفح بالشهوة الحمراء وصراخهن المجنون يصل للسماء وترتج له طبقات الأرض .. القادرات .. ذوات أنياب الذئاب ، أصواتهن وكل الأصوات في أذني فهيمة :

« كلاب تنبح ، وقطط تموء ، وضفادع تنق ، ولحم يطقطق وماكينة طحين تدق : تاك ... تك... ماكينة طحين تدق بانتظام ولا تتوقف ، وعلى الدق المنتظم المستمر يتقدم الرجل الأسود العاري المكشوف العورة ويدب بقدميه الحجريتين فوق سطح من حجر » .

– ب –

صحت حزينة بالليل الأخير على صوت فهيمة تتضرع : « أماه .. أماه » فهبت من تحت الغطاء فزعة .

قالت فهيمة : « البرد .. البرد يا أماه » .

« نعم .. جسد البنت كله يرتعش والرأس ساخن كأنه موقد » .

لمت حزينة كل الأغطية وكومتها فوق الجسد ، وبالخل والماء بللت خرقة ومضت ترطب رأس فهيمة ، وظلت ساهرة حتى طلعت الشمس ، وهالها أن رأت وجه ابنتها وقد شرب الألوان الثلاثة : الأصفر والأسود والأزرق .

قالت لنفسها : « هى الحمى المميتة » .

جاء المأمون المدكلم حلاق الصحة ، وحلق شعر رأس فهيمة ، وفصده بالموسى ، وامتص بالمحجام الدم الفاسد ، ملأ خمسة محاجيم من الدم القذر القاتم اللون ، وقال هناك دم فاسد يعكر الدم النقى الذى يحفظ لفهيمة الحياة .. ولو كانت صحة فهيمة تحتمل لإخراج محجامين آخرين وضمن بذلك سلامتها وقال المأمون المدكلم حلاق الصحة إنه سيعود مريضته بعد آذان الظهر مباشرة ويرى ما يجب .

جاء المأمون المدكلم ورأى فهيمة مازالت على حالها لا تفيق من غيبوبة حتى تسقط فى غيبوبة ، فأوقد ناراً وحمس مسماراً وكوى رأس فهيمة ثلاث مرات ، وقال المأمون المدكلم : « بذلك أكون قد قتلت الدم الفاسد العكر والأمر بعد ذلك لله وحده يفعل ما يشاء » .

ظل الأمل يبرق ويخفت ، وأذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة العصر ، وأذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة المغرب ، وأذن يوسف الأعور من فوق جامع عبد الله لصلاة العشاء ، وها هى فهيمة قليلة الخبرة تبتسم .

صرخت حزينة فى وجه القادم ، وشقت ثوبها إلى نصفين :

« لا .. لا .. إنها لا ترحب بك .. لكنها صغيرة وغير قادرة على مواجهة الألم .. إنها لا تريدك أنت ، لكنها تريد للعذاب أن ينتهى وللجسد أن يستريح .. لكنها حمقاء لا تعرف أنك الموت» .

القسم الثامن

نبوية الوارثة لوالدها الحداد شرعاً وقانوناً . الحدّادة أخت الحداد الكارهة لنبوية وأم نبوية وجدة نبوية فكرت ودبرت لتمنع عن البنت الصغيرة « حق الله » .

« أخى رحمة الله عليه باع لى ميراثه من الأم والأب ، وها هى ورقة البيع مختومة وعليها بصمة إصبع الحداد » .

حزينة استجارت بالشيخ الفاضل ليحميها ويبطل ألاعيب الحدادة .

الحدادة استعانت بالشيخ يسرى ابن يوسف دياب :

« لم يفلح فى دراسته بالأزهر الشريف – إلا أنه قضى عامين برواق الصعايدة وهو الآن شيخ كتاب القرية ، على يديه يحفظ الصغار القرآن ، للأفراح يرتجل الزجل المفرح ويقوله أمام الميكروفونات ، وللمآتم يرتجل الزجل الحزين وينوح أمام الميكروفونات .

قال الشيخ يسرى للحدادة :

« اتركى الأمر لى .. والمطلوب منك أن تسرعى وتسجلى ورقة البيع بالشهر العقارى » .

وعرض الشيخ يسرى على الحدادة الزواج من بنتها إنشراح .

ردت الحدادة :

« البنت صغيرة .. وأنت متزوج من ثلاث » .

قال الشيخ يسرى :

« حقى المشروع من الله أربع زوجات » .

ردت الحدادة :

« دعنى للوقت حتى أفكر على مهل » .

سأل الشيخ :

« فى .. ما ؟ » .

أجابت الحدادة :

« زواج البنتين كلفني الكثير .. وأنا غير قادرة على تكاليف عرس الثالثة ، كما عليّ أن أستشير السعدى .. لقد كبر الولد وصار رجلاً وهو الذى سيحدد مهر أخته إنشراح » .

الحدادة الماكرة تبتسم :

« سأحصل من الرجل العجوز على مهر كبير .. مهر بنتى سيكون أكبر من مهر قريبتنا ، قلت للرجل : سأستشير ابنى السعدى ، سأعود للرجل وأقول : السعدى رافض .. دعنى لفترة حتى أجعل رأسه تلين ، ثم أعود وأقول للرجل العجوز ، الولد يطلب مهراً كبيراً لأخته ، سيقول الرجل العجوز : هذا كثير ، سأرد عليه بعد يومين : اتفقت مع السعدى على كذا من المال .. حاولت معه بقدر ما أستطيع .. لكنه لم يقبل أقل من كذا ، سيوافق الرجل العجوز فالبنت صغيرة ومليحة ووارثة » .

قال الشيخ الفاضل لحزينة :

« سنرفع الأمر للمحكمة .. والقاضى هو الحكم » .

القسم التاسع

ولد وبنت

الشيخ الفاضل يملك كرم نخل – لا سور له – خلف داره الكبيرة . وحتى تحصل نبوية على مرجيحة ، ستعقد طرف الحبل الطويل فى ساق نخلة والطرف الآخر فى ساق نخلة ، وما بين النخلتين فضاء متسع تطير فيه نبوية ، وقد بسطت ذراعيها قابضة على الحبل الذى يحز فى عجيزتيها ، ويرفع الهواء الثوب ويلفح الوجه الجميل .. ويجعل الشعر يتطاير .. ويأتى بالبهجة التى تصنع الضحك .

ابن الشيخ الفاضل ، من أسماء التى ماتت ، مقارب لنبوية فى العمر ، وهو الوحيد الذى يشاركها اللعب لما يعود من المدرسة ، الولد عنده الكثير من الحكايات الحلوة .. يأتى بها من المدرسة ويحكيها لنبوية ، فتسمع وتبتسم وأحياناً تقهقه وفى بعض الأحيان تقول له أنت تخرف ، فيغضب فتصالحه فيحكى لها حكاية أخرى :

« قرية الكرنك القديم هذه كانت فى الزمن القديم هى والأقصر مملكة مصر والعالم ، كان اسمها طيبة ، وكان للمعبد سور كبير غير متهدم له بوابات وبه كانت تقام الصلوات ، وحول المعبد كانت بيوت الأهالى ، وبالبر الغربى توجد المقابر ، وكان طريق الكباش يوصل من معبد الكرنك إلى معبد الأقصر وبالعكس ، والمصريون القدماء لم يكفروا بالله كما يظن الأهالى اليوم ، فهم أول ناس عرفوا الله وحنطوا الجسد بسر لم يعرفه البشر بعد ولن يعرفه الدود مهما حاول » .

« الأرض كرة كبيرة تدور فى الفضاء ، وفى الفضاء تدور أقمار وشموس وتلك النجوم التى نراها فى السماء ... » .

ضحكت نبوية وظلت تردد نهاية كلمات الولد غير مصدقة :

« وتلك النجوم التى نراها فى السماء !! » .

نفخ الولد ، وقال بغيظ :

« أنت غبية » .

عرفت نبوية أنه غضب فقالت لنفسها :

« سأطيب خاطره » .

وقالت نبوية لابن الشيخ الفاضل المحروم من حنان الأم :

« احكي لي حكاية الملك » .

عاد الولد إلى الماضي ، وتذكر ، ونسي غضبه :

« قبلها بيوم قال الناظر لكل المدرسة في طابور الصباح : باكر يأتي كل منكم نظيف الجسم لابساً أحسن ما عنده وعلى رأسه طربوشه .. ومن محطة الأقصر حتى بوابة معبد الكرنك كنت ترين الناس على الجانبين : طلبة ونظار وأساتذة ومشايخ ونسوان وعساكر وضباط وعمال وكل موظفي المصالح يهتفون « عاش فاروق ملك مصر والسودان » ، ومرت العربة وكان بداخلها الملك وكانت مفتوحة النوافذ تجرها ثمانية خيول بيضاء كاللبن ، وكانت الستائر أيضاً من الحرير الأبيض كاللبن ولكنها كانت مسدلة تمنع العيون عن رؤية الملك ... » .

قاطعته نبوية : « هو أعور وله عين من زجاج » .

قال الولد : « كذبٌ .. له وجه أحمر يطفر منه الدم » .

قالت البنت : « أنت لم تره » .

رد الولد : « لم يره أحد قط .. لكني رأيت صورته الملونة في كتاب المطالعة .. والكتاب عندي وسأجعلك تشوفين الصورة » .

سألت البنت الولد : « يقولون إنه يأكل خروفاً بمفرده » .

قال الولد بقطع : « ليس كذلك ، الطباخ يضع الخروف في حلة كبيرة بها ماء كثير .. ويضع الحلة فوق نار حامية . فيقل الماء ويقلّ .. حتى يصل إلى ما يملأ كوباً واحداً فيشربه الملك » .

الولد جميل في عيني البنت .. وهو كل الأولاد ، والولد جميل في عيون كل بنات القرية وهو كل الأولاد :

« يلبس البنطلون والقميص والجاكت ، ويدخل سينما البندر كل خميس ويطل من البلكون ، يركب البسكلت فيتطاير شعره الناعم ويغطي عينيه المغسولتين المكحلتين بكل رباني ، والده يملك الكثير من الأراضي والكروم والخيول والجاموس والحمير والأبقار والماعز ، أمه ذات حسب : جدها يوسف عبد الكريم أغا وأمها زنوبة ووالدها عبد السميع عبد القادر » .

عالم نبوية ضيق : بيتهم ، كرمة النخل ، بيت الشيخ الفاضل ، النهر – لكنها ترى عالمها شديد الاتساع :

– فجدتها وإن كانت عجوزاً متذمرة دائمة الشكوى قليلة الحركة لا ترى البعيد ولا تسمع غير الصراخ – إلا إنها تحب الحلوى تماماً كنبوية .

– وصالحة زوجة الشيخ الفاضل أخت أسماء التى ماتت ، تكلفها بقضاء أمور مثل إشعال النار ووضع الجمر فى بوتقة النحاس وشراء دخان المعسل من الدكان البعيد وإبدال ماء الشيشة العكر بماء نقى
– لكنها كريمة تمنحها خيارة أو شريحة بطيخ أو حفنة بلح .

أما النهر فهى تعشقه : الشمس ترمى باللون فى الماء .. وطيور الماء ترف بأجنحتها وتلتقط السمك الميت الطافى .. والمراكب بأشرعتها البيضاء المنفوخة بالهواء .. والجبل الكبير والرمال الصفراء على البر الآخر والبيوت صغيرة تحت الجبل كأنها الماعز فى المرعى .

ابن الشيخ الفاضل يحب الأرانب الصغيرة والأرانب الكبيرة والأرانب السوداء والأرانب البيضاء وهو حائر : تلك الحيوانات الضئيلة الأجسام ، كيف تطاوعهم نفوسهم فيسلخون جلودها ؟! ، كيف تشوى على نار وتقلى فى دهن ؟! الأرانب لا يجب أن تطبخ فهى جميلة مدهشة حين تنط وتقرض الحشائش وحين تحتمى بالجحور .

نبوية ترصدت للأرنب المسكين ، أعطته الأمان حتى خرج من جحره ، ولما بعدت المسافة بينه وبين جحره ، رمت نبوية بكل جسمها على الأرض وأطبقت بيديها على الأرنب وأمسكته ورفعت نبوية يديها بالأرنب لفوق وقالت للولد : « أنظر » .

قال الولد : « إنه ميت » .

قالت نبوية : « ما مسكت أبداً بأرنب حى .. دائماً يموت بين يدى .. وأنا لا أبغى غير تمرير الراحتين على الفرو الناعم اللين » .

قال الولد وهو مغمض العينين : « لا تمسكيه مرة أخرى حتى لا يموت » .

بكت نبوية وها هى عاجزة عن التوقف وغير قادرة على إسكات رعشة الجسد وعلى إيقاف صدرها الطالع النازل – ولكنها لا تريد إفلات الأرنب الميت من بين يديها .

اقترب ابن الشيخ الفاضل من نبوية وطيب خاطرها وربت على ظهرها بحنو – وقال : « لا تمسكيه مرة أخرى حتى لا يموت » .

ارتفع بكاء نبوية ، فلمّ الولد جسمها الطالع النازل بذراعيه وشدها إلى صدره الصغير – وقال : « كُفّى .. كفى عن البكاء » .

ولما لم تكف نبوية عن البكاء ، لم يقدر ابن الشيخ الفاضل على منع نفسه من البكاء وقد استدعى بخياله صورة أمه المتوفاة .

القسم العاشر

أراجيف وأسمار و .. وقائع أيضاً

- ١ -

« أ »

اليهودى الماكر بأنفه المعقوف ، عرض ثلاثة دنان من الخمر للبيع بأقل من ربع الثمن . ابن العرب الغنى قال لنفسه وهو يحاورها : « هذه الصفقة ما أرخصها » . بنت اليهودى الجميلة المختالة بيدها كأس مملوءة بالخمر ، ذاقتها بلسانها ، ورشفت رشفة ظلت تمتضها على مهل – قالت : «خمرتنا جيدة» .

(شعر البنت أصفر كالذهب النقى ، وعلى كل خد وردة حمراء) .

الخمرة سالت من الشفاه ، وجرت فى الشق الذى يفصل بين الثديين وتجمعت عند الصرة .

– ابن العرب قال : « تلك كأسى » .

– بنت سارة قالت : « تلك كأسى » .

الأنف يشم والعين ترى ، وجلد الحية طرى ، وشعر الإبطين والعانة طويل ومرسل ، للعرق رائحة وللعطر رائحة ، الكلب يعوى والحية تلدغ ، والبيارة جميلة بها شجر البرتقال صفوف تقابلها صفوف ، والبنت جميلة (على كل خد تفاحة حمراء وشعرها أشد صفرة من برتقالة ناضجة) ، والأيام تمر ، والأيام لابد أن تمر ، وكرمات العنب طولها دهر وعرضها دهر .

« ب »

اليهودى مالك البيارة الجديد يريد حفر بئر تجلب الماء للشجر . أولاد العرب بسواعدهم القادرة حفروا البئر ، وتدفق الماء . اليهودى المماطل أبداً المحب للمال دوماً – قال : « أدفع الأجر لما تحفروا عمقاً للبئر يطاول قامتكم » . فعل أولاد العرب ما أراد الخبيث . فأهال اليهودى كاره العربى التراب على الرجال ودفنهم أحياء ، وقال :

« هذا هو العمق الذى أريده لبئرى » .

– ٢ –

عصابات الصهاينة أعملت السلاح فى ابن العرب وبنت العرب ، والإنجليز جلوا عن فلسطين وسلموها لليهود وفاء لعهد قديم ، وجيوش العرب انكسرت بالخيانة والسلاح الفاسد – لكن الله وعد ، ووعد الله حق ، والله لا يخلف الميعاد ، والأولاد يكبرون حتى فى المخيمات ، والأرانب تناسلت وكثر عددها فى بيت المرحوم بخيت البشارى (من ذكر أسود اللون وأنثى بيضاء ، اشترتهما حزينة ذات يوم بعيد من سوق البندر) ، والضباع السود طوقها العدو بالفالوجا ، ونبوية يتيمة الأب والأم شبت عن الطوق ، ونبوية تنظر لثور الحلوى الأحمر اللون – فهى لم تأكله بعد .. ماتزال تحتفظ به ... وإن انكسر أحد قرنيه المشرعين – وتتذكر خالها الغالى بفلسطين الشام .

– ٣ –

عاد الرجال بعد النكبة من فلسطين الشام ، هم هنا بمصر يعملون داخل معسكرات الإنجليز بمنطقة القنال ، الرجال يكسبون المال بسواعدهم ويحملون الشوق لأهاليهم ، والشوق فى الصدور كأنه نار الله الموقدة ، لكنهم على أية حال بأرض الوطن ، ومهما طالت الأيام فالعودة للأهل واجبة، ومن بنت العم أو بنت الخال سيتزوجون ويتناسلون ويعمرون الأرض .

– ٤ –

مصطفى له الأمر والنهى فى الأربعين رجلاً :

(رجال مختارون ، غلاظ شداد ، لا يعصون مصطفى ، ويفعلون ما يؤمرون ، بهم مكر الثعالب ، وخفة القطط ، وشجاعة ابن الوليد ، وحيلة ولين معاوية ، ومهارة الحواة فى الغش ولعب الكوتشينة) .

يختار الرجل منهم فريسته من داخل معسكرات الإنجليز ، وتكون الفريسة دائماً إما استرالى وإما هندى أو أفريقى أفطس الأنف ، يغرون الرجال بلعب الورق ، والقمار مكسب وخسارة ، والخمر قرينة القمار ، والخمر تشعل الرأس وتشعل الرغبة فى الكسب ، وخمر عرق البلح مصرية وذات مفعول قوى وسريع (مصطفى جاء معه بزجاجة بها سائل سحرى – جاء به من السودان بلد الحرّ والأحجبة والأولياء الصالحين – اشتراها من ساحر قادر أيام كان يعمل هناك فى زمان فائت) ، وقطرة واحدة على برميل خمر تجعل من يشرب كأساً واحدة ينام نومة أهل الكهف .

وقد نام الجميع ، يصبح المعسكر بغير حراس تحميه ، لا حارس يرى ولا حارس يسمع ولا حارس يطلق النار . يدخل مصطفى المعسكر وخلفه رجاله .

يحصل الرجال على الجبن الأبيض والجبن الرومي والمربى والشاى والزبد والأقمشة الصوفية التى تحمى الأجساد من لسعة البرد .

تمتلئ الزنابيل ، فيحملها الرجال فوق الظهور المحنية .

ما من مرة إلا وقتل مصطفى الكابتن الإنجليزى الكبير الرتبة .

يصرخ الكابتن الإنجليزى – الأكبر رتبة من زميله المقتول – في الجنود ويلعلع صوته فى الصباح داخل المعسكر : « إيجيبتشن كلفتى آند رابش » .

مخازن مصطفى تحت الأرض ، لا يعرف سرها غيره ورجاله ، حتى الجن تعجز عن الوصول إليها ، بمخازن مصطفى ثروة لا تقدر بذهب أو بفضة .

– ٥ –

« أ »

أبناء مصر من كل ملة حملوا السلاح ، حتى رجال بلوكات النظام ، المظاهرات عمت الوادى، والحكومة المصرية نادت بعدم التعامل مع الإنجليزى المعتدى على بر البلاد ، المتعامل مع الإنجليزى خائن للأوطان ، الفداء واجب والحكومة ستوفر العمل لابن البلد .

« ب »

اشترى الشيخ الفاضل جرنال المصرى لسان حزب الوفد ، واشترى جريدة الحزب الوطنى « منبر الشرق » لصاحبها « على الغاياتى » كاتب ديوان وطنيتى وصديق محمد فريد : على الغاياتى ومحمد فريد كلاهما حكم عليه الإنجليز بالحبس .

« ج »

زعق محمد أحمد الشرقاوى – مراسل جرنال الكتلة وجرنال « الوادى » – فى أولاده وأم أولاده : « ألا تكفوا عن الصراخ يا ملاعين ؟» » .

وكان محمد أحمد الشرقاوى عائداً لتوه من دار أمين أفندى عبد السميع شقيق صالحة أخت الشيخ الفاضل ، وسمع هناك من الجرامفون الذى يملكه أمين أفندى صوت أم كلثوم وهى تغنى على أسطوانة :

« مصر التى فى خاطرى وفى فمى ، أحبها من كل روحى ودمى ، من منكم يحبها حبى لها، ويفتديها بالعزيز الأكرم » .

دخل محمد أحمد الشرقاوى حجرته ، وأغلق بابها عليه ، وزعم أنه سيكتب مقالاً عنوانه « بحر الماضى يصب فى بحر الحاضر والبحر ليس بملآن » ، سيرسل المقال بالبريد لجرنال الوادى ، إن لم تنشره الوادى خلال أسبوع فسيرسل المقال إلى جريدة الكتلة ، وسيوقع مقاله بإمضاء «الصحفى العجوز» .

قال محمد أحمد الشرقاوى لنفسه :

« أجمع شتات أفكارى أولاً ، سأدون بعض أبيات الشعر المأثورة وبعض الكلمات التى صارت مثلاً ، وبعد ذلك أفرغ لكتابة مقالى بالليل لما ينام الجميع » .

وكتب بخط كوفى جميل :

(بحر الماضى يصب فى بحر الحاضر والبحر ليس بملآن) .

١ - بلادى بلادى لك حبى وفؤادى .

نشيد غناه سيد درويش لثورة ١٩ ، وهو صالح لكل الثورات ويغنيه أى صوت ، ورائع لما تغنيه الجموع .. لماذا ؟

٢ - لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً .

كان مصطفى كامل رجل قانون يحب مدينة فرنسا ، وكانت الدماء التركية تجرى فى عروقه - ولكنه ولد بمصر وشب بمصر وشرب من نيل مصر .

٣ - لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً .

كلمة رد بها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص حاكم مصر لما اعتدى ابن عمرو على نصرانى وقال مفاخراً : أنا ابن الأكرمين . استعار عرابى كلمة ابن الخطاب وبخّها فى وجه الخديوى . ولم يهبط عرابى من فوق سرجه .

٤ - وطنى لو شغلت بالخلد عنه ، نازعتنى إليه فى الخلد نفسى .

حتى حياة القصور لا تلهى الشعراء عن حب الوطن .

٥ - والله ما دون الجلاء ويومه ، يوم تسميه الكنانة عيداً .

٦ - وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق .

صدقت يابن مصر .. يابن العرب ، وصدق ابن تونس .. ابن العرب .. لما قال :

« إذا الشعب يومًا أراد الحياة ، فلابد أن يستجيب القدر ، ولابد لليل أن ينجلى ، ولابد للقيد أن ينكسر » .

القسم الحادى عشر

الذى لا يقدر على منعه أحد

– ١ –

يمامتان فزعتان حطتا على صدر البنت نبوية ، فرحت بهما البنت فرحًا شديداً ، واختلت بنفسها ونظرت إلى صدرها وقالت تحدث اليمامتين :

« مالكما فزعتين ! ؟ .. مالكما متأهبتين دوماً للطلاق !؟ » .

وكلمت نبوية نفسها :

« هاتان اليمامتان محشوتان برمل وحصى ساخن » .

وتشجعت وأمسكت كل يمامة بيد .

حزينة رأت اليمامتين على صدر بنت بنتها ، وسمعت ابن الشيخ الفاضل ينادى بنت بنتها بصوت صار خشناً كمنجل الحاصد تعمل فى البرسيم ، فقالت لنفسها : « الحذر واجب » ، وقالت تطرد الهاجس الخبيث : « الأيام الطويلة والمعاشرة الطويلة جعلت من الولد والبنت أخوين » .

الشيخ الفاضل وأهل بيته ينظرون لابنهم القريب دائمًا من بنت الحداد ويقولون : « نعم .. تربى معها ، لكن ليهتم بدرسه ، العلم وظيفة نافعة تدون ، أما الأرض فتتفتت مع الزمن المقبل ، نعم : ستقسم الأرض على الأبناء وأبناء الأبناء .

لا أحد من أهل البلدة يرى فى علاقة ابن الشيخ الفاضل بنبوية ما يستحق الكلام فوق المصاطب أو على الفراش بالليل مع الزوجات : « أخ وأخت .. لقد تربيا معاً » .

أما الحدادة فتوغر صدر ابنها السعدى – فى الصباح والمساء – على بنت فهيمة : « البنت لامها » .

قال السعدى مكلمًا نفسه : « أنا لا أصدق .. نبوية ذات الشعر الأسود المدهون والمعقود ضفيرتين لا يمكن أن تكون كأمها فهيمة ، الأنف الشامخ كبرج الحمام ، والعينان السوداوان ليلة شتاء لا تنفذ فيها سكين ، الرموش الطويلة مذارة ، ما يخيفنى هو الشفة العليا الطالعة لقدام ، لكن من

المحال أن تكون نبوية كفهيمة ، نبوية فرس أصيل ، ولن يعتلى ظهر الفرس غيرى ، هى بنت خالى وأنا فارسها ، هذه فرسى أنا دون سائر الرجال » .

ما للقاء مبتور بين الولد والبنت ؟! ، فى اللقاء خجل وفى اللقاء ارتباك ، وشعور بخوف مبهم ، وارتفاع بدرجة حرارة الجسمين ، وفى اللقاء أيضاً رغبة فى القرب والملامسة .

قال الولد : « ليت ما فات يعود » .

وقالت البنت : « تلك الطفولة التى مرت ليتها تعود » .

– ٢ –

« أ »

الريح أتت من محبسها البعيد كالخيل الجامحة ، شالت الأعواد اليابسة من فوق أسطح البيوت ، ونزعت الأوراق الجافة من فروع الشجر ، ولمت التراب الناعم من فوق سطح الأرض ، وضربت الوجوه والبيوت بالورق والقش والتراب ، وحطمت الأبواب الواهنة ولمت نتف السحب القليلة الرمادية المتباعدة فى السماء العالية – فتجمعت السحب وأصبحت أشد دكنة .

لما بكت السماء وسقط الدمع الطاهر على الأرض التى تضج من ظلم البشر للبشر – رقد التراب المهتاج واختفى الغبار من الجو وعم نور وعادت الريح لمعقلها وصارت السماء أشد زرقة ، وخرج الأولاد الصغار يبحثون عن اللقايا من جعارين وفصوص وخواتم وما تكشف عنه أرض الجدود ذات السر .

« ب »

رحل الشيخ موسى قطب البلد وحاميها ، رحل من يومين ، وقد بكته السماء قبل رحيله بيوم بأمر من الله الذى له ملك السموات والأرض ، ولكل أجل كتاب :

جاء محمد المنشد كعادته ومدح الرسول ، وجاء الرجال كعادتهم وأقاموا حلقة الذكر ، وحان وقت خروج الشيخ من خلوته – لكن الشيخ لم يخرج ، ومر الليل بطيئاً ثقيلاً والشيخ لم يطل بعد بطلعته على المحب العاشق والمريد المشتاق ، وما من حس بحجرة الشيخ بينما نور الفجر يرفع الظلمة عن البيوت والنخيل والشجر ويجعل الشخص يرى وجه رفيقه .

النفوس داخلها الشك ، فتكلم المحبوس بهمس ، ثم ارتفع القول وتضارب :

« تكسر الباب » ، « من يجرؤ .. كشف الستر عقابه شديد » ، « سمعته بالأمس ينادى الله حبيبه: خذنى ، نادى الله ثلاث مرات بصوت مرتفع سمعته .. بصوت كابد العشق » ، « فى الأيام

الأخيرة كان دائم الحديث عن الرحيل وعن الموت مفرق الأحبة والجماعات » ، « يا ناس .. ربما طال به الوقت وهو هناك يطوف بمكة المكرمة » ، « لا .. هنا مكانه .. ونحن حمله الثقيل .. فلننتظر عودته » .

« ج »

« يا أيها النهار الطالع كم أنت طويل ، وأنت أيها الليل القادم كم أنت ثقيل ، لا طاقة لنا بك أيها النهار الذى يعقب الليل : يا من حسمت الأمر » .

« شممت عطر الجسد وما شممت عفنه » .

« الخشبة طارت طيراناً » .

« ونحن ما حملنا الخشبة ، هى التى سبحت فى الجو كغمامة مسرعة » .

« آه يا أيتها الحفرة السوداء ، وأنت يا أيها التراب المنهال نحن منك وإليك وها هنا الجسد ، أما الروح فقد عادت لخالقها ، ونحن نعرف قدر الرجال ، ليلة مماته من كل عام سنحييها بالدف وبالطبل وبالمزمار ، وبالخيل سنتسابق وبالعصى سنلعب وسنقيم الأذكار ونطعم الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً .

« د »

أحباب الشيخ - وكل البلد أحبابه - جمعوا المال ليبنوا الضريح ، تشاوروا فى أمر النقيب الذى سيتلقى النذور ، البعض يقول إن الشيخ قبل مماته كان قد قرب إليه خليل البياض وكان يهمس له بسره ، والبعض الآخر يقول إن يوسف سليم الجزار لم يخن الأمانة وقد فضله الشيخ على الجميع لمّا اختار حجرة من حجرات بيته لتكون خلوته التى يعبد فيها الواحد الأحد .

وحسم النقاش بالآتى :

١ - البعد عن العدل ولو بشبر واحد لا يعلم عاقبته إلا الله .

٢ - للمحب والمريد الذى يطلب الشفاعة حق تقرير المزار .

٣ - يقيم خليل البياض فى الضريح - حيث دفن جسد الشيخ - ويتلقى النذور .

٤ - يقيم يوسف سليم فى الحجرة - فقد كانت خلوة الشيخ فى الحياة - ويتلقى النذور .

٥ - على يوسف سليم أن لا يستخدم الحجرة فى غرض من أغراض الدنيا ، وأن يحترم حرمتها مادامت تحمل أشياء الولى الراحل .

القسم الثانى عشر

اللقاء بعد طول غياب

- ١ -

رمت الأم بجسدها القليل اللحم فى حضن الابن ومرغت رأسها المثقل بما حمل من هم الأيام فى صدر الابن وتشممت ثوبه ، ورأت الشعر الأبيض على فوديه : « هذا فعلته بك وبنا الأيام يا ولدى .. لكنما بذراعيك قوة رجلين » .

طافت بالمكان روح بخيت البشارى : الأب والزوج ، وطافت بالمكان روح فهيمة : البنت والأخت ، وقالت الأم : « يا حبيبى .. يا كل الأحبة » ، وعلا بكاء الاثنين : « هذا مقام الفرح وهذا مقام الحزن » .

- ٢ -

جاء المحبون إلى بيت بخيت البشارى ، فقابلهم مصطفى وقابلتهم حزينة ، وتقبلاً منهم التهنئة بسلامة العودة والعزاء فى الراحل والراحلة .

وقام مصطفى العائد بواجب الراحل والراحلة فأحضر فقيهاً تلا من القرآن العديد من السور ونفحه مالاً ، وزار مصطفى قبر والده وأخته وقرأ فاتحة الكتاب ورش الماء على قبريهما .

- ٣ -

حكومة الوفد برت بوعدها ووفرت لكل من كان يعمل بمعسكرات الإنجليز عملاً ، ومصطفى عُيِّن فراشاً بمدرسة البندر – لكن مصطفى لم يذهب ليستلم العمل (ربما يكون السبب هو الراتب القليل ، وربما يكون التعفف أو الكبرياء عن العمل المهين ، وربما كان المال المخبوء سيظهر بعد حين ، على أية حال مصطفى لا ينكر قول أحد ولا يقر قول أحد ، والسر كله فى جوف البئر حزينة: هذه العجوز لا تبوح .. ما بان عليها فقر ولا يسر .. تفتح فمها الأهتم وكأنها ترمى بأسنانها فى وجه مكلمها « الخير فى دجاجاتى وحماماتى .. أبيع البيض وأشترى حاجتى – غيرى لا يعطيه الله – تقصد الحدادة بنت الحداد – وبنت بنتى نبوية سلمت يدها تصنع من الخيط أفضل طواقى الرأس») .

– ٤ –

أضمرت حزينة – وقد كثر قول القائل والقائلة عن المال المخبوء – أن تباشر ابنها بالسؤال ، وقالت :

« عليّ أن أختار الوقت الحسن .. لما يكون معتدل المزاج » .

– ٥ –

قال مصطفى وكان معتدل المزاج ، وبدأ كلامه بقهقهة عالية :

« أأنت خائفة يا أم من أن تعولى ابنك فى شدته ؟ لا تخافى .. الرجل لا يغلب .. فى رأسى مال كثير » .

قالت حزينة فى عجب :

« فى رأسك !! مال كثير فى رأسك !؟ » .

قال مصطفى ضاحكاً :

« المال أيضاً مرمى بالطرقات كالأحجار » .

ردت حزينة وهى تتصنع الفزع :

« أطلب من الله أن يحفظ عقلك من الجنون » .

قال مصطفى يحدث أمه بجد ووضع يده على كتفها :

« لن أعمل تحت أمر مخلوق .. نعم .. لقد تعبت وقاسيت يا والدتى الكثير فى غربتى من أوامر المخاليق .. الأمر مرّ الطعم .. ومن اليوم سأكون حر نفسى .. أنت لا تعرفين بشاعة حكم الآدمى الحاكم على الآدمى المحكوم .. لا تخافى .. سألتقط رزقى من الطرقات كالأنبياء والطير » .

القسم الثالث عشر

يفيض النهر فيغطى الرمال الواسعة - هناك بالبر الغربى - بالماء النحاسى ، وينحسر مخلفاً الغرين الطيب فوق الرمال ، فيدفن الزراع بذور البطيخ ، وتطلع الأعراش وتفرش سيقانها وأوراقها الخضراء ، ويتفتح النوار وتطل الثمرة ، ويكبر البطيخ ويستدير بقشرته الخضراء من الخارج - لكنه من الداخل شديد الإحمرار شديد الحلاوة قليل الماء .

تأتى القوارب بالتجار فيساومون الملاك - لا الزراع - ويشترون المحصول ، وتنقل القوارب المحصول من البر الغربى إلى البر الشرقى . وتتوقف القوارب عند المرساة ، ويفرغ الحمالون الحمولة ، ويرمون الأحمال خلف ظهورهم المقوسة ، ويرفعونها من تحت لفوق ويكومونها أكوام أكوام : « تلك أكوام صغيرة وتلك أكوام كبيرة .. هذا بطيخ مليح وهذا بطيخ ملاحته أقل .. وذاك بطيخ انشقّ أثناء الرفع والإنزال » .

يقبل صغار التجار على كبار التجار يساومونهم ، ويدور الكلام ما بين أخذ ورد ، وزعيق ويفتح الله ، والله يسهل لك .

وقد تمت الصفقة ، يزعق الحوذية فى حميرهم فتتحرك الحمير تجر عربات الكارو المحملة بالثمار الحلوة ، وتدرج العجلات على الشارع المرصوف ، وهناك ببندر الأقصر تجد الثمار الحلوة شاريها المقدر الذى لا يبخل على المتعة الطيبة الحلال .

كلهم عند المرساة : تجار كبار وتجار صغار وحمالون ونوتية وأصحاب قوارب وأصحاب عربات كارو .

ومصطفى - هنا أيضاً فى خُص أقامه من بوص الذرة العالى .

هنا - يصنع مصطفى الشاى والقهوة ويقدمها للشاربين ، والباذنجان المقلى بالزيت والفول النابت المغلى فى ماء والحمص المسلوق للآكلين .

هنا المرساة ، وهنا مصطفى ، وخُص مصطفى المغطى بالخيش يحميه من الشمس الحارقة فى الصيف ، ويرمى بالظل ويمنع البرد الساقط فى الشتاء .

وهنا ، دكة خشبية وحصر للجالسين ، وهنا الكوتشينة لمن يريد التسلية البريئة .. ومن أراد لعب القمار فليلعب .

ومن هنا : طريقك إلى الأقصر البندر وسوق الثلاثاء ، لا طريق لك إلا من هنا يا ساكن القرى والنجوع - إن كنت راكباً أو كنت سائراً .

القسم الرابع عشر

كل الخيوط تتشابك

- ١ -

« أ »

قال السعدى : « أبغى الزواج من بنت خالى يا أم » .

ردت الحدادة وكأن العقرب لدغتها : « لو تزوجت من بنت فهيمة فلن تكون ابنى ، سأذبح خلفك حمامة .. كأنك متّ ، وتكون خلفتى كلها من البنات .. والعوض على الله .

صرخ الصحب العنيد : « نبوية بنت خالى .. وهى عارى .. وهى دمى .. ولحمها من لحمى » .

قالت الأم : نبوية بنت فهيمة لا بنت الحداد ، لو عاندت وركبت رأسك سأحرمك من الإرث » .

رمى الولد بقراره القاطع : « افترضى أنها بنت الشيطان – لكنها رغبتى أنا لا أنت » .

أشاحت الأم برأسها وأدارت ظهرها للابن غاضبة . وأدار الولد ظهره لأمه وانفلت غاضباً للخارج ، وصفق الباب الخشبى خلفه بعنف .

« ب »

قال مصطفى – ابن بخيت البشارى من حزينة وشقيق فهيمة – للسعدى ابن الحدادة : « انتظر حتى أموت أنا وتموت أمى ثم تقدم لنبوية وتزوجها إن رضت بك » .

« ج »

العناد والعشق جعلا السعدى يقرر أن لا يعود إلى أمه وأبيه – قال :

« سأبنى عشى بعيداً عن العمران – هناك عند الساقية المهجورة ، سأطلق لحيتى وشعر رأسى وسأجد سلوتى فى الخمرة والمخدرات ، سينطلق الوحش ويكسر الأبواب وينط الحوائط ويحصل على ما يسكت صراخ بطنه ، وفرصتى آتية أتية .. فى اليوم القريب أو اليوم البعيد ، سأخطف تلك التى

أعبدها وأمضى بها لنعيش أنا وهى حتى نهاية العمر : هناك مع الضوارى . دونكم ودونى يا أهل هذا البلد : النهر والرمال والجبل الكبير » .

تحت ظل شجرة التوت القائمة بفروعها الكثيرة هناك عند الساقية المهجورة – نام السعدى ، وحلم :

« جمحت الفرس ، وألقت من فوق سرجها ابن الشيخ الفاضل ، وجرت ورمت بسرجها ، وشقت الدروب نافرة العرف ، والعرف تحت الشمس الطالعة له وهج يعمى البصر .. وكأن العرف من نار ، والخلق تجرى خلف الفرس ، ونبوية وسط الخلائق مفكوكة الشعر ، وقد بلغت الفرس الساقية المهجورة وجدت السعدى الذى نط كالقط واعتلى ظهرها الأملس وقبض على عرفها ، وظل يصفر لها بفمه حتى استكانت ، ومد السعدى يده لنبوية فمدت له نبوية يدها المرتعشة ، ورفعها لفوق وطوقها بساعده ، وشد عرف الفرس ولكزها فى بطنها بكعب رجله ، وصرخ : هيهه .. هاه ، وانطلقت الفرس كالريح : خاضت به الماء .. وتخطت عقبات الرمل المخادع .. وها هو الجبل الغربى الكبير قاب قوسين أو أدنى .

– ٢ –

« أ »

منع مصطفى بنت أخته من الخدمة فى بيت الشيخ الفاضل ، وصرخ فى أذن أمه التى لا تسمع إلا بالصراخ :

« نبوية كبرت يا أم .. وبعنقى دين للشيخ الفاضل سأرده وأنا قادر على رد الدين بإذن الله .. وأنا أكسب من عملى والحمد لله فلماذا تعمل نبوية فى بيوت الغير ؟! » .

وقال مصطفى لنفسه وهو يهم بمغادرة البيت :

« لقد نبهنى السعدى أن البنت كبرت وصارت عروسة » .

بلهجة الوالد الحريص بخ أوامر فى وجه نبوية :

« لا تذهبى للنهر .. سأكترى سقاء ، قومى انقعى الفول والحمص .. وسأرسل من طرفى من سيأتى ويأخذه » .

جلست نبوية تتحسر على حالها :

« سأظل هنا بهذا البيت حتى يأتى رجل يوافق عليه خالى وجدتى فيأخذنى لبيت أمه ، أما هو فلن يتقدم لخطبتى أبداً ، هو السماء وأنا الأرض ولن تنطبق السماء على الأرض إلا إذا قامت القيامة، سأظل فى مكانى هذا بحسرتى ، أنقع الفول والحمص وأكنس تراب البيت وأرشه ، وأسمع كلام العجوز ، كلام العجوز زاد اليوم عن اليوم الذى فات ، ولا أحد فى مواجهة العجوز غيرى أنا التى أسمع كل يوم أن الماضى حلو والحاضر مر ، حتى النهر لن أذهب إليه فقد اكتروا سقاء ، أنا غازلة الصوف وصانعة الطواقى ورامية الحب للطير – هل يحضر ليرانى فأغسل ثوبه !؟ » .

– ٣ –

رحلت شمس الصيف الكبيرة ، وأقفرت المرساة ، ذهب صغار التجار وكبارهم والنوتية والحمالون وأصحاب العربات وسائقوا العربات إلى حيث يعلم الله . وتلك هى شمس الشتاء بوجهها الضاحك وشعرها الأصفر المحلول . وها هم السياح قادمون من بلادهم – بلاد الغيوم والمطر والثلج الأبيض ، ليتفرجوا على الأثر القديم ، وليركبوا العربات تجرها الخيول وليشتروا الطواقى الملونة ويلبسوها ، ولتنقلهم قطارات الماء من بر الشرق إلى بر الغرب ، وليعمروا اللوكاندات .

– « هيا إلى اللوكاندة يا ولد .. وأنت يا رجل هيا إلى العمل .. ودعوا البطالة يا سكان نجع البحاروة فقد رحل الصيف .. وأنتم لستم ممن يفلحون الأرض ولستم بالملاك ، فلتلبسوا ملابسكم البيضاء وعماماتكم البيضاء ، وتمنطقوا بالأحزمة الخضراء .. منكم سيكون البارمان ومنكم سيكون الجرسون .. وفيكم المرمطونات » .

فكر مصطفى وهو يرقب النهر – وكان الرجال والصبيان قد مروا عليه ورموه بالسلام وكانوا يلبسون ملابسهم البيضاء وعمائمهم البيضاء وقد تمنطقوا بأحزمة خضراء : « لأنهم يعيشون الصيف فى بطالة ويعملون بالشتاء ويحصلون على أجر وبقشيش كثير ، ولأن الصيف قادم لا محالة بعد الشتاء – فهم مقامرون » .

وفرك مصطفى ورق الكوتشينة الملون بين راحتيه وزعق فى النهر ، ورد عليه النهر :

« مقامرون .. مقامرون إلى أبد الآبدين » .

وقال لنفسه :

« من يعمل بالليل سيأتى إلى خُصّى بالنهار .. ومن يعمل بالنهار سيأتى إلى خصى بالليل » .

- ٤ -

حزينة لا ترى إلا السواد يغطى كل شيء ، لقد خف الضوء بعينها التى ترى ، وقلّت قدرة الأذن التى تسمع على التقاط الكلام من فم الآخرين حتى لو صرخوا . ونبوية تخفى بطنها المنتفخة عن عين جدتها الكليلة بالثوب الواسع ، وتتوجع بالأنات المكتومة ، فالصرخات العالية قد تسمعها الجدة .

- لكن لما يتكرر رفض البنت للأكل ، ولما ترفض المعدة ما بداخلها من طعام وترميه من الفم، لما يتكرر القئ وتقل الرغبة فى العمل ويكثر النوم ، فلابد أن فى الأمر شيء لن يفوت على حزينة المجربة دون أن تعرفه .

أتت آمنة أم بادرة القابلة ، واختلت بنبوية داخل الغرفة ، وخرجت آمنة وحدها من الغرفة ، وقال للجدة تواسيها :

« كان الله فى عونك .. الإناء مشروخ » .

ضربت حزينة أسنانها الهتماء ، وقالت لنفسها :

« لو كنت أملك عافيتى لقضيت الأمر بنفسى » .

وشدت عكازها وخرجت للطريق تتطلع ، لتنقل الخبر المفجع للابن .

خاتمـة

- ١ -

مصطفى الهائج كال لنبوية الضربات الموجعة وجعل الوجه الجميل يتورم ، ولَمّ الشعر الذى يحاكى الليالى بكفين نفرت منها العروق . وبقبضتين قويتين رمى بالجسم الذى يبتغيه الرجال على الأرض وجرجر نبوية ، وأشبع بطنها الذى يحمل الحرام رفساً بقدميه ، وتركها - إلى حين : حتى يحفر الحفرة - كوم لحم مهشم العظام ، تتأوه تحت الجدار .

رمى الفأس ، ورفع نبوية ، وأنزلها فى الحفرة ، وأهال التراب على الجسم حتى العنق ، وترك الرأس يطل بينما الشعر يرعى فى التراب . وصرخ مصطفى فى الغيب ، وترجمت حزينة صراخ الابن :

لا كسرة خبز .. ولا جرعة ماء .. حتى تموت وحتى تبوح بمن فعل .

- ٢ -

نبوية تقاوم العطش الشديد .. حلقها جاف لم يجرع الماء منذ عام - لكنها لن تنادى لتطلب الماء . ونبوية جائعة (تشتهى ثور الحلوى المكسور القرن بداخل صندوقها الخشبى) . ونبوية تنظر للكوة العالية بالحائط - تلك التى تأتى بالضوء والبرد للغرفة - وتقول : « ما عدت أحس بالبرد .. وهذا الضوء أهو ضوء الشمس أم ضوء النجوم .. الضوء لا يعنينى بقدر ما أريد أن أعرف أهو نائم أم مستيقظ .. كم من الأيام مر على وأنا هنا . يومان أم شهر أم عام ؟ أم أعوام طويلة تلك التى مرت.. وتلك العيون الشامتة المطلة من الكوة تسألنى عن اسمه ولن تغادر الكوة حتى أنطق باسمه .. أنا لن أنطق لأننى ميتة ميتة لا محالة .. لا بل لأننى لن أبوح باسم حبيبى وإلا فسيقتله الخال الهائج.. لماذا لا يقترب منى ذكر الأرنب الكبير هذا ، ويمرر شعره الناعم فوق جلد وجهى ويدفن جسمه الطرى فى شعرى متمرغاً بفروه الناعم .

- ٣ -

خبط السعدى باب بيت بخيت البشارى بقصبة قدمه بعنف ، وتخطى حزينة القاعدة دون أن يرميها بنظرة من عينيه الحمراوين المشتعلتين كجمرتين - إنه يعرف بغيته ولن يضل طريقها .

أخرج من بين طيات ثوبه الممزق المنجل القاطعة الحادة الأسنان ، وقبض على لمّة الشعر الأسود المعفر المهوش كما يمسك بحزمة برسيم ، وحصد العنق الشامخ ، فمال البرج وطار الحمام وعوى الذئب على مشهد الدم النافر يغرق الثوب ويجرى على التراب كالحيات ، وحمل الرأس بعيون ماتزال حية تلمع ، وهو يعوى ...

- ٤ -

« أ »

كان مصطفى قاعداً يغسل الأطباق والفناجيل والأكواب من رواسب القهوة والشاى فى جردل به ماء ، وحول مصطفى جلس الرجال يتكلمون ويدخنون الجوزة ويشربون الشاى والقهوة السوداء بغير سكر ويختلفون على اللعب ، ومصطفى غافل عن هذا العالم - بإرادته - وبعيد .

« ب »

ظهر الشيطان فجأة بلحيته القذرة المهوشة وشعر رأسه المنفوش ، وبصق السعدى فى وجه مصطفى ، ورمى فى الجردل ، المملوء بالأكواب والفناجيل والماء القذر ، برأس الجميلة .

« ج »

الرجال يطوقون مصطفى بصمت مميت ، كفوا عن اللعب المسموع والكلام المسموع ، بينما عيونهم تقول كلاماً ووجوههم تنطق بكلام ، مالهم لا يمشون ويغادرون المكان ويبقى مصطفى وحده بهذا المكان حتى نهاية العمر .

صرخ مصطفى فى الصمت وفى الرجال وفى كل من يسكن القرية من نسوة وصبية وبيوت ونخيل وحيوان وشجر :

« كلكم يعرف من أنا .. كلكم يعرف من أكون .. كنت صبياً لما سافرت إلى السودان .. وقفت وحدى ورفعت اليد فى وجه الريس عبد الظاهر وألزمته الحد ، عرفت النساء عدد شعر الرأس وأنا صغير ، بالسودان نمت على فراش شيخ عشيرة . أنا الولد الذى لا راح ولا جاء نمت على فراشه وهو شيخ عشيرته يأمر وينهى ويصدر أوامر القتل على ابن آدم ويعتق رقبة ابن آدم بمثل ما يشرب الماء - لكنه العاجز إذا ما أمر زوجته بالحفاظ على فرجها » .

« هناك منكم من عاشرنى بالشام ويعرف أننى تزوجت وأننى عجزت كشيخ العشيرة عن حماية فرج زوجتى فطلقتها ، من منكم لا يعرف النساء ، أنا الذى عرفت تزوجت مرة واحدة ولن أكررها مهما طال بى العمر ، وما فكرت بعد الذى حدث .. وما فكرت قط ، السعدنى ولد ونبوية

بنت ، والحداد خاله ونبوية ليست بنتى وهى عار السعدى وعارى من بعده ، ضربتها ودفنتها فى حفرة ومنعت عنها الطعام والماء لتبوح باسم الفاعل ، لو عرفت اسمه لمزقت جسمه ولو كان ابن فرعون .. لشربت من دمه وما كان ليصدنى مخلوق .. لكن السعدى قتلها قبل أن تنطق » .

شعر مصطفى أنه يهوى فى خواء ويمشى فى عتمة تحيطه وتمتد أمامه إلى ما شاء الله ، وأنهم قد أسقطوه من حسابهم ومن عداد الرجال .. إنها فرصتهم – هؤلاء رجال هذا الزمان – ليحطموا رأسه المتكبرة : لقد أصدروا حكمهم .

وشحر مصطفى كالذبيحة :

« أنا .. أنا .. وبعد هذا العمر الذى مر » .

وطلب من نفسه أن تعطيه ما تريد : شللاً كاملاً عن الكلام والحركة والشوف والسمع – ولبّت نفسه ما أراد وأطاعت .

« د »

حمل الرجال مصطفى وأرقدوه فوق العربة ، وجر الحمار العربة ، وصرت العجلات ثم درجت على الشارع الأسفلتى ، وعرجت عند مقام الشيخ موسى ، وحزن الحمار وهو يهبط المنحدر الترابى – لكن السائق صرخ فيه وكان له الضربات الموجعة بفرع الشجرة اليابس ، فواصل سيره جارياً بالحمولة الخفيفة .

« هـ »

الدمع جف فى المحجرين ، والضوء انطفأ فى العينين منذ زمان ، وها أنت يا حزينة بعد مرور الزمان مع الابن المقعد داخل المكان ، رحل الزوج ورحلت البنت وهلكت بنت البنت ، وحولك المشفقون والحدادة الشامتة ، ولا ضوء ولا نار بموقد ، وما الحاجة للنار والموقد !؟ .

« و »

ولّى الليل بالنجوم ، وجاء النهار بالشمس ، وأطل الأرنب الذكر الكبير الخائف من باب بيت بخيت البشارى المفتوح ، ثم نطّ للخارج وتبعته الأرانب الكبيرة والصغيرة تسعى للحشائش تحت كرم النخيل غير المسور – الذى يملكه الشيخ الفاضل – والواقع خلف بيته ...

تصاوير من
الماء والتراب والشمس

الناس بالناس .. ، والناس للناس ، وصاحبي الطاعن في السن في كرب - فبعد موت ابنه الوحيد ماتت أم ابنه صبح اليوم الأربعاء ، ووقفتي أمام الصاحب مكتوف اليدين مرذولة .

« إسكافي المودة »

- ١ -

(عصر يوم بعيد) جاء قاسم من بلده البعيد على ظهر مركب تحمل الجِرار ، ودخل سوق المدينة وشال كيس بطاطس يزن إردبين ورماه عى ظهره ، ولف بحمله لفتين ثم حطه على الأرض - وسأل أهل السوق وحكامه : « أي عمل يا جماعة ؟ » .

(وصبح اليوم) أجبر الموت - في السوق الأمّة أشتات الناس ولمامة البلدان - صاحب البدن المهدم على البكاء بعين مملوءة بالدمع والدم .

(وذات يوم : لا هو بالبعيد ولا هو بالقريب) - عاد قاسم إلى السوق بعد غيبة بعين معصوبة بمنديل لما رفعها لقبه الأسافل بالأعور وناداه الأفاضل « يا كريم العين » .

- ٢ -

(ما يبكيك يا قاسم ؟ .. كلنا للموت !! .. الموت حوالينا) .

كل ناس السوق بألسنة - كأنهم لا يملكون إلا ألسنة !؟ ، ما قيمة اللسان في يوم بلاء مثل هذا ؟ ، إسكافي المودة أيضاً بلسان أوقعه في ضيق ونجّاه من مهالك !! ، إلا أن اللسان لا يعرف إلا الكلام ، والكلام لا يفك عقدة ولا يربط عقدة في حال كحال قاسم ، في حال كحال قاسم الفعل واجب .. الفعل فرض : ولا أحد في أمان من مكر الدنيا .

- ٣ -

« قاسم .. يا صاحبى .. تعال » .

ثلاث كلمات قالها الإسكافى لقاسم بصوت تسمعه كل الخلائق ، وأمسك بيد أخيه وابن زمانه .

- ٤ -

وهما فى الطريق إلى خمارة مخالى - لم يتكلم الإسكافى ، أما المنكوب فلم يكف عن البكاء والكلام (الغير القادر اكترى الغسال الذى نزع القميص عن البدن وصب الماء على البدن ولف البدن العريان بالكفن ، الغير القادر شرى قماش الكفن ودفع أجر الخشبة وأجر الحفار ، والتى كانت تمشى فى النور على الأرض ، راقدة الآن فى الظلمات ببطن الأرض بمقابر الصدقة) .

سقت نفسك إلى مأزق يا ولد ، فأنت مفلس ، لكنك لازين ولاشين - مادامت الخمرة سترفع الحزن عن نفس الصاحب ، ولقاسم بلديات يكسبون ويشربون ، لو كانوا هناك بالخمارة - سينادون ، هات خمرة يا مخالى لقاسم والإسكافى ، وفى هذا نجاتى من كل ضيق .

، إسكافى المودة ،

- ٥ -

خمارة مخالى خالية ، ففى هذا الوقت من أوقات النهار ينشغل روادها من ناس السوق عن الخمرة بأمور العيش .

- ٦ -

ستظل يد الإسكافى مدسوسة فى جيبه : تعبث بالوهم وتخلق الوهم - ولن يخرجها من جيبه إلا بعد ما يبلغ مخالى الطُّعم .

- ٧ -

راح مخالى بالأكواب الفارغة وجاء بالأكواب مملوءة ، وحاور الإسكافى مخالى بكلمتين طيبتين ، ثم عبس ورسم ملامح الحزن وجرع كوبه المُرّة بقرف ، وطلب من مخالى خمرة له ولقاسم ، وأشار الإسكافى إلى المصيبة التى حلت بقاسم صبح اليوم .

قال الخمار اليونانى ، كلنا من التراب وكلنا للتراب ، .

وقال المسيحى اليونانى وعينه على قاسم ، الصبر حلو والله كبير ، .

- ٨ -

نفخ قاسم : ، خرج الولد من الدنيا قبلنا - وكنا نتمنى أن نخرج من الدنيا قبله .. وخرجت أم الولد من الدنيا قبلى - وكنت أتمنى أن أخرج من الدنيا قبلها ، .

وزعق الإسكافى « خمرة مخالى » .

وقالت الجدود لقاسم « الملاك بحرية .. يجرح البدن ويسل الروح » .

وقال السلف لقاسم : « تبقى الروح معلقة مجروحة بجروح البدن حتى يتصدق أهل الميت على الروح بسورتين من كتاب الله » .

وقال قاسم لقاسم : « أنت غير نافع .. الفقير بعافيته » .

وقال قاسم للإسكافى : « لا مال معى أدفعه للشيخ ليقرأ القرآن على روح المرحومة » .

قال الإسكافى : « لا تطلب قُرّاء القرآن بأجسادهم يا قاسم .. كلهم يطلبون الأجر وأنت لا تملك الفدادين .. حاور الفقر بالحيلة » .

وقال الإسكافى « بالسوق أجهزة تدور فتلف أشرطة بحجم الكف وتتكلم .. ومنها نسمع الأغانى والحكايات ، ومنها أيضاً نسمع القرآن بالمجان » .

قال قاسم : « لن أطلب من مخلوق جهازه .. أقدر على الحزن .. سأحزن حتى يأخذنى الموت.. اطلب لى خمرة » .

أشرق وجه الإسكافى ثم عبس ونادى مخالى :

« هات لقاسم يا مخالى .. ولف لى زجاجة فى الورق » .

« اشــرب واشـرب ، سأحضـر أنا الجهاز . لن أغيب ،
لا تقلق يا قاسم وكن بخير » .

« إسكافى المودة »

- ٩ -

بين نور وظلام وعلى أرض مـرحلة طالعـة نازلة وبعـد مـشـقـة ، بلغ الإسكافى خُصَّ رجب جـامع الخـرق وناداه وسمع رده فحـمد الله الموفق . جلسا متـقـابلين على كوم من الخرق ، ورحب رجب بالإسكافى – وقال : « أعمل شاى ؟ » . ورد الإسكافى « لا .. نشرب خمرة » وعرى الزجاجة من الورق ووضعها بينه وبين رجب وطلب من رجب مسماراً ، وبالمسمار نزع السدادة وألصق فم الزجاجة بأنفه وشم وقال : « خمرة طيبة » . وطلب من رجب كوبين فأحضرهما . وصب الإسكافى السائل الأسود الطيب في الكوبين وشرب كوبه على مهل وقال : « خمرة طيبة » . قال رجب « خمرة طيبـة .. هذا حق » . وقـال الإسكافى : « صبح اليوم ماتت زوجـة قـاسم » وقـال رجب : « والله مـا سمعت الخبر إلا منك » . قال الإسكافى « المسكين كالبيت الذى هدّته دبابة .. لولاى لقتله الحزن » . قال رجب : « مسكين قاسم فقد ابنه وأم ابنه وفقد نور عين ومع العمر فقد عافيته » . قال الإسكافى : « هذا حق .. قاسم وحيد .. والوحدة مرة وصعبة والناس بالناس والخمرة تبعد الوحدة لهذا دعوته إلى خماره مخالى » .. وهو الآن هناك يشرب على حسابى .. سأعود إلى قاسم فقد يفعل المسكين فى نفسه شيئًا ، فالخمرة تزيح الحزن فى حين وتجلب الحزن فى حين إلا أن كـلام الله وحده يلم الأحزان من النفوس .. أنت تملك جهاز كهرباء يا رجب ؟ رد رجب : « نعم عندى .. أحضرته من ليبيا لما سافرت من عـامين .. لكن لا كـهربـاء فى بيتى .. جهازى يعمل بحجارة بطارية .. لكنه الآن بغير حجارة بطارية .. هات حجارة بطارية وتعال مع قاسم وسيعمل الجهاز .. لكن انتظر .. كل الأشرطة التى عندى تغنى الأغنيـات ولا تقرأ القرآن » . قـال الإسكافى : « الغناء أيضـًا يدفع الحزن .. هات الجهاز » . واحتضن الإسكافى الجهاز – وقال لرجب : انتظر ساعة يا رجب ثم تعال إلى خمارة مخالى ، سأل رجب – وبان قلقه : « ولماذا لا تحضر أنت وقاسم إلى هنا ؟ » رد الإسكافى

: « يا رجب تعلّم من الدنيا .. هل ينتقل الحزين إلى بيت الفرحان » قال رجب بخوف : « أذهب معك الآن» . قال الإسكافي : « قد يظن العاجز أنك صاحب مكرمة فيزداد حزنه » . وصب من الزجاجة في كوب رجب وقال : هذه الزجاجة لك يا رجب فأنا سأشرب هناك الكثير . ودس في جيبه وسأل رجب مستنكراً ويده تلف في جيبه : « هل تريد مالاً يا رجب ؟ .. هل تبغى الضمان الذي يحفظ لك حقك ؟ » تلجلج رجب وأحس بالإهانة ودافع عن نفسه ونفى تهمة النصب عن الإسكافي – وقال : « فهمتني غلط يابن العم .. أنا قد أعجبك في المواقف .. لكني رأيت الموت .. قطعت الأسلاك بأسناني وهربت من حدود مصر إلى حدود ليبيا .. تسلخ جلدي وأنا أزحف على الرمل الساخن ونفدت بروحي من رصاص القناصة الذهابين قطاع الطرق أولاد على بمعجزة من الله .. ووقع قلبي لما رأيت أولاد العرب في الجيشين متواجهين والسلاح يابن العم يخلط الدم باللحم بالرمل .. وأنا لا أقول لك غير ما رأيت .. كن على حريصاً .. وأسألك : هل بمقدوري الآن بعد خصام البلدين الحصول على جهاز آخر ؟ .. على أية حال مع السلامة .. سآتي بعد ساعة » .

مخالى .. يا ساكن البيت العالى .. فى خمارتك كهرباء..
خذ الجهاز وأسمعنا غناء المغنيين أبناء أيامنا .. واسقنا
من خمرتك السوداء لننسى سواد أيامنا .

« إسكافى المودة »

– ١٠ –

عودة الإسكافى إلى الخمارة أعادت الأمان إلى نفس قاسم ، وبنفس صافية قطرتها الخمرة – باح قاسم للإسكافى بسر لم يبح به للراحلة شريكة عمره : « النعل ابن النعل ماسح النعال دعانى إلى وليمة فطاوعته وذهبت معه ، فى البناء المخصص للعلوم كان تلاميذه يكتبون ويطبعون ويهاجمون الحكومة ويتناقشون بعلو الحس ، فدخلنى رعب وقلت لبكلة : « أين الطعام ياابن النعل » ، قال : « فى أوقات الأكل يأكلون وتأكل معهم » . « كان النعل ابن النعل يتنقّل بينهم وكأنهم أبناء عمه ويلمع أحذيتهم ويلم المال ، وأنا كنت آكل فقط لمّا يأكلون ، وجاء الوقت الذى حاصرنا فيه البوليس المسلح ، ونادونا بمكبرات الصوت ، ثم هاجمونا لما تخطرسنا فى الردود ، فسالت دموع وسالت دماء وتكسرت ضلوع وأصابنى البارود فى عينى – إلا أنى زغت ولا أعرف كيف ، ونصحنى بُكلة الكلب بعدم الذهاب إلى المستشفى لأن المستشفى حكومة تبلغ أمر كل صاحب علة فى زمن القلاقل لعسكر الحكومة – وفى هذا سجنى ، وعملت بنصيحة ابن الكلب وفقدت عينى » .

وباح الإسكافى بسر يكتمه – قال « بمعدتى علة موجعة تجعلنى لا أرتاح إلا بالحمام أو فى الخلاء أو وأنا وحدى » ، وضحك الاثنان .. ضحكا بدموع .. فها هما فى الحياة .. هنا فى خمارة مخالى قاعدان يشربان .

– ١١ –

فات وقت طويل وهما يعبان خمرة مخالى السوداء وينشدان الارتواء أو الحريق . لمّا التقت عين قاسم بعينى الإسكافى رمتهما بكلام وزاغت خجلة – تذكر الإسكافى أنه كقاسم لم تدخل معدته .

اليوم لقمة ، ونادى مخالى « بعت لك الجهاز .. فيما بعد نتفاهم .. أعرف حسابى وتعرف حسابك .. هات الأخضر .. طلع من جيبك وعدّ وشخلل » . لم يندهش الخمار اليونانى بل فرح وأخفى الحريص فرحه وكذلك الإسكافى غمره سرور أخفاه وقبض على الجنيهات الورقية – وقال : «قليل» . وقال مخالى : « الجهاز قديم » . وقال الإسكافى : « يعوضنى رب المسلمين يا كافر » وابتسم . رد مخالى مبتسماً : « أنا نصرانى مؤمن كفرت لما عشت معكم يا مسلمين » .

– ١٢ –

دخل رجب خمارة مخالى – فى وقت تهدمت فيه كل الحوائط : لحمة مشوية وخمرة وألفة جمعت أبناء بحر مصر واليونان ، رمى رجب نفسه فى البحر وعام ، وضرب باليدين وعب بالفم حتى انتفخت بطنه وثقلت جفونه ، والبصر فى الرأس الثقيل يبحث عن شط ، والصوت البعيد للمغنية البعيدة من الجهاز البعيد يأتى ويروح : ثم عم صمت .

خذ سيجارة .. جهازك نسيناه البارحة بالخمارة.. لا تخف يا رجب .. الجهاز موجود والخمارة موجودة ومخالى موجود .. الليلة نتقابل .. تعال نأكل لقمة وطعمية سخنة .. تعالى نتغذى ..

« إسكافى المودة »

– ١٣ –

بعد ما شربوا من خمرة مخالى السوداء – حتى آخر مليم فى جيب الإسكافى – وبان لهم حرص مخالى وبُعده عن مجلسهم وتجاهله لأصواتهم المنادية وتصميمه على رمى النار بالزيت ، مد الثلاثة الأيدى فتشابكت ، وأقسموا بالحى والميت والملح والخبز والخمرة – أن يعيشوا من اليوم حتى الممات أخوة وعصا واحدة فى مواجهة الغير والعدوان .

حكى الإسكافى لرجب ما دار بالأمس من خلف ظهر رجب وامتعض وجه رجب ثم تذكر القسم فكلم نفسه بصوت مرتفع : « خمنت .. من البداية خفت .. على أية حال نحن أخوة .. لكنى واجهت الموت وخرجت من حلق الموت بجهازى » . رد الإسكافى : « أنت الآن يا رجب غير قادر على الحصول على جهاز .. وغير قادر على السفر .. الطريق إلى كل بلدان العرب مسدود ومحظور وتقف على حدوده جيوش مصرية .. والإسكافى فى نظرك نصاب كبير .. يا رجل لا تخف .. جهازك ستأخذه الآن وتلمه بيديك » . قاطع رجب الإسكافى : « لم أقُل الإسكافى نصاب .. حاشا لله .. لكن كيف سآخذ جهازى وأنت بعته لمخالى ؟ » . قال قاسم : « الإسكافى لما يقول يفعل .. أنا خبرته » أكمل الإسكافى « إمسك بثوبى يا رجب وأصرخ : حرامى سرق جهازى » . حاول رجب مقاطعة الإسكافى فأسكته الإسكافى بيد مرفوعة وكف مبسوطة – وقال « دعنى أكمل كلامى .. أفعل ما أقول لك وامنع ابن أب امرأة من العدوان على بدنى إمنع أنت وقاسم كل يد تطمع فى الأجر من الله لما ترضَّ عظام الحرامى » . قال رجب : « لا أفعل أكثر من الإمساك بك والصراخ : حرامى سرق جهازى ثم أحصل بعدها على جهازى !! » رد الإسكافى : « نعم .. هيا ولا تضيع الوقت ..

مخالى لو أراد شراء ألف جهاز لاشتراه .. أما أنت يا رجب فلا وألف لا » .

- ١٤ -

صرخ قاسم صرخة الحيوان المجروح : « لا تلمسوا جسمه » . وصرخ رجب : « لا تلمسوه .. أنا لا أعوز من الإسكافى غير جهازى » . وصرخ مخالى : « هاتوا العسكرى ليمسك حرامى بخمارة مخالى » . وصرخ الإسكافى : « تمهل يا مخالى ولا تناد العسكرى .. أنا سرقت جهاز رجب وأنت يا مخالى دفعت المال فى جهاز مسروق .. أنت شريكى فى التهمة يا مخالى .. لو جاء العسكرى سيجرنى من قفاى ويجرك من قفاك لأنك تشترى مسروقات .. يا ناس نادوا الحكومة لى ولمخالى والسيف الأسود يقطع رقبة الأبيض » . وتعالت أصوات رواد خمارة مخالى : « القانون قانون .. القانون لا يرحم .. القانون صريح .. القانون فوق كل الناس .. القانون سيف على رقبة الكل .. الحكومة بالقانون .. والقانون حكومة والحكومة قانون .. إرضخ يا مخالى .. إعطى الجهاز لرجب يا مخالى .. إقبل كلامنا يا مخالى ومالك عند الإسكافى آخذه من الإسكافى » . قال الإسكافى « اعطى رجب جهازه ومالك عندى » . قال مخالى « خذ جهازك يا رجب وهات فلوسى يا إسكافى » . رد الإسكافى « أنا مفلس يا مخالى والمفلس غلب الحكومة .. والحرامى يخاف الحكومة كذا شريك الحرامى يخاف من الحكومة .. اختش يا مخالى يا شريكى وابتعد عن شرى وشر حكومتى » . قال ناس الخمارة « ابتعد عن الشر غنِّ له يا مخالى » . قال « وخمرتى .. شربوا خمرتى ولم يدفعوا » . قال الإسكافى : « قدمت لنا خمرة مغشوشة خرمت معدتنا » . رد مخالى « أنت إسكافى لا موظف الصحة » . قال الإسكافى « جعلتنا نشرب لأننا لصوص نبيع ما نسرق » .

قال اليونانى « بينى وبينك ربنا .. بينى وبينك حد لا تدخل خمارتى » .

رد الإسكافى : « أحضر بمالى وأشرب بمالى » . رد مخالى « يا ناس .. الإسكافى يشرب وغيره يدفع » . رد الإسكافى « أنا أشرب وأصحابى يدفعون .. هم أصحابى يا مخالى .. انتظر يا مخالى .. لا تقلب الأمور .. أنا أشرب خمرة خرا ربت لىَ العفن فى معدتى وخرمتها وأصحابى يدفعون لك أنت ولا يدفعون لى » . قال مخالى : « وجهك نتن لا تدخل خمارتى .. لا يدخل الإسكافى خمارتى يا ناس » . صرخ الناس فى الإسكافى : « لا تدخل خمارة مخالى يا إسكافى .. لا تدخل .. هذا حق .. العدل حلو .. وهناك بالبلد ألف خمارة » .

ضربتك ضربة يا مخالى فضربتنى ضربتين ، غلبتنى يا ابن الكلب .

« إسكافى المودة »

- ١٥ -

جلس الإسكافى على حائط متهدم بنته الحكومة من سنين أيام الحرب مع إسرائيل - وكلم مخالى الغائب :

« دنيا بلا خمرة لا تسمى دنيا يا ابن الكافرة .. وأنا لا يطيب لى فى الدنيا عيش بغير خمر .. جاوبنى يا يونانى يا خوّان يا خواجا يا ذيل الكلب يا آكل لحم الخنزير ؟ .. نسيت السنوات يا مخالى .. لا وفاء فى بلادكم ولا لكم صاحب ولا عندكم صاحب .. سأمزق جلدك وأفرى بدنك وألوك عرضك وأقول مخالى لا ينام مع زوجته ، وزوجته تنام مع الغير من شبان بلادها .. لكن لا .. هذا كلام يهد حيل أولاد العرب ولا يحرك شعرة فى رأس الخواجات » .

يأس الإسكافى من الكلام مع مخالى الغائب فكلم نفسه الغائبة أيضاً :

« تنقشع الليالى والنهارات وتغور وأغور أنا بعد عمرى الشقى إلى حفرة مظلمة وتأكلنى الديدان ويسيل من فمى وأنفى وأذنى صديد وقيح ثم يحضر إسرافيل وميكائيل وبيد كل منهما مرزبّة ويشبعان الإسكافى ضرباً لأنه شرب الخمرة الحرام وفعل الإثم وخالف أمر ربه .

« هنا عاد الإسكافى الخائف من يوم الآخرة إلى دنياه فلم يجد غير أم البنات مبتورة الثديين تلك التى تنام من الغروب للضحى وأطفالها الذكور يموتون - فهاج قلبه الجسور وركل الهواء وسمع صراخ أم بناته فلم يهتم مادام الناس لا يسمعون صراخها وماداموا يرونه على الحائط المهدم وحده يدبر أمره بمفرده ، فلا صاحب للفقير مثله فى بلد مثل هذا . من أجل أصحابى فعلت ما فعلت ولم يسأل عنى أحد .. وهم هناك بخمارة مخالى وكأنى ما كنت يوماً بينهم .. وكأنهم ما عرفونى فى السوق والطريق والخمارة وفيا محباً لهم وللخمرة .. تلك طباع أولاد آدم بمصر فى زمن كزمننا يأكل فيه الأخ لحم أخيه ويبيع لحم بنته التى تحاكى القمرة لعجوز هالك لا ينط قناة . ملعون أبوك يا زمن وملعون أبوكم يا ناس وملعون كل صاحب يتخلى عن صاحبه فى يوم ضيق .. ماذا تريدون منى ؟ أقعد وسط بناتى وأحشر لحمى فى لحمهم وعلى نور لمبة جاز أعارك الفأر القارض وأفعص البرغوثة مصاصة الدم ؟ أم أقعد فى السوق تحت الشمس أنتف شعر إبطى وألم القمل من ثوبى بينما مخالى يتمخطر بمخارته وعلى رأسه ريشة !! » .

رقبتك فى يدى يا مخالى ، السيجارة سلعة والخمرة سلعة ، البقال بائع وأنت يا مخالى بائع ، ومن لا يبيع لمن يريد أن يشترى - حتى لو كان إسكافيًا - يدخل السجن ويدفع المال غرامة ، والحكومة صاحية ولها رجال فى كل مكان ، اسمعنى يا مخالى ولن يأخذنى أحد بلوم لما تخالف قانون حكومتنا المصرية .

« إسكافى المودة »

- ١٦ -

كشر الإسكافى وزام لما لقى زوج الميتة يخُص رجب : « عشت معى يومين يا قاسم .. كنا لا نفترق .. وأنت اليوم ببيت رجب .. أنت خسيس يا قاسم .. لم تسأل على يا واطى ؟ » . دافع قاسم عن حق الصديق المعاتب وأمسك بثوب المحب الغضبان وحلف : « أنا ورجب رحنا السوق وفتشنا كل ركن فلم نجدك .. أين كنت ؟ » . صرخ الإسكافى ونفض يد قاسم عن ثوبه : « كذت بجهنم .. إرفع يدك عن ثوبى .. أنت كذاب وضلالى » . حلف قاسم بالله والنبى والكعبة إنه صادق، وطلب من الإسكافى أن يقعد ، وسأله . « أين كنت ؟ » لم يقعد الإسكافى وسأل : « أين رجب ؟ » . قال قاسم « راح يصطاد لنأكل » . قال الإسكافى : « راح يسرق الطير من بيوت الحريم الغافلات » ، وقال الإسكافى : « لحم الطير المسروق حرام » . قال قاسم بحسرة « لن تقعد ولن تأكل معنا يا إسكافى! » . رد الإسكافى « سآكل .. لم لا آكل : ؟ .. ربنا سيحاسبنى على ذنوبى ولن يحاسبنى على ذنوب رجب » . قال قاسم : « ستقعد يا إسكافى .. أقعد يا صاحبى وقل لى أين كنت » . قال الإسكافى بقرف « كنت وحدى .. كنت مع نفسى .. قعدت على حائط أمام باب بيت أم بالوظة وكلمت نفسى ونبحت كالكلب » . شرد قاسم (الإسكافى ملك فى اللعب على الحريم .. قعد على الجدار أمام بيت أم بالوظة ورفع حسه حتى تصحى نائمة النهار ورقاصة الليل وتفتح الباب وتناديه : أدخل يا إسكافى) ، وقال قاسم للإسكافى : « الرقص ببطن عريانة وصرة مكشوفة حرام » . رد الإسكافى « الرقص حرام والكلام عن أم بالوظة فيه غمز ولمز حرام يا قاسم » . فسأله قاسم « ولكنك فى حياتك لم تخرج من السوق !؟ لِم قعدت على الحجر أمام بيت أم بالوظة !؟ .

قال الإسكافى ، يا قاسم اسكت .. حيلى مهدود والزنا حرام .. من زمان لم أجرب .. الشقيان مثلى متعته خروج البول السخن من قضيبه .. واليوم كلمت الحيطان وكلمت الهواء وكلمت نفسى وقلبت الكون .. كل يوم يمر على ابن آدم يعلمه حاجات .. الأرض ظلومة يا قاسم .. ظلمتنا وظلمت معنا البغل والحمار والكلب والطير .. حتى الطير فى الدنيا مقسوم يا قاسم .. طير مشرد فى السماء وطير على الأرض يمسك ويذبح .. وهكذا حالنا .. العالى فى العالى يرانا من شباكه دود الأرض فوق التراب - بالقرب من جامع عمرو- فى عراك مع الكلب والبغل والفأر والحمار والقطة والحصان والحشرة الضارة وحولنا القبور مفتوحة بشواهد .. وفى الأبيض كل الألوان يا قاسم .. والأسود والدنيا غالب ومغلوب .. الدنيا مشطورة يا قاسم .. الكبار مع الكبار والصغار مع الصغار فى لعبة الغالب والمغلوب .. والمال يشترى الأرض وذمم الأعيان وأبناء صهيون أغنى أغنياء الأرض . والغنى لما يعضّ يد صاحبه تقوم القيامة ويجن الغلبان فيهلوس ويرى مثلى اليهودى ويعرفه من وجهه ويكلمه ويعرف أن أيام السلامة سنين حرب .. فالحرب يا قاسم بعلامة ، وصاحب المال بغير دين وبغير وطن وإن تكلم بالدين وملك الأوطان بماله .. لو واجه بدنك صيف العام وصيف عام فات أو واجه بدنك الشتاء والشتاء - فاعلم يا قاسم أنك فى حرب ..

وفى زمن الحرب بنى شلتوت الحيطان أمام بيوت الناس ومات شلتوت ميتة البغل العجوز بينما الحيطان التى لم تعرف الحرب وعرفت بول الكلاب قائمة تشهد سنين السلام .. ومن مات أكله الدود ، ومن سيموت سيأكله الدود ، والفاعل الغلبان على الأرض فساء فى ريح أو بدن جائع يأكل حتى أولاده ، : قاطعه قاسم : «لم غاب رجب ؟ أخاف على رجب من الوقوع فى يد من لا يرحم» . قال الإسكافى : « نعم .. رجب تأخر .. وأنا لا أخاف على رجب فهو قرموط سمك لا يمسك فى الماء » . قال قاسم : « لو وقع رجب فى يد الحكومة سيحبس .. والحكومة قد تأتى إلى مكان رجب وتفتش فتمسكنا وترمينا فى السجن » .

قال الإسكافى : « أنا أكره السجن ولا أخاف السجن .. كنت أقول لك إن الجوعان يأكل أولاده.. وهذا حق .. فأنا فكرت اليوم فى بناتى وأم بناتى وقلت للإسكافى أنت سجان يا إسكافى .. أجلَست أم بناتك فى جحور الحيات وحكمت عليهن بالحرمان ، وخرجت لنور النهار والسوق ومن السوق هربت يا عاطل إلى خمارة مخالى وفى خمارة مخالى هربت من حالك . إلا أنك فى ختام كل يوم تقع فى عين الحفرة التى حفرها الغالب للمغلوب » .

- ١٧ -

قال قاسم « الحرام مُرّ » ، صرخ رجل « قم يا قاسم وتقيأ ما أكلته » . رد قاسم « لم أقصد أن أمزح » . وقال الإسكافى « البطة كبيرة للعمر » .

قال رجب : « لكن لحمها كثير وطيب » . رد الإسكافى : « هذا حق » ، وتذكر الإسكافى ما جرى له مع مخالى بخمارة مخالى وقال لصاحبيه « تعالوا نلعب لعبة » . قال قاسم « سيجه نرسمها على التراب وندقل الحجر .. لم يغلبنى فى حياتى مخلوق » . وقال رجب « عندى كوتشينة .. نلعب الورق » . قال الإسكافى « لا .. نلعب مع مخالى ونلعب على مخالى فى الخمارة ونشرب خمرة » . وسأله الصاحبان : « كيف ؟ » . قال الإسكافى « يذهب رجب لمخالى ويلبس ثوب الناصح ويقول : «حاذر يا مخالى .. رأيت اليوم الإسكافى مع مخبر .. الإسكافى صديق المخبرين يا مخالى .. سيحضر إلى الخمارة ويطلب الخمرة .. لو امتنعت عن البيع يا مخالى ستغرمك الحكومة المال وستدفعه ، وبعد ذلك يسوقك مخبر الحكومة إلى السجن محطم الضلوع » (ويقول مخالى : لا مال مع الإسكافى) (فيرد رجب : الحكومة تعطى المخبرين المال .. والمخبرين يعطون المال لأصحابهم.. وبعينى رأيت الإسكافى يقبض) . زعق قاسم « المخبر يضر الناس وصاحب المخبر يضر أصحابه .. وضرر الأشخاص حرام » . قال الإسكافى : « أسكت يا قاسم لنضر مخالى سنلعب لنضر المصران بخمرة فسدانة » . سأل رجب : « كيف يا إسكافى ؟ قل لى يا عارف ؟ » . قال الإسكافى : « مخالى يشكر رجب على نصيحته ويعزم عليه بخمرة فيشرب رجب الخمرة ، ويدخل الإسكافى وقاسم فيهب رجب كالملسوع ويرحب بالإسكافى وقاسم ويجلسهما على طاولته ويقسم بأغلظ الإيمان أن يشربا الخمرة ، يقول رجب : الضيف لا يدفع سأدفعَ أنا الحساب – ويتكلم رجب بصوت مرتفع فيهرول مخالى الخائف وهو يقول : الإسكافى ضيفى .. كلكم ضيوفى .. اشربوا على حسابى .. خمرتكم على حساب مخالى » .

الدنيا بنت الحيلة ، ومثلى إن لم يتحايل على المروق من خرم الإبرة مات ميتة الكلب الجربان .

« إسكافى المودة »

- ١٨ -

لما عمل رجب المخمور بتعاليم الإسكافى ، وقرفص وضغط على بطنه بركبتيه ولعب بإصبعه فى حلقه : قاء وجهر قاسم بالندم – وقال « عواقب الشر شر .. ليتنا ما فعلنا الباطل » . وربت الإسكافى على ظهر رجب وأمره بالرقاد فوق الخرق – وقال « أنت بخير يا رجب .. ستكون بخير » . وأنّ رجب : « مصاريني .. فى بطنى سكين » . وقال قاسم « ما فعلناه حرام .. لولا الحرام لما توجع رجب » . شخط الإسكافى فى قاسم : « أنا وأنت شربنا .. هل تشكو من وجع يا حمار ؟ .. هل تحس بسكين فى بطنك » . شخط قاسم فى الإسكافى « لو مات رجب سأكرهك لأنك قتلته بلعبة حرام » . صرخ رجب وهو يعانى : « لن أموت يا قاسم .. لماذا أموت ؟ .. أنا تعبان .. كل ما فى الأمر أنى تعبان .. الخمرة تتعبنى لأنى أحب الحشيش » . قال الإسكافى : « مخالى يونانى وليس من ديننا .. وأنت يا قاسم لا تميز رأسك من رجلك .. وعينك دومًا على الأرض » . دافع قاسم عن نفسه : «ملعون جد جد مخالى ألف مرة .. رجب صاحبى وأنا لا أريد له التعب .. وأنت تبتغى العراك يا إسكافى المودة .. وعينى دومًا على الأرض .. هذا أملى ومداى .. لماذا تعترض يا إسكافى الكلب؟.. أنت لا تحب الخير لصاحبك » . قال الإسكافى : « أنت سكران .. سكوتك أفضل .. أسكت يا حمار » . قال قاسم « لا تشتم .. أنا لا أسكر من بحر خمرة .. وأنت لا تبتغى لى الخير .. أنت تكرهنى لأنى فى يوم سأجد الغالى وأصبح فى خير وأبص عليك من فوق يا واطى » . قال الإسكافى: « لو وجدت أى شىء يا قاسم سأقطع يمينى .. أسكت يا سكران .. أنت تخرف .. أسكت أحسن لك » .

قال قاسم « اسكت أنت .. أنا لا أبد العراك معك » قال الإسكافى : « أخاف عليك من العربات الجارية .. انظر لقدام ولا تنظر لتحت حتى لا تدوسك العجلات وتعجن لحمك » صرخ قاسم : «حتى

لا أجد أى شىء .. لا تنصحنى .. تخاف أن أجد الغالى وأقعد فى العالى .. أنت لا تصلح رفيق طريق .. سلام عليكم يا رجب .. أراك بخير يا رجب .. نلتقى الصبح إن شاء ربنا ».

– ١٩ –

صداع الخمرة السوداء يفلق الرأس ، والإسكافى مفلوق الرأس ولا علاج لصداع الخمرة إلا النوم ، لكن الصاحب جامع الخرق فى ضيق يعانى من وجع البطن وبحاجة لعون ، وبعد زوبعة خلقها قاسم ورحل – لم يبق لرجب غير الإسكافى ، لو نام رجب سينام الإسكافى ويصبحان فى حال أفضل من الحال ، والمخمور عيل والعيال ينامون على سماع الحكايات ، إلا أن الإسكافى نسى ما حكته له أم أمه من حكايات فى السنين البعيدة ، والعيال لا يميزون بين كلام الحكايات وكلام الدنيا والإسكافى بحياته الطويلة قوّال .

رقد الإسكافى على كوم بجوار رجب – وقال :

لم تبصر عينى أسفل ولا أحط منك يا زعتر .. لا يغرنّك غناه يا رجب ، فهو نتن شحيح بطنه كلها قيح .. طلع من فوق لتحت على قفا امرأة تحب اللّم والضم .. امرأة مصت عافية رجلين وعندها من الأولاد ستة لكنها متعلمة عقلها يلعب ببلادين .. كلبة ممدودة اللسان حركت زعتر كما تحرك الخاتم فى بنصرها .. قال له : « .. لف على البيوت يا نشيط وهات لى صغار المدارس أعلمهم من علمى بالأجر ليسيروا فى سكة التعليم الطويلة » .. كيف غافلنا ابن النجسة وتزوج من تلك التى نناديها بعد مرور السنين بالست الناظرة !؟ فزواج المنافع مكّن زعتر من شراء الأرض بالملاليم ليكسب الجنيهات .. من مال غيره وجهد غيره أقام العمارتين بطوابق وسراديب وأزرار .. والأب صار يمسك بيد ولده التلميذ بمدارس الحكومة ويقوده ليتعلم بمدارس زعتر .. والمدرس بمدارس زعتر هو نفس المدرس بمدارس الحكومة .. المنفعة يا رجب تخلق الطمع والطمع يخرب البلاد لما يمشى فوق برها ألف وسخ مثل زعتر .. والمدرس الطماع يطلب المرتبين ليأخذ بيمينه من الحكومة وبشماله من زعتر .. وزعتر يدفع الملاليم لمن يمتحن التلميذ فينجح التلميذ الخيبان ويكسب زعتر الجنيهات والسمعة الحسنة ، ويقول آباء التلاميذ : « مدارس زعتر خير من مدارس الحكومة » .. أما صاحبى المتعلم الفاهم فقد صارحنى بأن النصاب ابن الهرمة لم يعلق لافتة المدارس على العمارتين لأنه لو علق لافتة سيكتب عليها : « تحفيظ القرآن » وبذلك ينكشف أمره .. العفريت دفع المال للحكومة وحصل على تصريح بتحفيظ القرآن واستأجر الفقيه العاطل عديم

الضمير ابن أنيسة : وفى أول كل شهر يروح ابن أنيسة ويقبض الحسنة من زعتر .. أما زعتر فيقبض آخر العام من مال أوقاف المسلمين المعونة المالية الكبيرة ومع ذلك لا يحس بشبع قط .. يحبس الماء عن المبانى ويمنع الماء عن أبناء الناس وكذا يمنعهم من دخول المراحيض .. ومن يومين رأيت التلاميذ يا رجب يشربون من مقهى عش البلبل وصاحب عش البلبل يطارد قبيحهم ويقرص فخذ مليحهم .. هذا هو زعتر يا رجب يأخذ ولا يدفع وأخاف أن نقوم من النوم ذات يوم فنجده ملك البلاد حتى نشرب أنا وأنت المرّ مرّين » .

وسمع الإسكافى دبيب أقدام فداخله شك أن الدبيب فى رأسه ففرك رأسه براحتيه وأغمض عينيه وفتحها ليجد ابن آدم من لحم ودم ينادى ساكن الخُصّ باسمه ، هنا هز الإسكافى صاحبه المتعب النائم بعنف الخائف المتشوق لجلاء كل غامض « قم يا رجب .. قم .. الرجل يناديك أنت لا أنا » .

حال بناتى المحبوسات أفضل من حالى ، أما أنا فلا أب ولا أم : غـزالة فى البـر .. شـاردة .. يطاردها دومـًا صياد.

« إسكافى المودة »

- ٢٠ -

قال رجب « المكان مكانك .. أهلاً بك يا فتح الله » - وغلبه النوم فنام .

هزه فتح الله - وقال له « سمك فى بحر » .

رد رجب « سمك فى نيل » - وغلبه النوم فنام .

هزه فتح الله « لوّنت البيض ؟ » - وقرصه فى جنبه حتى لا يعاود النوم .

رد رجب « لا تأكل السليمة .. لونه انت » .

قال فتح الله « واحدة مكسورة .. وواحدة فى الفرن .. وواحدة فى جيبى » .

قال رجب « سلامة لك - اسحب الشبكة » .

وغلب النوم رجب فنام . وبش فتح الله فى وجه الإسكافى ومد يده بالسلام .

وقال « أهلاً بك .. أنا صاحب لرجب » . مد الإسكافى يده وصافح فتح الله وقال : « .. وأنا صاحب لرجب أهلاً بك » . وسأل الإسكافى فتح الله « ولّى الخوف وبقى العجب يا صاحب رجب ؟ » فرقع فتح الله ضحكة وقال : « لا عليك يا رجل ولا خوف ولا عجب .. كلّمه بلغة أهل الحرفة » . قال الإسكافى : « أنا كنت فى يوم صاحب حرفة .. لكنى لم أفهم كلامك مع رجب » . سأله فتح الله: « هل عملت بالفن ؟ .. هل أنت فنان ؟ » . أجاب الإسكافى « لا .. كذا رجب لم يعمل بالفن!! » . ضحك فتح الله وخبط الإسكافى على فخذه « لم تفهم قصدى .. أنا ألعب باليدين وأزوغ بالقدمين .. أنا خطاف » .. وضحك الإسكافى وقال : « سراق ونهاب .. يا رجل نشفت الدم فى عـروقى .. ركبنى الخوف لما رأيتك .. فسر لى كلامك الملغز مع رجب » . قال فتح الله : « سألته الأمان - فقال الدار أمان ولا أحد معنا » قلت له هنا رجل - فقال لى صاحب بعين وصاحب بعيدين وقد فارقانى »

ولما قرصته أفاق ورآك - وقال إنك صاحب عزيز أمين على السر وأنك غزالة البر الشاردة .. أما الباقى من كلامى فسأفسره لك يا إسكافى لما آكل من عيشك وتأكل من عيشى .. معى حشيش .. ألفّ لك سيجارة مخلوطة ، . رد الإسكافى : « أنا أحب الخمرة .. هات سيجارة ولا تخلطها ولو كان معك خمرة سأشرب » . قال فتح الله : « أنا لا أشرب الخمرة ، الآدمى منا لو شرب الخمر يكثر كلامه ويخف عقله وتتعارض أفعاله وتهتز يديه » . رد الإسكافى : « أنت لم تجربها .. وما قلته لم يحدث لى » . قال فتح الله : « بينى وبينك .. أصابع اليد الواحدة غير متساوية والناس مختلفون فى الشكل والمزاج .. والخمرة محرمة بأمر الله وكلام النبى .. أما الحشيش فمكروه والمشايخ وأهل الطرق يشربونه .. والحشيش يجعل النور نورين والخوف خوفين . ومن هنا فالحشاش حريص على الدوام يرى موضع قدمه » . واشتبك الإسكافى المحب للجدال مع فتح الله فى نقاش - وقال إن الخمرة حرام لكنها لا تضر إلا شاربها أما اللص فيضر الغير لما يسرقهم . وأقسم فتح الله « فى حياتى لم أسرق من محتاج » . لعن الإسكافى عثرة اللسان واعتذر لفتح الله بكلام لطيف وجامله : « أنت رجل والرجال فى أيامنا قلة .. وأنا لم أقصدك بقولى .. ليس من طبعى الغمز واللمز .. كنت أقصد بكلامى صاحبنا الراقد .. رجب صاحبى وصاحبك ، لكنه يسرق طير الأرملة ويحفر حفرة ويدس الريش ويردم الحفرة بالتراب فيخفى فعلته المشينة ، ولما يسمع صراخ المحتاجة وندبها لا تدمع له عين » . وتقبل فتح الله عذر الإسكافى ووجد العذر لرجب . كما وجد الإسكافى الحل الشافى والإجابة الوافية :

رجب عاص لا مجرم .

والمحتاج معذور إن سرق ..

هناك لص كبير ولص صغير ..

وأكبر اللصوص هم حكام أى بلد فيها لصوص ..

وسرقة حياة الناس هى أكبر السرقات ..

وقال فتح الله إنه يشرب البيرة أحياناً ، فالبيرة تغسل البطن وتنظف المصارين وتدر البول وتفتت الحصوة فتسلم الكلية . وقال الإسكافى : « أنت تتكلم بالحكمة .. وصداقة رجل مثلك كنز لا يفنى .. والنا أحرار فيما يحبون وما يكرهون .. والعدل غائب إن احتاج الإنسان أشياء موفورة وعجز عن نيلها .. ومن سرق وهو محتاج لا حساب عليه .. أما السجون فمملوءة بالمظاليم .

- ٢١ -

فرط فتح الله دخان سيجارة وخلطها بالحشيش ولفها من جديد وأشعلها وقدمها للإسكافى المحب للخمرة – وقال : « جرب وميز وفاضل بين المتعتين وقل لى رأيك » ؟ . وقال : « سأبقى بينكم ثلاثة أيام وبعدها سأرحل » . قال الإسكافى « هكذا سريعاً .. سنشعر بالوحشة لغيابك .. الأيام الحلوة تمر بسرعة والأيام المرة تمر ثقيلة وبطيئة .. متى نراك ؟ » . قال فتح الله فى اليوم الرابع أعود وأبقى بينكم ثلاثة أيام ثم أرحل .. والباقى عند علام الغيوب » . قال الإسكافى – وقد دوخه المخدر وضاعف من إحساسه بضعف قواه « عجيب أمرك يا فتح الله .. فسرلى قولك ؟ » . قال فتح الله : « أغيب عن مكان الفعل ثلاثة أيام ثم أعود إليه وأفعل فعلتى بخفة وأتحرك بسرعة فأنتقل إلى مكان ثالث أتخلص فيه مما سرقت بالبيع ثم أعود إليكم بخُص رجب وأعيش معكم ثلاثة أيام وأعود إلى مكان الفعل بعدما يؤخذ بجريمتى نكرة سرق مرة وتاب عن السرقة .. ومن غنائمى يرتشى المخبر فينخرس لسانه ، وأعيش أنا أيامى فى بحبوحة حتى أفلس .. فأهتبل فرصة أخرى وأكرر الفعل .. وهكذا تسير أيامى » . قال الإسكافى وقبض بيمينه على جنبه يسكت الوجع : « ستتركنا يا فتح الله لتسرق . ولهذا أتيت إلى مكان رجب تبغى الأمان وبقيت معنا ثلاثة أيام لتورطنا فى حبك» . قال فتح الله : « لا خيار لى .. هذا نصيبى من الدنيا .. هذا نصيبى من الدنيا » . قال الإسكافى : « يا ابن آدم يا عجيب يا غريب ترمى روحك فى الخطر ثم تندب : لا خيار لى فيما أفعل» . قال فتح الله: « لو توقفت عن السرقة يا صاحبى فلن أجد المال لأقدمه رشوة للمخبر حتى أشترى سكوته فلا أقع فى المحظور وأساق إلى الحبس مع جماعة المشبوهين ليقرأ الضابط أفعالى القديمة من ملفى القديم فيحيلنى بعد ضربى بالسياط والنعال إلى القاضى الذى يقرأ ملفى القديم ويديننى بجرمى الأول القديم عن جرم جديد لم أرتكبه .. هل تريدنى يا إسكافى المودة لعبة فى يد الضابط والقاضى والمخبر ؟ » . قال الإسكافى « حاشا لله .. لكنك صاحب .. وأنا أخاف عليك من ضرر أكيد » . قال فتح الله : « من سرق مرة ووقع فى يد الحكومة فهو سارق .. ومن سرق ألف مرة ولم يقع فى يد الحكومة فهو شريف » . قال الإسكافى الواقع تحت تأثير المخدر – وقد تساوى عنده الوجع والعافية والشر والسلامة : « منك نتعلم يا فتح الله .. قل المزيد وارونى أنا العطشان .. قل لأعرف أكثر » . قال فتح الله : « ومن سرق مرة ووقع فى يد الحكومة واعترف بما فعل تحت بطش الحكومة عاش فى السجن مهاناً يخدم هذا وذاك وربما نام على بطنه وصار امرأة .. ولو فكّر فى التوبة طلباً للأمان فسيتحول إلى خرقة حين لا يجد المال ليدفعه للمخبرين وسيكفّر حتى الممات عن

جرائم الغير .. أبى أول من ظلمنى .. كنت أعرق وأبيع جهدى للظلّمة نظير مال قليل .. وكان أبى يأخذ منى المال وهكذا فعل مع أخى الكبير من قبلى فهرب وهربت أنا مقلداً أخى الكبير ، واحتميت به فسرق جهد يومى وظلمنى كما ظلمنى أبى ، فهربت من سلطة أخى وعشت حياة الصبية المتشردة ، وساق لى الله المعلم فعلمنى فن السرقة .. ومن يومها وأنا أسرق .. دخلت مرة ورأيت السارق الظالم العزيز ورأيت السارق المظلوم المهان .. من يقبل الظلم يعيش الظلم طول العمر .. ومن يرفض الظلم يفوز من الطريق بمتعة المغامرة وقد يحصل على لقب أفندى أو بك أو باشا أو وزير أو رأس بلد .. هل فهمتنى يا إسكافى ؟ » قال الإسكافى : « فهمتك .. ففى بلادنا المأمور وعبد المأمور وعبد عبد المأمور. إن عدت من غزوتك سالماً .. هات معك للإسكافى زجاجة خمرة » . قال فتح الله « لك منى زجاجة مسدودة العنق ملفوفة فى ورق » . قال الإسكافى « سأنتظرك .. لا تخلف الوعد .. ولا تكن كالغراب » . قال فتح الله : « تشبهنى بالغراب يا إسكافى !؟ » . قال الإسكافى : « لا .. ولكن للغراب مع الديك حكاية مشهورة » . قال فتح الله : « وما حكاية الديك مع الغراب ؟ » . قال الإسكافى : « فى الزمان البعيد كان الديك يطير وكان الغراب لا يطير ، ذهب الإثنان إلى حانة وشربا ، فلما فرغ الشراب طلب الغراب من الديك أن يعيره جناحيه ليحضر خمرة ، وطار الغراب بأجنحة الديك ولم يرجع حتى يومنا هذا . بينما الديك المغفل يصيح كلما رأى الضوء وينادى الغراب : هات الخمرة وهات جناحى لأطير ولا تعرضنى للذبح يا أسود الطير » قال فتح الله : « أنا لا أخلف الوعد .. لكن الطرق محفوفة بالخطر ومجدورة بالحفر .. تذكرنى بالخير يا إسكافى المودة واطلب لى السلامة » .

وعدتنى بالخمرة يا فتح الله . تعال وهات الخمرة تعال وخذ جناحيك ورد إلىّ جناحى لأطير . ولا علىّ إن خبت مرة – فمن يوم ولدتنى أمى وأنا أنفذ من معصية فأقع فى معصية .

« إسكافى المودة »

– ٧٢ –

ثلاثة أيام قضاها فتح الله بخُص رجب مع الإسكافى وقاسم ، وبمال فتح الله القليل أكل الأربعة الأكل الطيب ودخنوا السجائر الخالصة والسجائر المخلوطة بالحشيش وشربوا الشاى واستمعوا لغناء المغنيين والمغنيات من جهاز رجب لما اشتروا من مال فتح الله حجارة بطارية ، ولما فارقهم فتح الله على وعد باللقاء بعد يوم – ودّعوه آخر وداع وتمنوا له السلامة فى خطواته ، وبعد رحيله مدحوه ، وقالوا إن الغائب كان لطيف المعشر طيب الطبع حلو اللسان أمثاله فى أيامنا المظلمة ندرة ، وأقسموا إن فتح الله « الأخ الرابع والصاحب الرابع . وسره فى حفرة عمقها ميل ، وأقسموا إنهم لن يستخدموا علبة الثقاب المملوءة بأعواد الخشب ، ستظل كما هى ولن تمس إلا إذا حضر فتح الله سالماً من غزوته – فهل يعقل أن نفرط فى رمز تركه لنا الغائب ليذكرنا به – لمجرد أننا نريد أن نخر به أسناننا التى أكلها السوس عقب كل أكله ، ومدحوا موقع خُص رجب المعمول من عيدان الغاب المرمية على حائط سور مقابر اليهود المهجور ، وتذكروا حكاية عبد الناصر مع الباشا اليهودى بانى المقبرة فتناوبوا سرد فصولها :

فى عام ١٩٥٦ هاجمت دولة الإنجليز وفرنسا وإسرائيل مصر المحروسة أيام حكم عبد الناصر. وكان عبد الناصر قد خطب خطبة بميدان الإسكندرية أمم فيها قناة السويس .. وأثناء الحرب حاصر رجال عبد الناصر يهود مصر فى بيوتهم ومن خافوا من غدره رموه فى السجن .. وبعدما انتهت الحرب رحل يهود مصر من مصر ، وأمم عبد الناصر أملاكهم كما أمم أملاك الأجانب جملة .. وبالدبابة التى حاربت شق الجنود بطن الجبل وأقاموا الشارع الموصل للمطار وسماه عبد الناصر

«شارع صلاح سالم» . وصلاح سالم زميل عبد الناصر فى حياته العسكرية ، وقد مات . والغاية من الكلام : أن الدبابة قسمت مقابر اليهود قسمين – القبور فى ناحية والحديقة فى ناحية .. وبنى عبد الناصر مكان الحديقة الواسعة مدرستين ومساكن شعبية ومستشفى وملاعب للكرة .. ومرت الأيام وامتدت يد أهل عزبة أبو قرن ونهبت كل ثمين فى مقبرة الباشا ونزعوا الرخام وباعوه لأصحاب الدكاكين بالقروش ، وطفحوا البيرة كما طفحت المجارى وأحاطت بالمساكن الشعبية ونخرت حيطانها وأغرقت قبر الباشا وسائر مقابر اليهود التى تهدمت أحجارها .

كما تهدمت شرفات المساكن الشعبية لأن مقاول البناء لص لا ضمير له خلط الأسمنت بالتراب لا بالرمل ، بينما عبد الناصر انتقل من دار الباطل إلى دار الحق ، ولم يشهد معنا أيام السلام مع دولة اليهود ، وهذا ما أغضب منا دول العرب فخاصمتنا وسبّت حكومتنا فى الراديوهات .

وأحس الثلاثة بالذنب لأنهم لم يفيضوا فى تعداد محاسن رابعهم الغائب – فتذكروا أقواله وقلدوا أفعاله وظلوا ساهرين حتى قطع الأبيض بالسيف رقبة الأسود وأذن ديك الفجر للفجر ، فرأى كل منهم وجه صاحبه . وسمعوا دبيب أقدام الحرس المسلح الطواف على تراب الدروب يبتعد – وقالت لهم امرأة من قلب الصندوق المتكلم ، والآن تشدو مغنية الجبل : عائدون .. عائدون .. إننا لعائدون ..» .

كنا أربعة .. ولم نعد أربعة .. وفى الذى جرى قولان وجرم له دافع وجنون حاصد .. وفى الذى جرى أسوأ ختام .

« إسكافى المودة »

- ٢٣ -

عاد رابعهم سالماً موفقاً – والمال مسرة ومتعة . بر الوفى بوعده وجاء بزجاجة الخمر على شكل قربة من جلد أرنب البيت وبحجم قربة من جلد أرنب البيت ، بغير رأس ، مسدودة العنق بفلينة، ملفوفة الجسد فى ورق ناعم يشف عن ماء الحياة الجارى فى الجسم ، ورق له لما يلمس صوت الطير على الشجر يسبح بحمد شمس الشروق وشمس الغروب . وبيمينه – سلمت يمينه – صب غاسلة الهموم فى الأكواب ، وقال هو المحب للمخدر : « من أجل أخوة الرجال سأشرب كوبى ولن أثنّى » .. وقال رجب : « وأنا مثلك يا فتح الله .. والإسكافى وقاسم يعرفان ما فعلته العدوة بى فى المرتين » . وقال قاسم « قسمتنا الخمرة وليجمعنا الحشيش سلطان السلاطين » . وطرح الإسكافى أكل اللحمة المشوية حتى ينتصب العود المائل ويقوى على الشرب والتدخين . رحبت الجماعة بأكل اللحمة وحمدت الله على وجود المال محقق الرغبات . وغادرهم قاسم إلى شواء شهير لقبه سكان خرطة أبو السعود بالحلو الطيب ، فهو يدعك لحمته قبل شيها بخلطة من البصل والفلفل والثوم والملح ليكسبها الطعم الطيب والرائحة الطيبة . حط الإسكافى زجاجة الخمر على حجره ولاطفها بجميل الكلام « أنت أم لمن لا أم له ، وأخت لمن لا أخت له ، وأنت الأب والبنين والأهل وسنين النيل وعمر النخيل .. وأنت دم الطهر المرفوف المذبوح » .

وفرك فتح الله الدخان وخلطه بالحشيش ولف السجائر وكومها . والثلاثة ينظرون إلى المتعة الدانية ، بعيون الرغبة المقيدة بحضور رابعهم قاسم كريم العين .

- ٢٤ -

والصندوق المتكلم بفم الحجر المشحون بالكهرباء – سب بلسان عربى ، العروبة المتعطشة للدم المصرى والإسرائيلى ، والمطالبة بالحرب ، والتى تهاجم معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية التى

وقعها باسم الله ويحمد الله الثلاثة الكبار كارتر والسادات وبيجين فى كامب ديفيد . ووعد الرئيس شعب مصر الطيب بالرخاء ورفع العناء إذا ما حل السلام بين جيران اليوم وأعداء الأمس .

ورمى رؤساء العرب وملوك العرب وكبير فلسطين المحارية باتباع تعاليم موسكو الحمراء الحاقدة .. وأنهم رفعوا أيام الحرب سعر البترول ، وقذفهم بالعيب وطالبهم بالسير خلفه فى مسيرة السلام التى يقودها كارتر رئيس أمريكا وصاحب مشروع كارتر للتعمير والبناء بقروض أمريكية فى ظل سلام دائم وشامل وكامل فى الشرق الأوسط . وصفقت الجماهير للسادات وغنت مغنية للسلام والأمن والأمان ودولة العلم والإيمان والأسرة المصرية الواحدة بفقيرها وغنيها .. ولعنت الحقد والحاقدين دعاة هدم البيوت ونصحتهم بالحب معمر البيوت وطارح الخير والبركة فى ربوع مصر قلب العروبة وسيدة العالمين .. وصفقت الجماهير للمغنية ، وطالبهم المذيع المصرى بتحريك مؤشر الراديو والبحث عن الموجة الجديدة – ففعلوا . وخطب فيهم عبد الناصر رفيق الميتين – فركبهم رعب وأطبقوا بأكفهم على فمه وأجبروه على الهمس – فهمس : ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة .. وهنا فارق بين السلام والاستسلام . وصفقت الجماهير لعبد الناصر وهو بين الأموات !! وغنى المغنى ولا يهمك ياريس من الأمريكان ياريس خلفك أشجع رجال . وصفقت الجماهير للمغنى وهو بين الأموات !! . وقال المذيع إن بغداد هى صوت العروبة . وركبوا الموج وراح بهم الموج وجاء فى الأزمنة والأمكنة فسمعوا صوت دمشق وصوت السعودية وصوت الرصاص وركض الأقدام ودبيب أحذية الجند المسلح وصراخ النسوة ورنين أجراس الكنائس وآذان المؤذنين وشتائم الأخوة أبناء البلدان تأتى وتروح « يا أكلة الفول .. يأكلة الفول يا قوادون » . حمدوا الله رب العالمين أنهم طلقاء .

– ٢٥ –

ولما رأوا كريم العين يحمل اللفة حمدوا الله رب العالمين ثانية ، وتخاطفوا اللحم ونزعوا الورق والعظم عن اللحم وأكلوا بسم الله الرحمن الرحيم ، ودار الشراب فشرب اثنان ، ودارت السجائر فشرب الأربعة ، وبعينين مغلقتين رأى قاسم الثور يناطح الثور ويغرس قرنيه فى بطن ابن جنسه ويدور فى المكان ليعجن بحوافره عنزة وقطة ودجاجة ، ورأى أم ابنه صارخة والابن باكياً ممدود اليدين ، وسب قاسم الحشيش خالق الهلوسات همساً ، ولعن أكله اللحم التى لا ترد جوع العمر ووهن الجسد . وسمعهم يضحكون على نكتة – فقال قاسم « مليحة » وطالبهم بترديد فزورة قديمة لا يعرفها إلا سكان صعيد مصر تقول « ملزنا لز ملزكم يقدر ملزكم يلز ملزنا زى ما ملزنا لز ملزكم » .

على صوت المغنيات والمغنيين والخطباء والزعماء والطير والريح وأقدام المارة وأحذية الحرس المسلح وجدال الممثلين ودق الموسيقى – كانوا يشربون ويغنون ويلقون النكات ويبتعدون عن مواطن

الزلل والمعاصي التي يعاقب عليها الحكام رعاياهم . اتفقوا على أن نجاح أي مرشح في انتخابات مجلس الشعب الجديدة لن يغير من مصيرهم إلى أحسن كما أنه لن يهبط بهم من أسفل الدرك إلى درك أسفل ، كان ما يشغلهم هو - إلى من سيذهب القماش المكتوب عليه : انتخبوا السيارة أو الشمسية أو المفتاح - من سيأخذ قماش اللافتة المعلقة على خُص رجب - قال رجب : أنا أحق بالقفل والشمسية والمفتاح وكذا النخلة . ورد عليه الثلاثة : نعم أنت الأحق . وقال رجب : لو حاول أحد من سكان القبور سرقة اللافتة فسأقطع يده وعليكم معاونتي . قالوا له : مَنْ مِن سكان القبور يسرق أكفان الموتى . قال رجب : كل سكان المقابر يسرقون أكفان الموتى . قال قاسم : سرقة أكفان الموتى حرام ، وسأل قاسم وهل يسرقون أكفان النسوة ؟ رد رجب : هم يسرقون أكفان الذكور والنساء ويمتنعون عن سرقة أكفان الأطفال ، فهم يظنون أن من يسرق كفن الطفل لا يفارق القبر الضيق المظلم حتى يأتيه الموت بعد عذاب الجوع والعطش . قال قاسم : « هذا صحيح » .

قال رجب : « لا هذا الكلام باطل - ولكنهم يسرقون أكفان الكبار لكثرة القماش ويمتنعون عن سرقة أكفان الصغار لقلة حجم القماش .. وذات يوم خالفتهم وغافلتهم وسرقت كفن طفل رضيع وصنعت لنفسي مخدة أرفع عليها رأسي لما أنام » . قام قاسم وقال : « سأمضي إلى المقابر .. لقد سرقوا كفن زوجتي وأم ابن وهي في قبرها عارية وعلى أن أسترها » صرخوا فيه : أنت سكران .. أنت مسطول . وأمسكوا به فقاومهم وأفلت من قبضتهم وجرى فجروا خلفه وسدوا عليه الدروب القريبة الموصلة للمقابر ، فلجأ إلى شارع عمرو وهناك رمته العربة تحت أقدامهم كتلة من اللحم والدم فرفعوه ونادوا العربة التي حملته إلى المستشفى رقم (١) . وقال لهم الأطباء صغار السن : « سنفعل ما بمقدورنا لنوقف نزيف الدم ولكن مصابكم يحتاج إلى الدم الذي فقده وليس عندنا بالمستشفى الدم اللازم . قالوا : دمنا دمه .. قاسم منا . وقال أحد الأطباء صغار السن : دعوني أعاين دمكم فالدم صنوف .. فقد نعثر على فصيلة من دم أحدكم تفيد صاحبكم فحمد الثلاثة الله ومروا بالاختبار . وقال الأطباء صغار السن مشيئة الله فوق مشيئتكم ومشيئتنا فتوكلوا على الله وانقلوا مصابكم إلى مستشفى رقم (٢) .

بحثوا عن سائق خيِّر يقبل أن يحمل كتلة من اللحم والدم فعثروا عليه بعد وقت وجهد ، بينما قاسم مغلق الفم يكلمهم بعيونه التي خبا فيها النور : « لا أبغي ترك حياة أنتم فيها حتى لو عشت شقيًا» . وفي المستشفى رقم (٢) قابلوا الطبيب الذي قال لهم بعد ما رأى حال قاسم وعاين بدنه بآلات من عنده : « صاحبكم في مرحلة خطرة فمقدار الدم الذي نزفه بلغ اللتر ونصف اللتر وما عندنا من الدم لا يكفي .. سأحقنه بنصف لتر من الدم وعليكم إحضار لتر من الدم من المستشفى

رقم (٣) فإن لم تجدوا فعليكم شراء الدم من بنوك الدم » . ردوا : « المال معنا وتفاوضوا فيمن يذهب وفيمن يقعد مع المريض » . فنهرهم الطبيب : « لو مرت ساعتان على صاحبكم وهو فى حالته تلك فسيتوقف عمل الكليتين وبعد ذلك ينتهى كل شىء إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد أو فى يومه الرابع أو السابع » . قال الإسكافى للسائق « لا تقف لإشارة ولا تأبه لأوامر شرطة المرور فصاحبى فى خطر » . ورد السائق الطاعن فى السن على الإسكافى : قالوا فى الأمثال فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة « سلامتى وسلامتك على الأقل » راح الإسكافى يكلم نفسه بعدما يأس من سائق العربة – قال الإسكافى : « أنا محتال راغب فى العيش أحب الخمرة .. ورجب قرد مكشوف العورة .. وفتح الله خطاف بقلب شديد نال من الحياة أكثر ما نلنا .. أما أنت يا قاسم فشقى فقدت الولد والزوجة وعافية البدن ونور عين ونصيبك من الدنيا قليل فليمنحك الله عمراً طويلاً وليساعدنا فى توصيل السعادة إلى قلبك الحزين .. نحن الأربعة عصاة نخشى الحكومات وها نحن فى يوم البلاء هذا نخوض معركتنا مع الموت من أجل حياة رابعنا ، بقلوب لا تخاف الحكومات وتدخل بيوتها المسماة مستشفيات » .

وها هم الثلاثة يجلسون حول المحقق ويردون على سؤاله عن اسم قاسم بالكامل – فقالوا « لا نعرف » وعن سؤاله عن الزمن : « لا نعرف » لسنا من حملة الساعات ، وعن رقم العربة : « لا نعرف فنحن لا نقرأ » ، ولما سألهم عن المكان ردوا : « نعرف » هنا بخرطة أبو السعود بشارع عمرو بن العاص قرب الشجرة التى تظل الجالسين على مقهى السلام .. وبالتحديد بين الشجرة وعامود النور الحكومى رمت العربة قاسم كومة من اللحم والدم والعظم والظهر المقسوم .

وأتاهم الطبيب وقال لهم وللمحقق : مات . فسكت الثلاثة ثم تطلعوا إلى بعضهم وإلى وجه المحقق والطبيب . وبعدما وقّعوا على أوراق المحقق بأصابعهم غادروا المكان . فالمستشفى الحكومى إذا ما حل الموت بالحى قامت بواجبها نحوه أفضل ألف مرة من أحياء كالإسكافى ورجب وفتح الله .

الحقائق القديمة
صالحة لإثارة الدهشة

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

حين رأى – وقد أنهكه السير الطويل ، وكان يصعد من الأسفل إلى الأعلى (المطعم الفاخر بواجهات من زجاج ، والرجل السمين القصير وصاحبته التى تلبس بالطو من فرو الدب – يأكلان : عجلاً مشوياً وديكاً رومياً وطاووساً محشياً وحوتاً مقلياً بعد أن شربا من جيد الخمر تسع زجاجات .. وأمامهما تورتة الحلوى على شكل شاحنة وبحجم شاحنة) .

صرخ – هو الجائع الحافى العارى – صرخته الأخيرة وارتمى فى حضن أمه الأرض ليستريح – عليه سلام الله .

أما الشارع – فهو مفخرة المدينة : الأشجار التى تظلل جانبيه شذبتها يد فنان ملهم مشرق الطلعة ، تصدرت صورته غلاف مجلتين منتشرتين هذا العام ، كلمته عند الصفوة مسموعة يهتف بها فى أى وقت من أوقات اليوم فتطير الطيور المبرقشة مغتسلة بالعطر وتحط بالصالونات وحجرات النوم ، لقد صمم بنفسه الجهاز تحفة فريدة لنفسه – منه يتكلم ومنه يسمع : كانت يد الجهاز المرفوعة من العاج بكف مبسوطة مثقوبة وأصابع منفرجة .

(وذات يوم : لا هو بالبعيد ولا هو بالقريب) – عاد قاسم إلى السوق بعد غيبة بعين معصوبة بمنديل لما رفعها لقبه الأسافل بالأعور وناداه الأفاضل « يا كريم العين » .

هنا – بالعالم – عربات على شاكلة الأوز والبط والنعام والنمور والظباء ، لكنها لا تدرج على أرض الشارع فى هذا الوقت من الليل .

وهنا – بالعالم – الرجل المخمور العائد إلى بيته ماشياً على يديه وقدميه ، لما يصطدم بكومة اللحم – سيقف ، وينادى الدركى المكلف بحراسة المكان – ويخاطبه مخاطبة من لم يذق قطرة من خمر العرق الحارقة .

يقول المخمور الذى لم يعد مخموراً – للدركى :

« من أى قرية آتى ؟ ، من أى المدن جاء ؟ ، ده : من الأسلم لى ولمن هم مثلى – وضع السؤال هكذا : من أى قرية دس علينا ؟ .. أى مدن العالم تلك التى تدس لنا ؟ عجيبة والله : وهل

من جائع فى ربوع وادينا الخصيب !! .. هل من عراة فى بلادى وها أنت ترانى يا سيدى الدركى متنعلاً .. وها أنا أراك كذلك .. وكلنا متنعلون ، وسيد إقليمنا السعيد عادل .. وفى صحيفة اليوم صورة له : يحمل ميزان العدل بيمناه – سلمت يمناه – ويسراه – سلمت يسراه – يلوّح لنا نحن جموع شعبه الوفى الأبىّ الخالد : باسماً بقبضة من عيدان القمح والسمسم والقرطم الأبيض ، سأجعلك تراه يا سيدى الدركى ، لكن دعنى أفتش فى جيوبى الكثيرة عن صحيفة هذا اليوم ، أمهلنى من فضلك ، مهلاً أرجوك ما من شك أن صحيفة اليوم كانت معى ، وما من شك أن اليوم هو اليوم ، اللعنة على وعلى أمى التى أنجبت خائباً – لقد فقدت صحيفة هذا اليوم ، سيدى : عفواً – أحياناً ينسى الإنسان منا حاضرة الطيب فيرتد للماضى الكريه .. حين ذلك يشعر بالجوع مهلكاً فيأكل كما الجرادة ، لكن : أيأكل الإنسان الصحف !؟ ، عفواً سيدى : هل يتحول الإنسان إلى جرادة ؟ ، لقد كانت الأخبار السعيدة كلها هناك بالصحيفة يا سيدى ، آه : ما من خبر سعيد برأسى الآن .. ما من خبر سعيد ، يالى من تعس سئ الحظ – لقد كانت الأخبار السعيدة كثيرة بالصحيفة .. وجدى لأبى كان صادقًا وعلى حق لما قال لأبى – قبل أن يموت أبى : إنّى دون بقية إخوتى سئ الطالع ».

وأشار المخمور إلى كومة اللحم – وقال بغيظ :

« لقد أفقدنى هذا المأفون صوابى » .

ومضى يبكى مردداً :

« يا أللّه .. لقد نسيت كل الأخبار المفرحة .. بينما الآدمى – الآدمى الذى يظلله الغمام أحياناً – يتحول إلى جرادة !! » .

تجاهل الدركى المخمور ، وتقدم من الرجل كومة اللحم ونخسه مرة بكتف بندقيته ومرة بسن جزمته ونفضه مرات ومرات وحاول شده لفوق – بيديه المدربتين – فلم يفلح فى إقامته ، حين ذاك ارتد عقل الدركى إلى الحقائق القديمة – فسار نحو المخمور وأمسكه من كتفه وجره جراً وقال له :

« إفتح عينيك على اتساعهما يا ابن العفاريت ولا تحاول خداعى – وقل لى : ماذا ترى ؟ » .

« هذا حجر .. لكنه كبير .. ما هو إلا نتوء قبيح بشارعنا الجميل الجميل !؟ » .

هذا ما قاله المخمور للدركى .

قال الدركى للمخمور :

« فى قولك الأول إقلاق لى . وفى قولك الثانى إقلاق لى .. والأمر فى حقيقته جد مقلق – لكن هل تشك فى فطنتى وقدرتى – أنا الدركى – فى الوصول إلى الحل الأنسب ؟ » .

قال المخمور إنه لا يشك فى قدرات الدركى – أما هو فمصاب بحالة لا يمكنه أن يسميها ولا ذنب للدركى فيها : لذا فهو مطالب بمحض اختياره الحر لتبرير مقاصده النبيلة بالطريقة التى يراها الدركى .

قال الدركى :

« لا عليك .. إعطنى لسانك وسر فى طريقك سعيداً » .

وقال الدركى لنفسه :

« أما أنا – رب البيت المكون من بنتين وولد وزوجة – فغايتى الوقت أقضيه بمفردى مفكر فيما يجب على عمله أمام هذا الخطب الجلل الذى يخصنى وحدى : أنا الضمير الساهر الحارس لكل النيام .. أنا الدركى الحى اليقظ لكل أولئك الموتى وألاعيب أولئك الموتى » .

ولما كان المخمور مازال بالمكان – نهره الدركى فمضى لحال سبيله ، وفكر فى أن يغنى هو المخمور أغنية سعيدة – ففضل ، وتذكر أنه أسلم لسانه للدركى ، فعاد يفكر فى أغنية حزينة – ولما فشل تذكر أنه مخمور ، وكان قد قطع مشواراً قرّبه من داره – فتذكر أنه ترك لسانه للدركى ، وخاطب نفسه « غداً ألقاه وأسترد لسانى » .

« أية مصائب تلك التى لحقت بى أنا الدركى دون سائر البشر ، ماذا أفعل ؟ ، ياله من تدبير محكم من شيطان لعين ، آه : لأستعن برأى زميلى الدركى ، آه : ومن لى أنا الدركى – غير زميلى الدركى ، وهل لنا نحن رجال الدرك – بعد الزمن الذى أساء إلينا – غير إخوتنا رجال الدرك ؟ » .

– هذا ما قاله الدركى لنفسه .

ولما بلغ صاحبه الدركى – حكى له الأمر ، وتشاور الصاحبان ، وقد قر قرارهما على أن الأحجار بالطرقات تفارق اختصاصهما – وتصير إلى اختصاص رجال بلدية الإقليم .

هبطت السكينة بأجنحتها البيضاء على قلب الدركى ، وقال الحمد لله ولله الشكر ، وتمخط وبصق ، وأشعل لصاحبه الدركى سيجارة – ولنفسه سيجارة ، وأسند كتفه المكدودة على جذع شجرة تنفث رائحة طيبة : ومضى يطرد الدخان بفمه مرة .. وبمنخره الأيمن مرة .. وبمنخره الأيسر مرة .. ومرة بفمه ومنخريه .. ومرة بمنخريه دون فمه ، واستعاد ذكرى قديمة لحقيقة قديمة – سمعها من عمته العجوز : فكان لها الفضل فى أن يصير دركياً .

وحكى لصاحبه :

« يقولون إن الدركى رأى وهو فى تجواله رجلاً ، فما كان من الرجل الذى رأى أن الدركى رآه إلا أن ولّى فراراً ، هكذا لم يجد الدركى مفراً من الجرى خلفه ، كان الرجل ينزع أعضاء جسمه عضواً عضواً ويرمى بها على قارعة الطريق – حتى يكف الدركى عن ملاحقته ، وفى النهاية لم يجد الرجل مخرجاً – غير أن يستقيم على ساقيه ويتحول إلى شجرة » .

– وسأل الدركى صاحبه الدركى عما يراه فى تلك الرواية . فأجاب الدركى صاحبه الدركى :

« هناك أمور فى دنيانا – لو أعملنا فيها العقل العاجز عن إدراك حكمة الإله : لما نابنا غير الجنون ، يبقى أن – نحمد الله نعمة أنّا درك طواف .. ولسنا من هذا الصنف من البشر – المولع بالتحول إلى أشجار أو إلى أحجار !! » .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

بلغ المخمور داره ، فى وقت كانت الديكة فيه تهلل من فوق أسطح الدور للفجر الطالع ، بينما المؤذنون ينادون المسلم النائم « الصلاة خير من النوم الصلاة خير من النوم » .. ظل المخمور يطرق الباب طرقًا متواصلاً ، ولما لم يفتح الباب أحد ، قعد على الأرض وأهال التراب على رأسه ومضى يبكى ، وهو يندب الزمان واليوم وزوجة بغير ثديين تنام من الغروب للضحى وتنجب كل عام وأطفالها الذكور يموتون .

* * *

على جلبة جد عظيمة ، أفاق الدركى من كابوس ثقيل ، فحمد الله وشكر فضله ، وتطلع حوله ، ورأى النور يهزم الظلمة فخمن الوقت « بذا تكون نوبة ليلتى تلك الباردة قد انقضت – وعما قليل أصبح فى دارى حيث الدفء ففيها الزوجة والفرش والغطاء والحطب » ، وتذكر صانع الجلبة – فلعنه وسب له الأم والأب والجدود ، وتوجه نحوه – مهتدياً إليه بصوته ، يضرب الأرض بخطوات ثقال ، ويصيح بصوت تنخلع له القلوب والأكباد : من هناك ؟ ، ويرى الجرذان تفر هاربة إلى الشقوق – فيبتسم ، ويرى الذعر وقد أصاب الزواحف وسائر الهوام – فيبتسم ، ويتذكر صانع الجلبة – فيكشر .

* * *

لم يكن المخمور غراً : فللدركى خطو تميزه كل أذن – ناهيك بالصيحة ، كما أن الآدمى المسلم لا يروح الخمارة بمفرده – وإنما يروح إليها بصحبة شيطان كبير أو صغير : لكنه على أية

حال شيطان واسع الحيل قادر على هزيمة خمسة من رجال الدرك (وهكذا استعان المخمور – الذى لم يكن غراً – بشيطانه ، فتحول إلى خروف) .

* * *

وهكذا فرك الدركى عينيه بقبضتيه وطرد النوم ومسح تكشيرته – وقال : « يا بصرى أأنت اليوم حديد ؟ .. أهذا خروف لا صاحب له ؟ » وضرب جبهته بخاتم فى بنصره – وقال : « نعم وألف نعم : هذا خروف لا صاحب له .. والسارق الملعون من الحاكم والمحكومين فر بخوفه » .

هكذا انحنى الدركى ، وهكذا فك رباط جزمتيه ، وهكذا صنع من رباط جزمتيه مقوداً ربط به رقبة الخروف ، وهكذا خلع الدركى جوربه الصوفى وكمم فم الخروف .

* * *

بطول الطريق المعبد بالحجر الأسود الكبير كان الدركى مبتسماً ، يتلقى الهبات شاكراً ، ويسمع عبارات المديح والثناء – فيه أولاً وفى الخروف من بعده – فيهز رأسه ويرد التحية بأحسن منها : للطير والحيوان والبشر – وكافة مخلوقات الله على الأرض .

هللت زوجة الدركى فرحة بزوجها الدركى ، وشع وجهها بنور غامر أضاء المكان وجعل النهار نهارين – وهى تمرر راحتيها فى فرو الخروف الناعم ، ودربكت الفرحانة بقدميها فوق خلخالها الفضى ، حين ذاك اشتد حنينها للغناء فغنت :

« لو لم يكن زوجى دركيًا – لما كان بيتى غرفة وفسحة ، سريرى من عند الحاج كساب ودولابى بمرايا ، جرارى مملوءة بالزيت والدقيق والسمن والعسل ، مصباحنا له نور وهاج وشباكى بشيش وستارة مخرمة ، تنورنا دوماً والع وعندنا مشجب ، وها نحن اليوم نملك خروفاً بفرو وغرة بيضاء فوق الجبين » .

وترحمت زوجة الدركى على أمها بائعة الكرشة التى سعت لتزويجها من دركى فأفلحت ، وها هى زوجة الدركى : تعد الله بنذر مقداره طستين من الكسكسى وتوزعها على فقراء المسلمين بالحى والحى المجاور – ليرحم الله أمها ويدخلها جنات النعيم ، ورطلاً من دهن الخروف لو منحها الله الصبى أو الصبية لينمحى الكدر الذى تراه فى المرآة ظلاً أزرق يتماوج فوق صفحة الوجه المنير بالصحة والعافية .

ورفعت زوجة الدركى ذراعين بطراوة الزبد ولون الزبد حلتهما بالأساور ضارعة لرب جميل يعشق الجمال : « يا رب مر عام وتلاه عام ونصف عام ولم أنجب – وقلبى الضعيف لا يحتمل الضرة » ، وتمطقت : « يقولون إن الدنيا لا تكتمل لمخلوق » ، ودست فى فمها لبانة ، وصبت على الفول زيتًا ورشت الملح والتوابل وعصرت ليمونة ، وكسرت بصلتين ، ومن حلة النحاس الأبيض أخذت رأس فجل وحزمة جرجير ولفتة ، ومن التنور الوالع أخرجت الرغفان تنس وتبخر .

* * *

أكل الدركى طعامه كله ، ودس يده فى جيبه وأخرجها قابضة على لقمة كنافة ولقمة بسبوسة دسهما فى فمه ، بعد ذاك تجشأ ، وخبط بطنه ببطن كفه خبطتين ، وشرب سطلين من الماء وسطلين من اللبن الحامض ، وشرب كوباً من الشاي ، وقال لزوجته قبليني – فقبلته ، وكان راغبًا فى أحلام سعيدة فقام وصعد سريره ونام من فوره .

* * *

تروح زوجة الدركى وتجئ ، تقدم للخروف الماء فلا يشربه ، وتمدّ له البرسيم الأخضر الطازج بيديها المغسولتين بصابونة معطرة فلا يأكل ، هذا ما يجعلها تروح وتجئ ، كما أن شخير زوجها – وإن كانت قد اعتادت عليه – لا يريحها الآن .

* * *

هذا بينما المخمور لا يكف عن لوم نفسه « لماذا طلبت من شيطانى القادر أن يحولنى إلى خروف ؟ لماذ لم أطلب من شيطانى أن يحولنى إلى عصفور ، أو إلى أم قويق ؟!! ، كما أن تأثير الخمرة لابد وأن يزول فيفارقنى شيطانى !! ، أى – عما قليل سيفارقنى شيطانى فماذا أفعل ؟ ماذا أفعل يا الله ؟ » .

(وآه – ما إن ذكر اسم الله حتى فارقه شيطانه وهرب وهكذا بعد أن كان خروفًا فى مأزق سهل وجد نفسه آدمياً فى مأزق صعب) .

* * *

ظهْر زوجة الدركى للخروف ، لما أدارت نحوه الوجه وجدت مكان الخروف رجلاً . بعقل عاقلة تليق زوجة لدركى أدركت : أنها لو صرخت فسيتجمع الجيران ومنهم الحاقد والحاسد .. ويصحو الزوج .. وهذا الرجل غريب .. والفضيحة قد تؤدى إلى طلاق .. حين ذاك قد لا يشفع لها جسدها البض الطرى الأبيض .. « هذا رجل . وهى أنثى عاقلة تشتهى رفسة القدم فى بطنها » .

(هكذا فكرت بنت حواء ودبرت ونالت مبتغاها ، وفتحت باب البيت نصف فتحة وتطلعت يمنة ويسرة ، وفى الحين المناسب والوقت المحسوب دفعت بنت بائعة الكرشة بالرجل إلى الخارج ودست نفسها فى حضن بعلها النائم) .

* * *

لم يعد الرجل المخمور مخموراً ، وها هو يهرول فى الطرقات يلوى على أشياء وأشياء ، مكلماً نفسه المرتعشة خوفاً وغيظاً وعجباً : « أأنا هو أنا ؟ . لا ريب أننى أنا إسكافى المودة .. أنا الساكن بدرب الصفا : ما من رغبة بى اليوم للعمل بعد ما رأيت من أحداث وخطوب طوال البارحة واليوم.. مزاجى غير معتدل .. ولن يعتدل مزاجى إن لم أعاقب مبتورة الثديين تلك التى جرت علىَّ المصائب بعشقها للنوم .. من لى بزجاجة من عرق البلح الكاوى » .

* * *

بعد أن كال إسكافى المودة لزوجته اللكمات والصفعات والرفسات ، جرها من شعرها – وكان طويلاً أسود – فلمعت الفكرة فى رأسه كبرق فى ليلة مظلمة ، أمسك بمقص الجزم المثلوم وجز الشعر وصرّه فى منديل وخبط الباب لاعناً الجدود الأسافل لمبتورة الثديين .

* * *

باع الشعر لحلاق النساء وسبه فى سره لأنه لص وابن لص وهو يعرف أمه الخياطة وكان اسمها « نانا » ، وقد ماتت وهى يقيناً بالنار لأنها كانت تسرق القماش ومنها تعلم ابنها حلاق النساء السرقة .

بصق على الأرض بصقتين كبيرتين : واحدة على نانا وواحدة على ذلك النطع الذى لا يخجل من تسمية نفسه « ابن نانا » .

* * *

قصد الخمارة ووجدها مكتظة ، رغبة فى الحيطة وطلباً للأمان المفقود وبعد الذى شاف فى يومين متعاقبين – عقد لسانه ثلاث عقد ، وجلس يشرب .

شرب وشرب وشرب ونفسه مازال فى الشرب راغبة ، فشرب وشرب وشرب حتى رأى جاره حماراً ببردعة ورأى الساقى قطاراً بمدخنة يصفر ويمشى على قضبان .

* * *

« رغبت مثلك فى النوم .. وكان الباب مفتوحاً ولا يزال .. وها أنا أرى الحبل ولا أراه » – ذلك كان قول زوجة الدركى للدركى ، وذلك أيضاً قولها :

« يا ذنبى العظيم أنا التى رددت الباب » .

وبكت فسال دمعها الغالى وجرح خديها ، وأكملت :

« ثم إنى اليوم فرحة وها هو جسدى يرقص والجمرة تلسعنى ضع يدك هنا .. لا .. هنا أَلَم يرفسك بقدميه » – وهذا ما قالته أيضاً زوجة الدركى للدركى .

وهو من ذاك فى هم ومن هذا فى سرور ، ثم إن الخروف لابد قد عاد لأهله وربما عاد لنفس البيت الذى شافه أمامه بالأمس .

نخس الدركى المخمور « لماذا أنت هنا ؟ » . فك المخمور العقدة الأولى من لسانه ومضى يفك عقدة لسانه الثانية . إلا أن الدركى عاجله « وتدس الأفيون فى فمك أيضاً !! » . أجاب المخمور بعد أن فك عقدة لسانه الثالثة « لا والله .. هذا لسانى .. وتلك دارى » . قال الدركى لنفسه الشكاكة التى ورثها من الأزمنة « هو سارق الخروف عاد يحوم بمكان الجريمة – كما خبرتنا الحقيقة الخالدة بحق» ، وقال للمخمور : « أطرق الباب ودعنا نرى » .

علم المخمور أنه وقع فى شر أعمال مبتورة الثديين التى تنام من الغروب للضحى ، وطلب العون من شيطانه كى يلهمه حيلة – إلا أن شيطانه القادر تخلى عنه وهرب عندما تلفظ بكلمة الله فى قوله « لا والله .. هذا لسانى وتلك دارى » .

ما من حيلة إذن .. ما من مفر .. ما من مغيث .. والسجن مظلم ورطب تسمل فيه العيون وتخلع الأظافر وتفارق القلوب الصدور .. والقيد فى اليدين والقدمين والرقبة .. والخروف له فرو بنى وعلى جبهته غرة بيضاء .. ومبتورة الثديين طالق .. طالق بالثلاث .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

« خمارة مخالى اليوم مكتظة : كل الطاولات مشغولة ، أعرف الكل والكل يعرفنى : الكل هنا يعرف الكل – لهذا أفضل أنا خمارة مخالى » .

هكذا خاطب الإسكافى نفسه التى تجيش – الآن – بحب غامر لكل من بالمكان ، لقد قضى بالمخفر أسبوعاً ، مسح المكان بعينيه ونادى الجميع بصوت طروب :

« من منكم يرغب فى أن أشاركه اليوم طاولته ؟ آه ، لا ، ها هو العريجى الفار من خمارة مخالى يعود – أخيراً – إلى خمارة مخالى ، ها أنت ، ها أنا أراك أيها العريجى الجاحد » .

وبمشقة شق له طريقاً بين الطاولات والأرجل الممتدة – حتى بلغ صاحبه العريجى ، سلم عليه العريجى ، سلم عليه العريجى وهو قاعد : وهذا يحزنه قليلاً – إلا أنه جلس ، ورد على نكتة حلاق النساء الحارقة ببسمة ماسخة ، ومضى يكلم صاحبه العريجى الذى يلوح أنه أفرط فى الشرب:

« طيب أن نلتقى ، لكن أين كنت طوال هذه الفترة ؟ ، لا عليك ، ستخبرنى فيما بعد ، نعم ستخبرنى فنحن صديقان ، لقد افترقنا صديقين ، نعم ها أنا أتذكر : لقد افترقنا صديقين .

وطلب من مخالى كوباً فارغة ، وقال لمخالى ، لمّا جاء بالكوب الفارغة :

« طبق خيار مخلل يا مخالى ، لقد قضيت بالمخفر أسبوعاً يا مخالى ، آه لو لم يكن سجل أيامى أبيض يا مخالى لمضوا بى إلى السجن ، آه يا مخالى لو لم يكن الرجل رحيماً لكنت الآن بالسجن – أنا الإسكافى الطيب صاحب السجل النظيف يا مخالى » .

وصب لنفسه كوباً من زجاجة صاحبه العريجى وشربه دفعة واحدة ، ومضى يصب كوباً آخر – بينما العريجى ينظر له بعينين دهشتين احمرتا من الخمر ، ومخالى لايزال واقفاً ، قال لصاحبه العريجى :

« لقد اقترفنا صديقين ، لما افترقنا كنا صديقين ، لعلك تذكر فأنا مازلت متذكراً » ، وجرع كأسه دفعة واحدة ، ومسح بكم جلبابه الخمرة التى جرت من شدقيه على ذقنه ، وخاطب مخالى صاحبه العريجى :

« فيما بعد يا مخالى ، فيما بعد ، هات طبق خيار مخلل يا مخالى » ، « لقد كان أسبوعاً عجيباً يا صاحبى : كل يوم بليلة ونهار ، لكن الحمد لله : ها أنا هنا وها أنت يا صاحبى تعود بعد غيبة طويلة لخمارة مخالى ، ها أنت تعود لنا ، وها أنت تحاول التذكر ، اللعنة على الخمرة : هى التى تعوقك عن التذكر – ولكنك ستهزمها وتتذكر ، حاول يا صاحبى – وها أنا من جانبى أعاونك ، لكن دعني أصب لنفسى كأساً ، ها أنت تبتسم – لا شك أنك تذكرت صاحبك الإسكافى الملقب بإسكافى المودة » .

صرخ الآخر – بعد أن حاول القيام ولم يفلح فمد يداً للإسكافى – وقد تهلل وجهه :

« نعم أنت الإسكافى ، إسكافى المودة : أليس كذلك ؟ اللعنة على الخمرة – ولكنك عاونتنى ، آخ : يا له من صداع ، لقد تقيأت قبل مجيئك يا صاحبى ، نعم لقد تقيأت ، أخشى أن تكون الخمرة مغشوشة ، كن صادقاً معى يا صاحبى : هل يغش مخالى الخمرة ؟ » .

جاء مخالى بطبق الخيار المخلل ، وسمع كلام العريجى فقال إنه لا يغش الخمرة ، وقال إن كل الخمارات تغش الخمرة ماعدا خمارة مخالى . صدق الإسكافى على قول مخالى وردد : « الكل يغش الخمرة هذه الأيام – ماعدا مخالى » ، وطلب من مخالى طبق ترمس وطبق فول سودانى ، وصب لنفسه كأساً من زجاجة صاحبه العريجى ، وطلب من صاحبه العريجى أن يتكلم . قال العريجى بعد أن ذهب مخالى :

« كلهم يغشون الخمرة يا صاحبى ، معدتى تحترق ، آه ، دعنى أتذكر : « أنت إسكافى المودة ، الصداع يأكل رأسى ، وأنت يا صاحبى قضيت بالمخفر أسبوعاً ، لا شك أنهم ضربوك ، لا تجعلنى أرى جسمك يا صاحبى حتى لا أبكى ، آه ، لا تجعلنى أرى جسمك يا صاحبى ، لا تجعلنى أبكى يا صاحبى » .

قال الإسكافى :

« لم أكن بالسجن يا صاحبى ، كنت بالمخفر ، قضيت أسبوعاً كاملاً ، لكن أين كنت أنت ؟ لماذا غبت كل هذه الفترة عن خمارة مخالى ؟ لماذا غبت عنا ؟ » .

قاتل العريجى :

« فيما بعد ، سأقول لك فيما بعد فنجن صديقان ، لكن خبّرنى أنت : ما الذى صنعوه بك فى السجن ؟

رد الإسكافى :

« آه – لم أكن بالسجن ، كنت بالمخفر ، وكان الرجل رحيماً ، وكان سجلى نظيفاً أبيض ، ثم إن الأمر كله لم يكن كبيراً – لقد صنعت ضجة قليلة بشارع هادئ ، كنت سكران ، وه ؟ ألعن معى الخمرة : إنها سبب كل بلاء ، لم يكن الأمر كبيراً – فقط أقلقت بعض النيام فمضى بى الدركى للمخفر ، لكن أين كنت أنت يا صاحبى ؟ » .

قال العريجى لنفسه : « كلهم يفكرون ، لا أحد يقول الحق ، لقد ضربوه » ، وقال للإسكافى : «الخمرة مغشوشة ، رأسى تحترق والخمرة تأكل معدتى ، صدقنى لم أشرب الخمرة قط طوال الفترة

التي غبتها عنكم ، أنجبت زوجتي ولداً ذكراً ، وكل الذكور الذين تنجبهم زوجتي يموتون ، لي منها سبع بنات لا يمتن – لكن ذكورها يموتون ، جارتنا جارة الخير قالت لزوجتي إنها لو ربت كلباً صغيراً مع الولد فلن يموت الولد ، وها أنا يا صاحبي أعول سبع بنات لا يمتن وولداً وكلباً لكي لا يموت الولد ، لا شك أن همي زاد وأن مسئولية تربية سبع بنات وولد وكلب مهمة شاقة ، ولا شك أنك توافقني أن مسئولياتي كانت كبيرة – وهذا ما جعلني لا أحضر إلى خمارة مخالي ، ولما مات الكلب ظهر اليوم أتيت إلى خمارة مخالي ، هل أخاف على الولد يا صاحبي ؟ كن صادقاً معي يا صاحبي : « هل يموت الولد بعد أن مات الكلب ؟ » .

رد الإسكافي :

« لا يا صاحبي ، لن يموت الولد ، لن يموت : صدقني – لقد فدى الكلب الولد ، لقد كبر ابنك ولم يعد بحاجة للكلب فمات الكلب ، لقد كبر ابنك : أليس كذلك ؟ » .

قال العربجي :

« نعم : لقد كبر – عمره اليوم ثلاثة شهور ونصف » .

قال الإسكافي :

« ثلاثة شهور ونصف !! – نعم لقد صار كبيراً ، لا تخف يا صاحبي ، لقد صار ابنك كبيراً » .

زعق العربجي على مخالي طالباً لصاحبه الإسكافي نصف زجاجة خمرة ، وقال لصاحبه الإسكافي : أنت صديق حقيقي بعد الذي فات ، وقال له إنه سيوصله إلى بيته بعد أن يفرغ من شرب نصف زجاجة الخمرة ، وإنه سيشرب معه كوباً واحدة في صحة ابنه الذي لن يموت لأنه كبر، وبعد أن يوصل الإسكافي إلى بيته سيمضي هو فوراً إلى بيته ليرى ابنه ، وقال إنه حزين قليلاً لأن باعة البسبوسة كلهم ناموا الآن – وإلا لأخذ معه لقمة بسبوسة لأم ابنه .

صرخ العربجي :

« حماري – أين حماري ؟ لقد سرقوا حماري ، السفلة الكلاب » .

قعد العربجي على الأرض يبكي ويلطم خديه ، بينما كان الإسكافي يعصر ذهنه عصراً شديداً– ثم صرخ :

« قم يا صاحبي ، قم ، غداً سآتيك بحمارك ، غداً وهذا وعد حر ، غداً سيأتيك إسكافي المودة

بحمارك ، أنا أعرف كل سراق الحمير ، عيسى حرامى الحمير هو الذى سرق حمارك ، لقد كان عيسى النذل معنا بخمارة مخالى لكنه ذهب بالحمار ، سأعلمك يا عيسى أنا إسكافى المودة ما لم تعلمه لك الأيام ، غداً سأريك نجوم الظهر أيها الواطى وآخذ منك الحمار وأردّه لصاحبى ، يا لك من نذل يا عيسى – وهل يسرق صاحب إسكافى المودة !! » .

وخاطب صاحبه :

« قم يا صاحبى ، قم ، واحمد الله أن العربة نفسها لم تسرق » .

قام العربجى وخاطب صاحبه الإسكافى :

« الحمد لله أنه لم يسرق العربة ، ولكنك قلت إنك ستأتينى بحمارى ، لقد قلت لنفسى بمجرد أن شفتك إنك صديقى » .

قال إسكافى المودة :

« قلت لك إن عيسى يسرق الحمير فقط ولا يسرق العربات ، سآتيك بحمارك غداً من عيسى وسأعلم عيسى أن لحم إسكافى المودة لا يؤكل وكذا لحم أصدقاء إسكافى المودة ، لكن ما الذى سنصنعه الآن بالعربة ؟ ، قل لى : ما الذى سنصنعه بهذه العربة وقد سرق عيسى النذل الحمار ، لا، لا تقل لى أنت – ودعنى أفكر » .

قال العربجى :

« لو تركت العربة لسرقها عيسى » .

رد عليه الإسكافى ضجراً :

« قلت لك إن عيسى يسرق الحمير ولا يسرق العربات » .

قال العربجى :

« لكنى لو تركت العربة فسيسرقون العربة » .

قال الإسكافى :

« نعم – لو تركت العربة فسيسرقون العربة » .

قال العربجى :

« غداً يا صاحبى ستأتينى بالحمار من عيسى – أما أمر العربة فيجب أن نفكر فيه معاً .

رد الإسكافى :

« الحمار سآتيك به غداً من عيسى الجبان ، أما العربة – أى ، دعنى أفكر » .

رد العريجى :

« سأتركك تفكر يا صاحبى ، يجب أن تفكر من أجلى يا صاحبى ، منذ رأيتك قلت لنفسى : هذا صديق يعتمد عليه ، هل فكرت يا صديقى من أجل صديقك المسكين سائق عربة الكارو ؟ » .

قال الإسكافى مهللاً :

« نعم فكرت ، لقد فكرت من أجلك – ستجرّ أنت العربة بدلاً من الحمار وأركب أنا العربة ، ولما يصيبك التعب ستقول لى تعبت فأهبط أنا وأجر العربة وتركب أنت العربة ، وحين أتعب أنا من جر العربة سأقول لك تعبت فتهبط أنت من العربة لتجر العربة وأركب أنا العربة ، ستوصلنى إلى بيتى فنحن صديقان – ثم تعود إلى بيتك لترى ابنك الذى لن يموت » .

رد العريجى مهللاً :

« يا لها من فكرة ، يا لك من مفكر ، يا لى من محظوظ ، لقد كسبت اليوم صديقاً مفكراً سيأتينى غداً بحمارى الذى سرقه عيسى – بينما لن يموت ابنى كذا لن يسرق اللصوص عربتى » .

* * *

قال الإسكافى الراكب فوق العربة لصديقه الذى يجر العربة :

« سنقطع الشارع المستقيم هذا حتى نهايته ونعرج يميناً ونمضى حتى نهاية الشارع الآخر ثم نعرج يساراً وندخل درباً – بعد منتصف هذا الدرب واسمه الصفا بيتى يا صاحبى ، إنه درب ضيق وموحل ، وهذا ما يجعلنى فى قرف من الدرب وسكان الدرب يا صاحبى ، لهذا أتردد يومياً على خمارة مخالى ، كل سكان درب الصفا قذرون وسرّاقون وشتامون وجهلة أيضاً : يرمون بكل ما هو قذر وما هم فى غنى عنه من حاجاتهم القذرة للدرب حتى حولوه إلى مزبلة – وقد تكون المزبلة أفضل من دربهم الذى يسمونه بالصفا ، سأترك هذا الدرب إلى درب المودة فى القريب العاجل – لهذا سميت نفسى بإسكافى المودة ، سأنتقل بمشيئة الله إلى درب المودة حين تأتى الفرصة ولن أندم وستزورنى أنت هناك فنحن صديقان ، النهار هنا بدرب الصفا جحيم لا تطيقه الشياطين فما بالك بى ، بالنهار ترى الأطفال يسدون الدرب ، ولا عمل للرجال هنا إلا العمل والأكل والنوم مع النسوة وإنجاب الأطفال ، لا شك أنهم يوماً سيسدون الدرب – لكنى لن أكون هنا ، أفّ .. لا تدعنى أتكلم عنهم يا صاحبى فأنا منهم ومن دربهم فى قرف شديد : كلاب وذباب وأكوام سباخ ووحول وأطفال عفاريت ونساء شتامات ورجال يسرقون كل شىء وأى شىء حتى الكحل من عيون الحريم » .

سأله العربجي الذي يجر العربة ويلهث :

ما من شك أن عيسى الذي سرق حماري منهم ؟

أجابه الإسكافي :

« لا - عيسى لا يسكن هنا ، عيسى يسكن بدرب المودة لكنني قادر على شكمه فإسكافي المودة لا يؤكل لحمة كتفه ، لا عليك - سأكلمك يا صاحبي عن رجال البلدية .. فها أنت ترى الحفر والنقر بهذا الشارع المحترم ، رجال البلدية هؤلاء لا ضمير لهم ولا خلق عندهم مع أنهم يحصلون من الحكومة على رواتب ، أنا في عجب من أمر الحكومة تلك التي تمنح رجال البلدية رواتب محترمة .. دعنا يا صديقي من سيرتهم فالقلب ملئ ، انعطف يميناً يا صاحبي ، انعطف يميناً وادعُ معي أن يحرق الله عمال البلدية » .

توقف العربجي ليستريح ، وطلب من الله أن يحرق عمال البلدية ، وما لبث أن سحب العربة بصاحبه الإسكافي - الذي كان يغني أغنية قديمة تثير الشجن : عن ريح ، يقال إنها هبت في زمان قديم - ويقال إنها ستهب في زمان مقبل .

وفجأة توقف الإسكافي عن الغناء ولما استفسر منه صاحبه العربجي عن السبب - قال له الإسكافي : « لا عليك دعني أفكر » ، وفكر الإسكافي في الخمر التي زينت له الدنيا فجعلته يغني ناسياً أن للصوت بالليل رنيناً يجلب رجال الدرك : وهذا ما تفعله الخمر الملعونة بصاحبها - ومن قال إن الخمر أسُّ البلاء فقد صدق والحيطة واجبة والحذر مطلوب والناس نيام والإسكافي لا يعيش في الدنيا بمفرده - فهناك خمارة مخالي والشوارع والبيوت والحارات والدروب والعمارات والعربات وأعمدة النور ورجال الدرك والسجون والمخافر والليل والنهار والأنهار وعيسى ورجال البلدية .. أما الفلاحون فهم هناك بعيداً في القرى : وهذا من حمد الله - وإلا لصار العالم جحيماً لا يحتمل ، وإمعاناً في الحيطة والحذر الواجبين قال لصاحبه العربجي : « قف » ، وهبط وقال لصاحبه : « أخرج لسانك . لا تخف ، سأعقده لك يا صاحبي ثلاث عقد حتى لا تتعرض لمكروه تعرضت أنا له وكلفني أسبوعاً بالمخفر » .

صرخ العربجي فزعاً :

« أعقد لسانك أنت أولاً ثلاث عقد حتى لا تتعرض لما تعرضت له قديماً » .

رد عليه الإسكافيَ : لا تدعنا نشتجر فنحن صديقان ، وعلى أية حال هاك لساني أنا فأعقده ، يا لك من أحمق ظننت بصاحبك الظن السيء بينما العالم يدبّر لي ولك » .

ومد الإسكافى لسانه بعد أن نبّه صاحبه العربجى :

« ثلاث عقد ، آه .. ثلاث عقد – واجعلها متينة ، إجعلها متينة يا صاحبى » .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة :

ما من مخلوق قصد اليوم إسكافى المودة ، والسوق توشك أن تنفض ، إذن ليخاطب إسكافى المودة ذلك المخلوق الذى لم يحضر فقد يحضر .

« دعنى أرجوك .. ستأخذ مركوباً جديداً .. مركوبك هذا القديم ستأخذ بدلاً منه مركوباً جديداً .. لا تسألنى كيف ؟ . إسكافى المودة يتقن عمله يا سيد .. دعنى من فضلك » ...

* * *

زعق الخياط : « لن أدفع مليماً يا بلبل .. ترزى الخفة لا عبيط ولا أهبل .. أنا لا أطفحها قهوة بالجاز وأدفع .

صرخ بلبل صبى مقهى عش البلبل :

« ستدفع .. أنا خاسر دينى إن لم تدفع » .

* * *

هب إسكافى المودة وحشر نفسه بين الخصمين حكماً ، وصرخ لاعناً الشيطان الذى يفسد ما بين الأخوين ، ورشف من فنجان القهوة الذى يقال إنه بالجاز رشفتين ، وقال لبلبل صبى مقهى عش البلبل :

« إذهب لحال سبيلك يا بلبل .. سأدفع أنا ثمن القهوة . إخزِ الشيطان يا بلبل » .

وقال لخياط الخفة :

« هل يرضيك أن يلتم حولنا الخبيث والطيب ؟ هل يرضيك أن نصير فرجة لكل من بالسوق!؟
« قهوتك على حسابى .. سأدفع أنا يا رجل » .

* * *

وهذا ما قاله إسكافى المودة لصاحب مقهى عش البلبل :

« لولاى .. لولا أنا – لو لم أكن موجوداً ، وهذا من حمد الله .. لسال الدم كما يسيل الماء . بالقهوة جاز .. نعم بالقهوة جاز يا رجل .. من أجلك أنت شربت أنا القهوة بالجاز . وها بطنى

منتفخة .. لماذا أشرب أنا القهوة بالجاز !؟ . من أجل عينيك – والله وحتى لا يسيل الدم كما يسيل الماء .. وبلبل هذا أمام الحكومة مجرد صبى بمقهى عش البلبل .. أنت وحدك المسئول أمام الحكومة عن الدم الذى كان سيجرى يا معلم .. ولولاى لتجمع السوق الفضولى يبغى جنازة يشبع فيها لطماً .. وأنا أعلم الناس بما تحمل ألسنة الناس من سمّ ولولاى لجرى عبيد وقال لزيد :

« عش البلبل تسقينا القهوة بالجاز ، خبرنى بالله: أية خسارة كنت ستخسرها أنت لو لم أكن أنا؟ والحكومة كما تعلم هى الحكومة وبطنى كما ترى منتفخة !؟ » .

وهذا ما قاله إسكافى المودة لترزى الخفة :

« يا رجل لقد خدعك طعم البن المحروق فظننت أن بالبن جازاً .. ولولاى لسال الدم كما يسيل الماء فى النهر ، والحكومة كانت ستأتى ونصبح أمام جمع السوق عبرة .. وأنت كنت ستكون سبباً فى خراب بيت الرجل الذى ما أساء إليك – الرجل الذى يصلح دواء للجروح .. فيما قلت يا رجل ما يجعل بضاعة الرجل تبور ولولاى لالتمّت الناس وللحكومة عيون ترانا لمّا نخطئ .. سأمضى للرجل وأطيب خاطره » .

وهكذا عاد إسكافى المودة لصاحب مقهى عش البلبل الذى قابله مرحباً وطلب له فنجان قهوة يمنية بغير سكر ، وقال المعلم :

أنا لا أنكر أفضال الرجال الخيرين الكرام الساعين بين الناس بالمعروف » .

ورد إسكافى المودة :

« لا عليك .. كلنا لبعض .. لولاى لعاب صبيك بلبل فى الرجل والرجل طيب وما أساء لأحد وهو كما تعلم يصلح للجرح مرهماً .. طيب خاطره من أجلى إن لم يكن من أجل نفسك .. سنجتمع ثلاثتنا بخمارة مخالى الليلة .. وهل غير الخمر تمحو السواد الذى علق بالنفوس .. إن لم توجه إليه الدعوة أنت لدعوته أنا .. وها أنا أيضاً أدعوك .. دعنى أدعو الرجل يا رجل .. دعنى » .

* * *

قال ترزى الخفة لإسكافى المودة :

« لقد أهنت صبيه .. نعم .. وكنت سأخرب بيت الرجل بينما هو يصالحنى ويدعونى للشراب بخمارة صاحبها يونانى .. والله إنه لرجل كريم على خلق فى زمان كلب ، أما أنت .. آه .. كيف

أصفك !؟ لولاك لجرى الدم كما يجرى الماء ولصرت أنا فرجة لكل من بالسوق ولأنت الحكومة فللحكومة أذن تسمع وعيون تشوف وتفتش عنا حين نخطئ ولها يد باطشة لمّا تعاقب .. سأذهب بنفسى للرجل وأدعوه ليشرب على حسابى .. وها أنا بدورى أدعوك أنت يا أيها الإسكافى الطاهر الخطوة » .

وقال له الإسكافى :

« لا عليك .. كلنا واحد يا رجل .. لا فرق يا رجل .. سنغلق دكانتك ونمضى معًا إليه ونصحبه إلى خمارة مخالى .. ولتعدنى يا أخى كما وعدنى هو أن لا نتحدث فى الأمر الذى حدث .. نعم فحين تصفو النفس بعد الذى حدث نكدرها نحن بالكلام عن الذى حدث .. بحق عام أكبرك أنا به لا تحدثه فى الذى حدث حتى لا تحرك ضغينة رقدت » .

* * *

شد الخياط على يد المعلم بيديه الإثنتين ، وكذا فعل المعلم . ومنع الخجل العيون من أن تلتقى ، فالمعلم خجلان من الخياط والخياط خجلان من المعلم ، شخط المعلم فى بلبل لينادى تاكس . وقال الخياط : « نعم نركب تاكس » . وقال الإسكافى لنفسه : نعم تاكس : هكذا تدنو المسافات التى تباعد بيننا وبين خمارة مخالي . وأصر المعلم على أن يركب الخياط قبل المعلم وأصر الخياط أيضاً أن يركب المعلم قبله . وقال الإسكافى لنفسه وهو يدفس نفسه فى التاكسى : أف منها تلك المجاملات التى تباعد بيننا وبين الخمرة – إلا أن التاكسى قاطع المسافات سيقلل من كمّ الكلام بين الرجلين وهذا طيب .. وأنا لابد وأن أظل قائمًا بين الاثنين حتى يبقى الخيط قائماً .. كما أن الحيلة بنت الدنيا علمتنا أن لكل مقام مقال » ، بش فى وجهيهما وقال :

« لماذا كان البطيخ ثمرة صيفية ؟ .. يا الله .. أنظر يابن آدم : ها هو الفلاح يدفن البذور فى بطن الأرض وهو لا يكاد يميز بين البذرة والبذرة .. وها نحن نرى العجب : فهذه بطيخة مستديرة وتلك بيضاوية .. نمس وشليان وبلاك وبلدى .. ما من مخلوق قادر على اكتشاف السر العظيم : لو راهن الآدمى منا على البطيخة وقال حمراء لخسر وربما كسب .. نعم إن لم تشق البطيخة إلى نصفين لما عرفت إن كانت حمراء أم بيضاء أم بين بين وقد تكون متليفة .. كما أن البشر معادن .. هكذا نحن .. نعم منا الذهب والفضة وفينا النحاس والصفيح أيضاً .. إن لم تخبر الرجل فلن تعرفه .. لقد خلق الله العالم فى أسبوع واستراح .. أما الآدمى منا فلن يستريح قط .. لنمش فى الدنيا ولننظر ونتعجب .. ونشق إن كنا من الأشقياء ونسعد إن كنّا من السعداء .. المال زينة الدنيا وكذا البنون

والصحة أيضاً !! لكن يوم خلق الله العالم لم يكن هناك أطباء ولما خلق الله الأمراض خلق الأطباء!!.. أيهما الأول : الأمراض أم الأطباء ؟ لا لأحد يعلم حتى يومنا هذا .. يا له من عالم غريب عجيب كله سر .. هنا خمارة مخالى .. قف يا أسطى .. قف » .

* * *

إختار الإسكافى أقرب طاولة لباب الخمارة – حتى يراه كل داخل للخمارة ويمر به كل خارج من الخمارة .. الكل هنا يعرفه وهو يعرف الكل .. ومن كم التحايا سيكبر شأنه فى نظر الرجلين ، وزعق فى مخالى – وضايقه إن جاء مخالى ابن الكلب بطيئاً :

« هنا ضيفى يا مخالى وذاك ضيفى يا مخالى ، وكلاهما له فى دنيا الرجال الصيت والسمعة .. هيلا هالله يا مخالى .. زجاجة كاملة من جيد الخمر يا مخالى وأكثر من أطباق الخيار المخلل والترمس والفول السودانى والحمص والفول النابت يا مخالى » .

وقال :

« وجردل ثلج يا مخالى » .

ونظر إلى ضيفه :

« وصودا ؟ » .

وزعق :

« وصودا يا مخالى » .

* * *

كما يفعل السادة – رفعوا أياديهم لفوق ممسكة بالأكواب مملوءة للحواف . وتنادوا : فى صحتنا نحن خيار الناس وأنقى المعادن وأفضل الرجال » . وقرعوا الأكواب فرنّ الزجاج وسالت الخمرة الصفراء صفراء . وجرعوا الأكواب تلو الأكواب . وقال الإسكافى نكتة فاحشة روى بعدها الخياط نادرة فاحشة وضحك المعلم ضحكة فاحشة ورمى قلبه ريالين من فضة نقية على بلاط المكان . وتحدثوا عن دنيا السوق :

« آه .. آخ .. آى .. ما الذى أفسد دنيا السوق .. كأننا نسعى بخطوات سريعة نحو الآخرة .. الغلاء الأزرق بيننا يحجل والغلاء الأسود فى وجهنا ينبح والغلاء الأبيض كاره يمسك المنجل بيد –

بينما الأخلاق تسوء والشجار يوميّ والعربات تأتى للسوق تجرّها البغال الغبية لتأخذ الخضار والفاكهة.. البوابون سادة بملابس بيضاء والقوادون يتاجرون فى بنات الناس أمام عيون الكل .. وفى الغرف المفروشة أولاد عرب مثلنا لكنهم سعداء يتكلمون الكويتية والليبية والسعودية ويلتهمون اللحوم مشوية ومقلية وطازجة من عجيزة غلام ويطيبون رائحة أفواههم بشراب الويسكى والنقل المقشرة وينامون حتى مع عجائز الغسالات .. يارب لماذا بنت بائعة الكرشة تصبغ شفتيها بالأحمر- وهى لم تبلغ بعد عامها الرابع عشر !؟ وبنت الفران تلبس الثوب القصير بورد والحذاء بكعب عالٍ بتجويفه جرس !؟ وبنت بائعة الفجل من شارب الكُحلّ تلون جفنيها بالأخضر تارة وبالأحمر تارة وبالأزرق تارة أخرى وبيدها شنطة بها كل الألوان – بينما كانت بالأمس حافية القدمين ممزقة الثوب !؟ » .

صرخ إسكافى المودة :

« دعونا .. نشرب .. نحن فى آخر الزمان » .

وزعق خياط الخفة :

« آه .. لنشرب .. إنه آخر الزمان » .

وبصق المعلم بصفة كبيرة :

« لنشرب .. ولنطلب الستر لبناتنا ولنسب آخر الزمان حتى يرحمنا الله » .

* * *

سمسار الشقق دخل باسماً ورد التحية دون أن يعزموا عليه بالجلوس جلس ومال على أذن إسكافى المودة وهمس : « كن نصيرى ولك فى الخير نصيب » ، وقال السمسار للمعلم :

« العمارة المواجهة لمقهاك .. العمارة الصفراء ذات البلكون والأدوار الأربعة .. صاحبها حاج يبغى بيعها .. له – وهكذا أراد الله – ثلاث شقيقات متزوجات : هن شركاء للحاج والحاج يريد أن يستريح منهن ومن أزواجهن .. وأنت يا صاحب عش البلبل تملك المال والعقار كما تعلم له فى وقتنا هذا ربح مضمون : مال لا يؤمم وشقق مفروشة تتم برضا المالك والمستأجر تحت عين القانون الذى يعجز عن أن يمد يده .. لا تسألنى كيف والعمارة مسكونة .. أقول لك اشترِ العمارة أولاً واجعل من إسكافى المودة بواباً لها : يقطع الماء عن السكان لمدة يوم ويعيده لمدة يوم ويسأل الداخل والخارج من أين وإلى أين ؟ .. وتدفع أنت يا معلم خلواً لأحد سكان العمـارة وتسكن فى الشقة بدلاً منه ..

لا تسألني بعد كيف يغادر من يسكن مسكناً مسكنه .. إلى الشارع .. لا .. هذا الفعل لا نفعله نحن ، فنحن لسنا من هؤلاء الذين يهب دوماً خلفهم غبار .. في البداية تحاسب السكان كما يفعل الملاك إسرافيل .. ثم تتوجع في مجالسك مع صحبتك من أولاد السكان الملاعين . فهم دوماً يدبّون فوق رأسك ويقلقون الأرض تحت أقدام العمارة .. وصبية مقهاك لهم كثرة من الصحاب لو دفعت لهم مالاً وعرفتهم بوجوه السكان سيقذفونهم بالطوب ويعرقلون نسوتهم ويخيفون أطفالهم .. بعد شهر أو شهرين فرشاً عادياً ونؤجرها للتلاميذ ، ولما يأتي الصيف نؤجرها لإخوة لنا عرب عندهم مال .. لا تسألني كيف نطرد التلاميذ ؟ .. سنترك لهم الحبل على الغارب في البداية .. فإذا بالسكان الثلاثة يصبحون عشرة لكل منهم صاحبة بشعر قصير ويتطلون ضيق .. وهم كالنحل طنانون يحشرون أنوفهم في كل أمر .. وهذا يجعل الحكومة تعاديهم .. وهم كما تقول عنهم الجرائد يشعلون النار غايتهم الفوضى .. وما علينا إلا أن نقول فيهم نفس القول » .

قال إسكافي المودة :

« لكني من أمر الحكومة في عجب فهي التي تبني المدارس وتقيم الجامعات وترسل الطلاب في رحلات » .

صرخ الخياط :

« يا إخوتي أنت تتكلمون في السياسة .. وهذا يجعلني قلقاً » .

ورد المعلم :

« نعم أتينا لنشرب وها نحن نتكلم في السياسة ، وهنا سوق والسوق جامعة » .

وقال إسكافي المودة :

« نحن في خمارة لا في سوق وهذا ما يجعلني مطمئناً » .

قام الخياط يترنح وقال إنه غير مطمئن ، وتعثر في طاولة مجاورة فسقطت الزجاجات والأكواب وساد هرج ، وشتم أحد الجالسين على الطاولة الخياط . فقام المعلم يرد الإهانة عن صاحبه - لكن الإسكافي والسمسار منعاه ، ونظر الخياط للذي شتمه وتقيأ في وجهه . وانشغل زملاء الآخر بتنظيفه ، وصرخ مخالي في مخالي : « هذا ما لم يحدث قط في خمارة مخالي » ، وقال المعلم للسمسار : « سأطرد الساكن ولن أدفع مليماً واحداً ولا يهمني أن يذهب إلى الشارع أو يذهب إلى جهنم » . وأفق الإسكافي على قول المعلم ، وصرخ السمسار : عمولتي إذن .. عمولتي يا معلم» .

وبكى الخياط متوجعاً : أنا لم أسكر .. بحر من الخمرة لا يسكرنى .. لكنى فى قرف من هذه الدنيا .. فى السوق شربت القهوة بالجاز وجاء بلبل يطالبنى بثمن القهوة .. وها أنا أقول لكم من هو بلبل .. بلبل هذا صبى بمقهى عش البلبل .. وقد سمى صاحب المقهى الذى يعاشر صبيه مقهاه بعش البلبل .. انتفض المعلم واقفاً ونازع كثيراً لكى يفلت من قبضة الجمع ويحطم عظام الخياط ، بينما الخياط القذر اللسان لا يكف عن ثرثرته المهلكة : ثم إنى لن أمشى من هنا منتفخ البطن .. هذه الخمرة التى يبيعها مخالى ليست خمرة .. إنها جاز .. جاز صريح .. كما أن هذه ليست خمارة إنما هى مكان يتكلم فيه الناس .. لقد جاء بى إلى هنا إسكافى المودة والمعلم ليشربا أولادى ويخربا بيتى ويسمعانى كلاماً فى السياسة » .

* * *

« إلى هذا الحد وصلت الأمور » .

هذا ما قاله إسكافى المودة لنفسه التى تنتفض كدجاجة ذبحت بسكينة مثلومة ، وانسل من قبضة الجمع كثعلب ، ومضى يركض كبغلة ، وسمع وقع الأقدام الساعية فى طلبه ، لقد كان بغلة فليكن غزالة – لكن ها هو يسمع وقع حوافر الخيل على الحجر ونبح الكلاب التى تبتغيه ، تخفف من حمله الثقيل وتقيأ كل ما أكل وما شرب ، لكنهم جادون فى السعى خلفه ، عليه إذن أن يحدد قصده : درباً معتماً من حجر – الأشجار الكثيفة المتشابكة الأغصان سياجه .. والضوء الواهن بعيد تلعب به ريح خفيفة وتخنقه ظلمة : وهى هناك ماتزال راقدة تحت الضوء والظل والنخلة بجثتها ذات الجرم الهائل بالنتن تحت إبطيها ، ناداها : « أنفخى المصباح يا أم واسترينى بالعتمة وليل شعرك .. ها أنا قد تخلصت من أثقالى يا أم .. آه يا أم .. ها أنا قادم خفيفاً كروح !! آه يا أم .. إبلعينى ... » .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

(أ)

– تسألنى كيف عرفت ؟ .. وىْ وىّ .. نعم أنت تعمل بالديوان العام .. ولك بنت اسمها أنصاف .

– صفاء .. إبنة وحيدة اسمها صفاء .. عجّل أرجوك .. لكن : كيف عرفت ؟

– يا سيدى أنت معنا بالسوق وإسكافى المودة يعرف كل من السوق وتعلك هذا سيأخذه من يدى جديداً .. أنا كنت هنا قبل أن يكون السوق .. كنت صبياً طائشاً عاش حياة مع أب عرج بعصا أخافه .. وأمى التى أحبها كانت مغلوبة على أمرها تبكى لما تُعامل معاملة حسنة .. قريتى

بالصعيد البعيد ركبت سطح القطار الذى يحمل الفحم .. أنا أخاف الجند ويد الهاون والمقص والكابوس – هكذا خلقنى الله : وهذا السوق كان نائياً .. وكان حديقة ورد لمالك واحد مات – فبنى ورثته تلك البيوت التى تراها .. ذلك بينما كانت المسافة بيننا وبين العمران نصف ساعة بالقدم أمشيها وهناك أبحث عن قوتى كما الرُسل وأعود لما يدخل الليل : أشرب الشاى وأشرب الحشيش وخمرة العسل الأسود من جرة وأمص جوزة الطيب وأرى للورد عيوناً كعيون الحيوانات .. وكان لى صحاب يشعرون بغيابى لما أغيب : خفير ببندقية وساقى ورد وجامع قمامة – وفى يوم فقدنا صاحبنا جامع القمامة .. فقدناه كلية . لقد أصبح غنياً – لكنه الآن تحت التراب يأكله الدود – فيما بعد عرفنا أنه كان عيناً لجماعة تسرق البيوت .

– أسألك كيف عرفت مكان عملى واسم بنتى ؟

– يا سيدى أنا أعرف الكل هنا والكل هنا يعرفنى –إلا أنهم ينكرون .. فتلك العمارة التى تراها قبالتك لابن صاحبى الزبال وهو مقاول بناء يملك عربتين للنقل وعمارتين وزوجة جميلة بيضاء تخونه مع سائق عربته الجيب .

– تخونه .. لماذا وهو الغنى ؟ .. لا شك أنه يقضى كل حاجاتها !؟

– أسكت يا سيدى .. أنت لا تعرف النسوة .. أنا أعرف .. إسكافى المودة يعرف : الظالم كان يعرف أنها تحب السائق إلا أنه دفع المال وتزوجها .. وهى أيضاً كالت له بنفس المكيال .. أغرته بالكلام اللين حتى دفع المال فى العربة الجيب والسائق – الآن : التيس يُعرف أنها تخونه مع السائق.. اصمت يا سيدى سترك الله وستر زوجتك وابنتك وبارك لك فى مال تعطيه لك الحكومة كل شهر: خمس ورقات كل ورقة بخمسة جنيهات – أليس هذا راتبك يا سيدى ؟

– أنت تعرف راتبى وتعرف مكان عملى واسم ابنتى .. كيف ؟

– وأنت رجل طيب يا سيدى وزوجتك حسنة السمعة .. والكل هنا يتكلم عنكما بالطيب .

– يتكلمون !؟

– بالطيب يا سيدى .

– لكن لماذا ؟ .. لماذا يتكلمون ؟ .. وتقول الكل يتكلم !؟

– أنت يا سيدى عشت بيننا سبع سنوات ولكنك لا تعرف أهل السوق .. هم يتكلمون عن الكل : وتلك آفة يبتلى بها الخالق مخلوقاته كلما اقترب آخر الزمان ..

– الآن : أنا من أمرى على عجل .. سنلتقى فيما بعد .. نعم سنلتقى .

– دعنا نلتقى يا سيدى .. بالله عليك دعنا نلتقى مرة ثانية .. لما أنهى عملى أذهب أنا إسكافى المودة إلى خمارة مخالى وتلك عادتى : إنها قريبة من هنا .. وهى على يدك اليمنى لما تبلغ نهاية الشارع :. دوماً يطيب لى الكلام وأنا أشرب وتلك عادتى يا سيدى .

(ب)

– سبقتك يا سيدى وشربت .. شربت كثيراً – لكنى كنت بانتظارك . سأدفع أنا كل ما معى من مال .. لقد كنت بانتظارك .

– سأدفع أنا .. أنا الذى سيدفع .. لا عليك .. وأنت حدثنى بما يقولون .

– يقولون عنك وعنى .. من الذى سلم من لسانهم .. لكن بحق رسول الله اشرب معى .. كن صاحباً لى يا سيدى واشرب ..

– أنا لا أشرب .. كبدى تالف .. وأنت كلمنى عنهم .. لا .. لا .. كلمنى عما يقولونه عنى .

– يقولون إنك تأخذ من الحكومة خمس ورقات كل ورقة بخمسة جنيهات .. وإنك تجلس فى العمل هكذا : على كرسى وتضع ساقاً على ساق ..

– ثم ماذا ؟

– وإنك تزوجت بأم ابنتك عن حب .. جعلها تهجر أهلها من أجلك .. وإنكما أنجبتما البنت بعد أربع سنوات من الزواج ..

– زوجتى أسقطت حملها الأول والثانى .. هل قالوا هذا ؟

– لا يا سيدى .. لكنى أصدقك .

– وهم ألا يصدقون ؟

– لا يا سيدى .. إنهم لايصدقون إلا أنفسهم .

– لكن هذا حدث .

– أنا أصدقك يا سيدى .

– أنا لا أتكلم عنك أنت .. أنا أتكلم عنهم .

– دعك منهم يا سيدى واشرب .. نار الخمرة التى أحترق أنا بها أهون من نار سيحترقون بها هم لأنهم لا يتركون الإنسان منا فى حاله ..

– وتلك النار التى أشعلوها بصدرى .. لقد أفسدوا حياتى أيها الإسكافى .. لقد فسدت حياتى اليوم .. اليوم فسدت حياتى وإلى الأبد . أنا رجل أمشى فى حالى وأطلب من الله الستر ومن الحوائط أن تدارينى .. أنا وزوجتى ما تكلمنا عن أحد .. وابنتى سأمنعها من غد من اللعب مع أى طفل من أبناء هؤلاء الذين أفسدوا حياتى .. ثم إنى طيب كما ترى .. لماذا ؟ لو كنت أملك مالاً لدفعته مقدماً لمسكن أو خلو لمسكن آخر ولهجرت مسكنى هذا الذى يقع بمكان هم فيه .. لكنى لا أملك مالاً وهذا ما يعذبنى .. ها أنا مشطور القلب ومشطور العقل أمامك .. ومرتبى لا يكفينى لكنى لا أبوح .. لو كنت أعرف منذ البداية ما سكنت هنا .. الآن أنا لا أملك مالاً .. كان ذلك منذ البداية.. نعم كان ذلك بإمكانى فى البداية أما الآن فلا ..

– إشرب يا سيدى ولا تجعلنى أبكى .

– لقد غرروا بى وقد كان بإمكانى فى البداية .. أزمة المساكن أمر تعرفه .. لقد سمموا حياتى وإلى الأبد .

– ها أنت تجعلنى أبكى يا سيدى .

– زوجتى تلك التى تتكلمون عنها مريضة منذ سنوات وهى تجالد لتحمل عمل البيت .. وأنا كبدى تالف .. لينتقم الله لها ولى منهم .

– لن أتوقف .. لا توقفنى يا سيدى مادمت تتهمنى .. دعنى أبكى يا سيدى بلا انقطاع كما كانت تفعل أمى .. أنا الذى أشعلت بكلماتى النار .. بينما أنت لا تعرفنى يا سيدى .. تأكد يا سيدى إن إسكافى المودة صاحب ضمير .

– وأنا ألست صاحب ضمير ؟ .. الراتب الذى أحصل عليه من الحكومة وتنظرون له أنتم فى السوق بعين مستريبة .. حصلت عليه أنا بعد جهاد طويل : كنت صغيراً لما مات أبى فتزوجت أمى من عمى الماكر العجوز حتى لا تتعرض لقول وهى الأرملة الشابة .. أصرت أن أتعلم فباعت حليها.. ومن الصمغ وحجر الكحل كانت تصنع لى حبر الكتابة .. وقضيت أنا السنوات ساهراً – تحت لمبة جاز : ست سنوات ثم ست سنوات – أقرأ الكتب وأحفظ ما فى الكتب .. وهى صارت عجوزاً،، توظفت بعد عامين .. وبعد عامين تزوجت .. ربع راتبى كان يشترى ما أشتريه اليوم براتبى كله .. قيمة الجنيه كما تعلم تقل وتقل أمام عيون الجميع واللعنة أمام كل العيون يرتفع سعرها والرجال أراهم وتراهم يتاجرون فى أعراض بناتهم . هل تكلمت أنا فى حق أحد ؟ ..

مرتبى أدفع منه إيجار البيت والنور والماء والمواصلات والطعام لى ولزوجتى وابنتى ودواء لى ولزوجتى .. لا شيء يبقى .. لا شيء . افترض أننى مت وكذلك زوجتى ماتت : ما الذى ستفعله ابنتى فى هذا العالم الذى تعرفه وأعرفه ؟ .. ماذا ستفعل الصغيرة فى عالم هم فيه ؟ .. أى مصير ينتظرها ؟

– سيدى كان عليك أن تترفق .. لماذا لم تترفق يا سيدى ؟ .. أنا لا أقرأ لكنك لا تقدر على منعى من الاستمرار فى البكاء .. نعم أنا الذى قلبت الكامن فى نفسك وحركت الراقد وها أنت أمامى شقياً تدفعنى للبكاء .. لا تقل يا سيدى إن إسكافى المودة مولع بالخمرة غرر بك لتحضر إلى خمارة مخالى ليشرب هو .. لا تجعلنى أنظر لنفسى كالذى أفسدته الخمر .. أنا أيضاً كان يجب أن أترفق بك .. على الآدمى منا أن يترفق بصاحبه الآدمى ، الطاحونة يا سيدى بحجر ثقيل .. يا لها من طاحونة يا سيدى .. زوجتى نكدة عوراء تنام من الغروب للضحى .. إسكافى المودة لم يعرف الأنثى قط .. من يملك يشترى يا سيدى .. كل من عرفت كُنّ على شاكلتى : خيالات من قش .. عشت حياة القرد المكشوف العورة .. طعامى تافه ورخيص بلا طعام .. ما بلَّ العطر جلدى قط وهذا ثوبى والشتاء بأسنان .. كان الحكم أن أموت .. نعم يا سيدى كان على إسكافى المودة أن يموت منذ زمن بعيد .

إلا أنى دافعت عن نفسى بقدر ما استطعت .. كرهت الشتاء وقلت سيأتى الصيف فلما جاء الصيف كرهت الصيف وقلت سيأتى شتاء .. واجهت الموت مراراً .. كنت أقول : أنا نخلة بثمر وتلك ريح إنحنِ لها يا إسكافى المودة .. انحن .. ودعها تمر .

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

كان إسكافى المودة قد شرب فى خمارة مخالى لترين من الكحول وأكل طبقين من كبد الحيوان وقلب الحيوان ولسان الحيوان – هكذا تصفو الدنيا أحياناً وتصالح خصومُها أبناء الله المحرومين ، لقد أصلح اليوم ثلاث نعال ، نعل أفندى مدرس ونعل أفندى بالديوان العام – وهذا الأفندى الغريب القليل الكلام الذى إذا تكلم سأل بلسان حلو : جاء هو القادر ليشترى الكلام من أهله ، وطلب من أرباب الحرف دق حدوتين من الحديد فى كعبى نعله الجديد ، ومضى يشعل السيجارة تلو السيجارة تلو السيجارة ، كأنه عثمان باشا الجميل (وهاك كل الكلام الذى باعه إسكافى المودة لقاء لترين من الكحول وطبقين من كبد وقلب ولسان الحيوان) .

- صاحبة العمارة سيدة كانت تعمل راقصة في كباريه . ذات ليل بعيد . وكانت تركب التاكسي : لمحت بعين المجربة عربة لها شهر – تتبعها – يسوقها شاب من بلد عربي جاء مصر يطلب متعة ، قالت هي الخبيرة بهذا الصنف من الرجال لسائق التاكسي (اسرع) ورمت للخلف نظرة لترى السيارة تسرع خلفها ونظرت لقدام لتبتسم – لكنها رأت الشجرة الضخمة فأغمى عليها ولما أفاقت وجدت نفسها في المستشفى بساق أقصر من ساق فأغمى عليها ولما أتوها بمرآة ورأت وجهها الجميل جميلاً خرجت من المستشفى لتعمل بائعة تذاكر بنفس الكباريه ، من يومها صانت فرجها خوفاً من عقاب الله – لكنها كانت تستغفر الله وتفعل الفعل دوماً بابتسامة وبكلمة رخوة مع طلاب التذاكر لقاء قروش قليلة يتركونها لها ، بفعل السنوات وبفضل المأساة ولأن الله رحيم ولأن الله وهّاب صار القرش جنيهاً والجنيه جنيهين والقليل كثير ..

- وهكذا اشترت الأرض بألف دفعتها ونصف ألف تدفعها على عامين ، انتظرت عامين وباعت الأرض بألفين وبنت العمارة طابقاً فوق طابق وفوق الطابق طابق وطابق ، كل طابق بخمس شقق ، ثم باعت العمارة لتاجر حديد وأخشاب وكسبت آلاف الجنيهات وانتقلت بمالها لمكان آخر تبني فوقه عمارة تبيعها وتكسب آلاف الجنيهات وتنتقل لمكان آخر لتبني عمارة .. سيدة دائمة التنقل لتضلل لصوص المال ...

- أما تاجر الحديد والأخشاب . وقد صار أيضاً تاجر طوب وأسمنت – فقد بنى التسع طوابق الجديدة ودهنها باللون الأزرق وفرش كل شقق العمارة وأجّرها مفروشة – ما عدا الطابق الأرضي فقد باعه لأصحاب محلات تبيع الأحذية والملابس المستوردة ولعب الأطفال والفراخ المشوية وشرائح الشاورما والسيجارة الكنت والبيرة وعلب الطعام .

- ساكن الشقة (١) (وهي حجرة واحدة وصالة) والملاصقة لحجرة البواب : شاب من صعيد مصر البعيد يمشي بمجدافين كالقارب في بحر ، متزوج من مدرسة طويلة القامة تمشي في عصبية ويقول عنها زوجها إنها تخاف الناس ، أما هي فتقول إن زوجها الذي يكتب القصص ويبيعها – خيالي ، إذا فارق بيته فاعلم أنه سيشرب البيرة من الكشك الخشبي ، بعد زجاجتين يهلوس ويعود إلى بيته صارخاً في زوجته ويسبّ رجلاً – تقول زوجته إن اسمه الأمريكي : هكذا يقول البواب – صاحب الكشك الخشبي اسمه فخري ، فخري رياض – وهو نصراني وهو أيضاً صاحب الحمار والعربة .

- الولد محمود اللقيط يظن أن فخري النصراني الذي رباه والده ويناديه هو المسلم (يا أبي) ويقول الولد محمود للجميع إن الحمار صديقه وإن الحمار أخلص من كلبة فخري وأخلص حتى من ابن آدم .

- الشقة (٢) تسكنها ثلاث راقصات يعملن بكباريه فى الهرم اسمه البجعة .

- الشقة (٣) تسكنها مغنية بكباريه في الهرم كانت متزوجة من ليبى وهى الآن متزوجة من بحرانى .

- وفى الشقة (٤) خمسة من الفلسطينيين الطلاب بجامعات ومعاهد مصر .

- ستبقى الشقة الخامسة بالدور الثانى يسكنها طالب فلسطينى وخادمته .

- بالدور الثالث : مكاتب سفر لليبيا وللسعودية ومكاتب سفر لكافة البلدان العربية – هكذا تدل المتعلم عين المتعلم لما يقرأ اللافتة فوق كل باب .. وهناك من يدل الأمين لما يسأل : شاب بشعر طويل مدهون وبذلة محبوكة وكرافت يفوح من ثيابه عطر ويتدلى من جيبه منديل أحمر كبير .

- بالدور الرابع : تاجر عطور كبير السن يزور مسكنه بالليل المتأخر مع جماعة من أصحابه الرجال والسيدات .

ويقضون وقتهم الجميل فى شرب وضحك وأكل ومداعبة ولعب ، ومعاون بوليس أعزب اسمه سعيد وضابط كبير بالجيش أعزب أيضاً ، ومصرية مع كويتى رغم ماله الكثير فهو جم الأدب . وفى شقة أخرى يسكن ليبى مع زوجته المصرية .

- بالدور الخامس : يسكن سعودى عجوز مع مصرية شابة . وهناك شقة يسكنها مغنى بكباريه متزوج من زميلته الراقصة ولهما صديق من قطر يداوم على زيارتها ..

- مر شتاء أمطر الثلج والأحجار ومر علىَّ شتاء أصفر بأسنان ومر شتاء يصفع القفا بالأقلام، ومر على الصيف والصيف والصيف – وهكذا مضت السنوات .. رأيت الماكينات وهى من حديد تتوقف والسيارات تتهشم والورق يتساقط ، بينما أنا الآدمى مازلت أحيا ، لم أفقد إلا شبابى (طز).

- جمهرة الناس لم أرها ، سمعت فقط صياحهم : كان كالحبال المضفورة من الليف ، تعجز أن تميز الصوت من الصوت ، كانوا يصرخون من ارتفاع ثمن اللحمة والبيضة وندرة الشاى والزيت ؛ وكنت حريصاً من جانبى أنا المحب للكلام فلم أر الجمهرة ولا النار ولا الزجاج المحطم ولا العربة المقلوبة .

- يا سيدى الأفندى ، نسيت ، أمى : لا أعلم إن كانت حية أم ميتة ، أما أبى فقد مات – هذا ما سمعته ، أمى أتمنى لو أراها مرة ، لا شك أننى سأبكى ، نعم لابد أن أبكى فى حضنها فقط علىَّ

أن أبكى ، كل ما أطلبه من الله خالق المسافات أن أراها ، ونفرض أنها ماتت فالله هو الذى يميت الإنسان منا وهو القادر على أن يجعل الأم تعود إلى الحياة لأن ابنها يريد أن يراها وهى باليقين تريد أن تراه .

– أنا أشرب الخمر والخمر تأكل كبدى وأنا أحب كبد الحيوانات والسيارات تأكل الناس كما تتآكل الحيوانات ، والناس والدنيا عذاب بغير مال . وعذاب بالمرض والمال . وبالمال تشترى الطائرة بعينى هاتين رأيت الطائرة تحرق السيارة والبيت والأم والولد واليهود يا سيدى صار لهم وطن يبيع اللحم والخضار فى حلب ، والفلسطينى الذى لا يملك الأرض لم يبع الأرض بينما الفلسطينى الذى لا يملك الأرض باع الأرض – ذلك ما يجعلنا نعيش سنين الحرب ، لكن الناس طبقات فوق طبقات فوق طبقات : ذلك يشرب لأن معه مالاً .. وهذا لا يشرب لأنه لا يملك مالاً وهناك من لا يشرب ومعه مال ، ناس تحب أكل لحم الحيوانات وناس تأكل لحم الناس وناس لا تأكل لحم الناس ولا لحم الحيوانات – تلك هى الدنيا يا سيدى الأفندى : حلم كالحقيقة وحقيقة كالحلم والدنيا كابوس أيضاً ..

– رأيت الحلم من عامين ولازلت أذكره وكأنه حدث الليلة ، كنت قد شربت بخمارة مخالى ولم يكن معى مال ، وجدت بيتى على الطاولة أمامى فطرقت الباب وأنا أعلم أن النكدة العوراء المحبة للنوم لن تفتح الباب حتى لو أقمت أنا رب البيت أمام البيت جنازة ، ودائماً كان الشرطى يصحو من نومه فيمسك بى ويشد جلبابى من القفا ويجرجرنى ، وهناك فى بيت الشرطة وجدت ذلك الآدمى وكان رحيماً ، قال لى : (قم) وكنت راكعاً على ركبتى ، ساعدنى وأجلسنى على كرسى ريش فى وجهى وقدم لى سيجارة أشعلها لى بقداحة ، وأدخلنى حجرة ساخنة فشعرت بالبرد ، وأدخلنى حجرة باردة فشعرت بالحر ، وأدخلنى حجرة قلت لا أشعر بحر ولا برد ، قال (البس)– وذلك بعد حمام طيب – وكان الثوب أبيض نظيفاً فلبسته ، ودخلت الحجرة الساخنة فلم أشعر ببرد، ودخلت الحجرة الباردة فلم أشعر بحر ، قال الرجل الطيب – وكنت سعيداً داخل دولاب من الزجاج به عيون – (انظر) ، نظرت من عين فرأيت النور فى البحر ورأيت كل من اقترب من البحر احترق ، مر الوقت بظلام ونور وظلام ونور وأنا داخل الدولاب سعيد ، وسمعت صوت الرجل يقول لى (انظر) ، ومن طاقة أسفل الدولاب نظرت ورأيت بعينى هاتين كوم المال يحترق ، ورأيت الشوارع تقطعها الشوارع – وقد خبت النار – ورأيت الحدائق والعربات والقطارات وكل النسوة ، فتحت الطاقة ونفذت بجسمى ولم يعترضنى أحد ، سرت من شارع لشارع حتى وجدتنى أنا إسكافى المودة أقف أمام بيتى ويدى تدق الباب ، بينما النكدة العوراء لم

تفتح – هذا ما علمتنى إياه السنين وهكذا يا سيدى الأفندى وجدت الشرطى الذى يصحو من نومه فأمسك بجلبابى من القفا وقادنى إلى المخفر لأنظف مرابط الخيل ، وفى كل مرة يا سيدى الأفندى أقول لنفسى (سيتكرر الحلم .. نعم لابد وأن يتكرر الحلم) ، وقت ذاك لا أصبح إسكافياً وقد أصير إسكافياً ، لكن الاختيار – بعد العمر الذى مر – صعب ، ويبقى الموت : هذا كل ما أخشاه ..

الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة

بعينين بلا رموش – نظر إسكافى المودة إلى شمس طالعة تضحك وإلى سماء عالية صافية الزرقة ، وقال :

« هذا يوم يحلو فيه الشراب – لكن كيف ؟ » .

وقال :

« حين تميل الشمس يميل الظل ويرقد هناك – بجوار باعة الجريد والليمون والفجل والكرات والبصل الأخضر ، وقت ذاك – يكون مخالى وحيداً ، العجوز المشاكس لن يشاكس – فهو فرد وأجنبى وأنا ابن البلد .. والأجنبى بطبعه خواف » .

« هات كأساً يا مخالى – ودعنى أفكر » .

« صب الكأس على الكأس – ودعنى أفكر يا مخالى » .

« آه يا مخالى .. لو تخلى النحس عنى لربحت .. آه لو ربحت يا مخالى .. هات كأساً ودعنا نجرب » .

وقال إسكافى المودة لنفسه – بعد أن شرب كأسه السابعة :

« فى الكأس السابعة – وتلك عادتى – تصفو دماغى وأفكر ، وها أنا – يارب السموات – أفكر » .

وقام صارخاً :

« يا الله .. إنها الأبجدية » .

(أ)

« يا تاجر أنت تاجر .. والتجارة والكسب حلال .. هكذا علمنا الله ، دسّ السلعة خلف الرفوف – سيندر وجود السلعة بالسوق ويرتفع سعرها ، بعد أسبوع أو أسبوعين إظهر السلعة – وبعْ بالسعر

الذى يروق لك .. هكذا يكثر ربحك ، لكن لا ترفع الحد حتى لا يرفع المشترى صوته .. حاذر .. ضجر الناس يجر فى أعقابه الأذى » .

(ب)

« صاحبى من ذوى الشأن .. قابلته بالأمس فى خمارة مخالى .. قال لى – هو الذى يلبس الحلة ويعمل بديوان الحكومة : إسمع يا إسكافى المودة .. سيرتفع ثمن علبة الدخان ولن ينخفض ثمن البيضة واللحمة ، فقلت لنفسى : عما قليل سيسمع البقالون – فهم دوماً يسمعون ويخفون العلبة ولا يظهرونها إلا فى وقت محسوب ، وقلت لنفسى – وها أنا أمامك : كيف يكون ذلك ؟ .. لِمَ يكسب البقالون دومًا ؟ . إلخ .. بينما صاحبى الموزع يحضر الدخان من الفابريكة على بسكليت ويوزعه على البقالين ولا ينوبه غير الورم الذى أراه بساقيه وقدميه !؟ .. هه .. ملعونة هى البسكليت وملعون من اخترعها .. لكن لم يكسب البقالون ولا تكسب أنت ؟ .. هه .. لم لا تحتفظ أنت بالدخان وتكسب !؟ .. هه .. قل للبقال !؟ حقك كذا علبة .. هذا ثمنها وذاك ربحها .. ولك منى فوق الربح هذا القرش .. هكذا يا أخى يسكت البقالون .

(ج)

« تعالوا يا إخوتى وهشوا الغضب .. تعالوا نلم الكلام .. دعوا الدولاب يدور فالدولاب يا إخوتى لابد أن يدور .. وهناك فرصة لو اغتنمها الإنسان منا لدار الدولاب بإتجاهه ورمى فى حجره » .

(د)

« كن عادلاً يا حضرة الموزع واقنع بالقسمة – فتلك شريعة الله » .

(هـ)

« وأنت يا صاحب دكانة الأمانة والعين الزرقاء – عليك أن تعلم أن الموظفين ينازعون الحكومات فى الحقوق المعلومة .. تساهل يا أخى تساهل .. خذ نصف حقك وانظر حولك بعين الشاطر : أولاد آدم العاصون هناك على حدود الدنيا .. وهم دومًا قادرون على اختراق سلك الحكومات وكهر الحدود .. وهم كما تعرف وأعرف – قناصة وقرّاء أثر ومهربون .. لا تجزع .. لا عليك من أمر المخدر .. لكنهم يهربون مع المخدر علبة الدخان الإفرنجية – وهذا يعنيك .. لو دفعت القليل للفرد منهم لدلق زنبيله فى حجرك .. وذاك خير من دفع الكثير لجمرك الحكومات

.. وهكذا تصبح أنت التاجر الحر فى بضاعتك : تبيع وتكسب أمام عين الحكومة كما لو كنت الذى دفع الكثير لجمرك الحكومة .

زعق إسكافى المودة فى وجه مخالى :

« ربحت يا مخالى .. ربحت ، كان وجهك وجه خير يا مخالى .. خذ ثمن ما شربت يا مخالى واتركنى أضحك .. وعلبة السجائر تلك لأجلك يا مخالى .. والآن دعنى أشرب وأضحك يا مخالى » .

وقال إسكافى المودة لنفسه :

« ياه .. يا لها من لعبة .. من يصدق أن السوق الذى يحكم الدنيا لعبة ؟! .. وأنا شاركت فى اللعبة وربحت .. ببساطة – أنا أشارك الآن فى حكم الدنيا من مكانى هذا بخمارة مخالى » .

وقال إسكافى الموده الصاحى لإسكافى المودة الشارب :

« ها هم يشاركوننى طاولتى – بعدما اكتظت الحانة ، علىَّ أن أتقبل الأمر الواقع – رغم أنى أفضل أن أكون بمفردى : لولا هذا الشعور ، آه منك : هذا الشعور الغريب الجديد .. وهل يعقل هذا : أنا الذى هو أنا أهبط السلم عارياً إلى قرارة سوداء – بينما أنا هنا على الطاولة وها هم حولى يشربون ويتكلمون .. آه .. لِمَ لا أنصت لكلامهم ؟ .. سأفعل – فقد يولى ذلك الشعور الذى لا أعرف من أين جاء .. نعم : من الخير لى أن أنصت لكلامهم » .

« جملة الناس ترانا نحن جنود الإطفاء كأنا نفر من العامة لا صلة لنا بطائفة الجند ، بينما أنا – بخرطوم ماء واجهت الأحجار والعمال والطلاب وهدمت بيتًا ، كل ذلك تم باتفاق ، البيت ملتصق بالسرايا ، والبيت مملوك لصاحب السرايا ، لما تشب النار فى مطبخ السرايا سأذهب أنا بخرطومى لإخماد النار وهدم البيت بالماء ، قدر من الماء على النار بالمطبخ وقدر من الماء على البيت القديم ، بعد شهر تصدع البيت القديم فهرب السكان – وحصل صاحب السرايا على الأرض الفضاء التى أقام فوقها عمارة تطاول السماء ، لكن اللعين خدعنى – أجرنى حجرة بالسطح لا يصلها الماء » .

« كنا قد اتفقنا أنا وأهلها الفقراء على قراءة الفاتحة ، وكانت هى السمراء ذات العجيزتين والضفائر – من أريدها زوجة لى وأمًا لأولادى ، كانوا فقراء وكنت صاحب حرفة ، زرتهم فى خصّهم وقلت : نقرأ الفاتحة . قالوا : نقرأ بسم الله . فى تلك اللحظة دق الباب – لقد عاد قريب العائلة المسافر . رحبوا به ونسونى .

قلت : لا يهم هذا حق لكل غائب عائد . وقال هو – إن البنت لما سافر كانت صغيرة .. وها هو يراها – بعد أن عاد – كبيرة وجميلة ، وقام . فقلت أنا لنفسي : هذا خير . وقال هو : لن أتأخر . فقلت أنا لنفسي : اصبري يا نفس ، وقلت لهم : نقرأ الفاتحة . قالوا : لا .. حتى يحضر قريبنا . عاد صاحبنا وبيده لفة بها أرغفة وجبن وبيض وبلح . أكلوا وما أكلت ، وكلموه وما كلموني . شعرت بنفسي غريبة بينهم . ولما أعطى البنت أمامي ريالين من فضة السعودية – وقال لها : اصنعي لأذنيك قرطين . قلت أنا لنفسي : قم يا ولد بما تبقى من روحك ولا تجعل الغير يركب كتفيك .. وها أنا صاحب الحرفة أمامكم يا أخوتي تنهشني الحسرة ، لكني عزمت على الرحيل – في القريب إن شاء الله – إلى بلد عربي به بترول حتى لا أعيش عمري قصير اليد » .

« قال لي الميجور : تعال ، ميزني من صدري العريان الذي يعلوه شعر ، واختارني من بين كل رجال الكامب . وأمام فيلا بها شجر وورد ونافورة وحوض ماء به سمك ملون – وقفت العربة . وبقيت بالفيلا لا أبارحها شهرين ونصف شهر ، آكل وأشرب وأفعل وأسمع الموسيقى التي يرقص عليها الميجور ، حتى جاء يوم قلت فيه للميجور : يا مجيور أنا نجار ويجب أن أعمل بالنجارة يا ميجور . قال لي الميجور : وأنت هنا تجعلني أشعر بالسعادة يا فتحي .. أنت تعمل يا فتحي .. قلت : اليد العاطلة نجسة يا ميجور .. والحرفة تطلّق من يطلّقها . قال لي الميجور : مالي تحت أمرك يا فتحي .. مد يدك وخذ من المال ما تريد ، فقلت : وليتني ما قلت : لكن الدنيا حولنا يا ميجور . قال الميجور : هيا بنا يا فتحي .. هيا نخرج للدنيا . وفي البار مد الميجور يده بشلن للمرأة المتسولة . والمرأة المتسولة – التي قتل الألمان ابنها المجند في الجيش الإنجليزي – ذبحت الميجور أمامي ، وأنا أنظر ولا أفعل شيئًا .. ومن يومها وأنا أنظر ولا أفعل شيئًا غير أني – من يومها – أتجنب الجند وذاكرتي وكل المتسولة » .

وقال إسكافي المودة لنفسه – بعد أن سمع : يا لنا من أطفال كبار وقال لنفسه المخمورة : لقد فرحت أنا الطفل الكبير باللعبة فلعبت وكسبت وأشعلت النار بعود ليحترق غيري .. لكني لست سافلاً.. لكني كالعادة كنت أبحث عن خمارة مخالي لأني أحب الخمر أنا المفلس .. وسأحاسب نفسي على سوء فعالي .

– ضم القبضة وأشهر السبابة .

– كالعادة ؟

– نعم كالعادة .. بذا تكون قد صنعت مسدسك المميت .

– تلك أيضاً عادتك .

– لو كنت أملك لاشتريت .

– وكالعادة .. أجلس أنا هنا وبيدى المسدس .

– نعم .. وأجلس أنا هناك مرفوع اليدين .

– وأفرقع أنا إصبعاً وأقول : رصاصة تخترق الرأس .

– سيختفى مخالى خلف البار ويهرب الكل من البار إلا أنا .

– وكذا أنت .. لأطلق أنا رصاصة تنفذ فى القلب .

– وأعلم أنا هنا – أن الجسد قد سقط .

وقال إسكافى المودة المخمور :

« وكالعادة .. يأتى الشرطى ويمسك بقفاى ويجرجرنى إلى المخفر القريب لأنظف مرابط الخيل » .

يحيى الطاهر عبد الله

* ولد عبد الفتاح يحيى (اسمه الأول) الطاهر محمد عبد الله في ٣٠ أبريل ١٩٣٨ بقرية الكرنك مركز الأقصر بمحافظة – قنا في أسرة متواضعة . كان أبوه شيخاً معمماً يقوم بالتدريس فى إحدى المدارس الابتدائية بالقرية . أما أقاربه فمعظمهم من المزارعين ماعدا قلة منهم مارست النشاط السياحى القائم علي ما تحويه هذه المنطقة من آثار مصرية قديمة .

* ماتت أمه وهو صغير ، فربته خالته التى أصبحت – استمراراً لأعراف موروثه – زوجة لأبيه فيما بعد ، وله من الإخوة والأخوات – الأشقاء وغير الأشقاء – ثمانية هو الثانى فى الترتيب .

* ظل بالكرنك إلى أن حصل على دبلوم الزراعة المتوسطة وعمل بوزارة الزراعة فترة قصيرة ثم انتقل عام ١٩٥٩ إلى مدينة قنا . وهناك التقى بالشاعرين : عبد الرحمن الأبنودى وأمل دنقل . وقد كان هذا اللقاء بداية رحلة طويلة ممتدة بين الثلاثة . فى هذه الفترة كان يحيى الطاهر شغوفاً بكتابات العقاد والمازنى وكان الأبنودى مهتمًا بالموروث الشعبى العامى أما أمل دنقل فكان اهتمامه بالموروث العربى الفصيح . فى ذلك الحين لم يكن يحيى قد مارس أى شكل من أشكال الكتابة . وكان يقوم بدور الناقد لأعمال صديقيه فى كثير من الأحيان . وبدأ الثلاثة يقيمون أمسية أدبية ثابتة فى الجامعة الشعبية (الثقافية الجماهيرية فيما بعد) .

* فى عام ١٩٦١ كتب يحى الطاهر أولى قصصه القصيرة (محبوب الشمس) وأعقبها بقصة (جبل الشاى الأخضر) .

* فى نهاية شتاء ١٩٦٢ انتقل عبد الرحمن الأبنودى إلى القاهرة وانتقل أمل دنقل إلى الإسكندرية بينما ظل يحيى الطاهر مقيماً مع أسرة الأبنودى فى قنا ما يقرب من عامين .

* فى عام ١٩٦٤ لحق يحيى الطاهر بالأبنودى فى القاهرة وأقام معه فى شقة واحدة بحىّ « بولاق الدكرور » حيث كتب بقية قصص مجموعته الأولى « ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالاً » .

* فى القاهرة بدأ يتردد على المقاهى والمنتديات الثقافية وبدأ يعرف كظاهرة فنية متميزة . فقد كان يحيى الطاهر يلقى قصصه التى كان يحفظها بذاكرة قوية إلى حد الغرابة ودونما اعتماد على أية أوراق . وكان يرى فى ذلك محاولة لأن تقرّب المسافة بين كاتب القصة والرواة الشعبيين . قدمه يوسف إدريس فى مجلة « الكاتب » وعبد الفتاح الجمل فى الملحق الأدبى لجريدة « المساء » . وسرعان ما احتل مكانه كواحد من أهم وأبرز القصاصين «الروائيين المصريين الذين شكلوا – ما عرف بعد ذلك بما يسمى « بجيل أدباء الستينيات » .

* فى أكتوبر ١٩٦٦ صدر أمر اعتقال لمجموعة من الكتاب والفنانين المصريين منهم يحيى الطاهر والأبنودى . إلا أن يحيى ظل هارباً لفترة ثم قبض عليه وأطلق سراح معظمهم ومنهم يحيى الطاهر فى إبريل ١٩٦٧ .

* فى مارس ١٩٧٥ تزوج ، وأنجب بنتين « أسماء وهالة » وابناً سمّاه « محمد » توفى بعد ميلاده بفترة قصيرة .

أعمال يحيى الطاهر

مجموعات قصص

* ثلاث شجرات كبيرة تثمر برتقالاً ... الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ .
* الدف والصندوق .. وزارة الإعلام – العراق – بغداد ١٩٧٤ (الطبعة الأولى) .
* أنا وهى زهور العالم .. الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٧ .
* حكايات للأمير حتى ينام – وزارة الإعلام – العراق – بغداد – الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
* الطوق والإسورة .. الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٥ .
* الحقائق القديمة صالحة لإثارة الدهشة .. الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٧ .
* تصاوير من التراب والماء والشمس .. دار الفكر المعاصر – القاهرة ١٩٨١ .
* الرقصة المباحة .. مجموعة قصص قصيرة ، كان يحيى الطاهر قد أعدها للنشر فى مجموعة قبل وفاته . بعض قصص هذه المجموعة كان قة نشر فى صحف ومجلات ، وبعضها لم ينشر من قبل ، يتضمنها هذا الكتاب ، .
* حكاية على لسان كلب لم تنشر من قبل .

ترجمت له أعمال كثيرة إلى ثانى لغات مختلفة . وتصدر له دار ، هاينمان ، بإنجلترا مختارات قصصية تحت عنوان ، جبل الشاى الأخضر ، ترجمها إلى الإنجليزية دينيس ديفيز .

لم يمارس يحيى الطاهر عبد الله ومنذ انتقاله إلى القاهرة أية أعمال أخرى سوى كتابة القصة والرواية القصيرة وكتابة بعض قصص الأطفال .

توفى يحيى الطاهر عبد الله فى حادث سيارة على طريق القاهرة الواحات فى يوم الخميس ٩ إبريل ١٩٨١ ودفن فى قريته ، الكرنك ، .

المحتــويات

أنا وهى وزهور العالم

مجموعة قصص

الرقصـة المباحـة

مجموعة قصص

حكايات للأمير حتى ينام

مجموعة قصص

حكاية على لسان كلب

قصة طويلة

الطوق والإسورة

رواية

يحيى الطاهر عبد الله

الأعمال الكاملة

بعد خمسة وعشرين عاماً من غيابه مازالت كتاباته تواصل حضورها.

كتابات يحيى الطاهر عبد الله التى استطاع من خلالها أن يصف لنا بدقة، صورة كاملة لشخصيات قصصه؛ فهو يصور أدق تفاصيل الشخصية والأحداث المحيطة بها وسماتها الإنسانية. لقد عبّر يحيى عن عالمه الخاص، وظرفه التاريخى وأصوله وبيئته.

والآن وبعد مرور سنوات طويلة على الطبعة الثانية من أعماله الكاملة؛ وإيماناً منا واعترافاً بمكانة هذا الكاتب الفذ، فإننا نعيد إصدار إبداعات يحيى الطاهر عبد الله كاملة لتتعرف الأجيال الجديدة على مبدع متميز من أبناء هذا الوطن.



